

أخلاقيات المتطوع

إعداد

أحمد بن سليمان

ونخبة من الباحثين

فكرة وإشراف

د/سامي سلمان

المجلد الثاني

أخلاقيات المتطوع

أهمية الأخلاق في حياة المتطوع

الخلق الحسن من أجل ما يتحلى به المتطوع، وهو أقصر طريق لقلوب الناس، وقد وصف الله تعالى به نبيه صلى الله عليه وسلم بحسن الخلق فقال: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} (القلم: ٤).

وقد جُمع حسن الخلق في قوله تعالى: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} (الأعراف: ١٩٩).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "وَخَالِقُ النَّاسِ بِخُلُقٍ حَسَنٍ" وهو حق الناس. وجماع الخلق الحسن مع الناس: أن تصل من قطعك بالسلام والإكرام والدعاء له والاستغفار والثناء عليه والزيارة له وتعطي من حرمك من التعليم والمنفعة والمال وتعفو عمن ظلمك في دم أو مال أو عرض. وبعض هذا واجب وبعضه مستحب. وأما الخلق العظيم الذي وصف الله به محمداً صلى الله عليه وسلم فهو الدين الجامع لجميع ما أمر الله به مطلقاً هكذا قال مجاهد وغيره، وهو تأويل القرآن كما قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا {كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ} وحقيقته المبادرة إلى امتثال ما يحبه الله تعالى بطيب نفس وانشرح صدر. (١)

وقال ابن القيم رحمه الله: حسن الخلق يقوم على أربعة أركان، لا يتصور قيام ساقه إلا عليها: الصبر والعفة والشجاعة والعدل (٢).

والمشاركة في الأعمال التطوعية من الدعوة إلى الله، والخلق الحسن من العوامل المهمة في جذب الناس إلى الداعية وتأثرهم به وقبولهم لدعوته -إضافة إلى أجره في الآخرة-، فالناس مفطورون على محبة الفضائل والانجذاب إليها، والنفور من القبائح والابتعاد

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٠/ ٦٥٨-٦٥٩).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٣٠٨).

عنها، والدعية إلى الله أحوج ما يكون إلى التخلق والاتصاف بالأُمور المحببة إلى قلوب الناس، فضلاً عن أنها من واجبات المسلم.

قال أبو حاتم البستي رحمه الله: الواجب على العاقل أن يتحجب إلى الناس بلزوم حسن الخلق، لأن الخلق الحسن يذيب الخطايا كما تذيب الشمس الجليد، وإن الخلق السيء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل، وقد تكون في الرجل أخلاق كثيرة صالحة كلها وخلق سيء فيفسد الخلق السيء الأخلاق الصالحة كلها (١).

والناس إذا لاحظوا من الداعية سوءاً في أخلاقه تبرموا منه، ونفروا من دعوته، خوفاً من تضررهم بأخلاقه السيئة، وقد يميلون إلى تفضيل أهل الفسق والضلال ومجالستهم، إذا آنسوا منهم حسناً في الخلق ورفقا في المعاملة،

قال الفضيل بن عياض: "إذا خالطت فخالط حسن الخلق، فإنه لا يدعو إلا إلى خير، وصاحبه منه في راحة، ولا تخالط سيء الخلق فإنه لا يدعو إلا إلى شر وصاحبه منه في عناء، ولأن يصحبني فاجر حسن الخلق أحب إلي من أن يصحبني قارئ سيء الخلق، إن الفاسق إذا كان حسن الخلق عاش بعقله، وخفَّ على الناس وأحبوه وإن العابد إذا كان سيء الخلق ثقل على الناس ومقتوه." (٢)

وحسن الخلق يبذل حتى مع الأعداء، فإنه يقلب البغض حباً، ويبدل العداوة بالولاية الحميمة، وقد قال تعالى: { وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ } [فصلت: ٣٤]، فَإِذَا حَسُنَتْ أَخْلَاقُ الْإِنْسَانِ

(١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ص ٦٤.

(٢) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (ص: ٦٤).

كَثُرَ مُصَافُوهُ، وَقَلَّ مُعَادُوهُ، فَتَسَهَّلَتْ عَلَيْهِ الْأُمُورُ الصَّعَابُ، وَلَآئَتْ لَهُ الْقُلُوبُ
الْغَضَابُ، وَالسَّيِّئُ الْخَلْقِ النَّاسُ مِنْهُ فِي بَلَاءٍ، وَهُوَ مِنْ نَفْسِهِ فِي عَنَاءٍ. ^(١)

هذا مما دعانا أن نذكر بشيء من التفصيل أهم الصفات التي يجب أن يتحلّى بها المتطوع
لتكون زادًا وعونًا له في طريقه نحو بذل الأفضل.

وقد انتهجنا في ذكر هذه الصفات منهجًا يجمع بين النظرية والتطبيق فأصلنا لكل صفة
من حيث التعريف وذكر الأدلة من القرآن والسنة وأقوال السلف وضوابط تطبيقها
باختصار شديد، ثم كانت النماذج النبوية والمأثورة عن سلفنا الصالح ذكرنا طرفا منها
والتي تعين على السير بسيرهم واتباع نهجهم، والله المستعان.

(١) أدب الدنيا والدين ص ٢٤٣ بتصرف.

١- الإخلاص

للإخلاص في حياة المتطوع أثر كبير فالقائم على أعمال الخير يبذل من جهده وماله الكثير، فإن لم يكن هذا العمل مخلصاً لله كان وبالا على صاحبه، لذا لا بد من معرفة معنى الإخلاص وتحقيقه على الوجه المطلوب.

الإخلاص لغة: هو مصدر أخلص يخلص وهو مأخوذ من مادة (خ ل ص) التي تدل على تنقية الشيء وتهذيبه. (١)

قال ابن منظور: قال ثعلب: يعني بالمخلصين الذين أخلصوا العبادة لله تعالى. وبالمخلصين الذين أخلصهم الله عز وجل. والمخلص الذي وحّد الله تعالى خالصاً، ولذلك قيل لسورة {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [سورة الإخلاص]. (٢)

الإخلاص اصطلاحاً:

قال المناوي: تخليص القلب من كل شوب يكدر صفاءه، فكل ما يتصور أن يشوبه غيره فإذا صفا عن شوبه وخلص منه يسمى خالصاً. (٣)

وقال ابن القيم: الإخلاص هو تجريد القصد طاعة للمعبود. (٤)

قال القشيري: الإخلاص أفراد الحق سبحانه وتعالى في الطاعة بالقصد، وهو أن يريد بطاعته التقرب إلى الله تعالى دون شئ آخر: من تصنع لمخلوق، أو اكتساب محمدة عند الناس، أو محبة مدح من الخلق أو معنى من المعاني سوى التقرب إلى الله تعالى. (٥)

- الآيات الدالة على صفة الإخلاص:

١- قال الله تعالى: {قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ

(١) المفردات الراغب (١٥٤).

(٢) لسان العرب لابن منظور (١٢٢٧).

(٣) التعاريف للمناوي (٤٣).

(٤) إعلام الموقعين لابن القيم (٢/٤٣٣).

(٥) الأذكار للنووي (٥).

الَّذِينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ} [الأعراف: ٢٩].

قال ابن كثير: أي: أمركم بالاستقامة في عبادته في محالها، وهي متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات فيما أخبروا به عن الله وما جاءوا به من الشرائع، وبالإخلاص له في عبادته، فإنه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين: أن يكون صواباً موافقاً للشريعة، وأن يكون خالصاً من الشرك. (١)

٢- قال الله تعالى: { إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ } [الزمر: ٢، ٣]

قال ابن كثير: أي: فاعبد الله لا شريك له، وادع الخلق إلى ذلك، وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا له، وأنه ليس له شريك ولا عديل ولا نديد، ولهذا قال: { أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ } أي: لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده لا شريك له. (٢)

٣- قال الله تعالى: { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَهُمْ نَصِيرًا * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا } [النساء: ١٤٥-١٤٦]

قال ابن كثير: أي: بدّلوا الرياء بالإخلاص، فينفعهم العمل الصالح وإن قل. (٣)

وقال أبو السعود: أي: جعلوه خالصاً لله لا يبتغون بطاعتهم إلا وجهه. (٤)

٤- قال الله تعالى: { وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ } [البينة: ٥]

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/٢٨١).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٢/١١١).

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤/٣٢٥).

(٤) تفسير أبو السعود (٢/٢٤٧).

قال أبو السعود: أي: جاعلين دينهم خالصاً له تعالى، أو جاعلين أنفسهم خالصة له تعالى في الدين حنفاء مائلين عن جميع العقائد الزائغة إلى الإسلام. (١)

-الأحاديث الدالة على الإخلاص:

١- عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: أَرَأَيْتَ رَجُلًا غَزَا يَلْتَمِسُ الْأَجْرَ وَالذِّكْرَ، مَالَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا شَيْءَ لَهُ، فَأَعَادَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، يَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا شَيْءَ لَهُ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا، وَابْتَغَى بِهِ وَجْهَهُ. (٢)

٢- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ-رضي الله عنه- قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِذَا صَلَّيْتُمْ عَلَى الْمَيِّتِ فَأَخْلِصُوا لَهُ الدُّعَاءَ. (٣)

٣- عن عبد الله بن مسعود-رضي الله عنه-: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: نَضَرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاها وَحَفِظَهَا وَبَلَّغَهَا، فَرُبَّ حَامِلٍ فَفِهِ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ. ثَلَاثٌ لَا يُغَلُّ (٤) عَلَيْهِنَ قُلُوبُ مُسْلِمٍ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَمُنَاصَحَةُ أُمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلِزُومُ جَمَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ الدَّعْوَةَ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ. (٥)

٤- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ-رضي الله عنه- أَنَّهُ قَالَ: قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لَا يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلَ مِنْكَ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ، أَوْ نَفْسِهِ. (٦)

(١) تفسير أبو السعود (١٨٥/٩).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٤٣٣٣)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٥٢).

(٣) أخرجه أبو داود (٣١٩٩)، وابن ماجه (١٤٩٧)، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢٧٤٠).

(٤) (لا يُغَلُّ) أي: لا يكون معها في قلبه غشٌّ ودَغَلٌ ونفاق ولكن يكون معها الإخلاص في ذات الله عز وجل.

(٥) أخرجه الترمذي (٢٦٥٨)، وابن ماجه (٢٣٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٧٦٦).

(٦) أخرجه البخاري (٩٩).

- أقوال السلف في الإخلاص:

١- قال مكحول: ما أخلص عبد قط أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه.

٢- قال يوسف بن الحسين: أعز شيء في الدنيا: الإخلاص وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي فكأنه ينبت على لون آخر.

٣- قال أبو سليمان الداراني: إذا أخلص العبد انقطعت عنه كثرة الوسوس والرياء.

٤- قال الجنيد: الإخلاص سر بين الله وبين العبد، لا يعلمه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده ولا هوى فيميله.

٥- قيل لسهل: أي شيء أشد على النفس فقال: الإخلاص لأنه ليس لها فيه نصيب.

٦- قال الفضيل بن عياض: ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما. (١)

٧- قال أحمد لما سئل عن الصدق والإخلاص: بهذا ارتفع القوم. (٢)

٨- قال ابن القيم: العمل بغير إخلاص ولا اقتداء كالمسافر يملأ جرابه رملاً يثقله ولا ينفعه. (٣)

- نماذج من إخلاص الأنبياء صلوات الله عليهم:

الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين وصفهم الله تعالى بالإخلاص وأثنى عليهم بهذه الصفة الحميدة وظهر أثرها في دعوتهم إلى الله تعالى فلم يطلبوا من أحد سوى الله أجراً فنوح وهود وصالح ولوط وشعيب - عليهم الصلاة والسلام - كل واحد منهم يقول لقومه: {وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الشعراء: ١٠٩]

(١) كل ماسبق من آثار انظره: مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٧٠).

(٢) طبقات الحنابلة لأبي يعلى الفراء (١/ ١٤٧).

(٣) الفوائد لابن القيم (٦٩).

وهكذا كان يوسف عليه السلام صبر عن معصية الله تعالى وكان السبب في ذلك هو الإخلاص قال الله تعالى: {وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ الشُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} [يوسف: ٢٤]

وأثنى ربنا تبارك وتعالى على موسى عليه السلام بقوله: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا} [مريم: ٥١]

قال ابن عاشور: وخص موسى بعنوان (المخلص) على الوجهين لأن ذلك مزيته، فإنه أخلص في الدعوة إلى الله فاستخف بأعظم جبار وهو فرعون، وجادله مجادلة الأكفاء، كما حكى الله عنه في قوله تعالى في سورة الشعراء: {قَالَ أَلَمْ نُنْزِبْكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ} * وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ} [الشعراء: ١٨، ١٩] إلى قوله: {قَالَ أُولَئِكَ جِئْتُكُمْ بِشَيْءٍ مُبِينٍ} [الشعراء: ٣٠] وكذلك ما حكاه الله عنه بقوله: {قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ} [القصص: ١٧] فكان الإخلاص في أداء أمانة الله تعالى ميزته. ولأن الله اصطفاه لكلامه مباشرة قبل أن يرسل إليه الملك بالوحي، فكان مخلصًا بذلك، أي مصطفى، لأن ذلك مزيته قال تعالى: {وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي} [طه: ٤١].^(١)

- نماذج من إخلاص النبي صلى الله عليه وسلم:

١- إخلاصه لزوجته خديجة - رضي الله عنها- فقد كان يكرم صديقات زوجته خديجة رضي الله عنها بعد موتها، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أتى بالشيء يقول: (اذهبوا به إلى فلانة فإنها كانت صديقة خديجة اذهبوا به إلى بيت فلانة فإنها كانت تحب خديجة).^(٢)

٣- تفقده صلى الله عليه وسلم لأصحابه وتسليته لهم ومساعدتهم وتفريج همومهم: فعن سهل بن سعد قال: (جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بيئت فاطمة فلم يجد عليًا في البيت

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٢٧/١٦).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٢٣٢)، والحاكم (١٧٥/٤)، وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٢٨١٨).

فَقَالَ: أَيْنَ ابْنُ عَمِّكَ قَالَتْ: كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ شَيْءٌ فَعَاذَنِي فَخَرَجَ فَلَمْ يَقُلْ عِنْدِي فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِإِنْسَانٍ انْظُرْ أَيْنَ هُوَ؟ فَجَاءَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هُوَ فِي الْمَسْجِدِ رَاقِدٌ فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ قَدْ سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ شِقِّهِ وَأَصَابَهُ تُرَابٌ فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمْسَحُهُ عَنْهُ وَيَقُولُ قُمْ أَبَا تُرَابٍ قُمْ أَبَا تُرَابٍ^(١)

٤- نصحه صلى الله عليه وسلم لأصحابه فكان يناصرهم في الأمور التعبدية، والقضايا الدعوية، والشؤون الأسرية وغيرها. نصح رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري - رضي الله عنهما - حينما بعثهما إلى اليمن فقال: (يَسْرًا وَلَا تُعْصِرَا، وَبَشْرًا وَلَا تُتَفَرَّ، وَتَطَاوَعًا وَلَا تَخْتَلِفَا).^(٢)

- نماذج من إخلاص الصحابة رضي الله عنهم:

لقد ضرب لنا الصحابة رضي الله عنهم أروع الأمثلة في الإخلاص لله تعالى وظهر أثر إخلاصهم في حياتهم فمنهم المبشرون بالجنة ومنهم أهل بدر ومنهم أهل بيعة العقبة ومنهم أهل بيعة الرضوان ومنهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار وفتح الله على أيديهم البلاد وقلوب العباد ولقد قال الله فيهم: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [الفتح: ٢٩]

١- فهذا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - الخليفة العادل الزاهد الخائف من ربه المخلص الصادق الذي كان يقف على المنبر وثوبه مرقع وهو يملك الأمة وفضتها وكنوزها سأل

(١) أخرجه البخاري (٤٤١)، ومسلم (٢٤٠٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٣٨)، ومسلم (١٧٣٣).

الله تعالى الشهادة فعن عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: (اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي شَهَادَةً فِي سَبِيلِكَ وَاجْعَلْ مَوْتِي فِي بَلَدِ رَسُولِكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) (١)

٢- وهذا أنس بن النضر - رضي الله عنه - يشم رائحة الجنة يا لها من بشرى ويا له من إخلاص رفع بشأن صاحبه إلى هذه المنزلة العالية:

قَالَ أَنَسُ: عَمِّي الَّذِي سُمِّيْتُ بِهِ لَمْ يَشْهَدْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَدْرًا، قَالَ: " فَشَقَّ عَلَيْهِ، قَالَ: أَوَّلُ مَشْهَدٍ شَهِدَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غُيِّبَتْ عَنْهُ، وَإِنْ أَرَانِي اللَّهُ مَشْهَدًا فِيمَا بَعْدُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيَرَانِي اللَّهُ مَا أَصْنَعُ، " قَالَ: فَهَابَ أَنْ يَقُولَ غَيْرَهَا، قَالَ: فَشَهِدَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ أُحُدٍ، قَالَ: فَاسْتَقْبَلَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، فَقَالَ لَهُ أَنَسُ: يَا أَبَا عَمْرٍو، أَيْنَ؟ فَقَالَ: وَاهَا لِرِيحِ الْجَنَّةِ أَجْدُهُ دُونَ أُحُدٍ، قَالَ: فَقَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ، قَالَ: فَوُجِدَ فِي جَسَدِهِ بَضْعٌ وَتَمَانُونَ مِنْ بَيْنِ ضَرْبَةٍ وَطَعْنَةٍ وَرَمِيَةٍ، قَالَ: " فَقَالَتْ أُخْتُهُ - عَمَّتِي الرَّبِيعُ بِنْتُ النَّضْرِ - فَمَا عَرَفْتُ أَخِي إِلَّا بِنَانِهِ، وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: {رَجُلًا صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا} [الأحزاب: ٢٣] "، قَالَ: فَكَانُوا يُرَوْنَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَصْحَابِهِ. (٢)

- نماذج من إخلاص السلف رحمهم الله تعالى:

- ١ - كان عبد الرحمن بن أبي ليلى يصلي فاذا دخل الداخل نام على فراشه. (٣)
- ٢ - قال الأعمش: كنت عند إبراهيم النخعي وهو يقرأ في المصحف، فاستأذن عليه رجل فغطى المصحف، وقال: لا يراني هذا أني أقرأ فيه كل ساعة. (٤)

(١) أخرجه البخاري (١٨٩٠).

(٢) أخرجه مسلم (١٩٠٣).

(٣) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣٥١/٤).

(٤) حلية الأولياء لأبي نعيم (٢٢٠/٤).

٣- قال سفيان بن عيينة: كان دعاء مطرف بن عبد الله (اللهم إني أستغفرك مما تبت إليك منه ثم عدت فيه وأستغفرك مما جعلته لك على نفسي ثم لم أوف به، وأستغفرك مما زعمت أني أردت به وجهك فخالط قلبي فيه ما قد علمت)^(١)

٤- لما خرج ابن المبارك والناس لغزو الروم واصطف الجمعان، خرج رومي، فطلب البراز، فخرج إليه رجل، فشد العليج عليه فقتله، حتى قتل ستة من المسلمين، وجعل يتبخر بين الصفين يطلب المبارزة، ولا يخرج إليه أحد، فالتفت إلي ابن المبارك، فقال: يا فلان، إن قتلت فافعل كذا وكذا، ثم حرك دابته، وبرز للعليج، فعالج معه ساعة، فقتل العليج، وطلب المبارزة، فبرز له عليج آخر فقتله، حتى قتل ستة علوج، وطلب البراز، فكأنهم كاعوا عنه،^(٢) فضرب دابته، وطرده بين الصفين، ثم غاب، فلم نشعر بشيء، وإذا أنا به في الموضع الذي كان، فقال لي: يا عبد الله لئن حدث بهذا أحدًا، وأنا حي، فذكر كلمة.^(٣)

٥- كان أيوب السخيتاني رحمه الله يقوم الليل كله، فيُخفي ذلك، فإذا كان الصبح رفع صوته كأنما قام تلك الساعة، وكان يقول: إذا ذكر الصالحون كنت عنهم بمعزل.^(٤)

٦- التقى سفيان والفضيل، فتذاكرا، فبكيا، فقال سفيان: إني لأرجو أن يكون مجلسنا هذا أعظم مجلس جلسناه بركة، فقال له الفضيل: لكنني أخاف أن يكون أعظم مجلس جلسناه شؤماً، أليس نظرت إلى أحسن ما عندك، فتزينت به لي، وتزينت لك، فعبدتني وعبدتك؟ فبكى سفيان حتى علا نحيبه، ثم قال: أحييتني أحياءك الله.^(٥)

٧- كان أيوب السخيتاني إذا رق ودمعت عيناه حك أنفه قال: ما أشد الزكام.^(٦)

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٢٧/٢).

(٢) كاعوا عنه: يعني جنبوا.

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي (٤٠٨-٤٠٩).

(٤) تذكرة الحفاظ للذهبي (١٣٠/١).

(٥) سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٦٧/٧).

(٦) الثقات لابن حبان (١٦٤/٨).

٨- كان الإمام أحمد يقول: أحب أن أكون بشعبٍ في مكة حتى لا أعرف، قد بُليتُ بالشهرة، إنني أتمنى الموت صباحًا ومساءً، وكان يقول: الخوف يمنعني أكل الطعام والشراب، وإذا ذكرت الموت، هان علي كل أمر الدنيا، إنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وإنها أيام قلائل، وكان يقول: ما أعدل بالفقر شيئًا، ولو وجدت السبيل لخرجت حتى لا يكون لي ذكر. ^(١)

-فوائد الإخلاص:

- ١- الإخلاص أصل في قبول الأعمال والأقوال.
- ٢- الإخلاص يحرر العبد من عبودية غير الله تعالى.
- ٣- الإخلاص يحصل به الأمن والهداية في الدارين.
- ٤- الإخلاص تتحقق به السعادة في الدارين.
- ٥- الإخلاص يحمل صاحبه على إجادة العمل وأن يكون محسنًا فيه.
- ٦- الإخلاص يحمل صاحبه على الوفاء بالعهد والوعد.
- ٧- الإخلاص يخلص صاحبه من وساوس الشيطان ونزغاته.
- ٨- الإخلاص يحمل صاحبه عن الابتعاد عن الرشوة والاختلاس.
- ٩- الإخلاص هو الأساس في قبول الدعاء.
- ١٠- الإخلاص يجعل صاحبه يحظى بالقبول والاحترام عند الناس.
- ١١- الإخلاص يقوي عزيمة الإنسان وإرادته في مواجهة الشدائد.
- ١٢- الإخلاص هو السبيل إلى تحمل أعباء الدعوة إلى الله تعالى.

-الوسائل المعينة على اكتساب الإخلاص:

- ١- النية الصالحة: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهَاجَرْتُهَ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ. ^(٢)

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (١١/٢١٥-٢١٦).

(٢) أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).

٢- معرفة الله وعظمته وقدرته وفضله: {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [النور: ٢١].

٣- كثرة الدعاء واللجوء إلى الله تعالى فالدعاء فيه التضرُّع إلى الله، وإظهار الضعف والحاجة إليه سبحانه، وفيه الاستعانة به، والتوكل عليه قال الله تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [غافر: ٦٠]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ لَمْ يَدْعُ اللَّهَ سَبْحَانَهُ غَضِبَ عَلَيْهِ). (١)

٤- دفع الرياء وعدم حب الظهور والشهرة، فلقد كان الكثير من السلف رضوان الله تعالى عليهم يخافون على أنفسهم من النفاق، قال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف على نفسه من النفاق. (٢)

يقول النووي رحمه الله: ولو فتح الإنسان عليه باب ملاحظة الناس، والاحتراز من تطرق ظنهم الباطلة، لانسد عليه أكثر أبواب الخير، وضيع على نفسه شيئاً عظيماً من مهمات الدين، وليس هذا طريق العارفين. (٣)

٥- مجاهدة النفس قال الله تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت: ٦٩].

وقيل لسهل: أي شيء أشد على النفس؟ فقال: الإخلاص؛ لأنه ليس له فيه نصيب. (٤)

٦- معرفة ضعف النفس قال الله تعالى: {يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا} [النساء: ٢٨]، فأكثر من الاستعانة بالله، وألح عليه بالدعاء أن يرزقك الإخلاص قبل العمل، وأثناء العمل وبعد العمل، واستعد بالله من شر نفسك ومن الرياء.

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٧٣)، وابن ماجه (٣٨٢٧)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٦٥٤).

(٢) مدارج السالكين لابن القيم (٢٧٤).

(٣) الأذكار للنووي (٦).

(٤) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٧٠).

- أخطاء شائعة حول صفة الإخلاص:

١- أن الإخلاص هو التخلص من جميع الإرادات:

يظن بعض الناس أن الإخلاص هو أن تتخلص من جميع إراداتك، فأني هدف لك تتخلص منه وأي إرادة لك دنيوية تتخلص منها، ويكون فقط قصدك أن تفنى في مراد الله كما يقول الصوفية.

٢- طلب الثواب الأخروي مناف للإخلاص:

وكذلك بعضهم يظن أن طلب الثواب الأخروي منافي للإخلاص، فيقول لك: لا تسأل الله الجنة، لا تعمل للجنة، اعمل لله، لا تعمل خوفاً من النار، لا تترك المعاصي خوفاً من النار، وإنما فقط لله، فهم يقولون لو تركت العمل خوفاً من النار وتركت الزنا خوفاً من النار، ولو صليت للجنة فأنت مشرك، ويقولون أشعاراً في هذا ومقولات منها: (ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك) وهذا ضلال مبين.

٣- الإخلاص هو ترك الأعمال الظاهرة أمام الناس:

كذلك تجد بعض الناس ربما يترك الصلاة في المسجد جماعة يقول هذا رياء أصلي في البيت أو يترك الأعمال الصالحة الظاهرة بدعوى أنه يخاف على نفسه من الرياء وهذا من تلبس الشيطان عليه. وهذا الباب يدخل على من يريد القيام بعمل الخير فيأتيه الشيطان ويخوفه من المشاركة في أعمال البر خوفاً من الرياء

٤- يلبس الشيطان على بعض القائمين بعمل الخير بأن عملهم مناف للإخلاص وإنما يعملون ليعرفوا أو يذكروا أو يشنى عليهم، فيتركون ما هم فيه من الخير ونفع العامة لهذه الوسوسة الشيطانية، والواجب أن لا يلتفت الإنسان إلى هذه الهواجس وعليه بإصلاح نيته كل ساعة ويجتهد في العمل الصالح

٢- الهمة

من الصفات المهمة للمتطوع علو الهمة؛ لأن ما يقوم به من العمل يتعلق بثواب الله فكأن الله استعملك عنده للقيام بهذا الخير، وهذا يكفي أن يستشعره القائم على أعمال البر والتطوع لتعلو همته ولا يفتر من العمل .

تعريف الهمة:

لغة:

قال الجوهري: الهِمَّةُ: واحدةُ الهِمَمِ، وَهَمَمْتُ بِالشَّيْءِ أَهَمُّ هَمًّا إِذَا أَرَدْتَهُ. (١)
وقال ابن منظور: هَمٌّ بِالشَّيْءِ يَهْمُ هَمًّا: نَوَاهُ وَأَرَادَهُ وَعَزَمَ عَلَيْهِ، وَالْهَمَّةُ وَالْهِمَّةُ: مَا هَمَّ بِهِ مِنْ أَمْرٍ لِيَفْعَلَهُ. وَتَقُولُ: إِنَّهُ لَعَظِيمُ الْهَمِّ وَإِنَّهُ لَصَغِيرُ الْهِمَّةِ، وَإِنَّهُ لَبَعِيدُ الْهِمَّةِ وَالْهِمَّةِ، بِالْفَتْحِ. وَالْهَمَامُ: الْمَلِكُ الْعَظِيمُ الْهِمَّةِ. (٢)

في الاصطلاح:

قال الجرجاني: الهمة: توجه القلب وقصده بجميع قواه الروحانية إلى جانب الحق لحصول الكمال له أو لغيره. (٣)

ثانيا: الأدلة من القرآن والسنة وأقوال السلف:

* الأدلة من القرآن:

١- قال الله تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣)} [آل عمران: ١٣٣]

قال ابن كثير: فَمَنْ سَابَقَ إِلَى هَذِهِ الدُّنْيَا وَسَبَقَ إِلَى الْخَيْرِ، كَانَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ السَّابِقِينَ إِلَى الْكَرَامَةِ، فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، وَكَمَا تَدِينُ تَدَانُ. (٤)

(١) الصحاح للجوهري (٢٠٦١/٥).

(٢) لسان العرب (٢١/١٢).

(٣) التعريفات للجرجاني (ص ٢٥٧).

(٤) تفسير ابن كثير (٥٢/٦).

٢- وقال تعالى: {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢١)} [الحديد: ٢١]

قال السعدي: أمر بالمسابقة إلى مغفرة الله ورضوانه وجنته، وذلك يكون بالسعي بأسباب المغفرة، من التوبة النصوح، والاستغفار النافع، والبعد عن الذنوب ومظانها، والمسابقة إلى رضوان الله بالعمل الصالح، والحرص على ما يرضي الله على الدوام، من الإحسان في عبادة الخالق، والإحسان إلى الخلق بجميع وجوه النفع. (١)

٣- وقال تعالى {وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨)} [البقرة: ١٤٨]

٤- وقال تعالى: {لِيُسَبِّحُوا هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١)} [الصفات: ٦١]

٥- وقال تعالى: {أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ هُمْ سَابِقُونَ (٦١)} [المؤمنون: ٦١]

قال السعدي: في ميدان التسارع في أفعال الخير، همهم ما يقربهم إلى الله، وإرادتهم مصروفة فيما ينجي من عذابه، فكل خير سمعوا به، أو سنحت لهم الفرصة إليه، انتهزوه وبادروه، قد نظروا إلى أولياء الله وأصفيائه، أمامهم، ويمنة، ويسرة، يسارعون في كل خير، وينافسون في الزلفى عند ربهم، فنافسوهم. ولما كان السابق لغيره المسارع قد يسبق لجلده وتشميره، وقد لا يسبق لتقصيره، أخبر تعالى أن هؤلاء من القسم السابقين فقال: {وَهُمْ هُمْ سَابِقُونَ} أي: للخيرات {سَابِقُونَ} قد بلغوا ذروتها، وتباروا هم والرغيل الأول، ومع هذا، قد سبقت لهم من الله سابقة السعادة، أنهم سابقون. (٢)

الأدلة من السنة: -

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص ٨٤١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص ٥٥٤).

١- عَنْ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مَعَالِيَ الْأُمُورِ وَأَشْرَافَهَا، وَيَكْرَهُ سُفَاسِفَهَا. (١)

قال المناوي: (سفسافها) بفتح أوله أي حقيرها ورديئها فمن اتصف من عبيده بالأخلاق الزكية أحبه ومن تحلى بالأوصاف الرديئة كرهه، وشرف النفس صونها عن الرذائل والدنايا والمطامع القاطعة لأعناق الرجال فربما بنفسه أن يلقيها في ذلك وليس المراد به التيه. (٢)

٢- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ آخِرُ حَرِصٍ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنْ لَوْ تَفَتَّحَ عَمَلُ الشَّيْطَانِ (٣)

قال النووي: مَعْنَاهُ آخِرُ حَرِصٍ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَالرَّغْبَةِ فِيهَا عِنْدَهُ وَاطْلُبِ الْإِعَانَةَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ وَلَا تَعْجِزْ وَلَا تَكْسَلْ عَنْ طَلَبِ الطَّاعَةِ وَلَا عَنْ طَلَبِ الْإِعَانَةِ. (٤)

أقوال السلف: -

١- عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: لَا تُصَغِّرَنَّ هِمَّتَكُمْ فَإِنِّي لَمْ أَرِ أَقْعَدَ عَنْ الْمَكْرَمَاتِ مِنْ صَغِيرِ الْهِمَمِ. (٥)

٢- عن جعفر الخلدی أنه قال لرجل: كن شريف الهممة فإن الهمم تبلغ بالرجال لا المجاهدات. (٦)

٣- وقال ابن الجوزي:

* أعظم البلايا أن: يعطيك هممة عالية، ويمنعك من العمل بمقضتها

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٨٩٤)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٦٢٧).

(٢) فيض القدير للمناوي (١٨٨٩).

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).

(٤) شرح النووي على مسلم (٢١٥/١٦).

(٥) أدب الدنيا والدين (ص ٣١٩).

(٦) تاريخ بغداد (٢٢/٧).

❖ وقال: همة المؤمن متعلقة بالآخرة، فكل ما في الدنيا يحركه إلى ذكر الآخرة، وكل من شغله شيء، فهيمته شغله.

❖ وقال: من رزق همة عالية، يعذب بمقدار علوها!

كما قال الشاعر: وإذا كانت النفوس كبارًا . . . تعبت في مرادها الأجسام

❖ وقال: وما تقف همة إلا لخساستها؛ وإلا فمتى علت الهمة فلا تقنع بالدون.

❖ وقال: كانت همم القدماء من العلماء عالية، تدل عليها تصانيفهم، التي هي زبدة أعمارهم؛ إلا أن أكثر تصانيفهم دثرت؛ لأن همم الطلاب ضعفت، فصاروا يطلبون المختصرات، ولا ينشطون للمطولات، ثم اقتصروا على ما يدرسون به من بعضها، فدثرت الكتب، ولم تنسخ! (١)

٤- وقال ابن القيم:

❖ أَعْلَى الْهَمِّ هِمَّةٌ مِنْ اسْتَعَدَّ صَاحِبُهَا لِلْقَاءِ الْحَبِيبِ (٢)

❖ وقال: إذا أصبح العبد وأمسى وكيس همه إلا الله وحده تحمل الله سبحانه حوائجه كلها وحمل عنه كل ما أهمه وفرغ قلبه لمحبهته ولسانه لذكره وجوارحه لطاعته وإن أصبح وأمسى والدنيا همه حمله الله همومها وغمومها وأنكادها ووكله إلى نفسه فشغل قلبه عن محبته بمحبة الخلق ولسانه عن ذكره بذكرهم وجوارحه عن طاعته بخدمتهم وأشغالهم (٣)

❖ وقال: فعَلُو هِمَّةَ الْمَرْءِ عَنْوَانٌ فَلَاحِهِ، وَسُقُولُ هِمَّتِهِ عَنْوَانٌ حِرْمَانِهِ. (٤)

نماذج مشرقة من الهمم العالية:

❖ علو همة الأنبياء والرسل:

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي (ص ١٩٩ - ٤١١).

(٢) الفوائد لابن القيم (ص ٧٨).

(٣) المصدر السابق (ص ٨٤).

(٤) المصدر السابق (٣/ص ١٦٣).

لقد أثنى الله عز وجل في القرآن على أصحاب الهمم العالية، وفي مقدمتهم الأنبياء والمرسلين، لا سيما أولوا العزم من الرسل، وعلى رأسهم سيدهم وأشرفهم وخاتمهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وقد تجلت همتهم العالية في جميع المجالات منها: -

علو همتهم في الدعوة إلى الإسلام والتوحيد ونبذ الشرك والأوثان:

قال تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩)} [الأعراف: ٥٩]

وقال تعالى: {وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥)} [الأعراف: ٦٥]

وقال تعالى: {وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣)} [الأعراف: ٧٣]

علو همتهم في الحلم والصبر على الأذى:

قال تعالى: {وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢)} [إبراهيم: ١٢]

وقال تعالى: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ (٣٥)} [الأحقاف: ٣٥]

وقال تعالى عن نبيه نوح عليه السلام: {قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٦٠)} قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢)} [الأعراف: ٦٠ - ٦٢]

وقال تعالى عن نبيه هود عليه السلام: {قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦)} قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧)} [الأعراف: ٦٦، ٦٧]

علو همتهم في التوكل على الله تعالى:

قال تعالى: {وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢)} [إبراهيم: ١٢]

وقال تعالى: {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)} [التوبة: ١٢٩]

علو همتهم في الدعاء والتضرع إلى الله:

قال تعالى: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرَى لِلْعَابِدِينَ (٨٤) وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٦) وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَاهُ لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠)} [الأنبياء: ٨٣ - ٩٠]

علو همتهم في شفقتهم وخوفهم على أقوامهم من العذاب والهلاك:

قال تعالى عن نبيه نوح: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩)} [الأعراف: ٥٩] وقال تعالى: {أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦)} [هود: ٢٦]

وقال تعالى: {وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤)} [هود: ٣، ٤]

وقال تعالى عن نبيه شعيب: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (٨٤)} [هود: ٨٤]

علو همتهم في الاحتساب:

قال تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ اِقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٩٠)} [الأنعام: ٩٠]

وقال تعالى: {قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣)} [الشورى: ٢٣]

علو همتهم في الكرم والسخاء:

قال تعالى في شأن خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام الملقب بأبي الضيفان: {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَاعَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧)} [الذاريات: ٢٤ - ٢٧]

علو همة النبي صلى الله عليه وسلم:

١- عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، قال: إِنْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيَقُومُ لِيُصَلِّيَ حَتَّى تَرِمَ قَدَمَاهُ - أَوْ سَاقَاهُ - فَيُقَالُ لَهُ فَيَقُولُ: أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا^(١)

٢- عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحْسَنَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَشْجَعَ النَّاسِ، وَلَقَدْ فَرَعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَانْطَلَقَ نَاسٌ قَبْلَ الصَّوْتِ، فَتَلَقَّاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَاجِعًا، وَقَدْ سَبَقَهُمْ إِلَى الصَّوْتِ، وَهُوَ عَلَى فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ عُرِّي، فِي عُنُقِهِ السَّيْفُ وَهُوَ يَقُولُ: لَمْ تُرَاعُوا، لَمْ تُرَاعُوا قَالَ: وَجَدْنَاهُ بَحْرًا، أَوْ إِنَّهُ لَبَحْرٌ قَالَ: وَكَانَ فَرَسًا يُبْطَأُ^(٢)

علو همة الصحابة رضي الله عنهم:

١- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ صَائِمًا؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا، قَالَ: فَمَنْ تَبَعَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ جَنَازَةً؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا، قَالَ: فَمَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمْ

(١) أخرجه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨١٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٠٧).

الْيَوْمَ مَسْكِينًا قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا، قَالَ: فَمَنْ عَادَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ مَرِيضًا قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا اجْتَمَعَنَ فِي أَمْرِي إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ^(١)

٢- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ: لَأُعْطِينَ هَذِهِ الرَّايَةَ رَجُلًا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: مَا أَحْبَبْتُ إِلَّا مَارَةَ إِلَّا يَوْمَئِذٍ، قَالَ فَتَسَاوَرْتُ لَهَا رَجَاءً أَنْ أُدْعَى لَهَا، قَالَ فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهَا، وَقَالَ: امْشِ، وَلَا تَلْتَفِتْ، حَتَّى يَفْتَحَ اللَّهُ عَلَيْكَ قَالَ فَسَارَ عَلِيٌّ شَيْئًا ثُمَّ وَقَفَ وَلَمْ يَلْتَفِتْ، فَصَرَخَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَى مَاذَا أَقَاتِلُ النَّاسَ؟ قَالَ: قَاتِلْهُمْ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ فَقَدْ مَنَعُوا مِنْكَ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، إِلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ^(٢)

٣- عَنْ رِبِيعَةَ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " سَلْنِي أُعْطِكَ "، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْظِرْنِي أَنْظِرْ فِي أَمْرِي، قَالَ: " فَاَنْظِرْ فِي أَمْرِكَ "، قَالَ: فَنَظَرْتُ فَقُلْتُ: إِنَّ أَمْرَ الدُّنْيَا يَنْقُطُ فَلَا أَرَى شَيْئًا خَيْرًا مِنْ شَيْءٍ أَخَذَهُ لِنَفْسِي لِأَخْرَجَنِي، فَدَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: " مَا حَاجَتُكَ؟ "، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اشْفَعْ لِي إِلَى رَبِّكَ عَزَّ وَجَلَّ، فَلْيُعْثِقْنِي مِنَ النَّارِ، فَقَالَ: " مَنْ أَمْرَكَ بِهَذَا؟ "، فَقُلْتُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَمَرَنِي بِهِ أَحَدٌ، وَلَكِنِّي نَظَرْتُ فِي أَمْرِي فَرَأَيْتُ أَنَّ الدُّنْيَا زَائِلَةٌ مِنْ أَهْلِهَا، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَخْذَ لِأَخْرَجَنِي، قَالَ: " فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ " ^(٣)

قال ابن القيم: وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ مَرَاتِبَ الْهَمَمِ، فَانْظُرْ إِلَى هِمَّةِ رِبِيعَةَ بْنِ كَعْبٍ الْأَسْلَمِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَقَدْ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - سَلْنِي - فَقَالَ: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ^(٤). وَكَانَ غَيْرُهُ يَسْأَلُهُ مَا يَمْلَأُ بَطْنَهُ، أَوْ يُوَارِي جِلْدَهُ^(٥).

(١) أخرجه مسلم (١٠٢٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٠٥).

(٣) أخرجه أحمد (١٦٥٧٨) بلفظه، وأخرجه مسلم (٤٨٩) مختصراً.

(٤) أخرجه مسلم (٤٨٩).

(٥) مدارج السالكين (٣/ ص ١٤٠).

علو همة السلف: -

١- اجتمع عبد الله بن عمر، وعروة بن الزبير، ومصعب بن الزبير، وعبد الملك بن مروان بفناء الكعبة، فقال لهم مصعب: "تمنّوا"، فقالوا: "ابدأ أنت"، فقال: "ولاية العراق، وتزوّج سكينة ابنة الحسين، وعائشة بنت طلحة بن عبيد الله"، فنال ذلك، وأصدق كل واحدة خمسمائة ألف درهم، وجَهَّزها بمثلها، وتمنى عروة بن الزبير الفقه، وأن يُحمّل عنه الحديث، فنال ذلك، وتمنى عبد الملك الخلافة، فنالها، وتمنى عبد الله بن عمر الجنة. (١)

١- اجتمع جماعة من أصحاب ابن المبارك، مثل الفضل بن موسى، ومحمد بن حسين، ومحمد بن النضر، فقالوا: تعالوا حتّى نعد خصال ابن المبارك من أبواب الخير، فقالوا: جمع العلم، والفقه، والأدب، والنحو، واللغة، والشعر، والفصاحة، والزهد والورع، والإنصاف، وقيام الليل، والعبادة، والحج، والغزو، والشجاعة، والفروسية، والشدة في بدنه، وترك الكلام في ما لا يعنيه، وقلة الخلاف على أصحابه. (٢)

٣- عن أبي القاسم بن عقيل الوراق، أن أبا جعفر الطبري قال لأصحابه: أتشطون لتفسير القرآن؟ قالوا: كم يكون قدره؟ فقال: ثلاثون ألف ورقة. فقالوا: هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه، فاختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة. ثم قال: هل تشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا؟ قالوا: كم قدره؟ فذكر نحو ما ذكره في التفسير فأجابوه بمثل ذلك، فقال: إنا لله ماتت الهمة. (٣)

فوائد الهمة العالية:

١- دليل على كمال الرجولة وكمال المروءة.

٢-ثمر سعادة الدنيا والآخرة.

٣- خلق يوصل إلى محبة الله ومحبة الناس.

(١) الهمة العالية معوقاتا ومقوماتها لمحمد (ص ١٩).

(٢) تهذيب الكمال للمزي (١٨/١٦).

(٣) تاريخ بغداد (٥٤٨/٢)، وسير أعلام النبلاء (٢٧٥/١٤).

٤- يحقق الرّفاهية والسّعادة للأفراد والشّعوب.

٥- حياة القلب وقوته.

٦- عدم القناعة بالدون وعدم الرضا إلا بمعالي الأمور.

٧- شرف النفس ومعرفة قدرها. (١)

الوسائل المعينة على تحصيل المهمة العالية: (٢)

١- طبيعة الإنسان فمن الناس من جبل على علو المهمة فلا يرضى بالدون ولا يقنع بالقليل ولا يلتفت إلى الصغائر ولا تغدوا بلبه الدنيا ومحقرات الأمور.

٢- أثر الوالدين ودورهما في التربية الصحيحة: بالحرص على تربية الأولاد وتنشئتهم على كريم الخلال مع تجنيبهم مساوئ الأخلاق فإن لذلك أثرا عظيما.

٣- النشأة في مجتمع ملي بالقمم فهذا مما يحرك همته ويبعث عزمته كي يحذوا حذوهم ويسير على نولهم.

٤- قوة الإيمان بالله عز وجل.

٥- الدعاء، فبه تشرف النفس وتعلوا المهمة.

٦- العلم والبصيرة، فالعلم يصعد بالمهمة ويرفع طالبه عن حضيض التقليد. ٧- الحياء: فالحي لا يرضى بالدون ولا أن يكون من سقط المتاع فيبعثه حياؤه إلى التحلي بالفضائل والتخلي من الرذائل.

٨- قراءة القرآن بتدبر، فالقرآن يهدي للتي هي أقوم وعلو المهمة من جملة ذلك.

٩- حسن النية وإخلاص العمل.

١٠- قصر الأمل وتذكر الآخرة.

١١- النظر إلى من هو أعلى في الفضائل وإلى من هو أدنى في أمور الدنيا.

١٢- مصاحبة الأخيار وأهل المهمم العالية.

(١) نضرة النعيم (٧/٣٠٩) مع بعض الإضافات

(٢) المهمة العالية معوقاتا ومقوماتها لمحمد بن إبراهيم الحمد (ص ١٣٧-٢٧١) باختصار وتصرف.

١٣- الغيرة الصادقة.

١٤- مطالعة سير السلف والمصلحين.

١٥- استشعار المسؤولية.

١٦- الحرص على الإفادة من كل أحد ومن كل موقف.

١٧- استثارة الهمة وتحريك الإرادة.

١٨- انتهاز الفرص واغتنام الأوقات.

١٩- الشجاعة والإقدام واطراح المبالغة في تعظيم شأن الخوف.

٢٠- الصبر والمصابرة والجد والمثابرة.

خامسا: أسباب انحطاط الهمم: (١)

١- طبيعة الإنسان، فهناك من الناس من جبل على دنو الهمة فلا يسعى في تطلاب الكمال.

٢- التربية المنزلية، بأن لا يربى الأولاد على معالي الأمور.

٣- البيئة والمجتمع، فقد يكونا سببا لترقي الإنسان وقد يكون بالعكس من ذلك تماما.

٤- هم الزوجة والأولاد، فقد تكون الزوجة والأولاد من المعوقات عن السعي للمعالي.

٥- قلة التشجيع، فإذا برز في ميدان من الميادين لا يجد أحدا يأخذ بيده بل ربما وجد من يخذله.

٦- صحبة الأشرار ومرافقة المخذلين.

٧- ضعف الإيمان.

٨- المبالغة في احتقار النفس فهو يقتل الطموح ويفقد ثقة الإنسان بنفسه.

٩- الخور والمبالغة في تعظيم شأن الخوف فيثنيه عن تطلب الكمال والسعي في درج العلا.

١٠- قلة الصبر واستطالة الطريق.

١١- كثرة الشواغل والقواطع التي تصرف الإنسان عن تطلاب المعالي.

١٢- اختلاق المعاذير والمبررات التي يعلق عليها الإخفاق والعجز.

(١) الهمة العالية معوقات ومقوماتها لمحمد بن إبراهيم الحمد (ص ٦٧-٩٨) باختصار وتصرف.

١٣- قلة الحياء، فقليل الحياء لا يبالي بدنو همته وسفول قدره.

١٤- التقليد الأعمى فكم وضع من همة وثنى من عزيمة.

العلامات الدالة على علو همة الإنسان: (١)

١ - التحرُّق على ما مضى من الأيام وكأنه لم يكن قطُّ صاحب الهمة المتألق المنجز لكثير من الأمور، وأكثر ما يكون ذلك على فراش الموت.

٢ - كثرة همومه، وتألمه لحال المسلمين وما يجدون من ظلم وعنت.

٣ - موالاته النصيحة وتقديم الحلول والاقتراحات - التي تقوم بالإسلام والمسلمين وتعزهم - لمن يأمل فيهم التغيير ويرجو منهم الإصلاح.

٤ - طلبه للمعالي دائماً فيما يفعله أو يتعلمه أو يصلحه.

قال الأستاذ محمد الخضر حسين: طالب العلم الذي لا يدع باباً من أبوابه إلا ولجه... يكون أعظم همة ممن لا يطرق منه كل باب، أو لم يعرج منه على كل مسألة قيمة، وطالب العلم الذي يخوضه بنظر حر ويتناول مباحثه بنقد وبصيرة يكون أعظم همة ممن يجمع مسائله حفظاً ويتلقاها كما يتلقى حاكي الصدى لا يكلفك غير إملائها عليه

٥ - كثرة شكواه من ضيق الوقت وعدم قدرته على إنجاز ما يريد في اليوم والليلة، وليست هذه الشكوى من نمط ما نسمع من ترداد كثير من الناس لها، ولكنها شكوى حقيقية نابعة من عمل دؤوب يستغرق أوقات الشخص فيبث تلك الآهات الصادقة.

٦ - قوة عزمه وثبات رأيه وقلة تردده، فهو إذا قرّر أمراً راشداً لا يسرع بنقضه بل يستمر فيه ويثبت عليه حتى يقضيه ويجني ثمرته، ولا شك أن كثرة التردد ونقض الأمر بعد إبرامه من علامات تدني الهمة. إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة... فإن فساد الرأي أن تتردداً

بعض مجالات علو الهمة:

علو الهمة في قضاء الحوائج وكسوة العراة وإطعام الجائعين:

(١) الهمة طريق إلى القمة لمحمد موسى الشريف (ص ٦١-٦٢) بتصرف.

- ١- قال الزبير بن بكار: كان للعباس بن عبد المطلب ثوب لعاري لبني هاشم وجفنة لجائعهم وكان يمنع الجار ويبذل المال ويعطي في النوائب. (١)
 - ٢- قال ابن عينة: كان سعيد بن العاص إذا قصده سائل وليس عنده شيء، قال: اكتب علي سجلاً بمسألتك إلى الميسرة. (٢)
 - ٣- ذكر عبد الأعلى بن حماد: أن سعيد بن العاص قيل إنه أطعم الناس في قحط حتى نفذ ما في بيت المال وأدان. (٣)
 - ٤- قال حسين الجعفي: قدم ابن الحر وعبدية في تجارة مكة وبها فاقة، فتصدقا بعشرة آلاف، ففضل خلق من المساكين، فما تخلصوا منهم إلا بإنفاق أربعين ألفاً، وخرجوا من مكة ليلاً. (٤)
 - ٥- قال أشهب بن عبد العزيز: كان الليث له كل يوم أربعة مجالس يجلس فيها. . . ويجلس لحوائج الناس لا يسأله أحد فيرده كبرت حاجته أو صغرت، وكان يطعم الناس في الشتاء الهرائس بعسل النحل وسمن البقر، وفي الصيف سويق اللوز في السكر. (٥)
 - ٦- قال عبدان بن عثمان الأزدي: ما سألتني أحد حاجة إلا قمت له بنفسي، فإن تم، وإلا قمت له بهالي، فإن تم، وإلا استعنت بالإخوان، فإن تم، وإلا استعنت بالسلطان. (٦)
- *علو الهمة في سداد الديون عن الغرماء:**
- ١- لما توفي الزبير لقي حكيم بن حزام عبدالله بن الزبير فقال كم ترك أخي من الدين فقال: ألف ألف، قال علي خمسمائة. (٧)

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٨٠).

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٤٧).

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٤٧).

(٤) سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٢٩).

(٥) سير أعلام النبلاء (٨/ ١٥٠).

(٦) سير أعلام النبلاء (١٠/ ٢٧١).

(٧) سير أعلام النبلاء (٣/ ٥٠).

٢- كاتب ابن عمر غلاماً له بأربعين ألفاً، فخرج إلى الكوفة، فكان يعمل على حمر له، حتى أدى خمسة عشر ألفاً، فجاءه إنسان، فقال: أجمنون أنت؟ أنت ها هنا تعذب نفسك، وابن عمر يشتري الرقيق يميناً وشمالاً، ثم يعتقهم؛ ارجع إليه، فقل: عجزت. فجاء إليه بصحيفة، فقال: يا أبا عبد الرحمن! قد عجزت، وهذه صحيفتي، فامحها. فقال: لا، ولكن امحها أنت إن شئت. فمحاها، ففاضت عينا عبد الله، وقال: اذهب فأنت حر. قال: أصلحك الله، أحسن إلى ابني. قال: هما حران. قال: أصلحك الله، أحسن إلى أُمِّي ولدي. قال: هما حرتان. (١)

٣- عن عمرو بن دينار، قال: دخل علي بن الحسين على محمد بن أسامة بن زيد في مرضه، فجعل محمد يبكي، فقال: ما شأنك؟ قال: علي دين. قال: وكم هو؟ قال: بضعة عشر ألف دينار. قال: فهي علي. (٢)

٤- عن سلمة بن سليمان، قال: جاء رجل إلى ابن المبارك، فسأله أن يقضي ديناً عليه، فكتب له إلى وكيل له. فلما ورد عليه الكتاب، قال له الوكيل: كم الدين الذي سألته قضاءه؟ قال: سبع مائة درهم وإذا عبد الله قد كتب له أن يعطيه سبعة آلاف درهم، فراجعه الوكيل، وقال: إن الغلات قد فنيت. فكتب إليه عبد الله: إن كانت الغلات قد فنيت، فإن العمر أيضاً قد فني، فأجز له ما سبق به قلمي. (٣)

علو الهمة في إغاثة المنكوبين:

عَنِ ابْنِ سَيْرِينَ:

أَنَّ رَجُلًا جَلَبَ سُكَّرًا إِلَى الْمَدِينَةِ، فَكَسَدَ، فَبَلَغَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جَعْفَرٍ، فَأَمَرَ قَهْرْمَانَهُ أَنْ يَشْتَرِيَهُ، وَأَنْ يَنْهَبَهُ النَّاسَ. (٤)

علو الهمة في تجهيز الموتى:

(١) سير أعلام النبلاء (٣/٢١٧).

(٢) سير أعلام النبلاء (٤/٣٩٤).

(٣) سير أعلام النبلاء (٨/٣٨٦).

(٤) سير أعلام النبلاء (٣/٤٦١).

قال ابن الأنطاطي: كان عبد الله بن فرج الواسطي قد وقف نفسه على مصالح المسلمين، والمشي في قضاء حوائجهم، وكان أكثر همه تجهيز الموتى على الطرق. (١)

كيفية استثمار همّة الناس: (٢)

يجب علينا أن نحسن استثمار همّة عند الناس، ونستخرج منهم دفائن الكنوز وخبايا الصدور والعقول وذلك عن طريق الآتي:

١ - المشاركة في أعمال الخير العامة مثل بناء المساجد، وإغاثة المنكوبين، وإقامة المنشآت النافعة ونحو ذلك، وخير ما يمكن أن يشاركوا فيه هو تلك الهيئات والجمعيات الإسلامية المنتشرة في العالم الإسلامي، والله الحمد، حيث إن الكوارث والنكبات التي تحيط بالعالم الإسلامي والتي توضحها وتبناها تلك الهيئات كقيلة بإثارة نوازع الشفقة والخير فيهم، فينشطون للمساعدة بهمة جيدة.

٢ - توجيههم إلى بذل أوقاتهم في تحصيل العلوم الشرعية والقرب من العلماء وطلبة العلم

٣ - التوضيح والتبيين لهم بأنهم يضيعون أوقاتهم فيما لا يفيد، فلو قضوا ذلك في مجالات أجدى وأنفع لكان حسناً.

٤ - توجيههم للقراءة النافعة، إذ معظم الشباب أميو الثقافة وإن كانوا يحملون شهادات جامعية، فقد عكف الناس للأسف على متابعة أخبار بعينها وتركوا ما ينفعهم عاجلاً وأجلاً ويثير فيهم الغرام إلى دار السلام.

٥ - الانتساب إلى جمعية أو هيئة لها برنامج عمل محدد يُنجز من خلالها كثير من الأمور النافعة، وذلك مثل بعض الهيئات الإغاثية المنتشرة في العالم الإسلامي، أو جمعيات البر، أو لجان البر، أو هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك، وليحذر من التأثر بما تشتمل عليه بعض هذه الهيئات من نوع خطأ أو ميل قليل عن الحق فيترك العمل كلية لأجل هذا.

(١) سير أعلام النبلاء (٢١/٤٣٢).

(٢) الهمة طريق إلى القمة لمحمد بن حسن بن موسى الشريف (ص ٦٣-٦٦) بتصرف.

٦ - التوعية بأن يختار لنفسه مجالاً يبدع فيه ويبرز ويكون عطاؤه من خلاله بالغاً غايته، واهتمته في إنجازه قوية عالية، فمن وجد من نفسه انصرافاً للعلم وتحصيله فليقبل عليه، ومن وجد منها ميلاً إلى الأعمال الخيرية والإغاثية فليشارك إخوانه، ولا يتوان وليقدم على بركة الله تعالى، وهكذا.

٣- الأمانة

المتطوعون أمناء على أموال المنفقين يحفظونها ويضعونها في موضعها وللمستحقين من المسلمين، فلا يفرطون في حفظها ولا في إهلاكها في غير حقها، فالمتبرعون قد برأت ذمتهم بتسليم المال للمتطوع، وعلى هذا فقد تحمل أمانة عظيمة لا بد من القيام بها كما أمر الله تعالى.

تعريف الأمانة

الأمانة في اللغة:

قال ابن فارس: (أَمَنَ) الْهُمَزَةُ وَالْمِيمُ وَالنُّونُ أَصْلَانِ مُتَقَارِبَانِ: أَحَدُهُمَا الْأَمَانَةُ الَّتِي هِيَ ضِدُّ الْحَيَاةِ، وَمَعْنَاهَا سُكُونُ الْقَلْبِ، وَالْآخَرُ التَّصَدِيقُ. وَالْمُعْنَيَانِ مُتَدَانِيَانِ، وقال الراغب: أصل الأمن طمأنينة النفس وزوال الخوف، ويجعل الأمان تارة اسماً للحالة التي يكون عليها الإنسان في الأمن، وتارة اسماً لما يؤمن عليه الإنسان، نحو قوله تعالى: {وَتَحْوُنُوا أَمَانَاتِكُمْ} [الأنفال: ٢٧]، أي: ما ائتمتم عليه. (١)

الأمانة في الاصطلاح:

قال الكفوي: الْأَمَانَةُ: كُلُّ مَا يُؤْتَمَنُ عَلَيْهِ كَأَمْوَالٍ وَحَرَمٍ وَأَسْرَارٍ فَهُوَ أَمَانَةٌ. وقال أيضاً: الْأَمَانَةُ: كُلُّ مَا افْتَرَضَ عَلَى الْعِبَادِ فَهُوَ أَمَانَةٌ كَصَلَاةٍ وَزَكَاةٍ وَصِيَامٍ وَأَدَاءِ دَيْنٍ، وَأَوْكُودِهَا الْوُدَائِعُ، وَأَوْكُدِ الْوُدَائِعِ كَتَمِ الْأَسْرَارِ. (٢)

وقال المناوي: الأمانة هي كل حق لزمك أداؤه وحفظه. (٣)

وقال أبو العباس القرطبي: الْأَمَانَةُ كُلُّ مَا يُؤَكَّلُ إِلَى الْإِنْسَانِ حِفْظُهُ وَيُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ. (٤)

الأدلة من القرآن والسنة وأقوال السلف:

(١) انظر: المفردات للراغب الأصفهاني (٩٠/١)، ولسان العرب لابن منظور (١٦٣/١)، ومقاييس اللغة لابن فارس (١٣٥/١).

(٢) الكليات للكفوي (١٧٦/١ - ١٨٧).

(٣) فيض القدير للمناوي (٣٠٨).

(٤) المفهم للقرطبي (٣٥٦/١).

الأدلة من القرآن:

١- قال تعالى {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} (سورة النساء: ٥٨)

قال ابن جرير: وأريد به كل مؤتمن على أمانة فدخل فيه ولاة أمور المسلمين وكل مؤتمن على أمانة في دين أو دنيا.

وقال ابن كثير: وهذا من المشهورات أن هذه الآية نزلت في ذلك يعني: مفتاح الكعبة. وسواء كانت نزلت في ذلك أو لا فحكمها عام ولهذا قال ابن عباس: هي للبر والفاجر، أي: هي أمر كل أحد بأداء الأمانة. (١)

وقال ابن عثيمين: تأمل هذه الصيغة (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ) صيغة قوة وسلطان لم يقل: أدوا الأمانة، ولم يقل: إني آمركم ولكن قال: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ) بأمركم بألوهيته العظيمة، يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، فأقام الخطاب مقام الغائب تعظيماً لهذا المقام ولهذا الأمر، وهذا كقول السلطان -ولله المثل الأعلى- إن الأمير يأمركم، أن الملك يأمركم، فهذا أبلغ وأقوى من قوله: إني آمركم كما قال ذلك علماء البلاغة، (أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا) ومن لازم الأمر بأداء الأمانة إلى أهلها الأمر بحفظها لأنه لا يمكن أدائها إلى أهلها إلا بحفظها. وحفظها إلا يتعدى فيها ولا يفرط، بل يحفظها حفظاً تاماً ليس فيه تعدٍّ ولا تفريط، حتى يؤديها إلى أهلها. (٢)

٢- قال تعالى: {وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ} (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ} (المؤمنون: ٨ - ١٠)

(١) تفسير الطبري (١/١٦٨)، تفسير ابن كثير (٢/٣٤١).

(٢) شرح رياض الصالحين لابن عثيمين (٢/٤٦٣).

قال ابن جرير: يقول تعالى ذكره: (والذين هم لأماناتهم التي ائتمنوا عليها، (وعهدهم) وهو عقودهم التي عاقدوا الناس (راعون) يقول: حافظون لا يضيعون، ولكنهم يوفون بذلك كله. (١)

٣- قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} (٢٧) [الأنفال: ٢٧]

٤- قال تعالى: {قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ} [سورة القصص: ٢٦]

قال السعدي: فإنه جمع القوة والأمانة، وخير أجير استؤجر، من جمعها، أي: القوة والقدرة على ما استؤجر عليه، والأمانة فيه بعدم الخيانة، وهذان الوصفان، ينبغي اعتبارهما في كل من يتولى للإنسان عملاً بإجارة أو غيرها فإن الخلل لا يكون إلا بفقدتهما أو فقد إحداهما، وأما باجتماعهما، فإن العمل يتم ويكمل، وإنما قالت ذلك، لأنها شاهدت من قوة موسى عند السقي لهما ونشاطه، ما عرفت به قوته وشاهدت من أمانته وديانته وأنه رحمهما في حالة لا يرجى نفعهما وإنما قصده بذلك وجه الله تعالى. (٢)

٥- قال تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} [سورة الأحزاب: ٧٢]

قال السعدي: يعظم تعالى شأن الأمانة، التي ائتمن الله عليها المكلفين، التي هي امتثال الأوامر واجتناب المحارم في حال السر والخفية كحال العلانية وأنه تعالى عرضها على المخلوقات العظيمة السماوات والأرض والجبال عرض تخير لا تحتيم وأنتك إن قمت بها وأديتها على وجهها فلك الثواب وإن لم تقومي بها ولم تؤديها فعليك العقاب فأبين أن يحملنها وأشفقن منها أي: خوفاً أن لا يقمن بما حُملن لا عصيانياً لرَبهن، ولا زهداً في ثوابه وعرضها

(١) تفسير الطبري (١٣/١٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٦١٤).

الله على الإنسان على ذلك الشرط المذكور فقيلها وحملها مع ظلمه وجهله وحمل هذا الحمل الثقيل. (١)

الأدلة من السنة:

١- عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال: (حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر: حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم علموا من القرآن ثم علموا من السنة. وحدثنا عن رفعها. قال: ينال الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر الوكت. ثم ينال النومة فتقبض فيبقى فيها أثرها مثل أثر المجمل كجمر دحرجته على رجله فنقط فتراه متبراً وليس فيه شيء ويصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحد يؤدّي الأمانة، فيقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً ويقال للرجل: ما أعقله وما أظرفه! وما أجلده! وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان) (٢)

قال صاحب التحرير: معنى الحديث أن الأمانة تزول عن القلوب شيئاً فشيئاً فإذا زال أول جزء منها زال نورها وخلفته ظلمة كالوكت وهو اعتراض لون مخالف للون الذي قبله، فإذا زال شيء آخر صار كالمجل وهو أثر محكم لا يكاد يزول إلا بعد مدة وهذه الظلمة فوق التي قبلها، ثم شبه زوال ذلك النور بعد وقوعه في القلب وخروجه بعد استقراره فيه واعتقاب الظلمة إياه بجمر يدرجه على رجله حتى يؤثر فيها ثم يزول الجمر ويبقى التنفط. (٣)

٢- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (بينما النبي صلى الله عليه وسلم في مجلس يحدث القوم، جاء أعرابي فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث. فقال بعض القوم: سمع ما قال فكره ما قال، وقال بعضهم: بل لم يسمع. حتى إذا قضى حديثه قال: أين

(١) تيسر الكريم الرحمن للسعدي (٦٧٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٩٧)، ومسلم (١٤٣).

(٣) شرح مسلم للنووي (١٦٩/٢).

أراه السائل عن الساعة؟ قال: ها أنا يا رسول الله. قال: فإذا ضُيِّت الأمانة فانتظر الساعة.

قال: كيف إضاعتها؟ قال: إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة (١)

٣- عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي؟ قَالَ: فَضْرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي، ثُمَّ قَالَ: (يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا) (٢)

قال النووي: هَذَا الْحَدِيثُ أَصْلُ عَظِيمٌ فِي اجْتِنَابِ الْوَلَايَاتِ لَا سِيَّمَا لِمَنْ كَانَ فِيهِ ضَعْفٌ عَنِ الْقِيَامِ بِوُظَائِفِ تِلْكَ الْوَلَايَةِ وَأَمَّا الْخِزْيُ وَالنَّدَامَةُ فَهُوَ فِي حَقِّ مَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلًا لَهَا أَوْ كَانَ أَهْلًا وَلَمْ يَعْدِلْ فِيهَا فَيُخْزِيهِ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَفْضَحُهُ وَيَنْدِمُ عَلَى مَا فَرَطَ وَأَمَّا مَنْ كَانَ أَهْلًا لِلْوَلَايَةِ وَعَدَلَ فِيهَا فَلَهُ فَضْلٌ عَظِيمٌ تَظَاهَرَتْ بِهِ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ كَحَدِيثِ سَبْعَةِ يُظْلَمُونَ اللَّهُ وَالْحَدِيثِ الْمَذْكُورِ هُنَا عَقَبَ هَذَا أَنَّ الْمُفْسِطِينَ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَإِجْمَاعُ الْمُسْلِمِينَ مُنْعَقِدٌ عَلَيْهِ وَمَعَ هَذَا فَلِكَثْرَةِ الْخَطَرِ فِيهَا حَذَرُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهَا وَكَذَا حَذَرُ الْعُلَمَاءِ وَامْتَنَعَ مِنْهَا خَلَائِقُ مِنَ السَّلَفِ وَصَبَرُوا عَلَى الْأَذَى حِينَ امْتَنَعُوا. (٣)

٦- وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (الخازن المسلم الأمين الذي ينفذ ما أمره به فيعطيه كاملاً موفراً، طيبة به نفسه فيدفعه إلى الذي أمر له به أحد المتصدقين) (٤)

قال أبو العباس القرطبي: هذه الأوصاف لابد من اعتبارها في تحصيل أجر الصدقة للخازن، فإنه إن لم يكن مسلماً لم تصح منه نية التقرب، وإن لم يكن أميناً كان عليه وزر الخيانة، فكيف يحصل له أجر الصدقة؟! وإن لم يطب بذلك نفساً لم يكن له نية، فلا يؤجر. (٥)

أقوال السلف في الأمانة:

(١) أخرجه البخاري (٥٩).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٢٥).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (٢١٠/١٢).

(٤) أخرجه البخاري (١٤٣٨)، ومسلم (١٠٢٣).

(٥) المفهم لما أشكل من كتاب تلخيص مسلم لأبي العباس القرطبي (٦٨/٣).

١- عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: لَا تُغَرِّكَ صَلَاةُ امْرِئٍ وَلَا صَوْمُهُ، مَنْ شَاءَ صَامَ، إِلَّا لَا دِينَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ. (١)

٢- وعنه رضي الله عنه قال: لا تنظروا إلى صيام أحد ولا صلاته ولكن انظروا إلى صدق حديثه إذا حدث وأمانته إذا ائتمن وورعه إذا أشفى. (٢)

٣- عَنْ وَسَقِ الرُّومِيِّ، قَالَ: كُنْتُ مَمْلُوكًا لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَانَ يَقُولُ لِي: أَسْلِمَ فَإِنَّكَ إِنْ أَسْلَمْتَ اسْتَعَنْتُ بِكَ عَلَى أَمَانَةِ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَسْتَعِينَ عَلَى أَمَانَتِهِمْ مَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ، قَالَ: فَأَبَيْتُ، فَقَالَ: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} [البقرة: ٢٥٦] قَالَ: فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ أَعْتَقَنِي، وَقَالَ: اذْهَبْ حَيْثُ شِئْتَ. (٣)

٤- قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: لَمْ يُرَخِّصِ اللَّهُ لِلْعُسْرِ وَلَا لِلْمُسْرِ أَنْ يُمْسِكَ الْأَمَانَةَ (٤)

نماذج مشرقة للأمانة:

الأمانة من أعظم صفات الأنبياء والمرسلين:

من الملاحظ في أسس العقيدة أن الأمانة من أبرز أخلاق الرسل عليهم الصلاة والسلام لأنها شرط أساسي لاصطفائهم بالرسالة فلولا أن يكونوا أمناء لما استأمنهم الله على رسالاته لخلقه (٥)

١- قال تعالى عن موسى عليه السلام: {قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ} {٢٦} [القصص: ٢٦]، وقال تعالى: {وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَذُوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨)} [نوح: ١٧-١٨]

(١) السنة لأبي بكر الخلال (١٤٩١).

(٢) حلية الأولياء (٢٧/٣).

(٣) الأموال للقاسم بن سلام (٨٧).

(٤) تفسير القرطبي (٢٦٥/٥).

(٥) الأخلاق الإسلامية وأسسها للميداني (٦٤٨/١).

٢- وقال تعالى عن نوح عليه السلام: {كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧)} [الشعراء: ١٠٥-١٠٧]

٣- وقال تعالى عن هود عليه السلام: {قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨)} [الأعراف: ٦٧-٦٨]
وقال أيضا: {إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥)} [الشعراء: ١٢٤-١٢٥]

٤- وقال تعالى عن صالح عليه السلام: {إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣)} [الشعراء: ١٤٢، ١٤٣]
٥- وقال تعالى عن شعيب عليه السلام: {إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨)} [الشعراء: ١٧٧، ١٧٨]

أمانة النبي صلى الله عليه وسلم:

١- اتصافه صلى الله عليه وسلم بين قومه بالأمين:

قال ابن هشام: فَشَبَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَكْلُؤُهُ وَيَحْفَظُهُ وَيَحُوطُهُ مِنْ أَفْذَارِ الْجَاهِلِيَّةِ، لِمَا يُرِيدُ بِهِ مِنْ كَرَامَتِهِ وَرِسَالَتِهِ، حَتَّى بَلَغَ أَنْ كَانَ رَجُلًا، وَأَفْضَلَ قَوْمِهِ مُرُوءَةً، وَأَحْسَنَهُمْ خُلُقًا، وَأَكْرَمَهُمْ حَسَبًا، وَأَحْسَنَهُمْ جَوَارًا، وَأَعْظَمَهُمْ حِلْمًا، وَأَصْدَقَهُمْ حَدِيثًا، وَأَعْظَمَهُمْ أَمَانَةً، وَأَبْعَدَهُمْ مِنَ الْفُحْشِ وَالْأَخْلَاقِ الَّتِي تُدَسُّ الرِّجَالُ، تَنْزُهَا وَتَكْرُمًا، حَتَّى مَا اسْمُهُ فِي قَوْمِهِ إِلَّا الْأَمِينُ، لِمَا جَمَعَ اللَّهُ فِيهِ مِنَ الْأُمُورِ الصَّالِحَةِ. (١)

٢- عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: بَعَثَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْيَمَنِ، بِذَهَبٍ فِي أَدِيمٍ مَقْرُوظٍ لَمْ يُحْصَلْ مِنْ ثَرَاهَا، قَالَ: فَفَسَمَهَا بَيْنَ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ: بَيْنَ عُبَيْتِ بْنِ حِصْنٍ، وَالْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ، وَزَيْدِ الْخَيْلِ، وَالرَّابِعِ إِمَّا عُلَقَمَةُ بْنُ عَلَاتَةَ، وَإِمَّا عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: كُنَّا نَحْنُ أَحَقُّ بِهَذَا مِنْ هَؤُلَاءِ، قَالَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ

النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: أَلَا تَأْمَنُونِي؟ وَأَنَا أَمِينٌ مَنْ فِي السَّمَاءِ، يَأْتِينِي خَبْرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً!.... (١)

٣- عَنْ عُقْبَةَ بْنِ الْحَارِثِ، قَالَ: صَلَّيْتُ وَرَاءَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمَدِينَةِ الْعَصْرَ، فَسَلَّمَ، ثُمَّ قَامَ مُسْرِعًا، فَتَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ إِلَى بَعْضِ حُجَرِ نِسَائِهِ، فَفَزَعَ النَّاسَ مِنْ سُرْعَتِهِ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ، فَرَأَى أَنَّهُمْ عَجِبُوا مِنْ سُرْعَتِهِ، فَقَالَ: ذَكَرْتُ شَيْئًا مِنْ تَبَرِّ عِنْدَنَا، فَكَرِهْتُ أَنْ يَحْسِنِي، فَأَمَرْتُ بِقِسْمَتِهِ. (٢)

الأمانة في حياة الصحابة:

١- عَنْ حُذَيْفَةَ، قَالَ: جَاءَ الْعَاقِبُ وَالسَّيِّدُ، صَاحِبَا نَجْرَانَ، إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُرِيدَانِ أَنْ يُلَاعِنَاهُ، قَالَ: فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: لَا تَفْعَلْ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ كَانَ نَبِيًّا فَلَا عَنَّا لَا نُفْلِحُ نَحْنُ، وَلَا عَقِبُنَا مِنْ بَعْدِنَا، قَالَا: إِنَّا نُعْطِيكَ مَا سَأَلْتَنَا، وَابْعَثْ مَعَنَا رَجُلًا أَمِينًا، وَلَا تَبْعَثْ مَعَنَا إِلَّا أَمِينًا. فَقَالَ لَأَبْعَثَنَّ مَعَكُمْ رَجُلًا أَمِينًا حَقَّ أَمِينٍ، فَاسْتَشْرَفَ لَهُ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: قُمْ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ فَلَمَّا قَامَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَذَا أَمِينٌ هَذِهِ الْأُمَّةُ (٣)

٢- عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ أَبَاهُ اسْتَشْهَدَ يَوْمَ أُحُدٍ وَتَرَكَ سِتَّ بَنَاتٍ وَتَرَكَ عَلَيْهِ دَيْنًا، فَلَمَّا حَضَرَ جَدَادُ النُّحْلِ أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ عَلِمْتَ أَنَّ وَالِدِي اسْتَشْهَدَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَتَرَكَ عَلَيْهِ دَيْنًا كَثِيرًا، وَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ يَرَاكَ الْغُرَمَاءُ، قَالَ: اذْهَبْ فَيَبْدُرْ كُلُّ تَمَرٍ عَلَى نَاحِيَّتِهِ، فَفَعَلْتُ ثُمَّ دَعَوْتُهُ، فَلَمَّا نَظَرُوا إِلَيْهِ أُعْزُوا بِئِ تِلْكَ السَّاعَةِ، فَلَمَّا رَأَى مَا يَصْنَعُونَ أَطَافَ حَوْلَ أَعْظَمِهَا بَيْدَرًا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ جَلَسَ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: ادْعُ أَصْحَابَكَ، فَمَا زَالَ يَكِيلُ لَهُمْ حَتَّى أَدَّى اللَّهُ أَمَانَةَ وَالِدِي، وَأَنَا وَاللَّهِ رَاضٍ

(١) أخرجه البخاري (٤٣٥١)، ومسلم (١٠٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (٨٥١)

(٣) أخرجه البخاري (٤٣٨٠)، وأخرجه مسلم (٢٤٢٠) مختصرًا.

أَنْ يُؤَدِّيَ اللَّهُ أَمَانَةً وَالِدِي، وَلَا أَرْجِعَ إِلَى أَخَوَاتِي بِتَمَرَةٍ، فَسَلِمَ وَاللَّهُ الْبَيَّادِرُ كُلُّهَا حَتَّى أَنِّي أَنْظُرُ إِلَى الْبَيَدَرِ الَّذِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَأَنَّهُ لَمْ يَنْقُصْ تَمَرَةً وَاحِدَةً (١)

٣- عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: لَمَّا استخلف أبو بكر، قال: لقد علم قومي أن حُرْفَتِي لم تكن تعجز عن مؤنة أهلي، وشغلت بأمر المسلمين، فسيأكل آل أبي بكر من هذا المال، ويحترف للمسلمين فيه. (٢)

الأمانة عند السلف:

- لما حبس ابن سيرين في السجن، قَالَ لَهُ السَّجَّانُ: إِذَا كَانَ اللَّيْلُ فَادْهَبْ إِلَى أَهْلِكَ فَإِذَا أَصْبَحْتَ فَتَعَالَ، فَقَالَ ابْنُ سِيرِينَ: لَا وَاللَّهِ، لَا أَعِينُكَ عَلَى خِيَانَةِ السُّلْطَانِ. (٣)

- عَنْ الْحُسَيْنِ بْنِ عُرْفَةَ قَالَ: قَالَ لِي ابْنُ الْمُبَارَكِ: اسْتَعَرْتُ قَلَمًا بِأَرْضِ الشَّامِ، فَذَهَبْتُ عَلَى أَنْ أُرَدَّهُ، فَلَمَّا قَدِمْتُ مَرَوْ، نَظَرْتُ، فَإِذَا هُوَ مَعِي، فَرَجَعْتُ إِلَى الشَّامِ حَتَّى رَدَدْتُهُ عَلَى صَاحِبِهِ (٤)

- جاءت امرأة إلى عمرو بن قيس بثوب، فقالت: يا أبا عبد الله اشتر هذا الثوب، واعلم أن غزله ضعيف، قَالَ: فَكَانَ إِذَا جَاءَهُ إِنْسَانٌ فَعَرَضَهُ عَلَيْهِ، قَالَ: إِنْ صَاحِبَتِهِ أَخْبَرْتَنِي أَنَّهُ كَانَ فِي غَزْلِهِ ضَعْفٌ، حَتَّى جَاءَهُ رَجُلٌ فَاشْتَرَاهُ، قَالَ: قَدْ أَبْرَأْنَاكَ مِنْهُ. (٥)

- عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمَسْعُودِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: مَا رَأَيْتُ أَحْسَنَ أَمَانَةٍ مِنْ أَبِي حَنِيفَةَ، مَاتَ يَوْمَ مَاتَ وَعِنْدَهُ وَدَائِعٌ بِخَمْسِينَ أَلْفًا، مَا ضَاعَ مِنْهَا وَلَا دِرْهَمٌ وَاحِدٌ (٦)

الأمانة في الأمم السابقة:

١- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: ((انْطِقْ ثَلَاثَةَ نَفَرٍ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى آوَاهُمُ الْمَبِيتَ إِلَى غَارٍ فَدَخَلُوهُ،

(١) أخرجه البخاري (٢٧٨١).

(٢) أخرجه البخاري (٢٠٧٠).

(٣) تاريخ بغداد (٢٨٣/٣).

(٤) تاريخ بغداد (٤٠٠/١١)، سير أعلام النبلاء (٣٩٥/٨).

(٥) تاريخ بغداد (٦٠/١٤).

(٦) تاريخ بغداد (٤٨٧/١٥).

فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار؛ فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله - تعالي- بصالح أعمالكم. (وَقَالَ الثَّالِثُ: اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أَجْرَاءَ، فَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ، فَتَمَرَّتْ أَجْرُهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الْأَمْوَالُ، فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِي، فَقُلْتُ لَهُ: كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ مِنَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالرَّقِيقِ، فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ لَا تَسْتَهْزِئْ بِي، فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ، فَأَخَذَهُ كُلَّهُ، فَاسْتَأَقَهُ، فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا، اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهَكَ، فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَاَنْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ، فَخَرَجُوا يَمْسُونَ) (١)

٢- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " اشْتَرَى رَجُلٌ مِنْ رَجُلٍ عَقَارًا لَهُ، فَوَجَدَ الرَّجُلُ الَّذِي اشْتَرَى الْعَقَارَ فِي عَقَارِهِ جَرَّةً فِيهَا ذَهَبٌ، فَقَالَ لَهُ الَّذِي اشْتَرَى الْعَقَارَ: خُذْ ذَهَبَكَ مِنِّي، إِنَّمَا اشْتَرَيْتُ مِنْكَ الْأَرْضَ، وَلَمْ أَبْتَغِ مِنْكَ الذَّهَبَ، وَقَالَ الَّذِي لَهُ الْأَرْضُ: إِنَّمَا بَعْتُكَ الْأَرْضَ وَمَا فِيهَا، فَتَحَاكَمَا إِلَى رَجُلٍ، فَقَالَ: الَّذِي تَحَاكَمَا إِلَيْهِ: أَلَكُمَا وَلَدٌ؟ قَالَ أَحَدُهُمَا: لِي غُلَامٌ، وَقَالَ الْآخَرُ: لِي جَارِيَةٌ، قَالَ: أَنْكِحُوا الْغُلَامَ الْجَارِيَةَ وَأَنْفِقُوا عَلَى أَنْفُسِهِمَا مِنْهُ وَتَصَدَّقَا " (٢)

فوائد الأمانة: (٣)

- ١ - الأمانة من كمال الإيمان وحسن الإسلام.
- ٢ - يقوم عليها أمر السموات والأرض.
- ٣ - هي محور الدين وامتحان رب العالمين.
- ٤ - بالأمانة يحفظ الدين والأعراض والأموال والأجسام والأرواح والمعارف والعلوم والولاية والوصاية والشهادة والقضاء والكتابة. . .
- ٥ - الأمين يحبه الله ويحبه الناس.

(١) أخرجه البخاري (٢٢٧٢)، ومسلم (١٠٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٧٢)، ومسلم (١٤٢١).

(٣) نضرة النعيم (٣ / ٥٢٤).

٦ - من أعظم الصفات الخلقية التي وصف الله بها عباده المؤمنين بقوله {وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ} [المؤمنون: ٨] و [المعارج: ٣٢].

٧ - مجتمع تفشو فيه الأمانة مجتمع خير وبركة

الوسائل المعينة على اكتساب الأمانة:

١- كمال الإيمان بالله تعالى.

٢- استشعار مراقبة الله تعالى واطلاعه على العبد في كل حركة وسكنة.

٣- عزة النفس وإبائها وعلو همتها.

٤- غنى النفس والقناعة والرضا بما قسم الله من أرزاق بين العباد.

٥- قيام الجهات المسؤولة عن المراقبة والتفتيش بعملها على الوجه المطلوب.

٦- وجود القدوات الحسنة في المجتمع.

٧- التحفيز على ذلك بالمرغبات والمكافئات من قبل الدولة والجهات المسؤولة.

٨- التربية الجادة الهادفة التي تغرس هذا الخلق في النشء منذ الصغر

موانع اكتساب الأمانة:

١- ضعف الإيمان بالله تعالى.

٢- حب الدنيا والحرص والتكالب عليها.

٣- ضعف مراقبة الله تعالى واستشعار قربهِ ومعيتهِ.

٤- دناءة النفس ومهانتها.

٥- ضعف جهات المراقبة والتفتيش وعدم قيامها بواجبها.

٦- غياب الروادع والعقوبات للأيدي الخائنة .

مجالات الأمانة:

الأمانة باب واسع جدًا وأصلها أمران:

الأمر الأول: أمانة في حقوق الله: وهى أمانة العبد في عبادات الله عزّ وجلّ والتكاليف التي

كلفهم بها

والأمر الثاني: أمانة في حقوق البشر: وهي كثيرة جداً منها:

١- **الأمانة في الأموال:** بالعفة عما ليس للإنسان به حق من المال وتأدية ما عليه من حق لذويه وتأدية ما تحت يده منه لأصحاب الحق فيه وتدخل في البيوع والديون والموارث والودائع والرهون والعواري والوصايا وأنواع الولايات الكبرى والصغرى وغير ذلك، قال ابن عثيمين: ومنها الأمانة المالية وهي الودائع التي تعطى للإنسان ليحفظها لأهلها، وكذلك الأموال الأخرى التي تكون بيد الإنسان، لمصلحته أو مصلحة مالكها، وذلك أن الأمانة التي بيد الإنسان؛ إما أن تكون لمصلحة مالكها، أو لمصلحة من هي بيده، أو لمصلحتها جميعاً.

فأما الأول: فالوديعة؛ الوديعة تجعلها عند شخص، تقول مثلاً: هذه ساعتني عندك احفظها لي، أو هذه دراهم احفظها لي وما أشبه هذا، فهذه وديعة بقيت عنده لمصلحة مالكها. وأما التي لمصلحة من هي بيده: فالعارية يعطيك شخص شيئاً يعيرك إياه من إناء، أو فراش، أو ساعة، أو سيارة، فهذه بقيت في يدك لمصلحتك.

أما التي لمصلحة مالكها ومن هي بيده: فالعينُ المستأجرة، فهذه لمصلحتها للجميع؛ استأجرت مني سيارة، وأخذتها، فأنت تتنفع بها في قضاء حاجتك، وأنا أنتفع بالأجرة. وكذلك البيت والدكان وما أشبه ذلك. كل هذه من الأمانات.

٢- **الأمانة في الأعراض:** بالعفة عما ليس للإنسان به حق منها وكف النفس واللسان عن نيل شيء منها بسوء كالقذف والغيبة

٣- **الأمانة في الأجسام والأرواح:** بكف النفس واليد عن التعرض لها بسوء بقتل أو جرح أو ضرر أو أذى

٤- **الأمانة في المعارف والعلوم:** بتأديتها دون تحريف أو تغيير ونسبة الأقوال إلى أصحابها وعدم انتحال الإنسان ما لغيره منها

٥- **الأمانة في الولاية:** بتأدية الحقوق إلى أهلها وإسناد الأعمال إلى مستحقيها الأكفياء لها وحفظ أموال الناس وأجسامهم وأرواحهم وعقولهم وصيانتها مما يؤذيها أو يضر بها وحفظ

الدين الذي ارتضاه الله لعباده من أن يناله أحد بسوء وحفظ أسرار الدولة وكل ما ينبغي كتمانها من أن يتسرب إلى الأعداء إلى غير ذلك من أمور.

قال ابن عثيمين: ومن الأمانة أيضًا: أمانة الولاية وهي أعظمها مسؤولية، الولاية العامة والولايات الخاصة، فالسلطان مثلاً الرئيس الأعلى في الدولة، أمين على الأمة كلها، على مصالحها الدينية ومصلحتها الدنيوية، على أموالها التي تكون في بيت المال، لا يبذرهما، ولا ينفقها في غير مصلحة المسلمين وما أشبه ذلك، وهناك أمانات أخرى دونها، كأمانة الوزير مثلاً في وزارته، وأمانة الأمير في منطقته، وأمانة القاضي في عمله، وأمانة الإنسان في أهله

٦- الأمانة في الشهادة: بتحملها بحسب ما هي عليه في الواقع وبأدائها دون تحريف أو تغيير أو زيادة أو نقصان

٧- الأمانة في القضاء: بإصدار الأحكام وفق أحكام العدل التي استؤمن القاضي عليها وفوض الأمر فيها إليه

٨- الأمانة في الكتابة: بأن تكون على وفق ما يمليه مملئها وعلى وفق الأصل الذي تنسخ عنه فلا يكون فيها تغيير ولا تبديل ولا زيادة ولا نقص وتكون مضامينها خالية من الكذب والتلاعب

٩- الأمانة في الأسرار: التي يستأمن الإنسان على حفظها وعدم إفشائها وتكون الأمانة فيها بكتمتها، قال ابن عثيمين: ومن الأمانات: ما يكون بين الرجل وصاحبه من الأمور الخاصة التي لا يجب أن يطلع عليها أحد، فإنه لا يجوز لصاحبه أن يخبر بها، فلو استأمنك على حديث حدثك به، وقال لك: هذا أمانة، فإنه لا يحل لك أن تخبر به أحداً من الناس، ولو كان أقرب الناس إليك. سواء أوصاك بأن لا تخبر به أحداً، أو علم من قرائن الأحوال أنه لا يجب أن يطلع عليه أحد. ولهذا قال العلماء: إذا حدثك الرجل بحديث والتفت فهذه أمانة، لماذا؟ لأنه كونه يلتفت، فإنه يخشى بذلك أن يسمع أحداً، إذًا فهو لا يجب أن يطلع عليه أحد، فإذا اتئمتك الإنسان على حديث، فإنه لا يجوز لك أن تفشيها.

- ١٠- الأمانة في الرسائل: بتبليغها إلى أهلها تامة غير منقوصة ولا مزيد عليها وعلى وفق رغبة حاملها سواء كانت الرسالة لفظية أو كتابية أو عملية
- ١١- الأمانة في السمع والبصر وسائر الحواس: وذلك بكفها عن العدوان على أصحاب الحقوق وبحفظها عن معصية الله فيها وتوجيهها للقيام بما يجب فيها من أعمال^(١)

(١) انظر: شرح رياض الصالحين لابن عثيمين (٢/٤٦٢-٤٦٥)، والأخلاق الإسلامية وأسسها للميداني (١/٦٤٩-٦٥٠) بتصرف يسير.

٤ - التقوى

المتطوع لا بد أن يتقي الله في عمله وفي المسلمين وفي أموالهم فيجعل بينه وبين غضب الله وعقابه وقاية، وإذا اتصف بالتقوى حسن خلقه مع الفقراء واليتامى والمحتاجين، وغض بصره عن الحرام وكف لسانه عن الأذى وحفظ بطنه من أكل أموال الناس وهي أمانة عنده، لذا لا بد أن يعرف ما هي التقوى حتى يحققها في نفسه وفي مؤسسته الخيرية التي ينتمي لها .

تعريف التقوى

التقوى لغة: هي الاسم من قولهم اتقى والمصدر الاتقاء وكلاهما مأخوذ من مادة (و ق ي) التي تدل على دفع شيء عن شيء بغيره. ووقيته أقيه وقياً. والوقاية: ما يقي الشيء. واثق الله: توفقه، أي اجعل بينك وبينه كالوقاية. قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ)^(١)، وكأنه أراد: اجعلوها وقايةً بينكم وبينها.^(٢)

التقوى اصطلاحاً:

قال الراغب: التقوى في تعارف الشرع حفظ النفس عما يؤثم، وذلك بترك المحذور، ويتم ذلك بترك بعض المباحات لما روي: الحلال بين، والحرام بين، ومن رتع حول الحمى فحقيق أن يقع فيه.^(٣)

قال الجرجاني: والتقوى في الطاعة يراد بها الإخلاص وفي المعصية يراد به الترك والحذر، وقيل: أن يتقي العبد ما سوى الله تعالى

قال الفيروزبادي: التَّقْوَى البالغة الجامعة: اجتنابُ كُلِّ ما فيه ضرر لأمر الدين، وهو المعصية، والفضول، فعلى ذلك ينقسم على فرض، ونفل.^(٤)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: فَالتَّقْوَى فِعْلٌ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَتَرَكُ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ.^(١)

(١) أخرجه البخاري (١٤١٧)، ومسلم (١٠١٦).

(٢) مقاييس اللغة لابن فارس (١٣١/٦).

(٣) المفردات للراغب (٥٣٠).

(٤) بصائر ذوي التمييز للفيروزبادي (٣٠٠/٢).

قال ابن القيم: وأما التقوى فحقيقتها العمل بطاعة الله إيماناً واحتساباً أمراً ونهيًا فيفعل ما أمر الله به إيماناً بالأمر وتصديقاً بوعده ويترك ما نهى الله عنه إيماناً بالنهي وخوفاً من وعيده. كما قال طلق بن حبيب إذا وقعت الفتنة فأطفئوها بالتقوى قالوا: وما التقوى قال: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجوا ثواب الله وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله وهذا أحسن ما قيل في حد التقوى. (٢)

قال ابن رجب: فتقوى العبد لربه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبه وسخطه وعقابه وقاية تقيه من ذلك وهو فعل طاعته واجتناب معاصيه. (٣)

-الآيات والأحاديث وأقوال السلف في التقوى:

-الآيات الدالة على التقوى: لقد بين لنا ربنا سبحانه فضل التقوى في القرآن ودعانا إليها لما فيها من المنافع العظيمة في الدارين ووصانا بها فقال تعالى: {وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ} [النساء: ١٣١]

فما من خير عاجل ولا آجل ظاهر ولا باطن إلا وتقوى الله سبيل موصل إليه، ووسيلة مبلغة له، وما من شر عاجل ولا آجل ظاهر ولا باطن إلا وتقوى الله عز وجل حرز متين وحصن حصين للسلامة منه والنجاة من ضرره وإليك بعض الآيات الدالة على ذلك.

١-التقوى وصية الله عز وجل للأولين والآخرين: قال الله تعالى: {وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا} [النساء: ١٣١].

قال ابن عاشور: جعل الأمر بالتقوى وصيةً: لأن الوصية قول فيه أمرٌ بشيء نافع جامع لخير كثير، فلذلك كان الشأن في الوصية إيجاز القول لأنها يقصد منها وعي السامع، واستحضاره

(١) الفتاوى لابن تيمية (٣/ ١٢٠).

(٢) زاد المهاجر لابن القيم (١٠).

(٣) جامع العلوم والحكم لابن رجب (١/ ١٥٨).

كلمة الوصية في سائر أحواله. والتقوى تجمع الخيرات، لأنّها امتثال الأوامر واجتناب المناهي، ولذلك قالوا: ما تكرر لفظ في القرآن ما تكرر لفظ التقوى. (١)

٢- التقوى أجمل لباس يتزين به العبد قال الله تعالى: { يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ } [الأعراف: ٣٦]

٣- معية الله الخاصة لأهل التقوى المقتضية للحفظ والعناية والنصر والتأييد، ومحبة لهم قال تعالى: { وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ } [البقرة: ١٩٤] وقال تعالى: { فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ } [التوبة: ٧].

قال ابن كثير - رحمه الله -: أمرهم بطاعة الله وتقواه، وإخباراً بأنه تعالى مع الذين اتقوا بالنصر والتأييد في الدنيا والآخرة. (٢)

٤- التقوى سبيل إلى تكفير السيئات ورفع الدرجات وتفريج الكربات ويفرق بها بين الحق والباطل قال الله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ } [الأنفال: ٢٩].

٥- ولشرف التقوى أمرنا الله عز وجل بالتعاون عليها ونهانا عن التعاون على ما يخالفها قال تعالى: { وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } [المائدة: ٢].

- الأحاديث الدالة على التقوى:

١- التقوى وصية النبي صلى الله عليه وسلم لأُمته:

عن العرياض بن سارية - رضي الله عنه - قال: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - ذات يومٍ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَوَعظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجَلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ فَقَالَ قَائِلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةٌ مُودَّعٍ فَمَاذَا نَعْهَدُ إِلَيْنَا فَقَالَ: (أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (٥/٢٢٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢/٢٢٠).

وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسِرَىٰ اخْتِلَافًا كَثِيرًا فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمُهْدِيْنَ الرَّاشِدِينَ تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ. (١)

٢- بين النبي صلى الله عليه وسلم أن التقوى أكثر ما يدخل الجنة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ، فَقَالَ: تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ، وَسُئِلَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ، فَقَالَ: الْفُجُورُ وَالْفِرْجُ. (٢)

٣- بين النبي صلى الله عليه وسلم أن التقوى تشمل كل شيء حتى في المعاملة مع الحيوان:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: أَرَدَنِي رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - خَلْفَهُ ذَاتَ يَوْمٍ فَأَسْرَأَ إِلَيَّ حَدِيثًا لَا أَحَدٌ بِهِ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ وَكَانَ أَحَبُّ مَا اسْتَرَّ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِحَاجَتِهِ هَدَفًا أَوْ حَائِشَ نَخْلٍ. قَالَ: فَدَخَلَ حَائِطًا لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ فَإِذَا جَمَلٌ فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ فَأَتَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ فَسَكَتَ فَقَالَ: مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ. فَجَاءَ فَتَى مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ: أَفَلَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا فَإِنَّهُ شَكَى إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُذَبِّبُهُ. (٣)

٤- التقوى من شيم الكرام: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قَالَ: أَنْتَاهُمْ فَقَالُوا لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ قَالَ: فَيُؤَسِّفُ نَبِيُّ اللَّهِ ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ قَالُوا لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ قَالَ: فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونَ خِيَارَهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقَّهُوا. (٤)

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٧٣٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٠٠٤)، وصححه الألباني في الصحيحة (٩٧٧).

(٣) أخرجه أبو داود (٢٥٤٩)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٢٩٧).

(٤) أخرجه البخاري (٣٣٥٣)، ومسلم (٢٣٧٨).

٦- بالتقوى يتفاضل الناس بعضهم عن بعض: عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: قيل يا رسول الله أي الناس أفضل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مؤمن مجاهد في سبيل الله بنفسه وماله قالوا ثم من قال: مؤمن في شعب من الشعب يتقي الله ويدع الناس من شره. (١)

- أقوال السلف في التقوى:

١- قال رجل لأبي هريرة - رضي الله عنه -: ما التقوى؟ قال: أخذت طريقاً ذا شوك؟ قال: نعم قال: فكيف صنعت؟ قال: إذا رأيت الشوك عدلت عنه أو جاوزته أو قصرت عنه. قال: ذاك التقوى. (٢)

٢- عن وهب بن كيسان قال: كتب إلي عبد الله بن الزبير - رضي الله عنه - بموعظة أما بعد: فإن لأهل التقوى علامات يعرفون بها ويعرفونها من أنفسهم: من صبر على البلاء، ورضي بالقضاء، وشكر النعماء، وذل لحكم القرآن. (٣)

٣- قال عمر بن عبد العزيز: التقى ملجم لا يفعل ما يريد. (٤)

٤- كتب عمر بن عبد العزيز إلى عامل له: اتق الله؛ فإن التقوى هي التي لا يقبل غيرها ولا يرحم إلا أهلها ولا يثاب إلا عليها، فإن الواعظين بها كثير والعاملين بها قليل. (٥)

٥- قال وهب بن منبه: الإيمان عريان، ولباسه التقوى، وزينته الحياء، وماله الفقه. (٦)

٦- قال الإمام الشافعي - رحمه الله -: من لم تعزه التقوى، فلا عز له، وقال أيضاً: أنفع الذخائر التقوى وأضرها العدوان. (٧)

(١) أخرجه البخاري (٢٧٨٦) واللفظ له، ومسلم (١٨٨٨).

(٢) الزهد الكبير للبيهقي (٩٦٣).

(٣) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣٣٦/١).

(٤) شرح السنة للبغوي (٣٤١/١٤).

(٥) تذكرة الحفاظ (١٤٠٢/٤).

(٦) سير أعلام النبلاء (٥٥٠/٤).

(٧) تهذيب الأسماء واللغات للنووي (٥٤/١-٥٥).

- نماذج من تقوى الأنبياء والصحابة والسلف والعلماء:

- نماذج من تقوى الأنبياء: التقوى هى وصية جميع الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام لقومهم.

نوح عليه السلام قال تعالى: {كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ} [الشعراء: ١٠٥ - ١٠٦]

عاد عليه السلام قال تعالى: {كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ} [الشعراء: ١٢٣ - ١٢٤]

ثمود عليه السلام قال تعالى: {كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ} [الشعراء: ١٤١ - ١٤٢]

لوط عليه السلام قال تعالى: {كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ} [الشعراء: ١٦٠، ١٦١]

موسى عليه السلام قال تعالى: {وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ} [الشعراء: ١٠، ١١]

أصحاب الأيكة لقوله تعالى: {كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا} [الشعراء: ١٧٦ - ١٧٩]

ويحى عليه السلام وصفه ربه بالتقوى قال تعالى: {يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا * وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا} [مريم: ١٢ - ١٤]

- نماذج من تقوى النبي صلى الله عليه وسلم: لقد ضرب لنا النبي صلى الله عليه وسلم أروع الأمثلة في تقواه لربه عز وجل ولم لا وهو سيد المتقين وأعبد العابدين، ظهرت التقوى في كل شئون حياته في طاعته لربه، ومعاملته لأهله، ودعوته لقومه، وجهاده لعدوه، فما من موعظة وعظ بها أصحابه إلا وذكرهم بالتقوى وأوصاهم بها وإليك بعض النماذج الدالة على ذلك:

١- كان من تقواه صلى الله عليه وسلم كثرة عبادته وسجوده لربه سبحانه، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ أَخَا لَكُمْ لَا يَقُولُ الرَّفَثَ) يَعْنِي بِذَلِكَ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ قَالَ:

وَفِينَا رَسُولُ اللَّهِ يَتْلُو كِتَابَهُ. . . إِذَا انْشَقَّ مَعْرُوفٌ مِنَ الْفَجْرِ سَاطِعٌ

أَرَانَا الْهُدَى بَعْدَ الْعَمَى فَقَلْبُونَا. . . بِهِ مَوْقِنَاتٌ أَنَّ مَا قَالَ وَاقِعٌ

يَبِيتُ يُجَافِي جَنْبَهُ عَنْ فِرَاشِهِ. . . إِذَا اسْتَقَلَّتْ بِالْمُشْرِكِينَ الْمُضَاجِعُ^(١)

وعن المغيرة بن شعبة - رضي الله عنه - قال: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيَقُومُ لِيُصَلِّيَ حَتَّى تَرِمَ قَدَمَاهُ أَوْ سَاقَاهُ فَيَقَالَ لَهُ، فَيَقُولُ: أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا.^(٢)

٢- كان من تقواه صلى الله عليه وسلم كثرة بكائه وخشيته من ربه: عن عبد الله بن الشخير - رضي الله عنه - قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يُصَلِّي وَفِي صَدْرِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ الرَّحَى مِنَ الْبُكَاءِ صلى الله عليه وسلم.^(٣)

٢- كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أَمَرَ أَمِيرًا أو بعث سرية ذكرهم بتقوى الله عز وجل: عن بريدة الأسلمي - رضي الله عنه - قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أَمَرَ أَمِيرًا على جيش أو سرية أو صباه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرًا ثم قال اغزوا باسم الله في سبيل الله. . . .^(٤)

٣- وصيته صلى الله عليه وسلم للمسافر بالتقوى: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَسَافِرَ فَأَوْصِنِي، قَالَ: عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالتَّكْوِينِ عَلَى كُلِّ شَرَفٍ، فَلَمَّا أَنْ وَلَّى الرَّجُلُ، قَالَ: اللَّهُمَّ اطْوِ لَهُ الْأَرْضَ، وَهَوِّنْ عَلَيْهِ السَّفَرَ.^(٥)

-نماذج من تقوى الصحابة - رضي الله عنهم -:

(١) أخرجه البخاري (١١٥٥).

(٢) أخرجه البخاري (١١٣٠).

(٣) أخرجه أبو داود (٩٠٤)، والنسائي (١٣/٣)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٨٣٩).

(٤) أخرجه مسلم (١٧٣١).

(٥) أخرجه الترمذي (٣٤٤٥)، وابن ماجه (٢٧٧١)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٤٥).

لقد حصّل الصحابة - رضي الله عنهم - بالتقوى ما لم يحصله غيرهم من البشر فبتقواهم بشرهم النبي بالجنة وبها أثنى عليهم المولى عز وجل وبها حصلت لهم القيادة للأمم، والذكر الجميل، والفتوحات المتتابعة، وظهرت آثار التقوى في حياتهم في خوفهم من ربهم، وصلاتهم، وزهدهم، وورعهم. ونصرهم الله بالتقوى على أعدائهم وإليك بعض النماذج الدالة على ذلك:

١- وصف الله تعالى أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - بالتقوى وبين أنها نجاة له من النار وذلك بسبب عمله الصالح فقال تعالى: {وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى } [الليل: ١٧ - ٢١] وكان من تقواه شدة تواضعه وخوفه من ربه وكثرة بكائه فكان يقول: (وددت أني شعرة في جنب عبد مؤمن). (١)

٢- وكان من تقواهم شدة الزهد والورع وحب الخفاء وعدم الظهور والخوف من الرياء: أُنِيَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمًا بِطَعَامِهِ فَقَالَ: قُتِلَ مُضْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ وَكَانَ خَيْرًا مِنِّي فَلَمْ يُوجَدْ لَهُ مَا يُكْفَنُ فِيهِ إِلَّا بُرْدَةٌ، وَقُتِلَ حَمْزَةُ أَوْ رَجُلٌ آخَرُ خَيْرٌ مِنِّي فَلَمْ يُوجَدْ لَهُ مَا يُكْفَنُ فِيهِ إِلَّا بُرْدَةٌ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ قَدْ عَجَّلَتْ لَنَا طَيِّبَاتُنَا فِي حَيَاتِنَا الدُّنْيَا ثُمَّ جَعَلَ يَبْكِي. (٢)

٣- وصية - أبي بكر الصديق رضي الله عنه - الأمة بالتقوى: عن عبد الله بن عكيم - رضي الله عنه - قال: خطبنا أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل قال: (أوصيكم بتقوى الله وأن تشنوا عليه بما هو له أهل، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة فإن الله أثنى على زكريا وأهل بيته فقال: (إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين...)). (٣)

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (١٣٥)

(٢) أخرجه البخاري (١٢٧٤).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣٨٤/٢)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد.

٤- وصية عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أجناده بتقوى الله: كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى سعد بن أبي وقاص ومن معه من الأجناد يوصيه بقوله: (أما بعد، فإني أمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو وأقوى المكيعة في الحرب وأمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصي من احتراسكم من عدوكم فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله... (١).

- نماذج من تقوى السلف - رحمهم الله -:

١- كتب عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - إلى رجل: (أوصيك بتقوى الله عز وجل التي لا يقبل غيرها، ولا يرحم إلا أهلها، ولا يثيب إلا عليها، فإن الواعظين بها كثير، والعاملين بها قليل، جعلنا الله وإياك من المتقين. (٢)

ولما ولي صعد المنبر فحمد الله، وأثنى عليه، وقال: (أوصيكم بتقوى الله عز وجل فإن تقوى الله عز وجل خلف من كل شيء، وليس لتقوى الله خلف يا أيها الناس اتقوا الله أطيعوا من أطاع الله ولا تطيعوا من عصى الله). (٣)

٢- وكان ابن أبي ذئب يصلي الليل أجمع، ويصوم يوماً، ويفطر يوماً، ثم يسرد الصوم، ويجتهد في العبادة، ولو قيل له: إن القيامة غداً، ما كان فيه مزيد اجتهد. (٤)

٣- وهكذا حماد بن سلمة - رحمه الله - لو قيل له: إنك تموت غداً ما قدر على أن يزيد شيئاً على عمله، يقول الذهبي - رحمه الله - معلقاً على ذلك: كانت أوقاته معمورة بالتعبد والأوراد. (٥)

(١) الفاروق عمر بن الخطاب، محمد رشيد رضا (١١٩).

(٢) تذكرة الحفاظ للذهبي (٤/١٤٠٢).

(٣) حلية الأولياء لأبي نعيم (٥/٢٩٧).

(٤) تهذيب الأسماء واللغات للنووي (١/٨٧).

(٥) سير أعلام النبلاء للذهبي (٧/٤٤٧).

٤- وكان منصور بن المعتمر - رحمه الله - يصلي في سطحه فلما مات قال غلام لأمه: يا أمه الجذع الذي كان في سطح آل فلان ليس أراه قالت: يا بني ليس ذاك جذعا ذاك منصور قد مات^(١).

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٤٠/٥).

٤- اللين

يتعرض المتطوعون لنوع من إلحاح السائلين وتكرار مجيئهم لطلب العون، والأصل في معاملة هؤلاء اللين واللفظ حتى لو رده بلا حاجة رده بالمعروف ، فقد يكون ذا حاجة شديدة وعنده عيال أو وقعت له مصيبة فلا يجوز مطلقاً لمن انبرى لهذه الأعمال العظيمة أن يكون ضيق الصدر سريع الانفعال سليط اللسان ، بل البشاشة في وجهه واللفظ على لسانه والرحمة قد ملأت قلبه لكل المسلمين .

تعريف اللين لغة:

قال ابن منظور: اللَّيْنُ: ضِدُّ الْحَشُونَةِ، يُقَالُ فِي فِعْلِ الشَّيْءِ اللَّيْنُ، وَأَلَانُهُ هُوَ وَلَيْنُهُ وَأَلْيَنُهُ: صَبَرَهُ لَيْنًا. وَاسْتَلَانُهُ: عَدَّهُ لَيْنًا^(١)

وقال الراغب: اللين: يستعمل في الأجسام، ثم يستعار للخلق وغيره من المعاني، فيقال: فلان لين، وفلان خشن، وكل واحد منهما يمدح به طوراً، ويذم به طوراً بحسب اختلاف المواقع.^(٢)

تعريف اللين اصطلاحاً:

اللَّيْنُ: هو سهولة الانقياد للحق، والتلطف في معاملة الناس وعند التحدث إليهم.^(٣)

أقسام اللين:

ينقسم اللين بحسب ما يضاف إليه إلى:

١- لين القول: ويعني التلطف في الحديث مع الناس وأكثر ما يكون ذلك مرغوباً في مجال الدعوة إلى الله - عز وجل.

٢- لين القلب: ويعني رفته وخشيته من الله عز وجل، وأكثر ما يكون ذلك عند سماع القرآن.

(١) لسان العرب لابن منظور (٣٩٤/١٣).

(٢) المفردات للراغب (٣٥٤/٢).

(٣) نضرة النعيم (٣٢٩٦/٨).

٣- لين المعاملة: ويعني الرِّفق في معاملة المقصّرين والتماس العذر لهم وعدم تعنيفهم كما حدث من النَّبيِّ صَلَّى الله عليه وسلّم يوم أحد، حيث لم يعنّف المقصّرين بتوفيق الله وبرحمة منه. ^(١)

الأدلة من القرآن والسنة:

الأدلة من القرآن:

١- قال الله تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩)} [آل عمران: ١٥٩]

قال الطبري: فتأويل الكلام: فبرحمة الله يا محمد ورأفته بك وبمن آمن بك من أصحابك، لنت لهم لتباعك وأصحابك فسهلت لهم خلائقك، وحسنت لهم أخلاقك، حتى احتملت أذى من نالك منهم أذاه، وعفوت عن ذي الجرم منهم جرمه، وأغضيت عن كثير ممن لو جفوت به وأغلظت عليه لتركك ففارقك، ولم يتبعك، ولا ما بعثت به من الرحمة، ولكن الله رحيمهم ورحمك معهم، فبرحمة من الله لنت لهم. ^(٢)

٢- وقال تعالى: {اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ (٤٥)} [طه: ٤٣-٤٥]

قال ابن كثير: هَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا عِبْرَةٌ عَظِيمَةٌ، وَهُوَ أَنَّ فِرْعَوْنَ فِي غَايَةِ الْعُتُوِّ وَالِاسْتِكْبَارِ، وَمُوسَى صَفْوَةُ اللَّهِ مِنْ خَلْقِهِ إِذْ ذَاكَ، وَمَعَ هَذَا أَمْرٌ أَلَّا يُخَاطَبَ فِرْعَوْنَ إِلَّا بِالْمَلَاظِفَةِ وَاللِّينِ، كَمَا قَالَ يَزِيدُ الرَّقَاشِيُّ عِنْدَ قَوْلِهِ: {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا}: يَا مَنْ يَتَحَبَّبُ إِلَى مَنْ يُعَادِيهِ فَكَيْفَ بِمَنْ يَتَوَلَّاهُ وَيُنَادِيهِ؟ ^(٣)

الأدلة من السنة:

(١) نضرة النعيم (٣٢٩٦/٨).

(٢) تفسير الطبري (١٨٦/٦).

(٣) تفسير ابن كثير (٢٩٤/٥).

١- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنه ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " إِنْ فِي الْجَنَّةِ غُرْفَةٌ يَرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا، وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا " ، فَقَالَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ: لِمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: " لِمَنْ أَلَانَ الْكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَبَاتَ لِلَّهِ قَائِمًا وَالنَّاسُ نِيَامٌ " ^(١)

قال الطيبي: فيه تلويح إلى أن لين الكلام من صفات عباد الله الصالحين الذين خضعوا لبارئهم، وعاملوا الخلق بالرفق في الفعل والقول. ^(٢)

٢- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم: أتاكم أهل اليمن، هم ألين قلوبا وأرق أفئدة، الإيمان يمان والحكمة يمانية، رأس الكفر قبل المشرق ^(٣)

قال النووي: وَأَمَّا وصفها باللين والرفقة وَالضَّعْفِ فَمَعْنَاهُ أَنَّهَا ذَاتُ خَشْيَةٍ وَاسْتِكَانَةٍ سَرِيعَةٍ الْاسْتِجَابَةِ وَالتَّأَثُّرِ بِقَوَارِعِ التَّذَكِيرِ سَالِمَةً مِنَ الْغِلْظِ وَالشَّدَّةِ وَالْقَسْوَةِ النَّبِيِّ وَصَفَ بِهَا قُلُوبَ الْآخَرِينَ ^(٤)

٣- عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " حُرِّمَ عَلَى النَّارِ كُلُّ هَيِّئٍ لَيْسَ سَهْلٍ قَرِيبٍ مِنَ النَّاسِ " ^(٥).

نماذج من لين النبي صلى الله عليه وسلم:

١- عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ رضي الله عنه ، قَالَ: بَيْنَا أَنَا أَصِلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: يَرْحَمَكَ اللَّهُ فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَاتَّكَلَ أُمِّيَاءَهُ، مَا شَأْنُكُمْ؟ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ، فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَادِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي لَكِنِّي سَكَتُ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَبَإِي هُوَ وَأُمِّي، مَا رَأَيْتُ

(١) أخرجه أحمد (٦٦١٥)، والطبراني في الكبير (١٠٣/١٣)، وصحح إسناده أحمد شاكر.

(٢) الكاشف عن حقائق السنن للطيبي (١٢٠٨-١٢٠٩).

(٣) أخرجه مسلم (٥٢)، وأخرجه البخاري (٤٣٨٨) بنحوه.

(٤) شرح مسلم للنووي (٣٣/٢-٣٤).

(٥) أخرجه أحمد (٣٩٨٣)، وصحح إسناده أحمد شاكر.

مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللَّهِ، مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي، قَالَ: إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ. (١)

قال النووي: فِيهِ بَيَانٌ مَا كَانَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ عَظِيمِ الْخُلُقِ الَّذِي شَهِدَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ بِهِ وَرَفَقَهُ بِالْجَاهِلِ وَرَأْفَتَهُ بِأُمَّتِهِ وَشَفَقَتَهُ عَلَيْهِمْ وَفِيهِ التَّخَلُّقُ بِخُلُقِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الرِّفْقِ بِالْجَاهِلِ وَحُسْنِ تَعْلِيمِهِ وَاللُّطْفِ بِهِ وَتَقَرُّبِ الصَّوَابِ إِلَى فَهْمِهِ. (٢)

٢- عن عائشة رضي الله عنها أَنَّ رَجُلًا اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: انْذُبُوا لَهُ، فَلَبَسَ ابْنُ الْعَشِيرَةِ، أَوْ بَسَّ رَجُلٌ الْعَشِيرَةَ فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ أَلَانَ لَهُ الْقَوْلَ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قُلْتَ لَهُ الَّذِي قُلْتَ، ثُمَّ أَلَنْتَ لَهُ الْقَوْلَ؟ قَالَ: يَا عَائِشَةُ إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مَنْ وَدَّعَهُ، أَوْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ فُحْشِهِ (٣)

قال النووي: وفي هذا الحديث مداراة من يتقى فحشه وجواز غيبة الفاسق المعلن فسقه ومن يحتاج الناس إلى التحذير منه وقد أوضحناه قريباً في باب الغيبة ولم يمدحه النبي صلى الله عليه وسلم ولا ذكر أنه أثنى عليه في وجهه ولا في قفاه إنما تألفه بشئ من الدنيا مع لين الكلام وأما بسّ بن العشيرة أو رجل العشيرة فالمراد بالعشيرة قبيلته أي بسّ هذا الرجل منها. (٤)

٣- عن أبي هريرة، قَالَ: قَامَ أَعْرَابِيٌّ فَبَالَ فِي الْمَسْجِدِ، فَتَنَاوَلَهُ النَّاسُ، فَقَالَ هُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: دَعُوهُ وَهَرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ سَجَلًا مِنْ مَاءٍ، أَوْ ذُنُوبًا مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُسَرِّينَ، وَلَمْ يُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ (٥)

قال ابن عثيمين: فيه حسن خلق الرسول صلى الله عليه وسلم، وتعليمه، ورفقه، وأن هذا هو الذي ينبغي لنا إذا دعونا إلى الله، أو أمرنا بمعروف، أو نهينا عن منكر أن نرفق؛ لأن الرفق يحصل

(١) أخرجه أحمد (٢٣٧٦٢)، وأبو داود (٩٣١)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٨٦٢).

(٢) شرح مسلم للنووي (٢٠/٥).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٩١).

(٤) شرح مسلم للنووي (١٦/١٤٤).

(٥) أخرجه البخاري (٢٢٠).

به الخير، والعنف يحصل به الشر، ربما إذا عرفت أن يحصل من قبيلك ما يسمونه برد الفعل ولا يقبل منك شيئاً، يرد الشرع من أجلك، لكن إذا رفقت وتأنيت فهذا هو الأقرب إلى الإجابة. (١)

لين الصحابة رضي الله عنهم:

* عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ قَالَ: دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى امْرَأَةٍ مِنْ أَحْسَسَ يُقَالُ لَهَا زَيْنَبُ فَرَأَاهَا لَا تَكَلِّمُ فَقَالَ: مَا لَهَا لَا تَكَلِّمُ؟ قَالُوا: حَجَّتْ مُصِمَّةً، قَالَ لَهَا: تَكَلِّمِي فَإِنَّ هَذَا لَا يَحِلُّ هَذَا مِنْ عَمَلِ الْجَاهِلِيَّةِ. فَتَكَلَّمَتْ فَقَالَتْ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: امْرُؤٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ.

قَالَتْ: أَيُّ الْمُهَاجِرِينَ؟ قَالَ: مِنْ قُرَيْشٍ، قَالَتْ: مِنْ أَيِّ قُرَيْشٍ أَنْتَ؟ قَالَ: إِنَّكَ لَسْتُ لَ.

أَنَا أَبُو بَكْرٍ. قَالَتْ: مَا بَقَاؤُنَا عَلَى هَذَا الْأَمْرِ الصَّالِحِ الَّذِي جَاءَ اللَّهُ بِهِ بَعْدَ الْجَاهِلِيَّةِ؟

قَالَ: بَقَاؤُكُمْ عَلَيْهِ مَا اسْتَقَامَتْ بِكُمْ أُنْمَتُكُمْ. قَالَتْ وَمَا الْأُئِمَّةُ؟ قَالَ: أَمَا كَانَ لِقَوْمِكَ رُءُوسٌ

وَأَشْرَافٌ يَأْمُرُونَهُمْ فَيَطِيعُونَهُمْ؟ قَالَتْ: بَلَى. قَالَ: فَهُمْ أَوْلَئِكَ عَلَى النَّاسِ. (٢)

* عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ: أَتَيْنَا عُمَرَ فِي وَفْدٍ فَجَعَلَ يَدْعُو رَجُلًا رَجُلًا وَيُسَمِّيهِمْ. فَقُلْتُ: أَمَا

تَعْرِفُنِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: بَلَى أَسْلَمْتَ إِذْ كَفَرُوا وَأَقْبَلْتَ إِذْ أَدْبَرُوا وَوَفَيْتَ إِذْ عَدَرُوا

وَعَرَفْتَ إِذْ أَنْكَرُوا. فَقَالَ عَدِيٌّ: فَلَا أَبَالِي إِذَا. (٣)

(١) شرح رياض الصالحين لابن عثيمين (٣/٥٨٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٣٤).

(٣) أخرجه البخاري (٤٣٩٤).

٦- الرحمة

لن يستشعر المتطوعون حاجة الناس إلى المساعدة ويجدّوا في رفع الباء والضميم عنهم إلا إذا كانوا رحماء، فالرحمة هي الدافع الأكبر لقيامهم بخدمة المحتاجين، ولذا نرى من يقوم بهذه الأعمال من أهل الكفر لأن الرحمة في قلبه فرحم الأرملة والمسكين وابن السبيل، والمسلمون أولى الناس بالعمل بهذه الصفة لأن ديننا قام على الرحمة.

تعريف الرحمة

قال ابن منظور: والرحمةُ في بني آدم عند العرب رِقَّةُ القلب وعطفه. (١)

قال الجوهري: الرحمة: الرقة والتعطف. والرحمة مثله. وقد رحمته وترحمت عليه. وتراحم القوم: رحم بعضهم بعضاً. (٢)

-معنى الرحمة اصطلاحاً:

قال الجرجاني: الرحمة هي إرادة إيصال الخير. (٣)

وقيل: الرحمة هي حالة وجدانية تعرض غالباً لمن به رقة القلب وتكون مبدأً للانعطاف النفساني الذي هو مبدأ الإحسان. (٤)

وقيل: الرحمة رقة في النفس تبعث على سوق الخير لمن تتعدى إليه. (٥)

قال الراغب الأصبهاني: الرحمة رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وقد تستعمل تارة في الرقة المجردة، وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة. (٦)

وقيل: هي رقة في النفس تبعث على سوق الخير لمن تتعدى إليه. (١)

(١) لسان العرب لابن منظور (١٦١٢).

(٢) الصحاح للجوهري (١٩٢٩/٥).

(٣) التعريفات للجرجاني (١٦٤/١).

(٤) الكليات للكفوي (٤٧١).

(٥) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٦/٢٤).

(٦) المفردات للراغب (٣٩١/١).

-مرادفات الرحمة: من هذه المرادفات الرأفة لكن بينهما فرق يسير فالرأفة خاصة في دفع المكروه عن المرحوم بينما الرحمة تشمل هذا وغيره.

قال ابن عاشور: الرأفة: رقة تنشأ عند حدوث ضرر بالمرءوف به. يقال: رؤوف رحيم. والرحمة: رقة تقتضي الإحسان للمرحوم، بينهما عموم وخصوص مطلق.^(٢)

يقول العلامة السعدي - رحمه الله -: (والرحمة التي يتصف بها العبد نوعان:

النوع الأول: رحمة غريزية، قد جبل الله بعض العباد عليها، وجعل في قلوبهم الرأفة والرحمة والحنان على الخلق، ففعلوا بمقتضى هذه الرحمة جميع ما يقدرون عليه من نفعهم، بحسب استطاعتهم. فهم محمودون مثابون على ما قاموا به، معذورون على ما عجزوا عنه، وربما كتب الله لهم بنياتهم الصادقة ما عجزت عنه قواهم.

والنوع الثاني: رحمة يكتسبها العبد بسلوكه كل طريق ووسيلة، تجعل قلبه على هذا الوصف، فيعلم العبد أن هذا الوصف من أجل مكارم الأخلاق وأكملها، فيجاهد نفسه على الاتصاف به، ويعلم ما رتب الله عليه من الثواب، وما في فواته من حرمان الثواب؛ فيرغب في فضل ربه، ويسعى بالسبب الذي ينال به ذلك. ويعلم أن الجزء من جنس العمل. ويعلم أن الأخوة الدينية والمحبة الإيمانية، قد عقدتها الله وربطها بين المؤمنين، وأمرهم أن يكونوا إخواناً متحابين، وأن يبنذوا كل ما ينافي ذلك من البغضاء، والعداوات، والتدابير).^(٣)

-الآيات والأحاديث في الرحمة:

ذكر الله تعالى هذا الخلق في القرآن في مواضع عديدة فوصف بها نفسه وذكرها في معرض الامتنان على عباد به يسبغه عليهم من آثارها، أو من باب المدح والثناء للمتصفين بها إلى غير ذلك من السياقات، وإليك بعض الآيات الدالة على ذلك:

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٤/٢٦).

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (٧٣/١١).

(٣) بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار للسعدي (٢٧٠).

١- تسميته جل وعلا باسم الرحمن الرحيم واتصافه بصفة الرحمة قال الله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} [الفاتحة: ٢، ٣]

قال ابن عباس - رضي الله عنه -: الرحمن الرحيم: الرقيق الرفيق بمن أحب أن يرحمه. (١)
قال الشيخ السعدي - رحمه الله -: (الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) اسمان دالان على أنه تعالى ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي، وكتبها للمتقين المتبعين لأنبيائه ورسله. فهو لاء لهم الرحمة المطلقة، ومن عداهم فلهم نصيب منها. (٢)

٢- لقد أرسل الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين فقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: ١٠٧]

٣- وفي بيان أن من رحمته مغفرة الذنوب لمن تاب ورجع إليه قال الله تعالى: {وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [الأنعام: ٥٤].

٤- ومن امتنانه على خلقه أن رحمته وسعت كل شيء لكن مع سعتها لا يستحقها إلا أهل الإيمان قال الله تعالى: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ} [الأعراف: ١٥٦].

قال ابن كثير - رحمه الله -: آية عظيمة الشمول والعموم. (٣)

٥- ولقد امتن الله على خلقه بما شرع لهم من أحكام وبين أن ذلك من كمال رحمته ورأفته بهم قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا} [النساء: ٢٩]

قال ابن كثير - رحمه الله -: (إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا) أي: فيها أمركم به، ونهاكم عنه. (٤)

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٢٠٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي (٣٩).

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٤٠٣).

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/ ٤٥٥).

٦- ولقد امتن الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بهذا الخلق العظيمة فقال الله تعالى: {فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} [آل عمران: ١٥٩]

قال الشيخ السعدي - رحمه الله - : أي: برحمة الله لك ولأصحابك، من الله عليك أن ألنت لهم جانبك، وخفضت لهم جناحك، وترققت عليهم، وحسنت لهم خلقك، فاجتمعوا عليك وأحبوك، وامثلوا أمرك. (١)

٩- وامتن الله تعالى على الصحابة - رضي الله عنهم - فوصفهم بهذا الخلق العظيم، فقال الله تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيَاهُ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [الفتح: ٢٩]

قال ابن كثير - رحمه الله - : وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديداً عنيفاً على الكفار، رحيماً براً بالأخيار، غضوباً عبوساً في وجه الكافر، ضحوكاً بشوشاً في وجه أخيه المؤمن. (٢)

-الأحاديث الدالة على الرحمة:

لقد جاء في السنة النصوص الكثيرة الدالة على هذا الخلق والحث عليه والرغبة فيه إما منطوقاً أو مفهوماً ومن هذه النصوص:

١- وصف النبي صلى الله عليه وسلم نفسه بأنه رحمة مهداة: عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُسَمِّي لَنَا نَفْسَهُ أَسْمَاءً، فَقَالَ: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وَالْمُقَفِّي، وَالْحَاشِرُ، وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ. (١)

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي (١٥٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٣/ ١٣٢).

٢- عن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحِمِهِمْ وَتَوَادُّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى). (٢)

قال النووي - رحمه الله -: الأحاديث صريحة في تعظيم حقوق المسلمين بعضهم على بعض وحثهم على التراحم والملاطفة والتعاضد في غير إثم ولا مكروه. (٣)

٣- عن أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: (جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ فَأَمْسَكَ عَنْهُ تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ جُزْءًا وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ يَتَرَأَى حَرَامُ الْخَلْقِ حَتَّى تَرْفَعَ الْفَرَسُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةً أَنْ تُصِيبَهُ). (٤)

٤- عن أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قَالَ: قَبَّلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ وَعِنْدَهُ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ جَالِسًا فَقَالَ الْأَقْرَعُ إِنَّ لِي عَشْرَةَ مِنْ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا، فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ: (مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ). (٥)

قال ابن بطلال - رحمه الله -: في هذه الأحاديث الحض على استعمال الرحمة للخلق كلهم كافرهم ومؤمنهم ولجميع البهائم والرفق بها. وأن ذلك مما يغفر الله به الذنوب ويكفر به الخطايا، فينبغي لكل مؤمن عاقل أن يرغب في الأخذ بحظه من الرحمة، ويستعملها في أبناء جنسه وفي كل حيوان، فلم يخلقه الله عبثًا، وكل أحد مسئول عما استرعيه وملكه من إنسان أو بهيمة لا تقدر على النطق وتبين ما بها من الضر، وكذلك ينبغي أن يرحم كل بهيمة وإن كانت في غير ملكه، ألا ترى أن الذي سقى الكلب الذي وجدته بالفلاة لم يكن له ملكًا فغفر الله له. (٦)

(١) أخرجه مسلم (٢٣٥٥).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦).

(٣) شرح النووي على مسلم (١٦ / ١٣٩).

(٤) أخرجه البخاري (٦٠٠٠)، ومسلم (٢٧٥٢).

(٥) أخرجه البخاري (٥٩٩٧)، ومسلم (٢٣١٨).

(٦) شرح صحيح البخاري لابن بطلال (٢١٩ / ٩).

قال الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله - : ينبغي لنا أن نعود أنفسنا على رحمة الصبيان وعلى رحمة كل من يحتاج الرحمة من اليتامى والفقراء والعاجزين وغيرهم وأن نجعل في قلوبنا رحمة ليكون ذلك سببا لرحمة الله إيانا لأننا أيضا محتاجون إلى الرحمة ورحمتنا لعباد الله سبب لرحمة الله لنا نسأل الله أن يعمننا وإياكم برحمته. (١)

- أقوال السلف في الرحمة:

١- قال عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - : اللهم إن لم أكن أهلاً أن أبلغ رحمتك فإن رحمتك أهل أن تبلغني رحمتك وسعت كل شيء وأنا شيء فلتسعني رحمتك يا أرحم الراحمين اللهم إنك خلقت قوما فأطاعوك فيما أمرتهم وعملوا في الذي خلقتهم له فرحمتك إياهم كانت قبل طاعتهم لك يا أرحم الراحمين. (٢)

٢- قال ابن القيم - رحمه الله - : الرحمة صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد وإن كرهتها نفسه وشقت عليها فهذه هي الرحمة الحقيقية فأرحم الناس بك من شق عليك في إيصال مصالحك ودفع المضار عنك. (٣)

٣- عن النضر بن شميل - رحمه الله - قال: ما رأيت أرحم لمسكين من شعبة إذا رأى المسكين لا يزال ينظر إليه حتى يتغيب عن وجهه. (٤)

٤- قال أبو سليمان الداراني - رحمه الله - : (إنما الغضب على أهل المعاصي عندما حل نظرك إليهم عليها فإذا تفكرت فيما يصيرون إليه من عقوبة الآخرة دخلت الرحمة لهم القلب) (٥)

٥- قال البخاري - رحمه الله - : سمعت بعض أصحابنا يقول: عاد حماد بن سلمة سفيان الثوري، فقال سفيان: يا أبا سلمة أترى الله يغفر لمثلي؟ فقال حماد: والله لو خيرت بين محاسبة الله إياي، وبين محاسبة أبيي، لاخترت محاسبة الله، وذلك لأن الله أرحم بي من أبيي. (١)

(١) شرح رياض الصالحين لابن عثيمين (٣/١٣٢). بتصرف

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٥/٢٩٩).

(٣) إغاثة اللهفان لابن القيم (٢/١٧٤).

(٤) حلية الأولياء لأبي نعيم (٧/١٤٦).

(٥) حلية الأولياء لأبي نعيم (٩/٢٧٣).

- نماذج من رحمة الأنبياء والصحابة والسلف والعلماء:

- نماذج من رحمة الأنبياء:

١- رحمة إبراهيم عليه السلام بأبيه وهو يدعو إلى التوحيد برفق ولين وود ، قال الله تعالى عن إبراهيم وهو يدعو أباه: { يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا } [مريم: ٤٣ - ٤٥]

٢- رحمة نوح عليه السلام بابنه قال الله تعالى: { وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ } [هود: ٤٢]

- نماذج من رحمة النبي صلى الله عليه وسلم:

١- رحمته صلى الله عليه وسلم بالكفار. عن عائشة - رضي الله عنها - رَوَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمٍ أُحِدٍ؟ قَالَ: (لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكَ مَا لَقِيتُ وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كَلَالٍ فَلَمْ يُجِئْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ فَأَنْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي فَتَنَظَّرْتُ فَإِذَا فِيهَا جَبْرِيلُ فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ فَقَالَ ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ إِنَّ شِئْتَ أَنْ أَطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبِينَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا) (٢)

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (٧/٤٤٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).

قال ابن حجر - رحمه الله - : وفي هذا الحديث بيان شفقة النبي صلى الله عليه وسلم على قومه ومزيد صبره وحلمه وهو موافق لقوله تعالى : {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ} [آل عمران: ١٥٩]، وقوله : {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: ١٠٧]. (١)

٢- رحمته صلى الله عليه وسلم بالأمهات. عن أبي قتادة - رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إِنِّي لَأَقُومُ فِي الصَّلَاةِ أُرِيدُ أَنْ أُطَوِّلَ فِيهَا فَأَسْمَعَ بُكَاءَ الصَّبِيِّ فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلَاتِي كَرَاهِيَةً أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ). (٢)

٣- رحمته صلى الله عليه وسلم بالحيوان. عن عبد الله بن جعفر - رضي الله عنه - قال: أَرَدَنِي رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم خَلْفَهُ ذَاتَ يَوْمٍ فَأَسْرَّ إِلَيَّ حَدِيثًا لَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ وَكَانَ أَحَبُّ مَا اسْتَرَّ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لِحَاجَتِهِ هَدَفًا أَوْ حَائِشَ نَحْلٍ. قَالَ: فَدَخَلَ حَائِطًا لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ فَإِذَا جَمَلٌ فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ فَأَتَاهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ فَسَكَتَ فَقَالَ: (مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ). فَجَاءَ فَتَى مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ: (أَفَلَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا فَإِنَّهُ شَكَى إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْبِئُهُ). (٣)

٤- رحمته وشفقته صلى الله عليه وسلم بأصحاب الحاجات والقيام بشئونهم ومصلحتهم: عن أنس رضي الله عنه، أَنَّ امْرَأَةً كَانَتْ فِي عَقْلِهَا شَيْءٌ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً، فَقَالَ: يَا أُمَّ فُلَانٍ انْظُرِي أَيَّ السَّكَنِ شِئْتَ، حَتَّى أَفْضِيَ لَكَ حَاجَتَكَ، فَخَلَا مَعَهَا فِي بَعْضِ الطُّرُقِ، حَتَّى فَرَغَتْ مِنْ حَاجَتِهَا. (٤)

-نماذج من رحمة الصحابة - رضي الله عنهم -:

(١) فتح الباري لابن حجر (٦/٣٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٧).

(٣) أخرجه أبو داود (٢٥٤٩)، وأحمد (١٧٤٥)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٢٦٩).

(٤) أخرجه مسلم (٢٣٢٦).

١- عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، أَنَّهَا قَالَتْ: جَاءَتْنِي مِسْكِينَةٌ تَحْمِلُ ابْنَتَيْنِ لَهَا، فَأَطْعَمْتُهَا ثَلَاثَ تَمَرَاتٍ، فَأَعْطَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا تَمْرَةً، وَرَفَعْتُ إِلَى فِيهَا تَمْرَةً لِتَأْكُلَهَا، فَاسْتَطَعَمْتُهَا ابْنَتَاهَا، فَشَقَّتِ التَّمْرَةَ، الَّتِي كَانَتْ تُرِيدُ أَنْ تَأْكُلَهَا بَيْنَهُمَا، فَأَعْجَبَنِي شَأْنُهَا، فَذَكَرْتُ الَّذِي صَنَعْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْجَبَ لَهَا بِهَا الْجَنَّةَ، أَوْ أَعْتَقَهَا بِهَا مِنَ النَّارِ. (١)

٢- كان أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - رحيماً بالعجائز والحواري وهو أمير المؤمنين يحلب لمن ويقوم على حوائجهم قالت عائشة - رضي الله عنها -: (كان يحلب للحي أغنامهم فلما بويع له بالخلافة قالت جارية من الحي: الآن لا تحلب لنا منائح دارنا، فسمعها أبو بكر فقال: بلى لعمرى لأحلبنها لكم وإني لأرجو ألا يغيرني ما دخلت فيه عن خلق كنت عليه، فكان يحلب لهم فربما قال للجارية من الحي: يا جارية أتخبين أن أرعى لك أو أصرح فربما قالت ارع وربما قالت صرح (٢) فأبي ذلك قالته فعل). (٣)

٣- ولقد بلغت الرحمة مبلغاً عظيماً في الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - الذي بلغ من القسوة والغلظة في جاهليته أعظمها، فلما ذاق طعم الإيمان أصبح إماماً يقتدى به في اللين ، لما ولي الخلافة خطب الناس مطمئناً لهم فكان مما قال: (اعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت، ولكنّها إنما تكون على أهل الظلم والتعدي على المسلمين، فأما أهل السلامة والدين والقصد فأنا ألين لهم من بعضهم لبعض، وإنني بعد شدتي تلك أضع خدي على الأرض لأهل العفاف وأهل الكفاف). (٤)

وكان رحمه الله رحيماً بالصغير والكبير ويقوم على حوائج الناس قال طلحة بن عبد الله: خرج عمر ليلة في سواد الليل فدخل بيتاً فلما أصبحت ذهبت إلى ذلك البيت فإذا عجوز

(١) أخرجه مسلم (٢٦٣٠).

(٢) الصريح: اللين إذا ذهبت رغوته ولين صريح ساكن الرغوة خالص. لسان العرب (٢٤٢٦).

(٣) تاريخ الطبري (٤٣٢/٣).

(٤) الاعتقاد للبيهقي (٥٠٧).

عمياء مقعدة فقلت لها: ما بال هذا الرجل يأتيكي؟ فقالت: إنه يتعاهدني مدة كذا وكذا يأتيني بما يصلحني ويخرج عني الاذي.^(١)

وقال أسلم: خرجت ليلة مع عمر إلى ظاهر المدينة فلاح لنا بيت شعر فقصدناه فإذا فيه امرأة تمخض وتبكي، فسألها عمر عن حالها فقالت: أنا امرأة عربية وليس عندي شيء. فبكى عمر وعاد يهرول إلى بيته فقال لامرأته أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب: هل لك في أجر ساقه الله إليك؟ وأخبرها الخبر، فقالت: نعم، فحمل على ظهره دقيقا وشحما، وحملت أم كلثوم ما يصلح للولادة وجاء، فدخلت أم كلثوم على المرأة، وجلس عمر مع زوجها - وهو لا يعرفه - يتحدث، فوضعت المرأة غلاما فقالت أم كلثوم: يا أمير المؤمنين بشر صاحبك بغلام فلما سمع الرجل قولها استعظم ذلك وأخذ يعتذر إلى عمر فقال عمر: لا بأس عليك، ثم أوصلهم بنفقة وما يصلحهم وانصرف.^(٢)

٤- كان جعفر بن أبي طالب - رضي الله عنه - رحيما بالمساكين يعطف عليهم ويطعمهم فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا نسمي جعفرًا (أبا المساكين)، كان يذهب بنا إلى بيته، فإذا لم يجد لنا شيئا، أخرج إلينا عكَّة^(٣) أثرها عسل، فشققها ونلحقها.^(٤)

-نماذج من رحمة السلف - رحمهم الله - وأقوالهم:

١- كان السري يقول: هذا الذي أنا فيه من بركات معروف الكرخي انصرفت من صلاة العيد، فرأيت مع معروف صبيا شعئا، فقلت: من هذا؟ قال: رأيت الصبيان يلعبون، وهذا واقف منكسر، فسألته: لم لا تلعب؟ فقال: أنا يتيم فقلت: ما ترى أنك تعمل به؟ فقال: لعلي أخلو فأجمع له نوى يشتري به جوزا يفرح به. فقلت له: أعطينيه أغير من حاله. فقال لي: أو تفعل؟ فقلت: نعم. فقال لي: خذه أغنى الله قلبك، فساوت الدنيا عندي أقل من كذا.^(٥)

(١) البداية والنهاية لابن كثير (١٠/١٨٥).

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (١٠/١٨٦).

(٣) العكَّة: ظرف السمن

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبي (١/٢١٧).

(٥) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/١٢٣).

رحمة شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -:

قال الحافظ عمر بن علي البزار: (وحدثني من أثق به أن الشيخ رضي الله عنه كان مازًا يومًا في بعض الأزقة فدعا له بعض الفقراء وعرف الشيخ حاجته ولم يكن مع الشيخ ما يعطيه فنزع ثوبًا على جلده ودفعه إليه وقال بعه بما تيسر وأنفقته واعتذر إليه من كونه لم يحضر عنده شيء من النفقة).^(١)

قال مصطفى لطفى المنفلوطي:

(إن الرحمة كلمة صغيرة ولكن بين لفظها ومعناها من الفرق مثل ما بين الشمس في منظرها، والشمس في حقيقتها.

لو تراحم الناس لما كان بينهم جائع ولا مغبون ولا مهضوم ولأقفرت الجفون من المدامع ولاطمأنت الجنوب في المضاجع. ولمحت الرحمة الشقاء من المجتمع كما يمحو لسان الصبح مداد الظلام.

أيها الإنسان ارحم الأرملة التي مات عنها زوجها ولم يترك لها غير صبية صغار ودموع غزار ارحمها قبل أن ينال اليأس منها ويعبث الهم بقلبها فتؤثر الموت على الحياة. ارحم الزوجة أم ولدك وقعيدة بيتك ومرأة نفسك وخادمة فراشك لأنها ضعيفة ولأن الله قد وكل أمرها إليك وما كان لك أن تكذب ثقته بك.

ارحم ولدك وأحسن القيام على جسمه ونفسه فإنك إلا تفعل قتلته أو أشقيته فكنت أظلم الظالمين.

ارحم الجاهل لا تتحين فرصة عجزه عن الانتصاف لنفسه فتجمع عليه بين الجهل والظلم ولا تتخذ عقله متجراً تربح فيه ليكون من الخاسرين. ارحم الحيوان لأنه يحس كما تحس ويتألم كما تتألم ويكي بغير دموع ويتوجع. أيها السعداء أحسنوا إلى البائسين والفقراء، وامسحوا دموع الأشقياء وارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء.^(٢)

(١) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية لسراج الدين (٦٥).

(٢) مؤلفات مصطفى لطفى المنفلوطي الكاملة (٨٨).

٧- بشاشة الوجه

إن بشاشة وجه المتطوع هي أعظم إعلان ودعاية لنجاح مهمته ، وتقطيب الجبين في وجه المنفقين سيؤدي ولا بد إلى تغيير مسارهم إلى جهة أخرى بل ربما تجتمع عند مؤسسة خيرية خيرات كثيرة لكن الناس يأنفون الذهاب إليها لما يرون من فظاظة وغلظة القائمين على توزيعها ، فالبشاشة وطلاقة الوجه انطلاق للعمل والغلظة إفساد وإفشال له .

تعريف بشاشة الوجه:

معنى البَشَاشَة لغة: مصدر بش، وهو مأخوذ من مادة (ب ش ش) التي تدل في اللغة على معنى واحد هو اللقاء الجميل. والضَّحْك إلى الإنسان سرورًا به. (١)

قال ابن منظور: والبَشَاشَة طلاقة الوجه. والبَشُّ اللطف في المسألة، والإقبال على الرجل، وقيل هو أن يضحك له، ويلقاه لقاء جميلاً. وقيل فرح الصديق واللطف في المسألة والإقبال عليه، ويقال رجل هَشُّ بَشٍّ وبَشَّاش طَلَقَ الوجه طَيَّبَ وقد بَشَّشْتُ به بالكسر أَبَشُّ بَشًّا وبَشَاشَةً. (٢)

-معنى البَشَاشَة اصطلاحاً:

البَشَاشَة هي: طلاقة الوجه، مع الفرح، والتَّبَسُّم، وحسن الإقبال، واللُّطْف في المسألة. (٣)

-الآيات الدالة على التبسم وبشاشة الوجه:

١- قال تعالى: {فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ} [النمل: ١٩]

٢- قال تعالى: {وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [القيامة: ٢٢، ٢٣]

٣- قال تعالى: {وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ} [عبس: ٣٨، ٣٩]

الأحاديث الدالة على بشاشة الوجه:

(١) مقاييس اللغة لابن فارس (١/ ١٨٢).

(٢) لسان العرب لابن منظور (٢٨٨ - ٢٨٩).

(٣) لسان العرب لابن منظور (٢٨٨).

١- عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ : قَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا ، وَلَوْ أَنَّ تَلَقَّى أَخَاكَ بِوَجْهِ طَلْقٍ .^(١)

قال النووي - رحمه الله - : قوله صلى الله عليه وسلم (ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق) روي (طلق) على ثلاثة أوجه : إسكان اللام وكسرها ، وطلاق ، بزيادة ياء ، ومعناه : سهل منبسط . فيه الحث على فضل المعروف ، وما تيسر منه وإن قل ، حتى طلاقة الوجه عند اللقاء .^(٢)

٢- عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ ، وَأَمْرُكَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيُكَ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ ، وَإِرْشَادُكَ الرَّجُلَ فِي أَرْضِ الضَّلَالِ لَكَ صَدَقَةٌ ، وَبَصْرُكَ لِلرَّجُلِ الرَّدِيءِ الْبَصَرَ لَكَ صَدَقَةٌ ، وَإِمَاطَتُكَ الْحَجَرَ وَالشَّوْكَةَ وَالْعَظْمَ عَنِ الطَّرِيقِ لَكَ صَدَقَةٌ ، وَإِفْرَاغُكَ مِنْ دُلُوكَ فِي دُلُوِّ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ .^(٣)

قال المناوي : قال ابن عيينة : والبشاشة مصيدة المودة ، والبر شيء هين ، وجه طليق ، وكلام لين . وفيه ردُّ على العالم الذي يصعِّر خدَّه للناس ، كأنه معرض عنهم ، وعلى العابد الذي يعبس وجهه ويقطب جبينه ، كأنه منزَّه عن النَّاس ، مستقذر لهم ، أو غضبان عليهم . قال الغزالي : ولا يعلم المسكين أنَّ الورع ليس في الجبهة حتى يُقَطَّب ، ولا في الوجه حتى يُعَفَّر ، ولا في الخدِّ حتى يُصَعَّر ، ولا في الظهر حتى ينحني ، ولا في الذَّيل حتى يُضَمَّ ، إنَّما الورع في القلب .^(٤)

أقوال السلف في بشاشة الوجه :

١- عن هشام بن عروة ، عن أبيه قال : مكتوب في الحكمة : ليكن وجهك بسيطاً ، وكلمتك طيبة ، تكن أحبَّ إلى النَّاس من الذي يعطيهم العطاء .^(٥)

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٦) .

(٢) شرح النووي على مسلم (١٧٧/١٦) .

(٣) أخرجه الترمذي (١٩٥٦) ، وصححه الألباني في الصحيحة (٥٧٢) .

(٤) فيض القدير للمناوي (٢٢٦/٣) .

(٥) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٧٨/٢) .

٢- قال معاذ بن جبل رضي الله عنه: إِنَّ الْمُسْلِمِينَ إِذَا التَّقِيَا، فَضَحَكَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فِي وَجْهِ صَاحِبِهِ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِهِ، تَحَاثَّتْ ذُنُوبُهُمَا كَتَحَاتِ وَرَقِ الشَّجَرِ. (١)

٣- قال ابن القيم: طَلَاقَةُ الْوَجْهِ وَالْبَشَرِ الْمَحْمُودِ وَسَطٌ بَيْنَ التَّعْبِيسِ وَالتَّقْطِيبِ، وَتَصْغِيرِ الْخُذِّ، وَطَيِّ الْبَشَرِ عَنِ الْبَشَرِ، وَبَيْنَ الْإِسْتِرْسَالِ مَعَ كُلِّ أَحَدٍ بِحَيْثُ يَذْهَبُ الْهَيْبَةُ، وَيَزِيلُ الْوَقَارَ، وَيَطْمَعُ فِي الْجَانِبِ، كَمَا أَنَّ الْإِنْحِرَافَ الْأَوَّلَ يُوَقِّعُ الْوَحْشَةَ، وَالْبَغْضَةَ، وَالنُّفْرَةَ فِي قُلُوبِ الْخُلُقِ، وَصَاحِبِ الْخُلُقِ الْوَسْطِ: مَهِيبٌ مَحْبُوبٌ، عَزِيزٌ جَانِبُهُ، حَبِيبٌ لِقَاؤُهُ. وَفِي صِفَةِ نَبِيَّنَا: مَنْ رَأَاهُ بِدِيْهَةِ هَابِهِ، وَمَنْ خَالَطَهُ عَشْرَةَ أَحَبَّهُ (٢).

٤- قال ابن حبان: الْبَشَاشَةُ إِدَامُ الْعُلَمَاءِ، وَسَجِيَّةُ الْحُكَمَاءِ؛ لِأَنَّ الْبَشَرَ يَطْفِئُ نَارَ الْمَعَانِدَةِ، وَيَحْرِقُ هَيْجَانَ الْمُبَاغُضَةِ، وَفِيهِ تَحْصِينٌ مِنَ الْبَاغِي، وَمَنْجَاةٌ مِنَ السَّاعِي. (٣)

٥- قال ميمون بن مهران: الْمَرْوَةُ طَلَاقَةُ الْوَجْهِ وَالتَّوَدُّدُ إِلَى النَّاسِ وَقَضَاءُ الْحَوَائِجِ. (٤)

-نماذج من بشاشة النبي صلى الله عليه وسلم:

١- بَشَاشَتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَخْتِ خَدِيجَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- وَفَاءً لَهَا: عَنْ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- قَالَتْ: اسْتَأْذَنْتُ هَالَةَ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ أُخْتُ خَدِيجَةَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَعَرَفَ اسْتِئْذَانَ خَدِيجَةَ فَارْتَاحَ لَذَلِكَ فَقَالَ: اللَّهُمَّ هَالَةَ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ فَعَرُتُ فَقُلْتُ: وَمَا تَذْكُرُ مِنْ عَجُوزٍ مِنْ عَجَائِزِ قُرَيْشٍ، حَمْرَاءِ الشُّدْقَيْنِ، هَلَكْتُ فِي الدَّهْرِ فَأَبْدَلَكَ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهَا. (٥)

٢- بَشَاشَتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ مُقَابَلَةِ ذَوِي الْخُلُقِ السَّيِّئِ، مُدَارَاةَ لَهُمْ؛ اتِّقَاءَ لِفَحْشَتِهِمْ وَتَأْلِيفًا لَهُمْ، كَمَا وَرَدَ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- أَخْبَرَتْهُ قَالَتْ: (اسْتَأْذَنَ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ ائْذَنُوا لَهُ بِشَسْ أَخُو الْعَشِيرَةِ أَوْ ابْنِ الْعَشِيرَةِ

(١) التذكرة الحمدونية لابن حمدون (١/٢٠٤).

(٢) مدارج السالكين لابن القيم (٢/٢٣٧).

(٣) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء لابن حبان (١/٧٥).

(٤) تاريخ دمشق لابن عساكر (٦١/٣٦٣).

(٥) أخرجه البخاري (٣٨٢٠)، ومسلم (٢٤٣٧).

فَلَمَّا دَخَلَ أَلَانَ لَهُ الْكَلَامَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قُلْتَ الَّذِي قُلْتَ ثُمَّ أَلَنْتَ لَهُ الْكَلَامَ قَالَ أَيُّ عَائِشَةٍ: إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ أَوْ وَدَعَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ فُحْشِهِ. (١)

٣- بشاشته صلى الله عليه وسلم عند مقابلته للناس: عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: (مَا حَجَبَنِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُنْذُ أَسْلَمْتُ وَلَا رَأَيْتُ إِلَّا تَبَسَّمَ فِي وَجْهِهِ). (٢)

٤- كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر الناس تبسماً: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ جَزْءٍ، قَالَ: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَكْثَرَ تَبَسُّمًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. (٣)

٥- كان صلى الله عليه وسلم إذا أعجبه شيء بدا البشر على وجهه ويسر لذلك: عَنْ بُرَيْدَةَ الْأَسْلَمِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ لَا يَتَطَيَّرُ مِنْ شَيْءٍ وَكَانَ إِذَا بَعَثَ عَامِلًا سَأَلَ عَنْ اسْمِهِ فَإِذَا أَعْجَبَهُ اسْمُهُ فَرِحَ بِهِ وَرَأَى بِشْرَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ وَإِنْ كَرِهَ اسْمُهُ رَأَى كَرَاهِيَةَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ وَإِذَا دَخَلَ قَرْيَةً سَأَلَ عَنْ اسْمِهَا فَإِنْ أَعْجَبَهُ اسْمُهَا فَرِحَ بِهَا وَرَأَى بِشْرَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ وَإِنْ كَرِهَ اسْمُهَا رَأَى كَرَاهِيَةَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ). (٤)

٦- ضحك النبي صلى الله عليه وسلم للفقراء والمساكين وأصحاب الحاجات عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَبَذَهُ بِرِدَائِهِ جَبَذَةً شَدِيدَةً حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَثَرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الْبُرْدِ مِنْ شِدَّةِ جَبَذَتِهِ ثُمَّ قَالَ يَا مُحَمَّدُ مَرُّ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ ضَحِكَ ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ. (٥)

-فوائد بشاشة الوجه:

(١) أخرجه البخاري (٦٠٥٤)، ومسلم (٢٥٩١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٢٢)، ومسلم (٢٤٧٥).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٦٤١)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٥٨٢٩).

(٤) أخرجه أبو داود (٣٩٢٢)، وصححه الألباني في الصحيحة (٧٦٢).

(٥) أخرجه البخاري (٥٨٠٩)، ومسلم (١٠٥٧).

- ١- طلاقة الوجه تبشر بالخير، ويقبل على صاحبها النَّاسُ، والوجه العبوس سبب لنفرة النَّاسِ.
- ٢- طلاقة الوجه للضيف من إكرامه، مع طيب الحديث عند الدُّخول، والخروج، وعلى المائدة.
- وقد قيل: من آداب المضيف: أن يخدم أضيافه، ويظهر لهم الغنى، والبسط بوجهه، فقد قيل: البَشَاشَةُ خير من القِرَى.
- ٣- تكلُّفُ البِشْرِ والطلاقة، وتجنُّبُ العبوس والتَّقْطِيب من الوسائل المعينة على اكتساب الأخلاق الحميدة.
- ٤- البشاشة وطلاقة الوجه تثمر المحبة بين المسلمين، والتآلف بينهم.
- ٥- تبعث الاطمئنان بين المسلمين عند اللقاء.
- ٦- تعين على قبول الناس للنصيحة والأمر المعروف والنهي عن المنكر.

٨ الحلم

يحتاج المتطوع إلى التحلي بالحلم والأناة فإنه غالباً يعامل شرائح من الناس أصابتهم الجوائح والمصائب، وربما جهل أحدهم عليه لشدة حاجته وإلحاحه في الطلب؛ فمهما يكن لا بد أن يحلم عليهم ويرفق بهم ويحتمل الأذى منهم طمعا في ثواب الله .

تعريف الحلم:

الحلم في اللغة:

قال ابن فارس: الحلم: تَرَكُ الْعَجَلَةَ، وَالْحِلْمُ خِلَافُ الطَّيْشِ، يُقَالُ حَلَمْتُ عَنْهُ أَحْلُمُ فَأَنَا حَلِيمٌ. (١)

وقال الجوهري: الحِلْمُ بالكسر: الأناة. تقول منه: حَلَمَ الرجل بالضم. وَتَحَلَّمَ: تَكَلَّفَ الحلم. (٢)
وقال ابن منظور: والحِلْمُ: نَقِيضُ السَّفَه. (٣)

الحلم في الاصطلاح:

قال الراغب: هو ضبط النَّفْسِ والطبع عن هيجان الغضب. (٤)

وقال العسكري: هُوَ الْأَمْهَالُ بِتَأْخِيرِ الْعُقَابِ الْمُسْتَحَقِّ. (٥)

وقال الجرجاني: هو الطمأنينة عند سَوْرَةِ الغضب وقيل تأخير مكافأة الظالم. (٦)

وقال ابن حبان: الحلم اسم يقع على ذم النفس عن الخروج عند الورود عليها ضد ما تحب إلى ما نهى عنه فالحلم يشتمل على المعرفة والصبر والأناة. (٧)

الأدلة من القرآن والسنة وأقوال السلف:

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٩٣/٢) بتصرف.

(٢) الصحاح للجوهري (١٩٠٣/٥).

(٣) لسان العرب لابن منظور (١٤٦/١٢).

(٤) المفردات للراغب الأصفهاني (٢٥٣).

(٥) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري (٢٠٠).

(٦) التعريفات للجرجاني (ص ٩٢).

(٧) روضة العقلاء لابن حبان (٢٠٨).

الأدلة من القرآن:

١- قال الله تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)} [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٤]

قال ابن كثير: وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ: أي: لا يعملون غضبهم في الناس، بل يكفون عنهم شرهم، ويحتسبون ذلك عند الله عز وجل، ثم قال تعالى: وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ: أي: مع كف الشر يعفون عمن ظلمهم في أنفسهم، فلا يبقى في أنفسهم مَوجدة على أحد، وهذا أكمل الأحوال، ولهذا قال: وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ فهذا من مقامات الإحسان (١)

٢- قال تعالى: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف: ١٩٩].

٣- وقال تعالى: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} [فصلت: ٣٤]

قال ابن كثير: (وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ) أي: فرَّق عَظِيمُ بَيْنَ هَذِهِ وَهَذِهِ، (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) أي: مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ فَادْفَعُهُ عَنْكَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ، كَمَا قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَا عَاقَبْتَ مَنْ عَصَى اللَّهَ فَبِمِثْلِ أَنْ تُطِيعَ اللَّهَ فِيهِ.

وَقَوْلُهُ: (فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) وَهُوَ الصَّدِيقُ أي إذا أحسنت إلى من أساء إليك قادتته تلك الحسنة إليه إلى مصافاتك ومحبتك، والحنو عليك، حتى يصير كأنه ولي لك حميم أي: قريب إليك من الشفقة عليك والإحسان إليك. ثم قال: (وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا) أي: وما يقبل هذه الوصية ويعمل بها إلا من صبر على ذلك، فإنه يشق على النفوس، (وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) أي: ذو نصيب وافر من السعادة في الدنيا والآخرة.

(١) تفسير ابن كثير (٢/١٢٢).

قال ابن عباس في تفسير هذه الآية: أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان، وخضع لهم عدوهم كأنه ولي حميم.^(١)

٤- قال تعالى: {وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ} [الشورى: ٣٧]

وقال السعدي: أي: قد تخلقوا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، فصار الحلم لهم سجية، وحسن الخلق لهم طبيعة حتى إذا أغضبهم أحد بمقاله أو فعاله، كظموا ذلك الغضب فلم ينفذوه، بل غفروه، ولم يقابلوا المسيء إلا بالإحسان والعفو والصفح، فترتب على هذا العفو والصفح من المصالح ودفع المفاسد في أنفسهم وغيرهم شيء كثير، كما قال تعالى: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}^(٢)

الأدلة من السنة:

- ١- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَشَجِّ عَبْدِ الْقَيْسِ: "إِنَّ فِيكَ لَخَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ: الْحِلْمُ وَالْأَنَاءُ"^(٣)
 - ٢- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ^(٤)
- قال ابن عبد البر: في هذا الحديث من الفقه فضل الحلم وفيه دليل على أن الحلم كتمان الغيظ وأن العاقل من ملك نفسه عند الغضب لأن العقل في اللغة ضبط الشيء وحبسه منه.^(٥)

(١) تفسير ابن كثير (٧/١٨١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن للسعدي (ص ٧٥٩).

(٣) أخرجه مسلم (١٨).

(٤) أخرجه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).

(٥) التمهيد (٦/٣٢٢).

٣- عن أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّ أَعْرَابِيًّا بَالَ فِي الْمَسْجِدِ، فَتَارَ إِلَيْهِ النَّاسُ لِيَقْعُوا بِهِ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: دَعُوهُ، وَأَهْرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ ذُنُوبًا مِنْ مَاءٍ، أَوْ سَجَلًا مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُبَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ^(١)

قال العراقي: فِيهِ الرَّفْقُ فِي إِنْكَارِ الْمُنْكَرِ وَتَعْلِيمِ الْجَاهِلِ بِاسْتِعْمَالِ التَّيْسِيرِ وَتَرْكِ التَّعْسِيرِ.^(٢)

أقوال السلف في الحلم:

١- قال عليُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه: أَوَّلُ عَوَظِ الْحَلِيمِ عَنْ حِلْمِهِ أَنَّ النَّاسَ أَنْصَارُهُ.^(٣)

٢- وعن ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: الْحِلْمُ مِنَ الْخُلَالِ الَّتِي تُرْضِي اللَّهَ وَهُوَ يَجْمَعُ لِصَاحِبِهِ شَرَفَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَلَمْ تَسْمَعُوا اللَّهَ تَعَالَى وَصَفَ خَلِيلَهُ بِالْحِلْمِ فَقَالَ: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَلِيمٌ أَوْاهٌ مُنِيبٌ} [هود: ٧٥]^(٤)

٣- عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه، قَالَ: إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ وَإِنَّمَا الْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ، وَمَنْ يَتَوَخَّ الْحَيْرَ يُعْطَهُ وَمَنْ يَتَوَخَّ الشَّرَّ يُوقَهُ.

٤- وقال أيضا: لَيْسَ الْخَيْرُ أَنْ يَكْثُرَ مَالُكَ وَوَلَدُكَ وَلَكِنَّ الْخَيْرَ أَنْ يَعْظُمَ حِلْمُكَ وَيَكْثُرَ عِلْمُكَ وَأَنْ تُتَادِيَ النَّاسَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ فَإِذَا أَحْسَنْتَ حَمَدَتِ اللَّهُ وَإِذَا أَسَأْتَ اسْتَغْفَرَتِ اللَّهُ.^(٥)

٥- وقال معاوية رضي الله عنه: لَا يَبْلُغُ الرَّجُلُ مَبْلَغَ الرَّأْيِ حَتَّى يَغْلِبَ حِلْمُهُ جَهْلُهُ وَصَبْرُهُ شَهْوَتُهُ، وَلَا يَبْلُغُ ذَلِكَ إِلَّا بِقُوَّةِ الْحِلْمِ.^(٦)

٦- وقال أيضا: يَا بَنِي أُمَيَّةَ، قَارِعُوا قُرَيْشًا بِالْحِلْمِ، فَوَاللَّهِ إِنْ كُنْتُ لَأَلْقَى الرَّجُلَ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ يُوسِعُنِي سِتْمًا وَأَوْسَعُهُ حِلْمًا فَأَرْجِعُ وَهُوَ لِي صَدِيقٌ أَسْتَنْجِدُهُ فَيَنْجِدُنِي وَأُثِيرُهُ فَيُثِرُ مَعِيَ وَمَا دَفَعَ الْحِلْمُ عَنْ شَرِيفٍ شَرَفَهُ وَلَا زَادَهُ إِلَّا كَرَمًا.^(١)

(١) أخرجه البخاري (٦١٢٨).

(٢) طرح الشرب للراقي (١٣٨/٢).

(٣) أدب الدنيا والدين (ص ٢٥٢).

(٤) الحلم لابن أبي الدنيا (٥٧).

(٥) الحلم لابن أبي الدنيا (٦٠).

(٦) الحلم لابن أبي الدنيا (١٣).

٧- وقال أيضا: لَا حِلْمَ إِلَّا التَّجَارِبُ. (٢)

٨- وَقَالَ لِعِرَابَةَ بْنِ أَوْسٍ: بِمِ سُدَّتَ قَوْمَكَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَحْلَمُ عَنْ جَاهِلِهِمْ وَأُعْطِي سَائِلَهُمْ وَأَسْعَى فِي حَوَائِجِهِمْ" (٣)

٩- وَقَالَ يَا مَعْشَرَ طَيْبٍ، مَنْ سَيِّدُكُمْ؟ قَالُوا: خُرَيْمُ بْنُ أَوْسٍ: مَنْ احْتَمَلَ شَتْمَنَا وَأَعْطَى سَائِلَنَا وَحَلَّمَ عَنْ جَاهِلِنَا وَاعْتَفَرَ فَضْلَ ضَرْبِنَا إِيَّاهُ بِعَصِيَّتِنَا" (٤)

١٠- وَعَنِ الْحَسَنِ، قَالَ: الْمُؤْمِنُ حَلِيمٌ لَا يَجْهَلُ وَإِنْ جُهِلَ عَلَيْهِ حَلِيمٌ لَا يَظْلِمُ وَإِنْ ظَلِمَ غَفَرَ لَا يَقْطَعُ وَإِنْ قُطِعَ وَصَلَ لَا يَبْخُلُ وَإِنْ بُخِلَ عَلَيْهِ صَبَرَ (٥)

١٠- عَنْ رَجَاءِ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ، قَالَ: الْحِلْمُ أَرْفَعُ مِنَ الْعَقْلِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى تَسَمَّى بِهِ. (٦)

١١- وَقَالَ شُرَيْحٌ: الْحِلْمُ كَنْزٌ مُؤَفَّرٌ. (٧)

نماذج مشرقة في الحلم:

الحلم من أعظم صفات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام:

١- حلم خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام:

* قال الله تعالى: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَيِّهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤) { [التوبة: ١١٣ -

[١١٤]

(١) الحلم لابن أبي الدنيا (٣٣).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٢٦١٣٦).

(٣) الحلم لابن أبي الدنيا (٣٩).

(٤) الحلم لابن أبي الدنيا (٤٠).

(٥) الحلم لابن أبي الدنيا (٦١).

(٦) الحلم لابن أبي الدنيا (١٥).

(٧) مصنف ابن أبي شيبة (٢٦١٣٤).

قال القرطبي: والحليم: الكثير الحلم وهو الذي يصفح عن الذنوب ويصبر على الأذى. وقيل: الذي لم يعاقب أحداً قط إلا في الله ولم ينتصر لأحد إلا لله. وكان إبراهيم عليه السلام كذلك وكان إذا قام يصلي سُمع وجيب قلبه على ميلين.^(١)

* وقال تعالى: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ) (٧٥) [هود: ٧٥]

٢- حلم نبي الله إسماعيل عليه السلام:

* قال تعالى: {وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا هُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (١٠٩)} [الصافات: ٧٥ - ١٠٩]

قال ابن تيمية: وقد انطوت البشارة على ثلاث: على أن الولد غلام ذكر، وأنه يبلغ الحلم، وأنه يكون حليماً، وأي حلم أعظم من حلمه حين عرض عليه أبوه الذبح فقال: سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ [الصافات: ١٠٢] وقيل: لم ينعت الله الأنبياء بأقل من الحلم وذلك لعزة وجوده ولقد نعت إبراهيم به في قوله تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ} [التوبة: ١١٤] {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ} [هود: ٧٥] لأن الحادثة شهدت بحلمهما: {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ} [الصافات: ١٠٢] ^(٢)

٣- حلم نبي الله يوسف عليه السلام:

* قال تعالى: {وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤَنِّبُنِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْتَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠)} [يوسف: ٥٠]

(١) تفسير القرطبي (٢٧٦/٨).

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٣٣٢/٤).

قال الشوكاني: أَمَرَهُ بِأَنْ يَسْأَلَ الْمَلِكَ عَنْ ذَلِكَ وَتَوَقَّفَ عَنِ الْخُرُوجِ مِنَ السَّجْنِ، وَلَمْ يُسَارِعْ إِلَى إِجَابَةِ الْمَلِكِ، لِيُظْهِرَ لِلنَّاسِ بَرَاءَةَ سَاحَتِهِ وَنَزَاهَةَ جَانِبِهِ، وَأَنَّهُ ظَلِمَ بِكَيْدِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ ظُلْمًا بَيِّنًا، وَلَقَدْ أُعْطِيَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْحِلْمِ وَالصَّبْرِ وَالْإِنْتِظَارِ مَا تَضِيقُ الْأَذْهَانُ عَنْ تَصَوُّرِهِ، وَهَذَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السَّجْنِ مَا لَبِثَ يُوسُفُ لَأَجَبْتُ الدَّاعِيَ يَعْينِي الرَّسُولَ الَّذِي جَاءَ يَدْعُوهُ إِلَى الْمَلِكِ. قال ابن عطية: كان هذا الفعل من يوسف آثاءً وَصَبْرًا، وَطَلَبًا لِبَرَاءَةِ سَاحَتِهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ خَشِيَ أَنْ يُخْرَجَ وَيَنَالَ مِنَ الْمَلِكِ مَرْتَبَةً، وَيَسْكُتَ عَنْ أَمْرِ ذَنْبِهِ، فَيَرَاهُ النَّاسُ بِتِلْكَ الْعَيْنِ يَقُولُونَ هَذَا الَّذِي رَاوَدَ امْرَأَةَ الْعَزِيزِ . . . (١)

الحلم عند النبي صلى الله عليه وسلم:

١- عن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْكِي: نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدَمَوْهُ، فَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ. (٢)

قال ابن عثيمين: وهذا من حلم الأنبياء وصبرهم على أذى قومهم، وكم نال الأنبياء من أذى قومهم؟! قال الله تعالى (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا) (الأنعام: ٣٤) فهذا النبي صلى الله عليه وسلم ضربه قومه حتى أدموا وجهه يقول: " اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون " وكأن هؤلاء القوم كانوا مسلمين، لكن حصل منهم مغاضبة مع نبيهم ففعلوا هذا معه، فدعا لهم بالمغفرة، إذ لو كانوا غير مسلمين لكان يدعوا لهم بالهداية، فيقول اللهم اهد قومي، لكن هذا الظاهر أنهم كانوا مسلمين. (٣)

٣- عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَقَاضَاهُ فَأَغْلَظَ، فَهَمَّ بِهِ أَصْحَابُهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: دَعُوهُ فَإِنَّ لَصَاحِبَ الْحَقِّ

(١) فتح القدير للشوكاني (٤١/٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٧٧)، ومسلم (١٧٩٢).

(٣) شرح رياض الصالحين (٣/٦٠٨).

مقالاً. ثم قال: أعطوه سنّاً مثل سنّه، قالوا: يا رسول الله، إلّا أمثل من سنّه، فقال: أعطوه، فإنّ من خيركم أحسنكم قضاء. ^(١)

الحلم عند الصحابة رضي الله عنهم:

١- قال رجل لأبي بكر رضي الله عنه: والله لأسبّك سبّا يدخل القبر معك. قال: معك يدخل لا معي.

٢- وقال معاوية لخالد بن المعمر: كيف حبّك لعلّي بن أبي طالب عليه السلام؟ قال: أحبه ثلاث خصال: على حلمه إذا غضب، وعلى صدقه إذا قال، وعلى وفائه إذا وعد.

٢- قال رجل لعمر بن العاص: والله لأتفرّغنّ لك. قال: هنالك وقعت في الشغل. قال: كأنك تهدّني، والله لئن قلت لي كلمة لأقولنّ لك عشرة. قال: وأنت والله لئن قلت لي عشرة لم أقل لك واحدة.

٣- وشم رجل أبا ذرّ، فقال: يا هذا، لا تغرق في شتمنا ودع للصّلح موضعا، فإنّا لا نكافيء من عصي الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه.

الحلم عند السلف:

١- أسمع رجل عمر بن عبد العزيز ما يكره، فقال: لا عليك، إنّما أردت أن يستفزّي الشيطان بعزة السلطان، فأنا لك اليوم ما تناله مني غدا. انصرف إذا شئت.

٢- شتم رجل السّعبي، فقال له: إن كنت صادقاً فغفر الله لي، وإن كنت كاذباً فغفر الله لك.

٣- وقال الأصمعي: سمعت أعرابياً يقول: كان سنان بن أبي حارثة أحلم من فرخ الطائر. قلت: وما حلم فرخ الطائر؟ قال: إنه يخرج من بيضة في رأس نيق، ولا يتحوّل حتى يتوفر ريشه ويقوى على الطيران.

٤- قيل للأحنف بن قيس: ممن تعلمت الحلم؟ قال: من قيس بن عاصم المنقري؛ رأيته قاعداً بفناء داره، محتبياً بحمائل سيفه يحدث قومه، حتى أتى برجل مكتوف ورجل مقتول؛ فقيل له: هذا ابن أخيك قتل ابنك. فو الله ما حلّ حبوته ولا قطع كلامه. ثم التفت إلى ابن أخيه وقال

(١) أخرجه البخاري (٢٣٠٦).

له: يا بن أخي، أثمت برّبك، ورميت نفسك بسهمك، وقتلت ابن عمّك. ثم قال لابن له آخر: قم يا بني فوار أخاك، وحلّ كتاف ابن عمك، وسق إلى أمّه مائة ناقة دية ابنها غريبة. (١)

٥- ومما يحكى أن معن بن زائدة كان أميراً على العراق، وكان حليماً كريماً يضرب به المثل فسمع به أعرابي فأراد أن يمتحن حلمه.

فقال الأعرابي: أتذكر إذ لحفك جلد شاة. . . وإذ نعلاك من جلد البعير فقال معن: أذكر ولا أنساه.

فقال الأعرابي: فسبحان الذي أعطاك ملكاً. . . وعلمك الجلوس على السرير فقال معن: سبحانه وتعالى.

فقال الأعرابي: فلست مسلماً إن عشت دهرًا. . . على معنٍ بتسليم الأمير فقال معن: يا أبا العرب! السلام سنة.

فقال الأعرابي: سأرحل من بلاد أنت فيها. . . ولو جار الزمان على الفقير فقال معن: يا أبا العرب إن جاورتنا فمرحباً بك، وإن رحلت فمصحوباً بالسلامة.

فقال الأعرابي: فجد لي يا ابن ناقصة بشيء. . . فإني قد عزمت على المسير فقال معن: أعطوه ألف دينار ليستعين بها على سفره.

فأخذها وقال: قليل ما أتيت به وإني. . . لأطمع منك بالمال الكثير فقال معن: أعطوه ألفاً آخرًا.

فأخذها وقال: سألت الله أن يقيقك ذُخْرًا. . . فمالك في البرية من نظير فقال معن: أعطوه ألفاً آخرًا.

فقال الأعرابي: يا أمير المؤمنين ما جئت إلا مختبرًا حلمك، فقد جمع الله فيك من الحلم ما لو قُسّم على أهل الأرض لكفاهم:

فقال معن: يا غلام، كم أعطيته على نظمه؟ قال: ثلاثة آلاف دينار. فقال: أعطه على نشره مثلها. ^(١)

٦- وقيل في منشور الحكم: من أوكد أسباب الحلم رحمة الجهّال. ^(٢)

٧- وقال بعضهم: الحليم مطية الجهول. ^(٣)

(١) الأخلاق الزكية في آداب الطالب المرضية للأهدل (ص ١٠٦).

(٢) المصدر السابق (ص ٢٥٢).

(٣) صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال (ص ٥٤٥).

٩- العلم

العلم سابق للعمل في كل مجال، والمتطوع عليه قبل أن يسلك سبيل نفع الآخرين لا بد أن يكون عمله موقوفاً على العلم النافع وإلا أضاع جهداً كبيراً فيما لا يحسن، وكثيراً ما نرى متطوعين قاموا بأعمال على غير الوجه الذي شرعه الله، فحاجة المتطوع للعلم فيما يعمله لازم وذلك يتضمن العلم بمعرفة وجوه مصادر التمويل المشروع وما يباح من إنفاقه وما لا يباح وأقسام المستحقين للنفقة والمقادير الشرعية في كل ذلك، بالإضافة إلى الجانب التربوي والأخلاقي في التعامل مع الناس جميعاً منفقين ومستفيدين، وهذا لن يكون إلا بالعلم النافع.

تعريف العلم:

- العلم لغة: مصدر قولهم عَلِمَ يَعْلَمُ عِلْماً وهو مأخوذ من مادة (ع ل م) التي تدل على أثرٍ بالشيء يتميز به عن غيره. (١)

قال الراغب: وأَعْلَمْتُهُ وَعَلَّمْتُهُ في الأصل واحد؛ إلا أن الإِعْلَامَ اختص بما كان بإخبار سريع، والتعليم اختص بما يكون بتكرير وتكثير حتى يحصل منه أثر في نفس المتعلم. (٢)

قال ابن منظور: العلم نقيض الجهل، وَعَلِمْتُ الشيءَ أَعْلَمُهُ عِلْماً: عَرَفْتُهُ، قال ابن بري: وتقول: عَلِمَ وَفَقَهُ: أَي تَعَلَّمَ وَتَفَقَّهَ، وَعَلِمَ وَفَقَهُ أَي سَادَ الْعِلْمَاءَ وَالْفُقَهَاءَ. (٣)

- العلم اصطلاحاً:

قال الجرجاني: العلم هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع. (٤)

قال الكفوي: والمعنى الحقيقي للفظ العلم هو الإدراك ولهذا المعنى متعلق وهو المعلوم وله تابع في الحصول يكون وسيلة إليه في البقاء وهو الملكة، فأطلق لفظ العلم على كل منها إما حقيقة عرفية أو اصطلاحية أو مجازاً مشهوراً. (١)

(١) مقاييس اللغة لابن فارس (١٠٩/٤).

(٢) المفردات للراغب (٣٤٣).

(٣) لسان العرب لابن منظور (٣٠٨٣).

(٤) التعريفات للجرجاني (١٩٩/١).

قال الغزالي: العلم هو معرفة الشيء على ما هو عليه. (٢)

فضل العلم: قال ابن القيم: العلم هاد والحال الصحيح مهتد به وهو تركة الأنبياء وتراثهم وأهله عصبتهم ووراثهم وهو حياة القلوب ونور البصائر وشفاء الصدور ورياض العقول ولذة الأرواح وأنس المستوحشين ودليل المتحيرين وهو الميزان الذي به توزن الأقوال والأعمال والأحوال، وهو الحاكم المفرق بين الشك واليقين والغي والرشاد والهدى والضلال به يعرف الله ويعبد ويذكر ويوحّد ويحمد ويمجد وبه اهتدى إليه السالكون ومن طريقه وصل إليه الواصلون ومن بابه دخل عليه القاصدون به تعرف الشرائع والأحكام ويتميز الحلال من الحرام وبه توصل الأرحام وبه تعرف مراضى الحبيب وبمعرفتها ومتابعتها يوصل إليه من قريب وهو إمام والعمل مأموم وهو قائد والعمل تابع وهو صاحب في الغربة والمحدث في الخلوة والأنيس في الوحشة والكاشف عن الشبهة والغني الذي لا فقر على من ظفر بكنزه والكنف الذي لا ضيعة على من آوى إلى حرزه. مذاكرته تسبيح والبحث عنه جهاد وطلبه قربة وبذله صدقة ومدارسته تعدل بالصيام والقيام والحاجة إليه أعظم منها إلى الشراب والطعام. (٣)

- الآيات والأحاديث وأقوال السلف في العلم:

- الآيات الدالة على العلم:

١- وصف الله تعالى نفسه بالعلم المطلق، وأخبر بأنه يعلم ما يظن أنه يخفى عليه، وبين أنه سبحانه عنده علم الساعة والغيب فقال تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} [البقرة: ٢٥٥].

(١) الكليات للكفوي (٦١١).

(٢) الإحياء (٢٩٨).

(٣) مدارج السالكين لابن القيم (٣٥١/٢).

٢- قال الله تعالى: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [آل عمران: ١٨].

قال ابن كثير - رحمه الله - : وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام. ^(١)

٣- نفى سبحانه التسوية بين أهل العلم وبين غيرهم من البشر كما نفى التسوية بين أهل الجنة وأهل النار، فقال تعالى: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ} [الزمر: ٩].

قال ابن عاشور رحمه الله: فإنك ما تأملت مقامًا اقتحم فيه عالم وجاهل إلا وجدت للعالم فيه من السعادة ما لا تجده للجاهل. ^(٢)

٤- أمر الله بسؤال أهل العلم والرجوع إليهم، وجعل ذلك كالشهادة منهم، فقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [النحل: ٤٣] وأهل الذكر هم أهل العلم.

قال الشيخ السعدي - رحمه الله - : فاسألوا أهل العلم بذلك الذين نزلت عليهم الزبر والبيانات فعلموها وفهموها، فإنهم كلهم قد تقرر عندهم أن الله ما بعث إلا رجالاً يوحى إليهم من أهل القرى، وعموم هذه الآية فيها مدح أهل العلم، وأن أعلى أنواعه العلم بكتاب الله المنزل. فإن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إليهم في جميع الحوادث، وفي ضمنه تعديل لأهل العلم وتزكية لهم حيث أمر بسؤالهم، وأن بذلك يخرج الجاهل من التبعة، فدل على أن الله ائتمنهم على وحيه وتنزيله، وأنهم مأمورون بتزكية أنفسهم، والاتصاف بصفات الكمال، وأفضل أهل الذكر أهل هذا القرآن العظيم، فإنهم أهل الذكر على الحقيقة، وأولى من غيرهم بهذا الاسم. ^(٣)

-الأحاديث الدالة على فضل العلم:

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/٣٤).

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٣/٣٤٩).

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي (٤٤١).

١- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ. (١)

٢- بين النبي صلى الله عليه وسلم أن قبض العلماء سبب في ذهاب العلم فينبغي الحرص على تحصيله وأخذه من العلماء قبل موتهم، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَالًا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا). (٢)

قال الإمام النووي: وفي هذا الحديث الحث على حفظ العلم وأخذه عن أهله واعتراف العالم للعالم بالفضيلة. (٣)

٣- طالب العلم تحفه الملائكة بأجنتها وتضعها له رضاء بما يطلب وهذه الفضيلة لأجل العلم ولطلبة العلم، عَنْ قَيْسِ بْنِ كَثِيرٍ، قَالَ: قَدِمَ رَجُلٌ مِنَ الْمَدِينَةِ عَلَى أَبِي الدَّرْدَاءِ، وَهُوَ بِدِمَشْقَ فَقَالَ: مَا أَقْدَمَكَ يَا أَخِي؟ فَقَالَ: حَدِيثٌ بَلَغَنِي أَنَّكَ تُحَدِّثُهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: أَمَا جِئْتَ لِحَاجَةٍ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: أَمَا قَدِمْتَ لِتِجَارَةٍ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: مَا جِئْتُ إِلَّا فِي طَلَبِ هَذَا الْحَدِيثِ؟ قَالَ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضَاءً لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيْسْتَغْفِرَ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الْحَيَاتَانِ فِي الْمَاءِ، وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ، كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا إِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحِطٍّ وَافِرٍ (٤)

(١) أخرجه مسلم (١٦٣١).

(٢) أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣).

(٣) شرح النووي على مسلم (٢٢٥/١٦).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٦٨٢)، وأبو داود (٣٦٤١)، وابن ماجه (٢٢٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٩٧).

٤- عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ).^(١)

قال ابن حجر - رحمه الله -: ولا شك أن الجامع بين تعلم القرآن وتعليمه مكمل لنفسه ولغيره جامع بين النفع القاصر والنفع المتعدي ولهذا كان أفضل وهو من جملة من عني سبحانه وتعالى بقوله ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين والدعاء إلى الله يقع بأمر شتى من جملتها تعليم القرآن وهو أشرف الجميع.^(٢)

- أقوال السلف في العلم:

- ١- قال عمر بن الخطاب: تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم وتواضعوا لمن تعلمون وتواضعوا لمن تعلمون منه ولا تكونوا جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم.^(٣)
- ٢- قال الإمام أحمد - رحمه الله -: الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب لأن الرجل يحتاج إلى الطعام والشراب في اليوم مرة أو مرتين وحاجته إلى العلم بعدد أنفاسه.^(٤)
- ٣- قال أبو الدرداء - رضي الله عنه - قال: مثل العلماء في الناس كمثل النجوم في السماء يهتدى بها.^(٥)

٤- قال الشافعي - رحمه الله -: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة.^(٦)

٥- قال أبو بكر الأجري - رحمه الله -: فالعلماء في كل حال، لهم فضل عظيم في خروجهم لطلب العلم، وفي مجالستهم لهم فيه فضل، وفي مذاكرة بعضهم لبعض لهم فيه فضل، وفيمن

(١) أخرجه البخاري (٥٠٢٧).

(٢) فتح الباري لابن حجر (٦٩٤/٨).

(٣) جامع بيان العلم وفضله للخطيب البغدادي (٤١).

(٤) مدارج السالكين لابن القيم (٤٧٠/٢).

(٥) أخلاق العلماء للأجري (٢٩).

(٦) حلية الأولياء لأبي نعيم (١١٩/٩).

تعلموا منه العلم لهم فيه فضل، وفيمن علموه العلم لهم فيه فضل، فقد جمع الله للعلماء الخير من جهات كثيرة نفعنا الله وإياهم بالعلم. (١)

- نماذج من حرص الأنبياء صلوات الله عليهم على العلم:

لقد من الله تعالى على أنبيائه ورسله بأعظم علم وهو علم التوحيد والرسالة فجاء الأنبياء ليعلموا الناس حقيقة كلمة لا إله إلا الله وكان من الطبيعي أنهم سيلقون من ألوان الأذى والمواجهة الشيء الكثير الذي يحتاج إلى صبر، وقد كانوا رجاله، وذلك الأذى الذي لاقاه الأنبياء لاقاه من بعدهم الدعاة الصالحون الذين اقتفوا أثرهم في دعوة الناس للتوحيد ونبد الشرك وإليك بعض النماذج الدالة على ذلك:

١- إبراهيم عليه السلام يدعوا قومه إلى التوحيد ويصبر على دعوتهم ويبين لهم أنه عنده من العلم الذي ليس عند أحد منهم، قال الله تعالى حاكياً عن إبراهيم عليه السلام: {يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا} [مريم: ٤٣] وقال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ} [الأنبياء: ٥١].

٢- يوسف عليه السلام امتن الله عليه بالعلم مما كان سبباً في تمكينه فقال تعالى حاكياً عن يوسف عليه السلام: {قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ} (٥٥) وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ { [يوسف: ٥٥، ٥٦] وقال تعالى مبيناً اعترافه بمنة الله عليه وتعليمه إياه: {رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} [يوسف: ١٠١]

٤- داود وسليمان عليهما السلام امتن الله تعالى عليهما بالعلم فحمدا الله تعالى أن فضلها على كثير من عباده فقال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ} (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ { [النمل: ١٥، ١٦].

(١) أخلاق العلماء للأجري (٤١).

٥- رحلة كلیم الله موسى عليه السلام وفتاه لطلب العلم على يد الخضر،

قال ابن القيم - رحمه الله - : إن الله سبحانه أخبرنا عن صفیه وکلیمه الذي كتب له التوراة بيده وکلمه منه إليه أنه رحل إلى رجل عالم يتعلم منه ويزداد علماً إلى علمه فقال تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا} [الكهف: ٦٠] حرصاً منه على لقاء هذا العالم وعلى التعلم منه فلما لقيه سلك معه مسلك المتعلم مع معلمه وقال له هل اتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً فبدأه بعد السلام بالاستئذان على متابعتة وأنه لا يتبعه إلا بإذنه وقال على أن تعلمن مما علمت رشداً فلم يجيء ممتحنًا ولا متعنتًا وإنما جاء متعلماً مستزيداً علماً إلى علمه وكفى بهذا فضلاً وشفراً للعلم فإن نبي الله وکلیمه سافر ورحل حتى لقي النصب من سفره في تعلم ثلاث مسائل من رجل عالم ولما سمع به لم يقر له قرار حتى لقيه وطلب منه متابعتة وتعليمه وفي قصتها عبر وآيات وحكم ليس هذا موضع ذكرها. (١)

- نماذج من حرص النبي صلى الله عليه وسلم على العلم

١- سؤال جبريل عليه السلام للنبي صلى الله عليه وسلم وتعليمه: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخْذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجَبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: مَا الْمُسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا، قَالَ: أَنْ تَلِدَ الْأُمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْخُمَاةَ الْعُرَاةَ

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/ ٥٥ - ٥٦).

الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَطَّأَوُلُونَ فِي الْبُيَّانِ، قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّهُ جَبْرِيلُ أَنَا كُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ. (١)

قال النووي - رحمه الله -: ينبغي للعالم والمفتي وغيرهما إذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم وأن ذلك لا ينقصه بل يستدل به على ورعه وتقواه ووفور علمه. وقال أيضًا: ينبغي لمن حضر مجلس العلم إذا علم بأهل المجلس حاجة إلى مسألة لا يسألون عنها أن يسأل هو عنها ليحصل الجواب للجميع، وفيه: أنه ينبغي للعالم أن يرفق بالسائل ويدنيه منه ليتمكن من سؤاله غير هائب ولا منقبض وأنه ينبغي للسائل أن يرفق في سؤاله. (٢)

٢-مدارسة جبريل عليه السلام للنبي صلى الله عليه وسلم القرآن: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجْوَدَ النَّاسِ وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جَبْرِيلُ وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ فَلَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ. (٣)

-نماذج من حرص الصحابة والسلف على العلم:

١- رحلة جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - مسيرة شهر لما بلغه حديث عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، قال جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - اشتريت بغيراً ثُمَّ شَدَدْتُ عَلَيْهِ رَحْلِي فَسِرْتُ إِلَيْهِ شَهْرًا حَتَّى قَدِمْتُ عَلَيْهِ الشَّامَ فَإِذَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَنَسٍ فَقُلْتُ لِلْبَّوَابِ: قُلْ لَهُ جَابِرٌ عَلَى الْبَابِ، فَقَالَ ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ؟! قُلْتُ: نَعَمْ، فَخَرَجَ يَطُؤُ ثَوْبَهُ فَاعْتَنَقَنِي وَاعْتَنَقْتُهُ، فَقُلْتُ: حَدِيثًا بَلَّغَنِي عَنْكَ أَنَّكَ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْقِصَاصِ فَخَشِيتُ أَنْ تَمُوتَ أَوْ أَمُوتَ قَبْلَ أَنْ أَسْمَعَهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: يُخْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَوْ قَالَ الْعِبَادُ عَرَاهُ غُرْلًا بِهِمَا - قَالَ قُلْنَا وَمَا بِهِمَا - قَالَ: لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ ثُمَّ يُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مِنْ قُرْبٍ أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الدِّيَانُ وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ

(١) أخرجه مسلم (١).

(٢) شرح النووي على مسلم (١/١٥٨ - ١٦٠).

(٣) أخرجه البخاري (٦)، ومسلم (٢٣٠٨).

أَهْلُ النَّارِ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ وَلَهُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَقٌّ حَتَّى أَقْصَهُ مِنْهُ وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ وَلِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ عِنْدَهُ حَقٌّ حَتَّى أَقْصَهُ مِنْهُ حَتَّى اللَّطْمَةُ قَالَ قُلْنَا كَيْفَ وَإِنَّا إِنَّمَا نَأْتِي اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عُرَاةً غُرْلًا بِهِمَا قَالَ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ. (١)

٢- حرص عمر بن الخطاب رضي الله عنه على طلب العلم حتى إنه كان يتناوب هو ورجل من الأنصار على حضور مجالس العلم يقول عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: كُنْتُ أَنَا وَجَارٌ لِي مِنَ الْأَنْصَارِ فِي بَنِي أُمَيَّةَ بْنِ زَيْدٍ وَهِيَ مِنْ عَوَالِي الْمَدِينَةِ وَكُنَّا نَتَنَاوَبُ النَّزُولَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنْزِلُ يَوْمًا وَأَنْزِلُ يَوْمًا فَإِذَا نَزَلْتُ جِئْتُهُ بِخَبَرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنَ الْوَحْيِ وَغَيْرِهِ وَإِذَا نَزَلَ فَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ. (٢)

٣- جلوس عبد الله بن عباس رضي الله عنهما لطلب العلم وقت الظهيرة في الريح الشديدة عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: " لَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْتُ لِرَجُلٍ: هَلُمَّ فَلْتَتَعَلَّمْ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَسَأُهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ كَثِيرٌ، فَقَالَ: الْعَجَبُ وَاللَّهِ لَكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، أَتَرَى النَّاسَ يَحْتَاجُونَ إِلَيْكَ، وَفِي النَّاسِ مَنْ تَرَى مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَتَرَكْتُ ذَلِكَ وَأَقْبَلْتُ عَلَى الْمُسَالَةِ وَتَتَبَعَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِنْ كُنْتُ لَأَتِي الرَّجُلَ فِي الْحَدِيثِ يَبْلُغُنِي أَنَّهُ سَمِعَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَجِدُهُ قَائِلًا، فَأَتَوَسَّدُ رِذَائِي عَلَى بَابِ دَارِهِ تَسْفِي الرِّيَاحُ عَلَى وَجْهِي، حَتَّى يُخْرِجَ إِلَيَّ، فَإِذَا رَأَيْتِي قَالَ: يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ مَا لَكَ؟ قُلْتُ: حَدِيثٌ بَلَّغُنِي أَنَّكَ تُحَدِّثُهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْكَ، فَيَقُولُ: هَلَا أُرْسَلَتْ إِلَيَّ فَآتِيكَ، فَأَقُولُ: أَنَا كُنْتُ أَحَقَّ أَنْ آتِيكَ، وَكَانَ ذَلِكَ الرَّجُلُ يَرَانِي قَدْ ذَهَبَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ احتاج النَّاسُ إِلَيَّ فَيَقُولُ: أَنْتَ كُنْتَ أَحَقَّ مِنِّي ". (٣)

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٩٧٠)، وأحمد (١٦٠٤٢)، وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٧٤٦).

(٢) أخرجه البخاري (٨٩)، ومسلم (١٤٧٩).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٥٩٢)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٥٥٢١): ورجاله رجال الصحيح.

٤- تعلم زيد بن ثابت - رضي الله عنه - كتب أهل الكتاب في خمس عشرة ليلة، قال زيد: ذُهِبَ بِي إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأُعْجِبَ بِي فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا غُلَامٌ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ مَعَهُ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ بِضْعَ عَشْرَةِ سُورَةٍ فَأُعْجِبَ ذَلِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ: يَا زَيْدُ تَعَلَّمْ لِي كِتَابَ يَهُودَ فَإِنِّي وَاللَّهِ مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابِي، قَالَ زَيْدٌ: فَتَعَلَّمْتُ كِتَابَهُمْ مَا مَرَّتْ بِي خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً حَتَّى حَدَّثْتُهُ وَكُنْتُ أَقْرَأُ لَهُ كُتُبَهُمْ إِذَا كَتَبُوا إِلَيْهِ وَأُجِيبُ عَنْهُ إِذَا كَتَبَ. (١)

٥- يقول الإمام الشافعي - رحمه الله -: حفظت القرآن وأنا ابن سبع سنين، وحفظت الموطأ وأنا ابن عشر. وقال أيضًا: كنت أكتب في الأكتاف والعظام، وكنت أذهب إلى الديوان، فأستوهب الظهور، فأكتب فيها. (٢)

٦- حرصهم على طلب العلم مع قلة النفقة: لما خرج الإمام أحمد إلى عبد الرزاق، انقطعت به النفقة، فأكرى نفسه من بعض الجمالين إلى أن وافى صنعاء، وعرض عليه أصحابه المواساة فلم يأخذ. (٣)

٧- قالت أم سفيان الثوري لسفيان: اذهب، فاطلب العلم حتى أعولك بمغزلي، فإذا كتبت عدة عشرة أحاديث، فانظر هل تجد في نفسك زيادة، فاتبعه، وإلا، فلا تتعن. (٤)

٨- قال عمر بن حفص الأشقر: كنا مع البخاري بالبصرة نكتب، ففقدناه أياما، ثم وجدناه في بيت وهو عريان، وقد نفذ ما عنده، فجمعنا له الدراهم، وكسوناها. (٥)

٩- حرصهم على بذل العلم وتدريسه للطلاب: كان ابن الجوزي يحضر مجلسه مائة ألف أو يزيدون لا يضيع من زمانه شيئًا يكتب في اليوم أربعة كرايس، وله في كل علم مشاركة،

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٤٥)، والترمذي (٢٧١٥)، وأحمد (٢١٦١٨)، واللفظ له، وقال الألباني في

صحيح الترمذي (٢٨٧٠): حسن صحيح.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (١١/١٠).

(٣) سير أعلام النبلاء (١١/٢١٤).

(٤) سير أعلام النبلاء (٧/٢٦٩).

(٥) تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٨/٥٢).

ولكنه كان في التفسير من الأعيان، وفي الحديث من الحفاظ، وفي التاريخ من المتوسعين، ولديه فقه كافٍ، وأما السجع الوعظي فله فيه ملكة قوية. (١)

- قال الشافعي - رحمه الله -

تَعْلَمُ فَلَيْسَ الْمَرْءُ يُولَدُ عَالِمًا. . . . وَلَيْسَ أَخُو عِلْمٍ كَمَنْ هُوَ جَاهِلٌ
وَإِنَّ كَبِيرَ الْقَوْمِ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ. . . . صَغِيرٌ إِذَا التَّقَتَّ عَلَيْهِ الْجَحَافِلُ
وَإِنَّ صَغِيرَ الْقَوْمِ إِنْ كَانَ عَالِمًا. . . . كَبِيرٌ إِذَا رُدَّتْ إِلَيْهِ الْمَحَافِلُ (٢)

(١) تاريخ دمشق (٤/١٣٤٢).

(٢) ديوان الشافعي (١/٨٨).

١٠- حب الخير للناس

كلما كان المتطوع حريصاً على حيازة الخير للناس كان نفعه أعظم، فلا يرى سبيلاً لنفع الناس إلا ولجه ولا باباً من الخير إلا سابق إليه ولا دعماً للمحتاجين إلا تنافس فيه وما ذاك إلا لما جعل الله له في قلبه من حب الخير للناس.

قال ابن منظور: الحب: نقيض البغض، والحب: الوداد والمحبة. (١)

قال الراغب: الخير: ما يرغب فيه الكل، كالعقل مثلاً، والعدل، والفضل، والشيء النافع، وضده: الشر. (٢)

الأدلة من القرآن والسنة وأقوال السلف:

الأدلة من القرآن:

١- قال تعالى: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) [آل عمران: ١٠٤ - ١٠٥]

قال السعدي: أي: وليكن منكم أيها المؤمنون الذين من الله عليهم بالإيمان والاعتصام بحبله {أمة} أي: جماعة {يدعون إلى الخير} وهو اسم جامع لكل ما يقرب إلى الله ويبعد من سخطه {ويأمرُونَ بالمعروف} وهو ما عرف بالعقل والشرع حسنه {وينهون عن المنكر} وهو ما عرف بالشرع والعقل قبحه، وهذا إرشاد من الله للمؤمنين أن يكون منهم جماعة متصدية للدعوة إلى سبيله وإرشاد الخلق إلى دينه، ويدخل في ذلك العلماء المعلمون للدين، والوعاظ الذين يدعون أهل الأديان إلى الدخول في دين الإسلام، ويدعون المنحرفين إلى الاستقامة، والمجاهدون في سبيل الله، والمتصدون لتفقد أحوال الناس وإلزامهم بالشرع كالصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج وغير ذلك من شرائع الإسلام، وكتفقد المكايل والموازين وتفقد أهل الأسواق ومنعهم من الغش والمعاملات الباطلة، وكل هذه الأمور من فروع

(١) لسان العرب (١/١٨٦).

(٢) المفردات للراغب الأصفهاني (١/٣٢٧).

الكفايات كما تدل عليه الآية الكريمة في قوله {ولتكن منكم أمة} إلخ أي: لتكن منكم جماعة يحصل المقصود بهم في هذه الأشياء المذكورة، ومن المعلوم المتقرر أن الأمر بالشيء أمر به وبما لا يتم إلا به فكل ما تتوقف هذه الأشياء عليه فهو مأمور به، كالاتعداد للجهاد بأنواع العدد التي يحصل بها نكاية الأعداء وعز الإسلام، وتعلم العلم الذي يحصل به الدعوة إلى الخير وسائلها ومقاصدها، وبناء المدارس للإرشاد والعلم، ومساعدة النواب ومعاونتهم على تنفيذ الشرع في الناس بالقول والفعل والمال، وغير ذلك مما تتوقف هذه الأمور عليه، وهذه الطائفة المستعدة للدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هم خواص المؤمنين، ولهذا قال تعالى عنهم: {وأولئك هم المفلحون} الفائزون بالمطلوب، الناجون من المrehوب. (١)

٢- قال تعالى: {وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨)} [الإنسان: ٨]
قال القرطبي: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ: عَلَى قِلَّتِهِ وَحُبِّهِمْ إِيَّاهُ وَشَهْوَتِهِمْ لَهُ.
وَقَالَ الدَّارِمِيُّ: عَلَى حُبِّ اللَّهِ.
وَقَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَّاضٍ: عَلَى حُبِّ إِطْعَامِ الطَّعَامِ.

وَكَانَ الرَّبِيعُ بْنُ خَيْشَمٍ إِذَا جَاءَهُ السَّائِلُ قَالَ: أَطْعَمُوهُ سُكَّرًا فَإِنَّ الرَّبِيعَ يُحِبُّ السُّكَّرَ. (٢)

٣- وقال تعالى: {لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١١٤)} [سورة النساء: ١١٤]

قال السعدي: أي: لا خير في كثير مما يتناجى به الناس ويتخاطبون، وإذا لم يكن فيه خير، فإما لا فائدة فيه كفضول الكلام المباح، وإما شر ومضرة محضة كالكلام المحرم بجميع أنواعه. ثم استثنى تعالى فقال: {إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ} من مال أو علم أو أي نفع كان، بل لعله يدخل فيه العبادات القاصرة كالتمسيح والتحميد ونحوه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن بكل

(١) تفسير السعدي (ص ١٤٢).

(٢) تفسير القرطبي (١٩/١٢٨).

تسيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة" الحديث.

{أَوْ مَعْرُوفٍ} وهو الإحسان والطاعة وكل ما عرف في الشرع والعقل حسنه، وإذا أطلق الأمر بالمعروف من غير أن يقرن بالنهي عن المنكر دخل فيه النهي عن المنكر، وذلك لأن ترك المنهيات من المعروف، وأيضا لا يتم فعل الخير إلا بترك الشر. وأما عند الاقتران فيفسر المعروف بفعل المأمور، والمنكر بترك المنهي، {أَوْ إِصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ} والإصلاح لا يكون إلا بين متنازعين متخاصمين، والنزاع والخصام والتغاضب يوجب من الشر والفرقة ما لا يمكن حصره، فلذلك حث الشارع على الإصلاح بين الناس في الدماء والأموال والأعراض. (١)

٤- وقال تعالى: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩)} [سورة الحشر ٩]

قال السعدي: وقوله: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} أي: ومن أوصاف الأنصار التي فاقوا بها غيرهم، وتميزوا بها على من سواهم، الإيثار، وهو أكمل أنواع الجود، وهو الإيثار بمحاب النفس من الأموال وغيرها، وبذلها للغير مع الحاجة إليها، بل مع الضرورة والخصاصة، وهذا لا يكون إلا من خلق زكي، ومحبة لله تعالى مقدمة على محبة شهوات النفس ولذاتها. (٢)

الأدلة من السنة:

١- عَنِ النَّعْمَانَ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى. (٣)

(١) تفسير السعدي (ص ٢٠٢).

(٢) تفسير السعدي (ص ٨٥٠).

(٣) أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦) واللفظ له.

٢- عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ^(١)

وفي رواية وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ مِنَ الْخَيْرِ^(٢)

٣- عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا ثُمَّ شَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ^(٣)

قال ابن بطال: تعاون المؤمنون بعضهم بعضًا في أمور الدنيا والآخرة مندوب إليه بهذا الحديث، وذلك من مكارم الأخلاق، وقد جاء في حديث آخر عن النبي صلى الله عليه وسلم: (الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه) فينبغي للمؤمنين استعمال آداب نبيهم والافتداء بها وصف المؤمنين بعضهم لبعض من الشفقة والنصيحة، وتشبيكه بيه أصابعه تأكيداً لقوله وتمثيلاً لهم كيف يكونون فيما خولهم من ذلك.^(٤)

٤- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ يَأْخُذْ مِنْ أُمَّتِي خَمْسَ خِصَالٍ، فَيَعْمَلْ بِهِنَّ، أَوْ يَعْلَمُهُنَّ مَنْ يَعْمَلُ بِهِنَّ؟ قَالَ: قُلْتُ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَأَخَذَ بِيَدِي فَعَدَّهِنَّ فِيهَا، ثُمَّ قَالَ: اتَّقِ الْمُحَارِمَ تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ، وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ، وَأَحْسِنَ إِلَى جَارِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا، وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُسْلِمًا، وَلَا تُكْثِرِ الضَّحِكَ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ.^(٥)

أقوال السلف: -

* قَالَ الْفُضَيْلُ: إِنْ كُنْتَ تُحِبُّ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ مِثْلَكَ، فَمَا أَدَيْتَ النَّصِيحَةَ لِرَبِّكَ، كَيْفَ وَأَنْتَ تُحِبُّ أَنْ يَكُونُوا دُونَكَ؟

(١) أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥)

(٢) أخرجه النسائي (٥٠١٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٧٣).

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٢٦)، ومسلم (٢٥٨٥).

(٤) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٢٢٧/٩).

(٥) أخرجه أحمد (٨٠٩٥)، والترمذي (٢٣٠٥)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٣٠).

قال ابن رجب: يُشِيرُ إِلَى أَنَّ النَّصِيحَةَ لَهُمْ أَنْ يُحِبَّ أَنْ يَكُونُوا فَوْقَهُ، وَهَذِهِ مَنْزِلَةٌ عَالِيَةٌ، وَدَرَجَةٌ رَفِيعَةٌ فِي النَّصْحِ. ^(١)

* قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنِّي لَأَمُرُّ عَلَى الْآيَةِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، فَأَوَدُّ أَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ يَعْلَمُونَ مِنْهَا مَا أَعْلَمُ. ^(٢)

* قَالَ الشَّافِعِيُّ: وَدِدْتُ أَنَّ النَّاسَ تَعَلَّمُوا هَذَا الْعِلْمَ، وَلَمْ يُنْسَبْ إِلَيَّ مِنْهُ شَيْءٌ. ^(٣)

* قَالَ رَجُلٌ لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ: اجْعَلْ كَبِيرَ الْمُسْلِمِينَ عِنْدَكَ أَبَا، وَصَغِيرَهُمْ ابْنًا، وَأَوْسَطَهُمْ أَخًا، فَأَيُّ أَوْلَئِكَ تُحِبُّ أَنْ تُبَيِّءَ إِلَيْهِ؟ ^(٤)

* وَمِنْ كَلَامِ يَحْيَى بْنِ مُعَاذٍ الرَّازِيِّ: لِيَكُنْ حَظُّ الْمُؤْمِنِ مِنْكَ ثَلَاثَةً: إِنْ لَمْ تَنْفَعُهُ فَلَا تَضُرَّهُ، وَإِنْ لَمْ تُفْرِحْهُ فَلَا تَغْمُهُ، وَإِنْ لَمْ تَمْدَحْهُ فَلَا تَذُمَّهُ. ^(٥)

نماذج لحب الخير للناس:

الأنبياء والمرسلين وحبهم الخير للناس: -

إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام:

سؤال إبراهيم ربه أن يظل التوحيد في ذريته بعد وفاته:

قال الله تعالى: { رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } [البقرة: ١٢٨]

تكررت مسألة الخليل للذرية استشعارا بالمسئولية واهتماما منه بشأنهم وصلاتهم، وهذا تعبير صادق عن التضامن الذي يدعو إليه الإسلام وهو حب الخير لكل الناس، امتثالاً لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه). وكما أخبرنا الله عن عباده المتقين في قوله: {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ

(١) جامع العلوم والحكم (٣٠٩/١).

(٢) جامع العلوم والحكم (٣١٠/١).

(٣) جامع العلوم والحكم (٣١٠/١).

(٤) جامع العلوم والحكم (٢٨٣/٢).

(٥) جامع العلوم والحكم (٢٨٣/٢).

وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} ((الفرقان ٧٤)). وهذا القدر مرغوب فيه شرعاً، فإن من تمام محبة عبادة الله تعالى أن يحب أن يكون من صلبه من يعبد الله وحده لا شريك له. (١)

حب النبي صلى الله عليه وسلم الخير للناس:

❖ قال الله تعالى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} (١٢٨){[التوبة: ١٢٨]

قال ابن كثير: {حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ} أَي: عَلَى هِدَايَتِكُمْ وَوُضُولِ النَّفْعِ الدُّنْيَوِيِّ وَالْآخِرَوِيِّ إِلَيْكُمْ. (٢)

❖ قال تعالى: {لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} (سورة الشعراء ٣)

قال السعدي: فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينذر به (أي: القرآن) الناس، ويهدي به الصراط المستقيم، فيهتدي بذلك عباد الله المتقون، ويعرض عنه من كتب عليه الشقاء، فكان يحزن حزناً شديداً، على عدم إيمانهم، حرصاً منه على الخير، ونصحاً لهم. (٣)

دعوته لأقاربه وجيرانه حتى عند احتضارهم.

❖ عن سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ فَقَالَ أَيُّ عَمِّ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةً أَحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْزُضُهَا عَلَيْهِ وَيُعِيدَانِهِ بِتِلْكَ الْمَقَالَةِ حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاللَّهِ لَا سَتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَتُكِّمْ عَنْكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ

(١) تفسير ابن كثير (١/٤٤٢).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/٢٤١).

(٣) تفسير السعدي (ص ٥٨٩).

وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ { وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ}. (١)

* عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ عَلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَرَضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: أَسْلِمَ، فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ: أَطْعَ أَبَا الْقَاسِمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ (٢)

نماذج من حب الخير للناس عند الصحابة رضي الله عنهم :-

عبد الله بن عباس رضي الله عنهما:

عَنْ ابْنِ بُرَيْدَةَ، قَالَ: شَتَمَ رَجُلٌ ابْنَ عَبَّاسٍ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّكَ لَتَشْتُمُنِي وَفِي ثَلَاثِ خِصَالٍ: إِنِّي لَأَتِي عَلَى الْآيَةِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى فَلَوَدِدْتُ أَنَّ جَمِيعَ النَّاسِ يَعْلَمُونَ مِنْهَا مَا أَعْلَمُ، وَإِنِّي لَأَسْمَعُ بِالْحَاكِمِ مِنْ حُكَّامِ الْمُسْلِمِينَ يَعْدِلُ فِي حُكْمِهِ فَأَفْرُحُ بِهِ، وَلَعَلِّي لَا أَقَاضِي إِلَيْهِ أَبَدًا، وَإِنِّي لَأَسْمَعُ بِالْغِيثِ قَدْ أَصَابَ الْبَلَدَ مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ فَأَفْرُحُ بِهِ، وَمَا لِي بِهِ مِنْ سَائِمَةٍ. (٣)

عبد الله بن حذافة السهمي رضي الله عنه:

عَنْ أَبِي رَافِعٍ، قَالَ: وَجَهَ عُمَرُ جَيْشًا إِلَى الرُّومِ، فَأَسْرَوْا عَبْدِ اللَّهِ بْنَ حَذَافَةَ، فَذَهَبُوا بِهِ إِلَى مَلِكِهِمْ، فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ.

فَقَالَ: هَلْ لَكَ أَنْ تَنْصُرَ، وَأَعْطِيكَ نِصْفَ مَلِكِي؟

قَالَ: لَوْ أُعْطِيتَنِي جَمِيعَ مَا تَمْلِكُ، وَجَمِيعَ مَلِكِ الْعَرَبِ مَا رَجَعْتُ عَنْ دِينِ مُحَمَّدٍ طَرَفَةَ عَيْنٍ.

قَالَ: إِذَا أَقْتَلْتُكَ. قَالَ: أَنْتَ وَذَاكَ.

فَأَمَرَ بِهِ، فَصَلَبَ، وَقَالَ لِلرَّمَاةِ: ارْمُوهُ قَرِيبًا مِنْ بَدَنِهِ.

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٠).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٥٦).

(٣) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣٢٢/١).

وهو يعرض عليه، ويأبى، فأنزله، ودعا بقدر، فصب فيها ماء حتى احترقت، ودعا بأسيرين من المسلمين، فأمر بأحدهما، فألقى فيها، وهو يعرض عليه النصرانية، وهو يأبى، ثم بكى. فقل للملك: إنه بكى.

فظن أنه قد جزع، فقال: ردوه. ما أبكاك؟

قال: قلت: هي نفس واحدة تلقى الساعة فتذهب، فكنت أشتهي أن يكون بعدد شعري أنفس تلقى في النار في الله.

فقال له الطاغية: هل لك أن تقبل رأسي، وأخلي عنك؟

فقال له عبد الله: وعن جميع الأسارى؟

قال: نعم. فقبل رأسه، وقدم بالأسارى على عمر، فأخبره خبره.

فقال عمر: حق على كل مسلم أن يقبل رأس ابن حذافة، وأنا أبدأ. فقبل رأسه. (١)

حب الخير للناس عند السلف والعلماء:

❖ قِيلَ لِمُحَمَّدِ بْنِ الْمُكَدِّرِ: أَيُّ الدُّنْيَا أَعْجَبُ إِلَيْكَ؟ قَالَ: إِدْخَالُ الشُّرُورِ عَلَى الْمُؤْمِنِ (٢)

❖ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ: مَا رَدَدْتُ أَحَدًا عَنْ حَاجَةٍ أَقْدِرُ عَلَى قَضَائِهَا، وَلَوْ كَانَ فِيهَا ذَهَابٌ

مَالِي (٣)

❖ عَنِ الْحَسَنِ قَالَ: لِأَنَّ أَقْضَى مُسْلِمٍ حَاجَةً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَصْلِيَ أَلْفَ رَكْعَةٍ (٤)

❖ قِيلَ لِمُعَاوِيَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ: مَا بَلَغَ مِنْ كَرَمِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ؟ قَالَ: كَانَ لَيْسَ لَهُ مَالٌ

دُونَ النَّاسِ هُوَ وَالنَّاسُ فِي مَالِهِ شُرَكَاءُ، مَنْ سَأَلَهُ شَيْئًا أَعْطَاهُ، وَمَنْ اسْتَمْنَحَهُ شَيْئًا مَنَحَهُ إِيَّاهُ،

لَا يَرَى أَنَّهُ يَفْتَقِرُ فَيَقْتَصِرُ، وَلَا يَرَى أَنَّهُ يَحْتَاجُ فَيَدَّخِرُ (٥)

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٥٨/٢٧)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (١٤/٢).

(٢) قضاء الحوائج لابن أبي الدنيا (٣٣).

(٣) قضاء الحوائج لابن أبي الدنيا (٦٧).

(٤) قضاء الحوائج لابن أبي الدنيا (٣٧).

(٥) قضاء الحوائج لابن أبي الدنيا (٥٩).

* وَكَانَ مُحَمَّدٌ بْنُ وَاسِعٍ يَبِيعُ حِمَارًا لَهُ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: أَتَرْضَاهُ لِي؟ قَالَ: لَوْ رَضِيْتُهُ لَمْ أَبْعُهُ، وَهَذِهِ
إِشَارَةٌ مِنْهُ إِلَى أَنَّهُ لَا يَرْضَى لِأَخِيهِ إِلَّا مَا يَرْضَى لِنَفْسِهِ. ^(١)

* كَانَ عَتَبَةُ الْغُلَامِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُفْطِرَ يَقُولُ لِبَعْضِ إِخْوَانِهِ الْمُطَّلَعِينَ عَلَى أَمْرِهِ وَأَعْمَالِهِ: أَخْرِجْ إِلَيَّ
مَاءً أَوْ تَمْرَاتٍ أَفْطِرُ عَلَيْهَا؛ لِيَكُونَ لَكَ أَجْرٌ مِثْلُ أَجْرِي. ^(٢)

(١) قضاء الحوائج لابن أبي الدنيا (٣٠٥/١).

(٢) جامع العلوم والحكم (٣١٠/١).

١١- الورع

المتطوعون ورعون عن أموال الناس ولا بد أن ينأوا عن كل شبهة، لأن في الوقوع في الشبهات إساءة السمعة للهدف النبيل الذي من أجله قاموا بالعمل ، فلا يحق له أن يستأثر بمزايا عن غيره من الناس بحجة أنه تفرغ للعمل أو بذل من الوقت والجهد مالم يذله غيره ، ومن هنا فهو بحاجة إلى التحلي بالورع في عمله .

تعريف الورع لغة:

الْوَأْرُ وَالرَّاءُ وَالْعَيْنُ: أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى الْكَفِّ وَالْإِنْقِيَاظِ. مِنْهُ الْوَرَعُ: الْعِفَّةُ، وَهِيَ الْكَفُّ عَمَّا لَا يَنْبَغِي. (١)

اصطلاحاً:

قال يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ: الْوَرَعُ اجْتِنَابُ كُلِّ رِييَّةٍ، وَتَرْكُ كُلِّ شُبْهَةٍ، وَالْوُقُوفُ مَعَ اللَّهِ عَلَى حَدِّ الْعِلْمِ مِنْ غَيْرِ تَأْوِيلٍ (٢)

وقال مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الْكَتَّانِيُّ: الْوَرَعُ هُوَ مُلَازِمَةُ الْأَدَبِ، وَصِيَانَةُ النَّفْسِ (٣)

الآيات الواردة في معنى الورع:

(١) قوله تعالى: {كُلُوا وَارْعُوا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (٥٤)} [طه: ٥٤]
وقوله: {أَفَلَمْ يَدَّبُّهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (١٢٨)} [طه: ١٢٨]

والنهي جمع نُهْيَةٍ سَمِّيَ بها العقلُ لنهيهِ عن اتباع الباطلِ وارتكاب القبائح كما سَمِّيَ بالعقل والحِجْر لعقله وحَجْرِهِ عن ذلك أي لذوي العقول الناهية عن الأباطيل التي من جملتها ما يدَّعيه الطاغية ويقبله منه فتنة الباغية، وعن قتادة {إن في ذلك لآيات لأولي النهي} أهل

(١) مقاييس اللغة لابن فارس (٦/١٠٠).

(٢) الزهد الكبير للبيهقي (١/٣١٦).

(٣) الزهد الكبير للبيهقي (١/٣١٨).

الورع. وفي تسميتهم بذلك وجهان: أحدهما: لأنهم ينهون النفس عن القبيح. الثاني: لأنه ينتهي إلى آرائهم.

أي: لأهل العقول والأقرب أن للنهية مزية على العقل، والنهي لا يقال إلا فيمن له عقل ينتهي به عن القبائح، كما أن لقولنا: أولو العزم مزية على أولي الحزم، فلذلك قال بعضهم: أهل الورع وأهل التقوى (١)

(٢) قوله تعالى: { يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٦٩) } [البقرة: ٢٦٩]

هذه الجملة اعتراض وتذييل لما تضمنته آيات الإنفاق من المواعظ والآداب وتلقين الأخلاق الكريمة، مما يكسب العاملين به راحة العقل واستقامة العمل.

قَالَ الْحَسَنُ: الْحِكْمَةُ الْوَرَعُ. قال الفخر: ينبه سبحانه وتعالى على أن الأمر الذي لأجله وجب ترجيح وعد الرحمان على وعد الشيطان هو أن وعد الرحمان ترجحه الحكمة والعقل، ووعد الشيطان ترجحه الشهوة والحس من حيث إنهما يأمران بتحصيل اللذة الحاضرة، ولا شك أن حكم الحكمة هو الحكم الصادق المبرأ عن الزيف، وحكم الحس والشهوة يوقع في البلاء والمحنة. فتعقيب قوله: { والله يعدكم مغفرة } [البقرة: ٢٦٨]، بقوله: يؤتي الحكمة إشارة إلى أن ما وعد به تعالى من المغفرة والفضل من الحكمة، وأن الحكمة كلها من عطاء الله تعالى، وأن الله تعالى يعطيها من يشاء.

والحكمة إتقان العلم وإجراء الفعل على وفق ذلك العلم. فمن أوتي الحكمة فقد أوتي القصد والاعتدال فلا يفحش ولا يتعدى الحدود وأوتي إدراك العلل والغايات فلا يضل في تقدير الأمور وأوتي البصيرة المستنيرة التي تهديه للصالح الصائب من الحركات والأعمال. . وذلك خير كثير متنوع الألوان. (٢)

(١) تفسير الطبري (٣٩٨/١٨)، تفسير أبي السعود (٢٢/٦)، تفسير الهارودي (٤٠٨/٣)، تفسير الرازي (١١٢/٢٢).

(٢) تفسير القرطبي (٣٣٠/٣)، التحرير والتنوير (٦١/٣)، تفسير الرازي (١٦٩/٢).

الأحاديث الواردة في الورع:

(١) عن النعمان بن بشير - رضي الله عنهما - قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " الْحَلَالُ بَيْنٌ، وَالْحَرَامُ بَيْنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعَرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ: كَرَاعٍ يَزَعَى حَوْلَ الْحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ " (١)

(٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنَّ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَأَلَ بَعْضَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَأْنَ يُسْلِفُهُ أَلْفَ دِينَارٍ، فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ فَخَرَجَ فِي الْبَحْرِ، فَلَمْ يَجِدْ مَرْكَبًا، فَأَخَذَ خَشَبَةً، فَفَقَرَهَا، فَأَدْخَلَ فِيهَا أَلْفَ دِينَارٍ، فَرَمَى بِهَا فِي الْبَحْرِ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ، فَإِذَا بِالْخَشَبَةِ، فَأَخَذَهَا لِأَهْلِهِ حَطَبًا، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ فَلَمَّا نَشَرَهَا وَجَدَ الْمَالَ. (٢)

(٣) عَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْأَنْصَارِيِّ، قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَنِ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ فَقَالَ: الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ. (٣)

نماذج من الورع:

ورع النبي صلى الله عليه وسلم

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِنِّي لَأَتَقَلَّبُ إِلَى أَهْلِي، فَأَجِدُ الثَّمَرَةَ سَاقِطَةً عَلَى فِرَاشِي، فَأَرْفَعُهَا لِأَكْلُهَا، ثُمَّ أَحْشَى أَنْ تَكُونَ صَدَقَةً، فَأُلْقِيهَا (٤)
وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِثَمَرَةٍ فِي الطَّرِيقِ، قَالَ: لَوْلَا أَنِّي أَخَافُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الصَّدَقَةِ لَأَكَلْتُهَا (٥)

(١) أخرجه البخاري (٥٢) واللفظ له، ومسلم (١٥٩٩).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٩٨)

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٥٣).

(٤) أخرجه البخاري (٢٤٣٢)، ومسلم (١٠٧٠).

(٥) أخرجه البخاري (٢٤٣١)، ومسلم (١٧١).

ورع أبي بكر رضي الله عنه:

عن عائشة قالت: كَانَ لِأَبِي بَكْرٍ غُلَامٌ يُخْرِجُ لَهُ الْخَرَاجَ وَيَأْكُلُ مِنْهُ، وَجَاءَ يَوْمًا بِشَيْءٍ وَوَافَقَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ جَوْعًا فَأَكَلَ مِنْهُ لَقْمَةً فَقَالَ الْغُلَامُ: تَذَرِي مَا هَذَا؟ كُنْتُ تَكْهَنُتُ لِلنَّسَانِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَمَا أَحْسَنُ الْكِهَانَةَ إِلَّا أَنِّي خَدَعْتُهُ فَأَعْطَانِي بِذَلِكَ فَهَذَا الَّذِي أَكَلْتُ مِنْهُ فَأَدْخَلَ أَبُو بَكْرٍ إصْبَعَهُ فِي فِيهِ فَقَاءَ كُلَّ شَيْءٍ فِي بَطْنِهِ. (١)

ورع عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

عن نافع: أَنَّ عُمَرَ فَرَضَ لِلْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ أَرْبَعَةَ آلَافٍ، وَفَرَضَ لَابْنِ عُمَرَ ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَخَمْسِمِائَةٍ، فَقِيلَ لَهُ: هُوَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، فَلَمْ نَقْصُصْهُ مِنْ أَرْبَعَةِ آلَافٍ؟ قَالَ: إِنَّمَا هَاجَرَ بِهِ أَبُوهُ يَقُولُ: لَيْسَ هُوَ مِنْ هَاجِرٍ بِنَفْسِهِ. (٢)

ورع عائشة رضي الله عنها:

وكَانَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، شَدِيدَةَ الْوَرَعِ، فَعَنَ شَرِيحُ بْنُ هَانئٍ قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ، عَنِ الْمُسْحِ عَلَى الْخُفَّيْنِ، فَقَالَتْ: أَنْتِ عَلِيًّا فَإِنَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ مِنِّي، فَأَتَيْتُ عَلِيًّا فَذَكَرَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمِثْلِهِ (٣)

وعنها رضي الله عنها قالت: كُنْتُ أَدْخُلُ بَيْتِي الَّذِي دُفِنَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبِي فَأَضَعُ ثَوْبِي، وَأَقُولُ إِنَّهُ هُوَ زَوْجِي وَأَبِي، فَلَمَّا دُفِنَ عُمَرُ مَعَهُمْ، فَوَاللَّهِ مَا دَخَلْتُهُ إِلَّا وَأَنَا مَسْدُودَةٌ عَلَى ثِيَابِي، حَيَاءً مِنْ عُمَرَ (٤)

ورع عمر بن عبد العزيز:

أنه رحمه الله تعالى ما كان يقبل أي هدية من عماله أو من أهل الزمة خوفاً من أن يكون ذلك من باب الرشوة، فروى ابن الجوزي عن عمرو بن مهاجر قال: اشتهى عمر بن عبد العزيز

(١) أخرجه البخاري (٣٨٤٢).

(٢) أخرجه البخاري (٣٩١٢).

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٦).

(٤) أخرجه أحمد (٢٥٦٦٠)، والحاكم (٦٧٢١)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٦: ورجاله رجال الصحيح.

تفاحًا فقال: لو كانت لنا - أو عندنا - شيء من التفاح، فإنه طيب الريح طيب الطعم. فقام رجل من أهل بيته فأهدى إليه تفاحًا.

فلما جاء به الرسول، قال عمر: ما أطيب ريحه وأحسنه، ارفعه يا غلام، فأقرئ فلانًا السلام وقل له: إن هديتك قد وقعت منا بموقع بحيث تحب. فقلت يا أمير المؤمنين، ابن عمك ورجل من أهل بيتك وقد بلغك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة. قال: ويحك؟ إن الهدية كانت للنبي صلى الله عليه وسلم هدية وهي لنا اليوم رشوة. وعن ميمون بن مهران قال: أهدي إلى عمر بن عبد العزيز تفاحا وفاكهة فردها وقال: لا أعلم أنكم بعثتم إلى أحد من أهل عملي شيئًا" قيل له: ألم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية؟ قال: بلى، ولكنها لنا ولمن بعدنا رشوة. (١)

- وكان مطرف بن عبد الله بن الشَّخِير يقول: فضل العلم أحب إليّ من فضل العبادة، وخير دينكم الورع. (٢)

- وعن العباس بن سهم أن امرأة من الصالحات أتتها نعي زوجها وهي تعجن، فرفعت يدها من العجين وقالت: هذا طعام قد صار لنا فيه شركاء.

- وعن ابن روح عن بعض أهل العلم أن امرأة أتتها نعي زوجها والسراج يقد فأطفأت السراج وقالت: هذا زيت قد صار لنا فيه شريك. (٣)

أقوال عن الورع:

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن الدين ليس بالطنطنة من آخر الليل ولكن الدين الورع (٤)

عن عائشة، رحمها الله قالت: إن الناس قد ضيعوا أعظم دينهم الورع (٥)

(١) ابن الجوزي سيرة عمر ص ١٩٧.

(٢) تفسير الطبري (٢٣ / ٢٤٧)، الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (١ / ١٥٩).

(٣) صفة الصفوة (٢ / ٥٣٢).

(٤) الزهد لابن حنبل (١ / ١٠٤).

(٥) الزهد لابن حنبل (١ / ١٦٦).

عن الحسن: أفضل العلم الورع والتوكل^(١)

قال يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ الْعَالِمُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَخَشْيَةِ اللَّهِ الْوَرَعُ^(٢)

عَنِ الضَّحَّاكِ بْنِ مَرْحَمٍ قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُنَا، وَمَا نَتَعَلَّمُ إِلَّا الْوَرَعَ^(٣)

وَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: لِكُلِّ شَيْءٍ حَدٌّ وَحُدُودُ الْإِسْلَامِ الْوَرَعُ (٤)

عَلَامَاتُ الْوَرَعِ:

عَلَامَةُ الْوَرَعِ أَنْ يَرَى تِسْعَةَ أَشْيَاءَ فَرِيضَةً عَلَى نَفْسِهِ:

أَوَّلُهَا: حِفْظُ اللِّسَانِ عَنِ الْغِيْبَةِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا} [الحجرات: ١٢]،

وَالثَّانِي: الْاجْتِنَابُ عَنْ سُوءِ الظَّنِّ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ} [الحجرات: ١٢]،

وَالثَّالِثُ: الْاجْتِنَابُ عَنِ السُّخْرِيَّةِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ} [الحجرات: ١١]،

وَالرَّابِعُ: غَضُّ الْبَصَرِ عَنِ الْمُحَارِمِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ} [النور: ٣٠]،

وَالْخَامِسُ: صِدْقُ اللِّسَانِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: " {وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا} [الأنعام: ١٥٢]،

وَالسَّادِسُ: أَنْ يَعْرِفَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَى نَفْسِهِ، لِكَيْلَا يُعْجَبَ بِنَفْسِهِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الحجرات: ١٧]،

(١) الزهد لابن حنبل (١/٢١٥).

(٢) أخلاق العلماء للأجري (١/٧٠)، الورع لابن أبي الدنيا (١/٧٤).

(٣) الزهد لوكيع (١/٤٧٤).

(٤) تنبيه الغافلين للسمرقندي (١/٤٧٣).

وَالسَّابِعُ: أَنْ يُنْفِقَ مَالَهُ فِي الْحَقِّ، وَلَا يُنْفِقُهُ فِي الْبَاطِلِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا} [الفرقان: ٦٧]، يَعْنِي لَمْ يُنْفِقُوا فِي الْمَعْصِيَةِ، وَلَمْ يَمْنَعُوا مِنَ الطَّاعَةِ: {وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا} [الفرقان: ٦٧]، أَيَّ عَدَلًا.

وَالثَّامِنُ: أَنْ لَا يَطْلُبَ لِنَفْسِهِ الْعُلُوَّ وَالْكَبَرَ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا} [القصص: ٨٣].

وَالتَّاسِعُ: الْمُحَافَظَةُ عَلَى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ فِي أَوْقَاتِهَا، بِرُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ} [البقرة: ٢٣٨] (١)

أقسام الورع:

١ - ورع في الأرباح والأموال، وورع في الأعطيات التي تأتي من السلاطين وهبات الناس. قال الأوزاعي: لو قبلنا من الناس كل ما يعطونا لهنّا عليهم. يعني: قبول الجوائز والهدايا، خاصة من الأمراء.

وعن أحمد بن أبي الحواري، قال: بلغني أن نصرانياً أهدى إلى الأوزاعي جرة عسل. فقال: يا أبا عمرو! تكتب لي إلى والي بعلبك، قال: إن شئت رددت الجرة وكتبت لك، وإلا قبلت الجرة ولم أكتب لك. قال: فرد الجرة وكتب له فوضع عنه ثلاثين ديناراً. (٢)

٢ - الورع عن الفتيا: فهناك أناس تجد الفتيا على طرف لسانه، فلا يكاد يسأل إلا ويحيب، سواء يعلم أو لا يعلم

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: أيها الناس من سئل عن علم يعلمه فليقل به، ومن لم يكن عنده علم فليقل: الله أعلم. فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم". إن الله تبارك وتعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم: {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ}

وفي رواية لمسلم: من فقه الرجل أن يقول لما لا علم له به: الله أعلم (١)

(١) تنبيه الغافلين بأحاديث سيد الأنبياء والمرسلين للسمرقندي (ص: ٤٧٣ - ٤٧٤) بتصرف يسير.

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٥ / ١٩٨).

وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: "من أفتى بفتيا يعمى عنها، فإثمها عليه" (٢)
 وكان ابن عيينة رحمه الله تعالى يقول: "أجسر الناس على الفتيا أقلهم علماً". (٣)
 وقال سفيان الثوري رحمه الله تعالى: "أدركت الفقهاء وهم يكرهون أن يجيبوا في المسائل
 والفتيا حتى لا يجدوا بداً من أن يفتوا".
 وقال: "أعلم الناس بالفتيا أسكتهم عنها، وأجهلهم بها أنطقهم فيها" (٤)

٣ - الورع في المشتبهات:

قَالَ حَسَّانُ بْنُ أَبِي سِنَانٍ: مَا وَجَدْتُ شَيْئًا هُوَ أَهْوَنُ مِنَ الْوَرَعِ.
 فالورع الإمساك عما قد يضر فتدخل فيه المحرمات والشبهات لأنها قد تضر. فإنه من اتقى
 الشبهات استبرأ لعرضه ودينه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي حول الحمى
 يوشك أن يواقعها. (٥)

٤ - الورع المشروع المستحب: الذي بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم فهو: اتقاء من
 يخاف أن يكون سبباً للذم والعذاب عند عدم المعارض الراجح. ويدخل في ذلك أداء
 الواجبات والمشتبهات التي تشبه الواجب وترك المحرمات والمشتبهات التي تشبه الحرام وإن
 أدخلت فيها المكروهات قلت: نخاف أن يكون سبباً للنقص والعذاب.

٥ - وأما الورع الواجب: فهو اتقاء ما يكون سبباً للذم والعذاب وهو فعل الواجب وترك
 المحرم والفرق بينهما فيما اشتبه أمن الواجب هو أم ليس منه؟ وما اشتبه تحريمه أمن المحرم أم
 ليس منه؟ فأما ما لا ريب في حله فليس تركه من الورع وما لا ريب في سقوطه فليس فعله من
 الورع.

(١) أخرجه البخاري (٤٨٠٩)، مسلم (٧٢٤٤).

(٢) الدارمي (١٨٠).

(٣) أخرجه ابن عبد البر جامع بيان العلم وفضله ٢ / ٣١٨.

(٤) أخلاق العلماء للأجري ص ١٠٢ الآداب الشرعية لابن مفلح ٢ / ٦٦ - ٦٧.

(٥) مجموع الفتاوى (١٠ / ٦١٦).

والأصل في الورع المشتبه قول النبي صلى الله عليه وسلم " الحلالُ بيِّنٌ، والحرامُ بيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ " (١)

(١) مجموع الفتاوى (٢٠ / ١٤٢).

١٢- العفة

تعريف العفة لغة:

العِفَّةُ: الكَفُّ عَمَّا لَا يَحِلُّ. ورجل عَفِيفٌ، يَعِفُّ عِفَّةً، وَقَوْمٌ عَقُّونَ. (١)

اصطلاحًا:

العفاف، وَهُوَ الكَفُّ عَنِ الحَرَامِ وَالسُّوَالِ مِنَ النَّاسِ، وَالتَّعَفُّفُ: الصَّبْرُ وَالنَّزَاهَةُ مِنَ الشَّيْءِ. (٢)
والعِفَّةُ: الامتناع عما لا يحل ولا يجب فعله. (٣)

قال الراغب الأصبهاني: العِفَّةُ: حصول حالة للنفس تمتنع بها عن غلبة الشهوة، والمتَّعِفُّ: المتعاطي لذلك بضرب من الممارسة والقهر، وأصله: الاقتصار على تناول الشيء القليل الجاري مجرى العَفَافَةِ، والعِفَّةُ، أي: البقية من الشيء، أو مجرى العفف، وهو ثمر الأراك، والاستعفاف: طلب العِفَّة. قال تعالى: {وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ} [النساء: ٦]، وقال: {وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا} [النور: ٣٣]. (٤)

الآيات الواردة في العفة:

(١) قال تعالى: {لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ} (البقرة: ٢٧٣) [٢٧٣]

ذكر مصرف النفقات الذين هم أولى الناس بها فوصفهم بست صفات أحدها الفقر، والثاني قوله: {أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} أي: قصروها على طاعة الله من جهاد وغيره، فهم مستعدون لذلك محبوسون له، الثالث عجزهم عن الأسفار لطلب الرزق فقال: {لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ} أي: سفرا للتكسب، الرابع قوله: {يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ} وهذا بيان

(١) كتاب العين لابن تميم البصري (٩٢/١)، الكليات (٦٥٦)، مجمع الأمثال (٥٥ / ٢).

(٢) تاج العروس للزبيدي (١٧٢/٢٤)، أدب الدنيا والدين (ص: ١٤١).

(٣) ميزان العمل لأبي حامد الغزالي (٢٦٩/١)، جامع لطائف التفسير (٩٩ / ٢٠).

(٤) مفردات القرآن ١ - ٤٧٥.

لصدق صبرهم وحسن تعففهم. الخامس: أنه قال: {تعرفهم بسيماهم} أي: بالعلامة التي ذكرها الله في وصفهم، وهذا لا ينافي قوله: {يحسبهم الجاهل أغنياء} فإن الجاهل بحالهم ليس له فطنة يتفرس بها ما هم عليه، وأما الفطن المتفرس فمجرد ما يراهم يعرفهم بعلامتهم، السادس قوله: {لا يسألون الناس إلحافاً} أي: لا يسألونهم سؤال إلحاف، أي: إلحاح، بل إن صدر منهم سؤال إذا احتاجوا لذلك لم يلحوا على من سألوا، فهو لاء أولى الناس وأحقهم بالصدقات لما وصفهم به من جميل الصفات، وأما النفقة من حيث هي على أي شخص كان، فهي خير وإحسان وبر يثاب عليها صاحبها ويؤجر، فلهذا قال: {وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم}. (١)

(٢) وقال تعالى: {وَابْتَغُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (٦)} [النساء: ٦]

وَالتَّعَفُّفُ تَكَلُّفُ الْعَفَافِ وَهُوَ النَّزَاهَةُ عَمَّا يَلِيقُ

الأحاديث الواردة في العفة:

١- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مسعودٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَىٰ، وَالتَّقَىٰ، وَالْعَفَافَ، وَالْغِنَى (٢)

قال النووي: الْعَفَافُ وَالْعِفَّةُ هُوَ التَّنْزَهُ عَمَّا لَا يَبَاحُ وَالْكَفُّ عَنْهُ، وَقِيلَ الْعَفَافُ: هُوَ التَّنْزَهُ عَمَّا لَا يَبَاحُ وَالْكَفُّ عَنْهُ، وَهُوَ غِنَى النَّفْسِ وَالِاسْتِغْنَاءُ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ. فجمع الخير كله في هذا الدعاء. فالهدى: هو العلم النافع. والتقى: العمل الصالح، وترك المحرمات كلها. وهذا صلاح الدين. (٣)

(١) تفسير السعدي (ص: ١١٦) تفسير ابن عطية (١/ ٣٦٩) التحرير والتنوير (٣/ ٧٥).

(٢) مسلم (٢٧٢١).

(٣) شرح النووي على مسلم (١٧/ ٤١)، إكمال المعلم بفوائد مسلم (٨/ ٢٢٤).

٢- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ نَاسًا مِنَ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ، فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ، فَأَعْطَاهُمْ حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ: مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَغْفِرْ يُعَفِّهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ (١)

قال التيمي: أي من يطلب العفاف وهو ترك المسألة يعطيه الله العفاف ومن يطلب الغنى من الله يعطيه وقال بعضهم معناه من طلب من نفسه العفة عن السؤال ولم يظهر الاستغناء يعفه الله أي يصيره عفيفا ومن ترقى من هذه المرتبة إلى ما هو أعلى وهو إظهار الاستغناء عن الخلق يملأ الله قلبه غنى (٢)

٣- عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الزَّيْبِرِ بْنِ الْعَوَّامِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ أَحِبَّهُ ثُمَّ يَأْتِيَ الْجَبَلَ، فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةٍ مِنْ حَطَبٍ عَلَى ظَهْرِهِ فَيَسْعَاهَا، فَيَكُفَّ اللَّهُ بِهَا وَجْهَهُ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ، أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ». (٣)

لا شك أن هذا هو الخلق النبيل؛ ألا يخضع الإنسان لأحد، ولا يذل له، بل يأكل من كسب يده، من تجارته أو صناعته أو حرثه. قال تعالى: (وَأَخْرُوجُونَ يُصْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ) (المزمل: ٢٠) ولا يسأل الناس شيئا. (٤)

٤- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَفَعَهُ: ((الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ عَنْ ظَهْرِ غِنَى، وَمَنْ يَسْتَغْفِرْ يُعَفِّهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ)). (٥)

وفيه الحض على الاستغناء عن الناس بالصبر والتوكل، وانتظار رزق الله فينبغي على الإنسان أن يبذل، وأن يسعى؛ لكي يرفع عن نفسه الحاجة إلى الخلق، لكن إذا صار مفتقرا فعليه بالعفة، فإن العفة نوعان: عفة الفرج عن ما حرم الله، وعفة النفس عن سؤال الخلق. وعليه

(١) البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣).

(٢) حاشية السيوطي على سنن النسائي (٩٥ / ٥).

(٣) أخرجه البخاري (٥٣٥، ١٤٠٢).

(٤) شرح رياض الصالحين (٣ / ٣٩٨).

(٥) البخاري (٥٣٥٥).

أن يجتهد في هذا الأمر فإن هذا من أعظم مقامات العبودية. الترفع عن سؤال الناس من كمال العبودية لله، والواجب أن يكون الإنسان متعلق القلب بالله سبحانه وتعالى، وأن يعلم أن هذه أرزاق تحصل للإنسان وقد تمتنع عنه، وكم من التجار الذين بلغوا الغاية في الغنى، وفي لحظة خسر كل ما يملك، وأصبح مدينًا، ويطالبه الناس بحقوقهم. فمثل هذا الإنسان إذا كان متعلق القلب بالمال سينهار تمامًا، وسيكون في غاية الافتقار إلى الناس، بل سيتحطم غاية التحطم، لكن عندما يكون قلبه متعلقًا بالله سبحانه وتعالى، فإنه لن يحصل له مثل ذلك. (١)

٥- عن ابنِ عُمَرَ، عن عُمَرَ رضي اله عنه قال : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُعْطِينِي الْعَطَاءَ فَأَقُولُ: أَعْطِهِ مِنْ هُوَ أَفْقَرُ إِلَيْهِ مِنِّي، فَقَالَ: ((خُذْهُ فَإِذَا جَاءَكَ مِنْ هَذَا الْمَالِ شَيْءٌ وَأَنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ وَلَا سَائِلٍ، فَخُذْهُ فْتَمُولْهُ، فَإِنْ شِئْتَ كُلْهُ، وَإِنْ شِئْتَ تَصَدَّقْ بِهِ، وَمَالًا فَلَا تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ)) (٢)

أي: لا تجعلها تابعة له، أي: لا توصل المشقة إلى نفسك في طلبه بل اتركه ولو لم يكن محتاجًا وجاءته صدقة من غير سؤال.

نماذج في العفة:

عفة يوسف عليه السلام:

وهو نموذج رائع يتحدث فيه الله عن ذلك النبي الشاب الذي امتلأ شبابًا وفتوة، هذا الشاب غلقت الأبواب دونه وجاءت امرأة جميلة ذات منصب تغريه وتطلب منه أن يقع في الفاحشة، هذا النموذج مُسَطَّر في سورة يوسف، يقول الله عز وجل: { وَرَأَوْنَهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ } . وعلى قراءة { قالت هئت لك }، أي تهيأت لك. { قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ } (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ } [يوسف:

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠ / ١٨٣)، شرح أبي داود للعيني (٦ / ٣٩٥)، شرح رسالة العبودية لابن تيمية (٥ / ٦).

(٢) أخرجه البخاري (٧١٦٤)، ومسلم (١٠٤٥).

٢٣-٢٤] هذا النموذج الرائع يضربه الله تعالى لنا حتى نتعظ ونعتبر وحتى يعلم الناس أجمعين أن العفة لا تكون هكذا بمجرد الخاطرة وإنما لابد لها من همة وإرادة. (١)

عفة المصطفى صلى الله عليه وسلم:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِنَّ نَاسًا مِنَ الْأَنْصَارِ، سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، حَتَّى نَفَدَ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ: مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَغْفِرْ يُعَفِّهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ. (٢)

عفة السلف:

* عن عروة بن الزبير: أن حَكِيمَ بْنَ حِزَامٍ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ قَالَ: ((يَا حَكِيمُ إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرٌ حُلُوٌّ فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى)). فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا أَرَزُّ أَحَدًا بَعْدَكَ شَيْئًا حَتَّى أَفَارِقَ الدُّنْيَا، فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يَدْعُو حَكِيمًا لِيُعْطِيهِ عَطَاءَهُ فَيَأْتِي بِقَبُولِهِ ثُمَّ عُمَرُ كَذَلِكَ، فَقَالَ عُمَرُ: أَشْهَدُكُمْ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ أَنِّي أَعْرَضُ عَلَى حَكِيمٍ حَقَّهُ الَّذِي لَهُ مِنْ هَذَا الْفَيْءِ فَيَأْتِي أَنْ يَأْخُذَهُ فَلَمْ يَرَزْ حَكِيمٌ شَيْئًا أَحَدًا حَتَّى تُوفِّي. (٣)

* قال سفيان بن عيينة: دخل هشام بن عبد الملك الكعبة فإذا هو بسالم بن عبد الله، فقال له: يا سالم سلني حاجة، فقال له: إني لأستحي من الله أن أسأل في بيت الله غيره. فلما خرج خرج في أثره، فقال له: الآن قد خرجت فسلني حاجة، فقال له سالم: من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة؟ فقال: من حوائج الدنيا، فقال له: ما سألت من يملكها فكيف أسأل من لا يملكها.

(١) وباء التبرج (ص: ١٩٣).

(٢) البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣).

(٣) البخاري (١٤٧٢)، ومسلم (١٠٣٥).

وكان سالم خشن العيش، يلبس الصوف الخشن، وكان يعالج بيده أرضاً له وغيرها من الأعمال، ولا يقبل من الخلفاء، وكان متواضعاً وكان شديد الأدمة وله من الزهد والورع شيء كثير^(١).

* وذكر الإمام النووي أن أبا إسحاق الشيرازي دخل يوماً مسجداً ليأكل طعاماً على عادته، فنسي فيه ديناراً فذكره في الطريق، فرجع فوجده، ففكر ساعة وقال: ربما وقع هذا الدينار من غيري، فتركه ولم يمسه

* عن وهب بن منبه قال: الإيثار عريان، ولباسه التقوى، وزينته الحياء، وماله العفة^(٢)
 * قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: المروءة مروءتان: مروءة ظاهرة، ومروءة باطنة، فالمروءة الظاهرة الرياش، والمروءة الباطنة العفاف
 * وقال أيوب السخيتاني: لا ينبل الرجل حتى يكون فيه خصلتان: العفة عن أموال الناس، والتجاوز عنهم.

وقال الشافعي: الفضائل أربع: إحداها: الحكمة، وقوامها الفكرة. والثانية: العفة، وقوامها الشهوة. والثالثة: القوة، وقوامها الغضب. والرابعة: العدل، وقوامه في اعتدال قوى النفس.
 وقال ابن مفلح: زينة الغنى: الشكر، وزينة الفقر العفاف، أي: كما أن الغني الشاكر له زينة في شكر نعمته، فكذلك الفقير العفيف.

وقال ابن حجر: العالم إذا كان عالماً ولم يكن عفيفاً كان ضره أشد من نفعه.
 قال محمد بن الحنفية: الكمال في ثلاثة: العفة في الدين، والصبر على النوائب، وحسن التدبير في المعيشة.^(٣)

أنواع وصور العفة:

-
- (١) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (٧/ ١١٥)، البداية والنهاية (٩/ ٢٦٢)
 (٢) مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا (ص ٤١)، أدب الدنيا والدين (ص ١٨٧)
 (٣) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء للدارمي (١/ ١٦٧)، المروءة للمرزبان (١/ ٣٩) / أدب الدنيا والدين (١/ ٢٣٣).

العفة معنى يقوم بالنفس، فيمنع من غلبة الشهوة فيما حرم الله سبحانه وتعالى، قال: والمتعفف هو المتعاطي للعفة بضرب من الممارسة والقهر، وأصله -أي: أصل معنى العفة-: الاقتصار على تناول الشيء القليل الجاري مجرى العفافة. (١)

وهذا هو الربط بين المعنيين.

العفة فنوعان:

(١) العفة عن المحارم (٢) العفة عن المآثم.

فأما العفة عن المحارم فنوعان:

(أ) ضبط الفرج عن الحرام (ب) كف اللسان عن الأعراض.

(أ) ضبط الفرج عن الحرام:

فلأنه مع وعيد الشرع وزاجر العقل معرة فاضحة، وهتكة واضحة. وأحب العفاف إلى الله تعالى عفاف الفرج والبطن.

والداعي إلى ذلك شيئان: أحدهما: إرسال الطرف. والثاني: اتباع الشهوة.

وقهرها عن هذه الأحوال يكون بثلاثة أمور:

(١) غض الطرف عن إثارتها، وكفه عن مساعدتها. فإنه الرائد المحرك، والقائد المهلك.

(٢) ترغيبها في الحلال عوضاً، وإقناعها بالمباح بدلاً، فإن الله ما حرم شيئاً إلا وأغنى عنه بمباح من جنسه لما علمه من نوازع الشهوة، وتركيب الفطرة، ليكون ذلك عوناً على طاعته، وحاجزاً عن مخالفته. وقال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: ما أمر الله تعالى بشيء إلا وأعان عليه، ولا نهى عن شيء إلا وأغنى عنه.

(٣) إشعار النفس تقوى الله تعالى في أوامره، واتقاءه في زواجره، وإلزامها ما ألزم من طاعته، وتحذيرها ما حذر من معصيته، وإعلامها أنه لا يخفى عليه ضمير، ولا يعزب عنه قطمير. وأنه يجازي المحسن ويكافئ المسيء، وبذلك نزلت كتبه وبلغت رسله.

(ب) كف اللسان عن الأعراض:

(١) أدب الدنيا والدين (١/٣٢١)، الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب الأصفهاني (١/٨٥).

فلأنه ملاذ السفهاء، وانتقام أهل الغوغاء، وهو مستسهل الكلف إذا لم يقهر نفسه عنه برادع كاف وزاجر صاد تلبط بمعاره، وتخبط بمضاره، وظن أنه لتجافي الناس عنه حمى يتقى، ورتبة ترتقى، فهلك وأهلك. فلذلك قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: **إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ (١)**

(٢) العفة عن المآثم فنوعان:

(أ) الكف عن المجاهرة بالظلم

(ب) زجر النفس عن الإصرار بخيانة.

(أ) المجاهرة بالظلم فعتو مهلك وطغيان متلف، وهو يئول إن استمر إلى فتنة أو جلاء فأما الفتنة في الأغلب فتحيط بصاحبها، وتنعكس عن البادئ بها، فلا تنكشف إلا وهو بها مصروع كما قال الله تعالى: {ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله} [فاطر: ٤٣].

وأما الجلاء فقد يكون من قوة الظالم وتطاول مدته فيصير ظلمه مع المكنة جلاء وفناء، كالنار إذا وقعت في يابس الشجر فلا تبقي معها مع تمكنها شيئاً حتى إذا أفنت ما وجدت اضمحلت وخذت. (٢)

عوامل وأسباب العفة:

أولاً: الإيمان.

فأعظم واق من المعاصي وأعظم رادع عن المحرمات وأعظم مذكر دائم للإنسان يرافقه في سره وعلنه في حله وترحاله وفي شهوده وغيبته هو الإيمان بالله عز وجل.

الإيمان الذي ينشئ مملكة الضمير التي لا تجعل العبد المؤمن يستحضر أموراً مهمة من أعظمها وأجلها الخوف من الله، والحياء من الله، وتذكر الآخرة، واستشعار لعظمة الله يبعث على الخوف من الله، واستشعار لنعمة الله يبعث على الحياء من الله، واستحضار لهول الآخرة يبعث على قمع الشهوة في النفس وردعها عن تجاوز الحد، ولذلك كانت التربية

(١) البخاري (٤٤٠٦)، ومسلم (١٦٧٩).

(٢) أدب الدنيا والدين (٣٢١/١) الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب الأصفهاني (٨٥/١).

الإيمانية والزاد الإيماني بأركان الإيمان الستة أعظم ما يقوي العبد على التزام أمر الله، ويعينه على المصابرة والامتناع عما حرم الله سبحانه وتعالى.

سئل بعض السلف من أهل الإيمان والصلاح والتقوى: كيف السبيل إلى غض البصر؟ فقال: علمك بأن نظر الله إليك أسبق من نظرك إلى ما حرم عليك.

العامل الثاني: التشريع.

أي: الأحكام التشريعية التي جاء بها الإسلام، يقول الحق عز وجل: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الملك: ١٤]، والأحكام التي جاءت في الإسلام تتفق مع فطرة الإنسان، وتحقق المصالح، وتمنع المفاسد، وهي تحقق أعلى المصالح، وتدرأ أقل المفاسد فضلاً عما هو أكثر منها

وهذه التشريعات في جوانب ثلاثة:

الجانب الأول: الجانب الوقائي، وهو مهم، أي: التشريعات الوقائية، فإن الإسلام حطم كل الدواعي والطرق والوسائل والمرغبات والمقربات من الحرام ومما يجرح العفة ويضيعها

الجانب الثاني: جانب التشريعات الاجتماعية. فإن الإسلام -أيضاً- جاء بتشريعات اجتماعية تحفظ للمجتمع وعيه وأمنه وسلامته وصيانتته بإذن الله عز وجل.

الجانب الثالث: التشريعات العقابية، فمن وقع في هذه الحوادث وتلك الأدواء ولم يستمع للنصيحة ثم تجاوز الحد ووقع في المحرم فتردعه التشريعات العقابية والحدود على اختلاف أنواعها، فالرجم للزاني المحصن، والجلد للزاني غير المحصن، وهكذا كل الأحكام المتعلقة بهذه النواحي لتكون رادعاً، ولتكون عبرة لكل من تسول له نفسه أو يدعوه شيطانه إلى ارتكاب المعصية أو خرق حاجز العفة في المجتمع.

العامل الثالث: التربية والتوعية.

والتربية أمرها عظيم؛ فإن الإيمان النظري الذي نحفظه نصوصاً أو نقرأه علماً، وإن التشريعات التي نعرفها فقهاً ونتقنها تفريعاً لا تغني عنا شيئاً إذا لم تحصل التربية عليها

والالتزام بها، وهناك -أيضاً- جوانب متعددة متعلقة بالتربية، منها: الجانب الأول: المجاهدة والتعب.

العامل الرابع: الاستعانة.

وأعظم الاستعانة هي بالله عز وجل، فإن هذا الزمان زمان فتن، وإن هذا الزمان زمان شهوات ومغريات،... فلا بد للإنسان من أن يستعين بالله عز وجل، وأن يكثّر الدعاء، وأن يكثّر الالتجاء إلى الله عز وجل حتى يعف نفسه عما حرم الله، وحتى يقوي عزمه في مواجهة هذه المغريات والمثيرات، وحتى يسهل له ما يعف به نفسه. ^(١)

(١) العفة علي بن عمر بادحدح (١٢٧).

١٣- التواضع

كلما تواضع المتطوع كلما اتسعت دائرة التطوع عند الناس ، فالناس لا يحبون من يتعالى عليهم ويميلون للمتواضعين في معاملاتهم وأخلاقهم الخافضين للجناح والمعرضين عن رذائل الأخلاق الباذلين أنفسهم للخيرات ، فحري بكل متطوع أن يكون قدوة في نشر الأخلاق فإنه وإن لم يساعد بالمال لعجز فكفاه أن قابل الناس بالإحسان .

تعريف التواضع لغة:

تواضع الرجل: إذا تذلل، وقيل: ذل وتخاشع، وهو مطاوع وضعه {يَضَعُهُ} ضَعَةً {وَوَضِيعَةً. وَمِنَ الْمُجَازِ: { تَوَاضَعَ مَا بَيْنَنَا، أَي: بَعْدَ، وَيُقَالُ: إِنَّ بَلَدَكُمْ {مُتَوَاضِعٌ عَنَّا، كَمَا يُقَالُ: مُتَرَاخٍ، وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ: هُوَ الْمُتَخَاشِعُ مِنْ بُعْدِهِ، تَرَاهُ مِنْ بَعِيدٍ لَا صِقًا بِالْأَرْضِ، (١)

التواضع اصطلاحاً:

التَّوَاضُعُ: استعظام ذَوِي الْفَضَائِلِ مِنْ دُونِهِ فِي الْمَالِ وَالْجَاهِ، وَقِيلَ: الرِّضَا بِمَنْزِلَةِ دُونِ مَا يَسْتَحِقُّهُ فَضْلُهُ وَمَنْزِلَتُهُ. (٢)

وأيضاً: التَّوَاضُعُ: الاستسلام للحق، وترك الاعتراض على الحكم، وقيل: بذلك القلوب لعلام الغيوب، وقيل: قبول الحق من الحق للحق، وقيل: افتخار بالقلة، واعتناق المذلة، وتحمل أثقال أهل الملة. (٣)

الفرق بين التواضع والتذلل:

أن التذلل: إظهار العجز عن مقاومة من يتذلل له: والتواضع: إظهار قدرة من يتواضع له سواء كان ذا قدرة على التواضع أو لا ألا ترى أنه يقال: الملك متواضع لخدمه أي يعاملهم

(١) تاج العروس للزبيدي (٣٩٣/٢٢).

(٢) معجم مقاليد العلوم للسيوطي (٢٠٣/١).

(٣) معجم مقاليد العلوم للسيوطي (٢١٧/١).

معاملة من له عليهم قدرة ولا يقال يتذلل لهم لن التذلل إظهار العجز عن مقاومة المتذلل له وأنه قاهر وليست هذه صفة الملك مع خدمة (١)

والتواضع المحمود على نوعين

النوع الأول: تواضع العبد عند أمر الله امتثالاً وعند نهيه اجتناباً فإن النفس لطلب الراحة تتلکأ في أمره فيبدو منها نوع إباء وشراد هرباً من العبودية وتثبت عند نهيه طلباً للظفر بما منع منه فإذا وضع العبد نفسه لأمر الله ونهيه فقد تواضع للعبودية

والنوع الثاني: تواضعه لعظمة الرب وجلاله وخضوعه لعزته وكبريائه فكلما شمخت نفسه ذكر عظمة الرب تعالى وتفردته بذلك وغضبه الشديد على من نازعه ذلك فتواضعت إليه نفسه وانكسر لعظمة الله قلبه واطمأن لهيبته وأخبت لسلطانه فهذا غاية التواضع وهو يستلزم الأول من غير عكس والتواضع حقيقة من رزق الأمرين والله المستعان (٢)

التواضع في القرآن الكريم :

١- قال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩)} [آل عمران: ١٥٩]

وَالْمُرَادُ وَصْفُهُ بِالتَّوَّاضُعِ وَلَيْنِ الْجَانِبِ وَذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَاعْلَمْ أَنَّ لِيْنَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ الْقَوْمِ عِبَارَةٌ عَنْ حُسْنِ خُلُقِهِ مَعَ الْقَوْمِ قَالَ تَعَالَى: {وَإِخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [الشُّعْرَاءُ: ٢١٥] وَقَالَ: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ، وَقَالَ: وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القَلَمُ: ٤] وَقَالَ: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ} [التَّوْبَةِ: ١٢٨]

(١) الفروق اللغوية للعسكري (١/٢٤٩).

(٢) الروح (ص ٢٣٣).

فَلَمَّا كَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِمَامَ الْعَالَمِينَ، وَجَبَ أَنْ يَكُونَ أَكْثَرُهُمْ حِلْمًا وَأَحْسَنَهُمْ خُلُقًا. (١)

٢- وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [المائدة: ٥٤]

فالمراد هنا: الذل بمعنى لين الجانب وتوطئة الكنف، وهو شدة الرحمة والسعي للنفع، ولذلك علق به قوله: على المؤمنين. ولتضمنين أدلة معنى مشفقين حانين عدي بعلى دون اللام، أو لمشاكلة (على) الثانية في قوله: على الكافرين. والأعزة جمع العزيز فهو المتصف بالعزيز، وهو القوة والاستقلال (٢)

٣- وقال تعالى: {لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ} [الحجر: ٨٨]

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: وَأَلِنْ لِمَنْ آمَنَ بكَ، وَاتَّبِعْ وَاتَّبِعْ كَلَامَكَ، وَقَرِّبِهِمْ مِنْكَ، وَلَا تَجْفُ بِهِمْ، وَلَا تَغْلُظْ عَلَيْهِمْ، يَأْمُرُهُ تَعَالَى ذِكْرُهُ بِالرَّفْقِ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَالْجَنَاحَانِ مِنْ بَنِي آدَمَ: جَنَاهُ وَخَفَضُ الْجَنَاحِ تَمَثِيلٌ لِلرَّفْقِ وَالتَّوَاضُّعِ بِحَالِ الطَّائِرِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَنْحَطَّ لِلْوُقُوعِ خَفَضَ جَنَاحَهُ يُرِيدُ الدُّنُو، وَكَذَلِكَ يَصْنَعُ إِذَا لَاعَبَ أَنْثَاهُ فَهُوَ رَاكِنٌ إِلَى الْمُسَالَمَةِ وَالرَّفْقِ، أَوِ الَّذِي يَتَهَيَّأُ لِحَضَنِ فِرَاحِهِ. (٣)

٤- قوله تعالى: {وَخَفَضْ هُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا} [الإسراء: ٢٤]

(١) تفسير الرازي (٩/ ٤٠٥) (٢١/ ٥١٨)، تفسير المراغي (١٦/ ٣٩).

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ٢٣٧)، تفسير السعدي (ص ٢٣٦).

(٣) التحرير والتنوير (١٤/ ٨٣)، تفسير الطبري (١٧/ ١٤٢).

أَيُّ: تَوَاضَعَ لَهَا بِفِعْلِكَ عبارة عن إلانة الجانب والتواضع والتذلل لهما فإن إعزازهما لا يكون إلا بذلك فكأنه قيل: واخفض لهما جناحك الذليل أو جعل لذه جناح (١)

٥- وقال تعالى: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا} (٦٣) [الفرقان: ٦٣]

هَذِهِ صِفَاتُ عِبَادِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ والمعنى: أنهم يمشون بسكينة ووقار وتواضع، لا يضربون بأقدامهم ولا يخفقون بنعالهم أشراً وبطراً (٢)

الأحاديث الواردة في التواضع:

١- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ، إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ. (٣)

قال النووي: قوله صلى الله عليه وسلم: " وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله " : فيه وجهان: أحدهما: يرفعه في الدنيا، ويثبت له بتواضعه في القلوب منزلة، ويرفعه الله عند الناس، ويجل مكانه.

والثاني: أن المراد ثوابه في الآخرة، ورفعها فيها بتواضعه في الدنيا.

قال العلماء: وقد يكون المراد الوجهين معا في جميعها في الدنيا والآخرة، والله أعلم. (٤)

٢- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: انظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ، فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ. (٥)

هَذَا حَدِيثٌ جَامِعٌ لأنواع من الخير لأن الإنسان إذا رأى من فضل عليه في الدنيا طلبت نفسه مثل ذلك واستصغر ما عنده من نعمة الله تعالى وحرص على الازدياد وإذا نظر إلى من هو دونه فيها ظهرت له نعمة الله فشكرها وتواضع وفعل فيه الخير (١)

(١) تفسير ابن كثير (٥ / ٦٤)، تفسير أبي السعود (٥ / ١٦٦).

(٢) تفسير الزمخشري (٣ / ٢٩١)، تفسير ابن كثير (٦ / ١٢١).

(٣) مسلم (٢٠٠١).

(٤) شرح مسلم (١٦ / ١٤٢).

(٥) مسلم (٢٢٧٥).

٣- عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ أَخِي بَنِي مُجَاشِعٍ، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ خَطِيبًا، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي وَأَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ. (٢)

وَالْأَمْرُ بِالتَّوَاضُعِ نَهْيٌ عَنِ الْكِبَرِ فَإِنَّهُ ضِدُّهُ وَهُوَ أَعَمُّ مِنَ الْكُفْرِ، قَالَ الْحَسَنُ: التَّوَاضُعُ: أَنْ تَخْرُجَ مِنْ بَيْتِكَ فَلَا تَلْقَى مُسْلِمًا إِلَّا رَأَيْتَ لَهُ عَلَيْكَ فَضْلًا. وقال أبو زيد: ما دام العبد يظن أن في الخلق من هو شر منه فهو متكبر، وقيل التواضع الانكسار والتذلل، ونقيضه التكبر والترف. (٣)

٤- عَنْ سَهْلِ بْنِ مُعَاذٍ بْنِ أَنَسٍ الْجُهَنِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَنْ تَرَكَ اللَّبَاسَ تَوَاضَعًا لِلَّهِ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ دَعَاهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ حَتَّى يُخَيَّرَهُ مِنْ أَيِّ حُلَلٍ الْإِيمَانُ شَاءَ يَلْبَسُهَا. (٤)

نماذج من تواضع النبي صلى الله عليه وسلم

* عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال في خطبة له: " إِنَّا وَاللَّهِ قَدْ صَحَبْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي السَّفَرِ وَالْحَضَرِ، فَكَانَ يَعُودُ مَرْضَانَا، وَيَتَّبِعُ جَنَازَتَنَا، وَيَغْزُو مَعَنَا، وَيُوَاسِينَا بِالْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ، وَإِنَّا نَأْسَا يُعَلِّمُونِي بِهِ، عَسَى أَنْ لَا يَكُونَ أَحَدُهُمْ رَأَاهُ قَطُّ ". (٥)

* عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، سَمِعَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَقُولُ عَلَى الْمِنْبَرِ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: لَا تُطْرُونِي، كَمَا أَطَرْتُ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ، وَرَسُولُهُ (٦)

(١) شرح السيوطي على مسلم (٢٨٦٥).

(٢) صحيح مسلم (٤٨٩٥)

(٣) فتح الباري لابن حجر (١٠ / ٤٩١)، دليل الفالحين الصالحين (٥ / ٥٣).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٤٨١)، وقال: حسن، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٠١٧).

(٥) أخرجه أحمد (٥٠٤)، والبخاري (٤٠١)، قال الهيثمي (٧ / ٢٢٨): أخرجه أحمد وأبو يعلى، ورجاهما رجال الصحيح غير عباد بن زاهر وهو ثقة.

(٦) أخرجه البخاري (٣٤٤٥).

وعنه أيضا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: إِنِّي خَيْرٌ مِنْ يُوسُفَ) (١)
وهذا محمول على التواضع منه صلى الله عليه وسلم، أما كونه أفضل الأنبياء فقد صرح به في
نصوص أخرى، كقوله صلى الله عليه وسلم: (فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ). (٢)
تواضع الصحابة:

تواضع عمر بن الخطاب:

عَنْ أُسَيْرِ بْنِ جَابِرٍ، قَالَ: كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِذَا أَتَى عَلَيْهِ أَمْدَادُ أَهْلِ الْيَمَنِ، سَأَلَهُمْ: أَفِيكُمْ
أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ؟ حَتَّى أَتَى عَلَى أُوَيْسٍ فَقَالَ: أَنْتَ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: مَنْ مُرَادٍ
ثُمَّ مِنْ قَرْنٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَكَانَ بِكَ بَرَصٌ فَبَرَأْتَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ دِرْهَمٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ:
لَكَ وَالِدَةٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: يَأْتِي عَلَيْكُمْ أُوَيْسُ
بْنُ عَامِرٍ مَعَ أَمْدَادِ أَهْلِ الْيَمَنِ، مِنْ مُرَادٍ، ثُمَّ مِنْ قَرْنٍ، كَانَ بِهِ بَرَصٌ فَبَرَأَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ دِرْهَمٍ،
لَهُ وَالِدَةٌ هَوَاهَا بَرٌّ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَا بَرَّهْ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فَافْعَلْ. فَاسْتَغْفِرَ لِي،
فَاسْتَغْفَرَ لَهُ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: الْكُوفَةَ، قَالَ: أَلَا أَكْتُبُ لَكَ إِلَى عَامِلِهَا؟ قَالَ: أَكُونُ
فِي غَبَاءِ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيَّ. قَالَ: فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ حَجَّ رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِهِمْ، فَوَافَقَ عُمَرَ،
فَسَأَلَهُ عَنْ أُوَيْسٍ، قَالَ: تَرَكْتُهُ رَثَ الْبَيْتِ، قَلِيلَ الْمَتَاعِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ، يَقُولُ: يَأْتِي عَلَيْكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أَمْدَادِ أَهْلِ الْيَمَنِ مِنْ مُرَادٍ، ثُمَّ مِنْ قَرْنٍ، كَانَ بِهِ
بَرَصٌ فَبَرَأَ مِنْهُ، إِلَّا مَوْضِعَ دِرْهَمٍ لَهُ وَالِدَةٌ هَوَاهَا بَرٌّ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَا بَرَّهْ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ
يَسْتَغْفِرَ لَكَ فَافْعَلْ. فَأَتَى أُوَيْسًا فَقَالَ: اسْتَغْفِرْ لِي، قَالَ: أَنْتَ أَحَدْتُ عَهْدًا بِسَفَرٍ صَالِحٍ،
فَاسْتَغْفِرْ لِي، قَالَ: اسْتَغْفِرْ لِي، قَالَ: أَنْتَ أَحَدْتُ عَهْدًا بِسَفَرٍ صَالِحٍ، فَاسْتَغْفِرْ لِي، قَالَ: لَقِيتَ
عُمَرَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَاسْتَغْفَرَ لَهُ، فَفَطِنَ لَهُ النَّاسُ، فَانْطَلَقَ عَلَى وَجْهِهِ، قَالَ أُسَيْرٌ: وَكَسَوْنَهُ بُرْدَةً،
فَكَانَ كُلَّمَا رَأَاهُ إِنْسَانٌ قَالَ: مِنْ أَيْنَ لِأُوَيْسٍ هَذِهِ الْبُرْدَةُ. (٣)

(١) أخرجه البخاري (٣٣٩٦)، ومسلم (١٦٥).

(٢) شرح لمعة الاعتقاد - ناصر العقل (٣٧/٦).

(٣) صحيح مسلم (١٨٩/٧).

تواضع عمر بن عبد العزيز:

وقد كان عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى متخلقا بخلق التواضع، ولين الجانب، حسب الروايات التي نقلت هذه الخصلة الحميدة عنه فمنها:

١- ما رواه ابن سعد بسنده: أن عمر بن عبد العزيز كان إذا سمر في أمر العامة أسرج من بيت مال المسلمين وإذا سمر في أمر نفسه أسرج من مال نفسه. قال فبينما هو ذات ليلة إذ نعس السراج فقام إليه ليصلحه فقليل له: يا أمير المؤمنين إنا نكفيك. فقال: "أنا عمر حين قمت وأنا عمر حين جلست. (١)

٢- وعن أبي النضر قال: دسست إلى عمر بن عبد العزيز بعض أهله، أن قل له، إن فيك كبراً، وأنه يتكبر. فقليل ذلك، فقال عمر: قل له لبئست ما ظننت إن كنت تراني أتوقى الدينار والدرهم مراقبة الله فأنطلق إلى أعظم الذنوب فأركبه، الكبرياء إنما هو رداء الرحمن، فأنازعه إياه. (٢)

٣- ومن تواضعه أنه يخدم نفسه، بل يخدم جميع المسلمين عبيدهم وإماءهم، بل يصل تواضعه إلى أن يخدم جاريته، روى ابن الجوزي قال: حدثنا النضر بن سهيل، عن أبيه، قال: قال عمر بن عبد العزيز لجارية له: يا جارية روّحيني، فأقبلت تروّحه، فغلبتها عيناها فنامت، فأخذ المروحة وأقبل يروّحها، فانتبهت فصاحت، فقال لها عمر: إنما أنت بشر مثلي أصابك من الحرّ ما أصابني، وأحببت أن أروحك مثل الذي روّحتني. (٣)

صور التواضع المحمود

(١) تواضع العبد عند أمر الله امتثالاً وعند نهيه اجتناباً.

(١) أخرجه ابن سعد الطبقات ٣٩٩/٥، والفسوى في المعرفة والتاريخ ٥٧٧/١-٥٧٨، وابن عبد الحكم في سيرة عمر ص ٤٤.

(٢) المعرفة والتاريخ للفسوى ٥٨١/١-٥٨٢.

(٣) سيرة عمر لابن الجوزي ص ٢١٣.

قال ابن القيم: فإن النفس لطلب الراحة تتلصق في أمره، فيبدو منها نوع إباء هرباً من العبودية، وتتوقف عند نهيه طلباً للظفر بما منع منه، فإذا وضع العبد نفسه لأمر الله ونهيه: فقد تواضع للعبودية (١).

(٢) تواضعه لعظمة الرب وجلاله وخضوعه لعزته وكبريائه.

قال ابن القيم: فكلما شمخت نفسه: ذكر عظمة الرب تعالى، وتفرد به بذلك، وغضبه الشديد على من نازعه ذلك، فتواضعت إليه نفسه، وانكسر لعظمة الله قلبه، واطمأن لهيبته، وأخبت لسلطانه، فهذا غاية التواضع، وهو يستلزم الأول من غير عكس. أي: يستلزم التواضع لأمر الله ونهيه، وقد يتواضع لأمر الله ونهيه من لم يتواضع لعظمته، والمتواضع حقيقة: من رزق الأمرين، والله المستعان. (٢)

(٣) التواضع للدين والاستسلام لشرع الله بحيث لا يعارضه المرء بمعقول ولا رأي ولا هوى، ولا يتهم للدين دليلاً صحيحاً، وأن ينقاد لما جاء به خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم، وأن يعبد الله وفق ما أمر به، وألا يكون الباعث على ذلك داعي العادة، وألا ترى لنفسك على الله حقاً لأجل عملٍ عملته، وإنما تعلم أنك ترجو رحمته وتخشى عذابه، وأنت لن تدخل الجنة بعملك وإنما برحمته لك.

(٤) أن يترك المرء التناول على عباد الله، والترفع عليهم، والإضرار بهم حتى مع وقوع الخطأ عليه، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: {ما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً} (٣)

(٥) ترك الشهوات المباحة، والملذات الكمالية احتساباً لله وتواضعاً بعد التمكن منها والاعتدال عليها دون أن توصف ببخل أو طمع أو شح،
(٦) التواضع في اللباس والمشية:

(١) الروح (ص ٢٣٣).

(٢) الروح (ص ٢٣٣).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٨٨).

فعن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **بَيْنَمَا رَجُلٌ يَجُرُّ إِزَارَهُ مِنَ الْخَيْلَاءِ، خُسِفَ بِهِ، فَهُوَ يَتَجَلَجَلُ فِي الْأَرْضِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**. (١)

يتجلجل: ينزل في الأرض مضطرباً متدافعاً. رجل جمته: الترجيل هو تسريح الشعر ودهنه. والجمّة: هي الشعر المتدلي من الرأس إلى المنكبين.

(٧) التواضع مع المفضل فيعمل معه ويعينه:

عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنْقُلُ مَعَنَا التُّرَابَ يَوْمَ الْأَحْزَابِ، وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ وَارَى التُّرَابُ بَيَاضَ بَطْنِهِ، يَقُولُ: "لَوْلَا أَنَّتَ مَا اهْتَدَيْنَا نَحْنُ، وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا، فَأَنْزَلَنَ سَكِينَةً عَلَيْنَا، إِنَّ الْأُلَى - وَرَبَّنَا قَالَ: الْمَلَأَ - قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا، إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبِينَا أَبِينَا"، يَرْفَعُ بِهَا صَوْتَهُ. (٢)

(٨) التواضع في التعامل مع الزوجة وإعانتها:

عَنِ الْأَسْوَدِ، قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ مَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ؟ قَالَتْ: كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةٍ أَهْلِهِ - تَعْنِي خِدْمَةَ أَهْلِهِ - فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ. (٣)

قال الحافظ ابن حجر: وفيه: الترغيب في التواضع وترك التكبر، وخدمة الرجل أهله (٤)

(٩) التواضع مع الصغار وممازحتهم:

عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا، وَكَانَ لِي أَخٌ يُقَالُ لَهُ أَبُو عُمَيْرٍ - قَالَ: أَحْسِبُهُ - فَطِيمًا، وَكَانَ إِذَا جَاءَ قَالَ: يَا أَبَا عُمَيْرٍ، مَا فَعَلَ النُّعَيْرُ. (٥)

قال النووي: النُّعَيْرُ وهو طائر صغير. و"الفطيم" بمعنى المفطوم.

وفي هذا الحديث فوائد كثيرة جدًا منها: ملاطفة الصبيان وتأنيسهم، وبيان ما كان النبي صلى الله عليه وسلم عليه من حسن الخلق وكرم الشئائل والتواضع (١).

(١) أخرجه البخاري (٣٢٩٧)، ومسلم (٢٠٨٨).

(٢) أخرجه البخاري (٦٨٠٩)، ومسلم (١٨٠٣).

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٤).

(٤) فتح الباري (٢ / ١٦٣).

(٥) أخرجه البخاري (٥٨٥٠)، ومسلم (٢١٥٠).

(١٠) التواضع مع الخدم والعبيد:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِذَا أَتَى أَحَدَكُمْ خَادِمُهُ بِطَعَامِهِ، فَإِنْ لَمْ يُجْلِسْهُ مَعَهُ، فَلْيُنَاوِلْهُ أَكْلَةً أَوْ أَكْلَتَيْنِ، أَوْ لُقْمَةً أَوْ لُقْمَتَيْنِ، فَإِنَّهُ وَلِيَّ حَرِّهِ وَعِلَاجُهُ. (٢)

ومعنى " ولي حَرِّهِ وعلاجه ": أي عانى مشقة صنْع الطعام والقيام على تقديمه، وفي رواية مسلم " ولي حَرِّهِ ودخانه ". نسأل الله تعالى أن يجعلنا من المتواضعين لعظمته. (٣)

صور التواضع المذموم:

أقوال في التواضع:

*عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: " تُغْفَلُونَ أَفْضَلَ الْعِبَادَةِ: التَّوَّاضُعَ " (٤)

*عن ابن مسعود قال: من يرائي يرائي الله به، ومن يسمع يسمع الله به، ومن تطاول تعظماً، خفضه الله، ومن تواضع تحشعاً، رفعه الله. (٥)

*عن ابن المبارك، قال: من التواضع أن تقمع نفسك عند من هو دونك في نعمة الدنيا حتى تعلمه أنه ليس لك فضل عليه لدنياك، وأن ترفع نفسك عند من هو فوقك في دنياه حتى تعلمه أنه ليس لدنياه فضل عليك. (٦)

*سئل ابن المبارك عن التواضع، فقال: التكبر على الأغنياء. (٧)

*عن يحيى بن معاذ الرازي قال: التواضع حسن لجميع الخلق، وهو بالأغنياء أحسن، والكبر سمج لجميع الخلق، وهو بالفقير أسمج. (١)

(١) شرح مسلم (١٤ / ١٢٩).

(٢) أخرجه البخاري (٢٤١٨، ٥١٤٤)، ومسلم (١٦٦٣).

(٣) الروح (ص ٢٣٩)، آداب النفوس للمحاسبي (١/١٥٢).

(٤) الزهد لوكيع (١/٤٦٣).

(٥) الزهد والرقائق لابن المبارك (٢/١٨).

(٦) شعب الإيمان للبيهقي (١٠/٥٠٢).

(٧) شعب الإيمان للبيهقي (١٠/٥٠٤).

*عن الشافعي، قال: التواضع من أخلاق الكرام، والتكبر من شيم أخلاق اللئام. (٢)

(١) شعب الإيمان للبيهقي (١٠/٥٠٤).

(٢) شعب الإيمان للبيهقي (١٠/٥١٥).

١٤- استشعار المسؤولية

المسؤولية لغة : مصدر صناعي من مَسْئُول: تَبَعَة "المُسْئُولِيَّةُ تقع على عاتقي - يستطيع تحمّل مسؤوليّات كبيرة، ألقى المسؤولية على عاتقه: حمّله إيّاها.

والمسؤوليّة الأخلاقية: التزام الشّخص بما يصدر عنه قولاً أو عملاً.

والمسؤوليّة الجماعيّة: التزام تتحمّله الجماعة.

والمسؤوليّة القانونيّة: التزام بإصلاح الخطأ الواقع على الغير طبقاً للقانون. (١)

أما المسؤولية اصطلاحاً: فهي المقدرة على أن يلزم الإنسان نفسه أولاً، والقدرة على أن يفي بعد ذلك بالتزامه بوساطة جهوده الخاصة.

وقيل: المسؤولية حالة يكون فيها الإنسان صالحاً للمؤاخذة على أعماله وملزماً بتبعاتها المختلفة.

واللّامسؤوليّة: شعور المرء بأنه غير ملزم بعواقب أعماله (٢)

الآيات الواردة في استشعار المسؤولية:

١ - قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَّةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا } [النساء: ٩٢].

فكأن التشريع أراد أن يعالج الهزة التي صنعها انحراف بعلاج هو وقاية من رد الفعل فيحقق التوازن في المجتمع. فمن يقتل خطأ لا يقتص منه المجتمع ولكن هناك الدية. ومن أجل إشاعة المسؤولية فالقاتل لا يدفعها، ولكن تدفعها العاقلة؛ لأن العاقلة إذا ما علمت أن من

(١) المعجم الوسيط (١/٤١١)، معجم اللغة العربية المعاصرة (٢/ ١٠٢٠).

(٢) المعجم الوسيط (١/٤١١)، معجم اللغة العربية المعاصرة (٢/ ١٠٢٠).

يجني من أهلها جناية وأثمها ستتحمل معه فإنها تعلّم أفرادها في صيانة حقوق غيرهم؛ لأن كل واحد منها سيدفع، وبذلك يحدث التوازن في المجتمع. ^(١)

٢ - قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [المائدة: ١٠٥]

يتوهمون أن هذه الآية تتضمن إعفاءهم من هذه المسؤولية، ولقد بدّد أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - هذا الوهم ورد على هذه الشبهة في خطبة له حين أحسّ بتسرب هذا الوهم وترسبه في قلوب بعض العوام فردهم إلى الفهم الصحيح للآية فقال: يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَقْرَأُونَ هَذِهِ الْآيَةَ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ}. وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: (إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ) ^(٢)

٣ - قال تعالى: {فَوَرَبُّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الحجر: ٩٢، ٩٣]

٤ - {فَلَمَّا اسْتِأْذَنُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠)} [يوسف: ٨٠]

إن كلام كبيرهم هذا فيه استعظام شأن العهد واستشعار المسؤولية والعمل لتحقيق ما أخذ على الإنسان من الموثق الغليظ. ^(٣)

٥ - وقال تعالى: {حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا} [الكهف: ٨٦].

(١) تفسير الشعراوي (٤/ ٢٥٤٣)، منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام (٢/ ٧٣٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٣٨)، والترمذي (٢١٦٨)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١٧٦١).

(٣) ١٠٠ فائدة من سورة يوسف (ص: ٣٨)، منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام (٢/ ٧٣٩).

لقد أخذ ذو القرنين من تمكين الله له في الأرض، وأخذ من عطاء الله له بشيء من كل سبب، إنه أخذ طاقة وإحساساً بالمسئولية ليوصل مهمته. (١)

٦- وقال سبحانه: {وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} (٣٨) [محمد: ٣٨]. وكما أن الله لم يستثن أحداً من الخيرية، كذلك لم يستثن أحداً من المسئولية، والدعوة ليست عملاً اكتسابياً، بل هي عمل اجتنائي من الخالق، وبعد الاجتناء تأتي المسئولية كما قال سبحانه لموسى: {وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣)} [طه: ١٣]. (٢)

الأحاديث الواردة في استشعار المسئولية:

١ - عن ابن عمر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ فَاَلْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ فِي مَالِ أَبِيهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ)). (٣)

فيه بيان مسئولية العدالة، وفي الحديث العام الذي يحمل كل إنسان تلك المسئولية: (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته)، كالحاكم راع مسئول عن رعيته، وقد كان أمير المؤمنين عمر رضي الله تعالى عنه يعس في الليل يتفقد أحوال رعيته.

والمسئولية واقعة على صاحب الإدارة والمدرس في الفصل، والوالد مع أولاده.

إذاً: كل إنسان مسئول في جانب ما، فيعدل بين من هو مسئول عنهم، فهذا العدل صدقة. (٤)

(١) تفسير الشعراوي (٦/ ٣٤٠٣).

(٢) علم الأخلاق الإسلامية (ص ٢١١)، موسوعة فقه القلوب (٤/ ٢٩٩٠).

(٣) البخاري (٢٥٥٤)، ومسلم (١٨٢٩).

(٤) شرح الأربعين النووية لعطية سالم.

٢ - وعن أبي ذر رضي الله عنه قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا تَسْعَمِلُنِي فَضْرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكَبِي، ثُمَّ قَالَ: ((يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ ضَعِيفٌ وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا)). (١)

٣ - وعن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: ((مَثَلُ الْقَائِمِ فِي حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَأَقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا فَإِنْ تَرَكَوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَّوْا جَمِيعًا)). (٢)

٤ - عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رضي الله عنه ، قَالَ: شَكَأَ أَهْلُ الْكُوفَةِ سَعْدًا إِلَى عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَعَزَلَهُ، وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ عَمَّارًا، فَشَكَّوْا حَتَّى ذَكَرُوا أَنَّهُ لَا يُحْسِنُ يُصَلِّي، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: يَا أَبَا إِسْحَاقَ إِنَّ هَؤُلَاءِ يَزْعُمُونَ أَنَّكَ لَا تُحْسِنُ تُصَلِّي، قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ: أَمَّا أَنَا وَاللَّهِ فَإِنِّي كُنْتُ أَصَلِّي بِهِمْ صَلَاةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَخْرِمُ عَنْهَا، أَصَلِّي صَلَاةَ الْعِشَاءِ، فَأَرْكُضُ فِي الْأُولَيَيْنِ وَأُخَفُّ فِي الْأُخْرَيَيْنِ، قَالَ: ذَاكَ الظَّنُّ بِكَ يَا أَبَا إِسْحَاقَ. (٣)

حرص أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه على الرعية وتحمله المسؤولية والإحساس بها وشعوره بها رضي الله عنه ولهذا اشتهر بعدالته وحسن سياسته في الأمور كلها، الحربية والسلمية والدينية والدنيوية، فهو في الحقيقة خير الخلفاء بعد أبي بكر، بل حسنة من حسنات أبي بكر رضي الله عنه؛ لأن الذي ولاه على المسلمين هو أبو بكر رضي الله عنه. (٤)

نماذج من استشعار المسؤولية:

(١) مسلم (١٨٢٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٩٣).

(٣) أخرجه البخاري (٧٥٥).

(٤) شرح رياض الصالحين لابن عثيمين (٦/ ٨٦).

١- عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالًا، هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعْرِ، إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْمُؤَبَّاتِ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: يَعْنِي بِذَلِكَ الْمُهْلِكَاتِ (١)

فكان أنس رضي الله عنه يبين حال الصحابة في استشعارهم المسؤولية.

قال الطيبي: عبارة عن تدقيق النظر في العمل وإمعانه فيه، والمعنى: أنكم تعملون أعمالاً وتحسبون أنكم تحسنون صنعا، وليس كذلك في الحقيقة. (٢)

٢- عَنْ عُبَيْدِ بْنِ السَّبَّاقِ، أَنَّ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَرْسَلَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ مَقْتَلِ أَهْلِ الْيَمَامَةِ، فَإِذَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ عِنْدَهُ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ عُمَرَ أَتَانِي فَقَالَ: إِنَّ الْقَتْلَ قَدْ اسْتَحَرَّ يَوْمَ الْيَمَامَةِ بِقُرَاءِ الْقُرْآنِ، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَسْتَحِرَّ الْقَتْلُ بِالْقُرْآنِ بِالْمَوَاطِنِ، فَيَذْهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْقُرْآنِ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَأْمُرَ بِجَمْعِ الْقُرْآنِ، قُلْتُ لِعُمَرَ: كَيْفَ تَفْعَلُ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ عُمَرُ: هَذَا وَاللَّهِ خَيْرٌ، فَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ يُرَاجِعُنِي حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ صَدْرِي لِذَلِكَ، وَرَأَيْتُ فِي ذَلِكَ الَّذِي رَأَى عُمَرُ، قَالَ زَيْدٌ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّكَ رَجُلٌ شَابٌّ عَاقِلٌ لَا نَتَهَمُكَ، وَقَدْ كُنْتَ تَكْتُبُ الْوَحْيَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَتَتَّبِعُ الْقُرْآنَ فَاجْمَعُهُ، فَوَاللَّهِ لَوْ كَلَّفُونِي نَقْلَ جَبَلٍ مِنَ الْجِبَالِ مَا كَانَ أَثْقَلَ عَلَيَّ مِمَّا أَمَرَنِي بِهِ مِنْ جَمْعِ الْقُرْآنِ، قُلْتُ: كَيْفَ تَفْعَلُونَ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ ، قَالَ: هُوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ، " فَلَمْ يَزَلْ أَبُو بَكْرٍ يُرَاجِعُنِي حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ صَدْرِي لِلَّذِي شَرَحَ لَهُ صَدْرُ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَتَتَّبَعْتُ الْقُرْآنَ أَجْمَعُهُ مِنَ الْعُسْبِ وَاللَّخَافِ، وَصُدُورِ الرِّجَالِ، حَتَّى وَجَدْتُ آخِرَ سُورَةِ التَّوْبَةِ مَعَ أَبِي حُزَيْمَةَ الْأَنْصَارِيِّ لَمْ أَجِدْهَا مَعَ أَحَدٍ غَيْرِهِ، {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ} [التوبة: ١٢٨] حَتَّى خَاتَمَهُ بَرَاءَةً، فَكَانَتِ الصُّحُفُ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ، ثُمَّ عِنْدَ عُمَرَ حَيَاتِهِ، ثُمَّ عِنْدَ حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ " . (٣)

(١) صحيح البخاري (٦٤٩٢).

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣٣٥٧ / ٨).

(٣) أخرجه البخاري (٤٩٨٦).

٣- قال الزهري: فتح الله الشام كله على عمر، والجزيرة ومصر والعراق كله، ودون الدواوين قبل أن يموت بعام، وقسم على الناس فيئهم.

٤- عن خزيمة بن ثابت: أن عمر كان إذا استعمل عاملاً كتب له، واشترط عليه أن لا يركب برذوناً، ولا يأكل نقياً، ولا يلبس رقيقاً، ولا يغلق بابه دون ذوي الحاجات، فإن فعل فقد حلت عليه العقوبة.

٥- عن زيد بن أسلم، عن أبيه، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: استعمل مولى له يدعى هنيئاً على الحمى، فقال: "يا هني اضمم جناحك عن المسلمين، واتق دعوة المظلوم، فإن دعوة المظلوم مستجابة، وأدخل رب الصريمة، ورب الغنيمة، وإياي ونعم ابن عوف، ونعم ابن عفان، فإنهما إن تهلك ماشيتهما يرجعا إلى نخل وزرع، وإن رب الصريمة، ورب الغنيمة: إن تهلك ماشيتهما، يأتني ببنيه"، فيقول: يا أمير المؤمنين؟ أفتاركهم أنا لا أبا لك، فالحاء والكلاء أيسر علي من الذهب والورق، وإيم الله إنهم ليرون أني قد ظلمتهم، إنها لبلادهم فقاتلوا عليها في الجاهلية، وأسلموا عليها في الإسلام، والذي نفسي بيده لولا المال الذي أحمل عليه في سبيل الله، ما حميت عليهم من بلادهم شبرا^(١)

٦- إن هذا الشعور بالمسئولية هو الذي جعل عمر عام الرمادة لا يأكل حتى يطمئن أن الزاد وصل إلى كل المسلمين، وقال في ذلك الشاعر:

يامن رأى عمرًا تكسوه برده والزيت آدم له والكوخ مأواه
يهتز كسرى على كرسيه فرقاً من باسه وملوك الروم تخشاه

وجعله يقول: لو أن بغلة في شط العراق عثرت لخشيت أن يحاسبني الله عليها لم لم تسوي لها الطريق يا عمر^(٢)

العلاقة بين المسئولية في الحياتين الدنيا والآخرة:

(١) أخرجه البخاري (٤ / ٧١).

(٢) المسئولية د/ محمد سعيد حوى التكافل الاجتماعي في الإسلام ص ٦٤.

لا شك أن هناك علاقة وثيقة بين المسؤولية في الدارين؛ لأن المسؤولية الاجتماعية في الدنيا هي نتيجة لازمة لعلاقة المسؤولية في الآخرة وتتطابق معها، وهي الحلقة التي تربط بين مواقف الإنسان في الدنيا والآخرة وتجعلها طورين متعاقبين من الابتلاء والجزاء. والمسؤولية الاجتماعية في الدنيا دوائر وميادين بعضها أكبر من بعض. وهي تبدأ بالفرد وتنتهي بالإنسانية كما يلي:

- ١- مسؤولية الفرد عن نفسه وعن ما منحه الله من قدرات عقلية وسمعية وبصرية وجسدية ونفسية ليستعملها فيما خلقت له طبقاً لأوامر الله ونواهيه.
- ٢- مسؤولية الفرد عن أسرته وتشمل مسؤولية الوالد عن الأبناء والبنات، ومسؤولية الولد عن الوالدين، ومسؤولية الزوجين كل عن الآخر.
- ٣- مسؤولية الأرحام بعضهم عن بعض.
- ٤- مسؤولية الفرد عن الأمة، ومسؤولية الأمة عن الفرد فيما يزيد في تقدم الأمة ويحفظ مقدراتها وأمنها، وفيما يوفر للفرد العيش الكريم والأمن والاستقرار، ويتفرع عن هذه المسؤولية فروع عديدة مثل مسؤولية الحاكم عن الشعب، والقوي عن الضعيف، والغني عن الفقير.
- ٥- مسؤولية الجيل عن الأجيال اللاحقة في إعدادها لمتطلبات حياتها عقائدياً واجتماعياً واقتصادياً وكل ما يساعدها على عبور مستقبلها بنجاح.
- ٦- مسؤولية الأمة عن الأمم.

أما المسؤولية في الآخرة فهي مسؤولية فردية يتحمل فيها الإنسان بمفرده نتيجة عمله دون تأثير على الآخرين من حيث الثواب أو العقاب، قال تعالى {وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنْ سَعِيَّهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى (٤١) وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (٤٢)}

[النجم: ٣٩ - ٤٢]. (١)

أسباب عدم استشعار المسؤولية:

إن عدم إقبال أفراد المجتمع على حمل الأعباء وتحمل المسؤوليات له عدة أسباب، منها:

أ - عدم إحساس الفرد بالمسؤوليات وذلك إما أن يكون نتيجة عدم التفاته إلى النواقص وتعوده على حالة النقص التي نشأ فيها، وإما بسبب اتكاله على الآخرين في تحمل هذه المسؤولية.

ب - الشعور باليأس والإحباط والخوف من عدم القدرة على تحمل المسؤولية، وذلك إما لشعوره بقلّة الأعوان أو بسبب عدم الثقة بالنفس لوجود نواقص معيبة في الشخصية.

ج - هناك نمط آخر يحس بالمسؤولية ويتكاسل ويتقاعس عنها بسبب الرغبة في الراحة.

د - من ضمن العراقيل المطروحة هنا هي تفوق الفئة النشطة على نفسها وعدم سعيها لدمج الفئات الأخرى من المجتمع ضمن نشاطاتها.

هـ - حالات التراجع والانكفاء التي تحصل للكثيرين، وذلك بعد أن يتحملوا بعض المسؤوليات ويصطدموا ببعض المصاعب التي لم يحسبوا حسابها من قبل.

و - حالة الانفلات والتسيب والتقصير التي قد تعاني منها البرامج الدينية والاجتماعية، وهي ناتجة في الغالب عن كون هناك هذه الأنشطة تطوعية لا تحمل درجة الإلزام، ولهذا لن يكون هناك من يمكنه محاسبة المقصرين.

الوسائل المعينة على اكتساب الاستشعار بالمسؤولية:

وهي تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: وهي حلول ذاتية فردية يمارسها كل فرد، بينما القسم الثاني حلول جماعية مبرمجة تتحملها الفئة الواعية في المجتمع، هذا وربما يكون هناك بعض التداخل بين هذين القسمين:

أولاً: الحلول الذاتية والفردية:

أ - لا بد للفرد المسلم أولاً من تحسس مواطن النقص في المجتمع والتي تحتاج إلى تحسيس النفس بالمسؤولية تجاهها.

ب - لا بد للفرد من أن يلتفت إلى وجوب تحمل هذه المسؤوليات وحرمة التقاعس عنها، والالتفات إلى معنى الوجوب الكفائي وحدوده، حيث إن الوجوب في مثل هذه الأمور كفائي فلا يسقط إلا بتحمل من فئة الكفاية من أفراد المجتمع ولا فيأثم الجميع حينئذ.

ت - لا بد للفرد من السعي لمعالجة جوانب النقص الفكرية التي قد يعاني منها، وذلك عبر الدراسة الجادة المطالعة المنهجية.

ث - تنبيه النفس إلى أن وجوب تحمل المسؤولية لا يسقط بتكاسل وتخاذل الآخرين بل يشدد ويتأكد.

ج - لا بد للفرد من أن يستلهم حالة الصمود والصبر من سيرة الرسل والأئمة والصالحين، كنبى الله نوح الذي دعا قومه تسعمائة وخمسين سنة ولم يتراجع رغم كل الصعاب، وصبر الرسول صلى الله عليه وسلم في تبليغ الدعوة وهو الذي قاسى ما قاسى من قومه فلذا لا بد أن يعرف الفرد المؤمن بأن طريقه لن يكون مفروشا بالورود.

ثانيا: الحلول الجماعية:

أ - تنبيه الآخرين لوجوب تحمل المسؤولية وحرمة التخلي عنها والتأكيد على ذلك والتواصي به كي لا نكون من الخاسرين الذين وصفهم الله في سورة العصر " {وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}.

ب - محاولة تشكيل لجان منظمة لتحمل المسؤوليات الدينية والاجتماعية وتوزيع المهام، لكي يتوزع الثقل على الجميع.

ت - وضع البرامج المناسبة لخلق الكفاءات وتنمية المهارات والقدرات بهدف سد النواقص الموجودة بصورة تدريجية لمعالجة الأوضاع مستقبلاً كي لا تكون معاناتنا دائمة.

ث - إيجاد بعض المحفزات والمرغبات من أجل شد الآخرين ودفعهم لتحمل المسؤولية، ومن هذه المحفزات الجوائز والهدايا، أو التنويه بالجهود المبذولة عبر كلمات التقدير والشكر التي تلقى بين فترة وأخرى في الاحتفالات، وغير ذلك من المحفزات.

ج - تعديل الفهم المغلوط من أن النشاط الديني والاجتماعي عمل غير إلزامي، وليس هناك من يحاسب على التقصير فيه، فلا بد من الالتفات إلى أن هذا النشاط أهم من الأعمال الدنيوية الأخرى، فالمحاسب فيه هو الباري عز وجل وكتابه الذي عبر عنه القرآن بـ {مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا} [الكهف: ٤٩]

د - تشكيل لجنة أو أكثر للتقنين والمتابعة تتكفل بمراقبة التقصيرات التي قد تحصل خلال عمل اللجان الأخرى، وتقوم بتنبيه المسؤولين عن التقصير، كما تسعى لتذليل الصعاب التي قد تواجه تلك اللجان وتسعى للتنسيق فيما بينها (١)

(١) المسؤولية، صالح جبران محمد.

١٥- البذل والعطاء

البذل في اللغة:

البذل ضد المنع، وكل من طابت نفسه بإعطاء شيء فهو باذل، والبذلة من الثياب ما يلبس فلا يصان، ورجل متبذل إذا كان يلي العمل بنفسه، يقال: تبذل في عمل كذا، وقد ابتذل نفسه فيما تولاه من عمله، ورجل بذال، وبذول إذا كثر بذله للمال. (١)

أما في الشرع:

فهو اصطناع المعروف، والمقصود هنا هو: فعل الخير وإسداؤه للعباد، سواء كان هذا الخير مالا كالصدقة والإطعام وسقاية الماء وسداد الديون.

وأيضا هو: الإعطاء عن طيب نفس والتّضحية، والعطاء، والتّفاني والإخلاص. (٢)

تعريف العطاء:

العطاء: اسم لما يُعطى، والعطاء: مصدر عاطيته معاطاةً وعِطاءً، والعطاء بمعنى المعطى، مثل الخلق بمعنى المخلوق (٣)

ضابط البذل والعطاء:

اعلم أولاً أن الضابط لجميع أنواع البذل من صفات النفس: السباحة والسخاء، وهما من أركان الفضائل، ولجميع أنواع الإمساك: البخل، وهو من أمهات الرذائل، ولكل منهما درجات ودركات. (٤)

البذل والعطاء في القرآن:

١- قال تعالى: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [البقرة: آية ٢٤٥]

(١) العين (٨ / ١٨٧)، وجمهرة اللغة (١ / ٣٠٥)، وتهذيب اللغة (١٤ / ٣١٢).

(٢) التوقيف على مهات التعاريف (ص: ٧٣).

(٣) العين (٢ / ٢٠٨)، وتهذيب اللغة (٣ / ٦٥)، والمحكم والمحيط الأعظم (٢ / ٣١٠).

(٤) تفسير المنار (٩ / ٥٣٦).

صدر سبحانه الآية بألفاظ أنواع الخطاب، وهو الاستفهام المتضمن معنى الطلب، وهو أبلغ في الطلب من صيغة الأمر. والمعنى: هل أحد يبذل هذا القرض الحسن، فيجازي عليه أضعافاً مضاعفة؟

وسمي ذلك الإنفاق قرضاً حسناً حثاً للنفوس، وبعثاً لها على البذل؛ لأن الباذل متى علم أن عين ماله يعود إليه ولا بد طوّعت له نفسه، وسهل عليه إخراجه. فإن علم أن المستقرض ملئ وفيّ محسن، كان أبلغ في طيب فعله وسماحة نفسه. فإن علم أن المستقرض يتجر له بما اقترضه، وينمي له ويثمره حتى يصير أضعاف ما بذله كان بالقرض أسمح وأسمح.

فإن علم أنه مع ذلك كله يزيده من فضله وعطائه أجراً آخر من غير جنس القرض، فإن ذلك الأجر حظ عظيم، وعطاء كريم، فإنه لا يختلف عن قرضه إلا لآفة في نفسه من البخل والشح، أو عدم الثقة بالضمان. وذلك من ضعف إيمانه. ولهذا كانت الصدقة برهاناً لصاحبها. (١)

٢- قال تعالى: {وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيْتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} (البقرة: ٢٦٥)

هذا مثل الذي مصدر نفقته عن الإخلاص والصدق. فإن ابتغاء مرضاته سبحانه هو الإخلاص. والتثبيت من النفس هو الصدق في البذل فإن المنفق يعترضه عند إنفاقه آفتان إن نجا منها كان مثله ما ذكره في هذه الآية.

إحداهما: طلبه بنفقته محمداً أو ثناء أو غرضاً من أغراضه الدنيوية. وهذا حال أكثر المنفقين، والآفة الثانية: ضعف نفسه وتقاعسها وترددتها. هل يفعل أم لا؟ فالآفة الأولى: تزول بابتغاء مرضاة الله. والآفة الثانية: تزول بالتثبيت فإن تثبيت النفس تشجعها وتقويتها والأقدام بها على البذل. وهذا هو صدقها وطلب مرضاة الله إرادة وجهه وحده وهذا إخلاصها فإذا كان

(١) التفسير القيم (ص: ١٥١).

مصدر الإنفاق عن ذلك كان مثله كجنة - وهي البستان الكثير الأشجار - فهو مجتنّ بها أي مستتر ليس قاعاً فارغاً. (١)

٣- وقال تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: ٢٦١]

قال القاضي رحمه الله: إنه تعالى لما أجمل في قوله من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة فصل بعد ذلك في هذه الآية تلك الأضعاف، وإنما ذكر بين الآيتين الأدلة على قدرته بالإحياء والإماتة من حيث لولا ذلك لم يحسن التكليف بالإنفاق، لأنه لولا وجود الإله الميثب المعاقب، لكان الإنفاق في سائر الطاعات عبثاً، فكأنه تعالى قال لمن رغبه في الإنفاق قد عرفت أي خلقتك وأكملت نعمتي عليك بالإحياء والإقذار وقد علمت قدرتي على المجازاة والإثابة، فليكن علمك بهذه الأحوال داعياً إلى إنفاق المال، فإنه يجازي القليل بالكثير، ثم ضرب لذلك الكثير مثلاً، وهو أن من بذر حبة أخرجت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، فصارت الواحدة سبعمائة. (٢)

٤- قال تعالى: {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [سورة البقرة: ٢٦٨]

هذه الآية تتضمن الحض على الإنفاق والحث عليه بأبلغ الألفاظ وأحسن المعاني. فإنها اشتملت على بيان الداعي إلى البخل، والداعي إلى البذل والإنفاق وبيان ما يدعو إليه داعي البخل، وما يدعو إليه داعي الإنفاق، وبيان ما يدعو به داعي الأمرين.

فأخبر سبحانه أن الذي يدعوهم إلى البخل والشح هو الشيطان وأخبر أن دعوته هي بما يعدهم به ويخوفهم من الفقر إن أنفقوا أموالهم. وهذا هو الداعي الغالب على الخلق. فإن أحدهم يهتم بالصدقة والبذل فيجد في قلبه داعياً يقول له: متى أخرجت هذا دعتك الحاجة

(١) التفسير القيم (ص: ١٦٣).

(٢) مفاتيح الغيب (٧/ ٣٩).

إليه، وافترقت إليه بعد إخراجها، وإمساكه خير لك، حتى لا تبقى مثل الفقير، فغناك خير لك من غناه. (١)

الأحاديث النبوية في البذل والعطاء :

(١) عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ، يَقُولُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعْطِينِي الْعَطَاءَ، فَأَقُولُ: أَعْطِهِ مَنْ هُوَ أَفْقَرُ إِلَيْهِ مِنِّي، فَقَالَ: خُذْهُ إِذَا جَاءَكَ مِنْ هَذَا الْمَالِ شَيْءٌ وَأَنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ وَلَا سَائِلٍ، فَخُذْهُ وَمَا لَا فَلَا تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ. (٢)

(٢) عَنْ مُوسَى بْنِ أَنَسٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: " مَا سِئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْإِسْلَامِ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ، قَالَ: فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ، فَقَالَ: يَا قَوْمِ اسْلُمُوا، فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً لَا يَخْشَى الْفَاقَةَ " (٣)

هذا يدل على أنه عليه الصلاة والسلام أزهّد الناس في الدنيا إذ لو شاء أن يصير معه الجبال ذهبًا لصارت، ولكنه لا يريد هذا، يريد أن يتقلل من الدنيا حتى يخرج منها لا عليه ولا له منها؛ بل كان عليه الصلاة والسلام يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة، ويعيش عيشة الفقراء. (٤)

(٣) عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَتْ امْرَأَةٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِبُرْدَةٍ، فَقَالَ سَهْلٌ لِلْقَوْمِ: أَتَدْرُونَ مَا الْبُرْدَةُ؟ فَقَالَ الْقَوْمُ: هِيَ السَّمْلَةُ، فَقَالَ سَهْلٌ: هِيَ سَمْلَةٌ مَسْجُوجَةٌ فِيهَا حَاشِيَتُهَا، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَكْسُوكَ هَذِهِ، فَأَخَذَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا فَلَبِسَهَا، فَرَأَاهَا عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَحْسَنَ هَذِهِ، فَاكْسُيْنَهَا، فَقَالَ: نَعَمْ فَلَمَّا قَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَامَهُ أَصْحَابُهُ، قَالُوا: مَا أَحْسَنْتَ حِينَ رَأَيْتَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخَذَهَا مُحْتَاجًا إِلَيْهَا، ثُمَّ سَأَلْتَهُ إِيَّاهَا، وَقَدْ

(١) التفسير القيم (ص: ١٧٠).

(٢) البخاري (٧١٦٤)، ومسلم (١٠٤٥).

(٣) مسلم (٢٣١٢).

(٤) شرح رياض الصالحين لابن عثيمين (٣/ ٣٧٣).

عَرَفَتْ أَنَّهُ لَا يُسْأَلُ شَيْئًا فَيَمْنَعُهُ، فَقَالَ: رَجَوْتُ بَرَكَتَهَا حِينَ لَبَسَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَعَلِّي أَكْفَنُ فِيهَا. (١)

(٤) وَعَنْ عَائِشَةَ، أَنَّهُمْ ذَبَحُوا شَاةً، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا بَقِيَ مِنْهَا؟ قَالَتْ: مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلَّا كَتِفُهَا قَالَ: بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتِفِهَا. (٢)

والمعنى: أن الذي أكلتم هو الذي ذهب، وأما ما تصدقتم به فهو الذي بقي لكم. فالحاصل أن الصحابة وذوي الهمم العالية هم الذين يعرفون قدر الدنيا وقدر المال، وأن ما قدموه هو الباقي، وما أبقوه هو الفاني. (٣)

نماذج في البذل والعطاء

١- كان صلى الله عليه وسلم أعظم الناس صدقة بما ملك يده، وكان لا يستكثر شيئاً أعطاه لله تعالى، ولا يستقله، وكان لا يسأله أحد شيئاً عنده إلا أعطاه، قليلاً كان أو كثيراً، وكان عطاؤه عطاء من لا يخاف الفقر، وكان العطاء والصدقة أحب شيء إليه، وكان سروره وفرحه بما يعطيه أعظم من سرور الأخذ بما يأخذه، وكان أجود الناس بالخير، يمينه كالريح المرسلة. وكان إذا عرض له محتاج أثره على نفسه، تارة بطعامه، وتارة بلباسه.

وكان ينوع في أصناف عطائه وصدقته، فتارة بالهبة، وتارة بالصدقة، وتارة بالهدية، وتارة بشراء الشيء ثم يعطي البائع الثمن والسلعة جميعاً، كما فعل ببيع جابر.

وتارة كان يقترض الشيء فيرد أكثر منه وأفضل وأكبر، ويشتري الشيء فيعطي أكثر من ثمنه، ويقبل الهدية ويكافئ عليها بأكثر منها أو بأضعافها، تلطفاً وتنوعاً في ضروب الصدقة والإحسان بكل ممكن، وكانت صدقته وإحسانه بما يملكه وبحاله وبقوله، فيخرج ما عنده،

(١) البخاري (٦٠٣٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٧٠)، وقال: هذا حديث صحيح، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٠٠٩).

(٣) شرح رياض الصالحين لابن عثيمين (٣/ ١٦٦).

ويأمر بالصدقة، ويحض عليها، ويدعو إليها بحاله وقوله، فإذا رآه البخيل الشحيح دعاه حاله إلى البذل والعطاء، وكان من خالطه وصحبه ورأى هديه لا يملك نفسه من السباحة والندى. وكان هديه صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الإحسان والصدقة والمعروف، ولذلك كان صلى الله عليه وسلم أشرح الخلق صدرا، وأطيبهم نفسا، وأنعمهم قلبا، فإن للصدقة وفعل المعروف تأثيرا عجيبا في شرح الصدر، وأنصاف ذلك إلى ما خصه الله به من شرح صدره بالنبوة والرسالة وخصائصها وتوابعها، وشرح صدره حسا وإخراج حظ الشيطان منه. (١)

٢- عن عمر قال: أمرنا النبي - صلى الله عليه وسلم - أن نتصدقَ ووافقَ ذلك مني مالا، فقلتُ: اليوم أسبقُ أبا بكرٍ إن سبقتهُ فجئتُ بنصف مالي، فقالَ - صلى الله عليه وسلم -: ((ما أبقيت لأهلك؟)) قلتُ: مثله، وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال: ((يا أبا بكرٍ: ما أبقيت لأهلك؟)) قال: أبقيتُ لهم الله ورسوله، قلتُ: ((لا أسبقه إلى شيء أبدا)). (٢)

٣- عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ، قَالَ: جَاءَ عُمَانُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَلْفِ دِينَارٍ، قَالَ الْحَسَنُ بْنُ وَاقِعٍ: وَكَانَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِنْ كِتَابِي، فِي كُمِّهِ، حِينَ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ فَتَنَرَهَا فِي حِجْرِهِ. قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقَلِّبُهَا فِي حِجْرِهِ وَيَقُولُ: مَا ضَرَّ عُمَانٌ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ مَرَّتَيْنِ. (٣)

٤- عن المسور بن مخرمة قال: باع عبد الرحمن بن عوف أرضا له من عثمان بأربعين ألف دينار فقسم ذلك المال في بنى زهرة وفي فقراء المهاجرين وأمّهات المؤمنين فبعث معي إلى عائشة بهال من ذلك المال فقالت عائشة أما إني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: لن يحنو عليكم بعدى إلا الصالحون. سقى الله ابن عوف من سلسبيل الجنة. (٤)

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٢/ ٢١).

(٢) أخرجه أبو داود (١٦٧٨)، والترمذي (٣٦٧٥)، وقال: حسن صحيح، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٩٠٢).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٧٠١)، وقال: حديث حسن غريب من هذا الوجه، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٩٢٠).

(٤) أخرجه أبو نعيم (٩٨/١)، وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤/ ١٢٥).

٥- عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: غَابَ عَمِّي أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ عَنْ قِتَالِ بَدْرٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ غِبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالٍ قَاتَلْتَ الْمُشْرِكِينَ، لَيْتَنِي اللَّهُ أَشْهَدَنِي قِتَالَ الْمُشْرِكِينَ لَيْرَيْنِ اللَّهُ مَا أَصْنَعُ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ، وَانْكَشَفَ الْمُسْلِمُونَ، قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ - يَعْنِي أَصْحَابَهُ - وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ، - يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ - ثُمَّ تَقَدَّمَ، فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، فَقَالَ: يَا سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، الْجَنَّةَ وَرَبَّ النَّضْرِ إِنِّي أَجِدُ رِيحَهَا مِنْ دُونِ أُحُدٍ، قَالَ سَعْدُ: فَمَا اسْتَطَعْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا صَنَعُ، قَالَ أَنَسُ: فَوَجَدْنَا بِهِ بَضْعًا وَثَمَانِينَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ أَوْ طَعْنَةً بِرُمَحٍ، أَوْ رَمِيَّةً بِسَهْمٍ وَوَجَدْنَاهُ قَدْ قُتِلَ وَقَدْ مَثَلَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، فَمَا عَرَفَهُ أَحَدٌ إِلَّا أُخْتُهُ بِنَاتِهِ قَالَ أَنَسُ: "كُنَّا نَرَى أَوْ نَظُنُّ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَشْبَاهِهِ: {مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رَجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ} [الأحزاب: ٢٣] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ". (١)

أنواع البذل:

ما يمكن للإنسان المؤمن أن يبذله في سبيل الله وابتغاء مرضاته أرزاقا وعطاءات معنوية وأخرى مادية، واجبة وأخرى نافلة، منها ما يستدعيه الزمان والمكان ومنها دون ذلك. ونجد منها على سبيل المشهور والمذكور في القرآن والسنة والسيرة والتاريخ:

بذل النفس:

وهو أعظم البذل، يقول الله تعالى: إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة. شيء خلقه الله واشتراه: النفس. وبذلها في سبيل الله ويبيعها له نوعان: أحدهما: بذل للنفس في ساحة الوغى دفعة واحدة فينال المؤمن بذلك عند الله درجة المجاهد الحائز على الشهادة. وهي بلا شك درجة عظيمة عند الله تعالى. وثانيهما: بذل للنفس في رباط المجاهدة والتزكية وفي الدعوة السرية والجهرية، وفي الجهاد بناء للأمة والخلافة فينال المؤمن بذلك عند الله درجة الصديقية الحائز على الحضور الشاهد بالقسط.

البذل في الدعوة وهداية الناس:

(١) أخرجه البخاري (٢٨٠٥) ومسلم (١٩٠٣).

ثم بذل عليه الصلاة والسلام في باب عظيم من أعظم الأبواب التي يقل فيها البذل، وهو بذله في الدعوة وهداية الناس، وإرشادهم إلى الخير، وحرصه على أن يمنعهم من الوقوع في الهلاك والتردي في عاجل دنياهم وعاقب أخراهم، فهو عليه الصلاة والسلام لم يترك موقفاً من المواقف ولا مجمعاً من المجامع ولا بقعة من البقاع إلا وسعى ليوصل إليها دعوته، فكان في الفترة المكية يغشى مجالس قريش وصناديدها، مع أنهم كانوا أهل علو واستكبار وأهل إيذاء وإهانة للرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته.

وكان صلى الله عليه وسلم يلقي دعوته لله سبحانه وتعالى، فيبذلها للضالين والكافرين والمعرضين فضلاً عن المقبلين والراغبين والطالبين، وما كان صلى الله عليه وسلم يمنع شيئاً من علم وهدى وإرشاد، بل كان يسعى إلى بذله؛ حتى كان يتتبع القبائل في مواضعها؛ فخرج إلى الطائف، ثم هاجر إلى المدينة، ثم مضى بعد ذلك مرة أخرى إلى الطائف فاتحاً، ثم مضى مجاهداً، ثم أرسل الكتب إلى الملوك من حول الجزيرة كلها، وكانت نفسه تتقطع حسرات على ضلال الضالين وكفر الكافرين، حتى قال جل وعلا: {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنَّ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا} [الكهف: ٦]، أي: أنت مهلك نفسك في إثر أولئك القوم المعرضين تريد أن تردهم عن موارد الهلاك، كما أخبر عن نفسه عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح: ((إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ أُمَّتِي كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَجَعَلَتِ الدَّوَابُّ وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهِ، فَأَنَّا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ وَأَنْتُمْ تَقَحَّمُونَ فِيهِ)).^(١)

بذل المال:

للمال في الإسلام استعمالان: أحدهما استعمال فردي وما أكثره بأن يبذل المؤمن ماله وينفقه على نفسه وعياله عوناً على أمور الحياة وقضاء الحاجات، وعلى الأقارب والأصدقاء عطاء في المناسبات، وعلى المساكين مداً للعون بالصدقات. وثانيهما: استعمال جماعي بأن يبذل المؤمن ماله اقتحاماً لعقبة الشح المتأصل في النفوس، وهو له طهارة للنفس، وبرهان على صدق

(١) البخاري (٣٤٢٦)، ومسلم (٢٢٨٤).

الانتماء، ومادة تعاون وبناء، ونصرة للدين والدعوة والأمة والمستضعفين في الأرض على حدّ سواء.

- بذل العلم:

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ))^(١). وقال: ((إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْخُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرِ))^(٢).

فإن كان بذل العلم فضيلة ينال بها العبد المؤمن الخيرية والصلوات فإن البخل به ومنعه مستحقه جريمة يعاقب عليها الله تعالى. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ، أَلْجَمَهُ اللَّهُ بِلْجَامٍ مِنْ نَارٍ"^(٣).

فالملجم نفسه عن قول الحق والإخبار عن العلم يُعاقب في الآخرة بلجام من نار، وذلك في العلم الذي يلزمه تعليمه إياه، ويتعين عليه فرضه، كمن رأى كافرًا يريد الإسلام، فيقول: علّمني ما الإسلام، وما الدين؟ وكمن يرى رجلاً حديث عهد بالإسلام، ولا يُحسن الصلاة وقد حضر وقتها، يقول: علّمني كيف أصلي؟ وكمن جاء مُسْتَفْتِيًا في حلال أو حرام يقول: أفتوني أرشدوني، فإنه يلزم في مثل ذلك أن يُعرّف الجواب، فمن منعه استحق الوعيد، وليس الأمر كذلك في نوافل العلم التي لا يلزم تعليمها. والأمر النبوي في بذل العلم وتبليغه.

بذل الخلق:

قال صلى الله عليه وسلم: ((إِنَّكُمْ لَا تَسْعُونَ النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ فَلْيَسْعَهُمْ مِنْكُمْ بَسْطُ وَجْهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ))^(١).

(١) البخاري (٥٠٢٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٨٥)، وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٢١٣).

(٣) أخرجه أحمد (٢٦٣/٢، ٣٠٥) ابن ماجه (٢٦٥)، وأبو داود (٣٦٥٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٧١٤).

وبذل الخلق عطاء تطوعي وإيتاء للمال والخدمة لوجه الله وفتوة وإيثار وأخلاق كبار.
 يقول الله تعالى في شأن حسن الخلق: {وَالْكَافِرِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ
 الْمُحْسِنِينَ} [آل عمران: ١٣٤]
 عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى
 أَخَاكَ بِوَجْهِ طَلْقٍ^(٢)
 فالجود بالعرض، والتصدق على من شتم أو قذف أو اغتاب. والجود بالصبر والاحتمال
 وكظم الغيظ. وهذا أنفع من الجود بالمال.^(٣)

(١) أخرجه أبو يعلى (٦٥٥٠)، أبو نعيم في الحلية (٢٥/١٠)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٩/٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٢٦).

(٣) انظر: حاجة الدعوة إلى البذل والتضحية، عبد الحكيم بن محمد بلال، والمسلم بين البذل والبخل، علي بن عمر بادحدح.

١٦- غرض البصر

المتطوع مختلط بالمجتمع وقد يتعرض في دعوته والقيام بخدمات التطوع إلى معاملة النساء، فلا بد من تحقيق الضوابط الشرعية في تعامله مع النساء، ومن أهم هذه الضوابط غرض البصر.

تعريف غرض البصر لغة:

هو الكفّ والنقص والخفض والكسر. والإغضاء: إدناء الجفون وكل شيء كفته فقد غصضته.

والبصر: اسم لآلة الإبصار وحاسة الرؤية. (١)

واصطلاحاً:

الغُضُّ: صَرَفُ الْمَرْءِ بَصَرَهُ عَنِ التَّحْدِيقِ وَتَثْبِيتِ النَّظَرِ خَوْفًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَعِقَابِهِ، وَامْتِثَالًا لَأَمْرِهِ. (٢)

يَنْقَسِمُ النَّظَرُ إِلَى أَقْسَامٍ:

الأول: مَا هُوَ مُحَرَّمٌ وَهُوَ جُلُّ الْمُقْصُودِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، كَالنَّظَرِ إِلَى الْأَجْنَبِيَّةِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ يُبِيحُ لَهُ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ يَحْرُمُ

الثَّانِي: مُسْتَحَبٌّ وَهُوَ النَّظَرُ إِلَى امْرَأَةٍ يُرِيدُ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا وَعَلَبَ عَلَى ظَنِّهِ إِبَاجَتَهُ

الثَّالِثُ: مُبَاحٌ كَنَظَرَةِ الْفَجَاءَةِ مِنَ الْأَجْنَبِيَّةِ بِلَا قَصْدٍ، فَإِنْ كَانَتْ بِقَصْدٍ حُرِّمَتْ كَالثَّانِيَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ الثَّانِيَةُ بِلَا قَصْدٍ. (٣)

حكم النظر للنساء: حرام لعشرة أوجه:

أحدها: أن الله سبحانه أمر بغض البصر ولم يجعل شفاء القلب فيما حرمه على العبد.

(١) انظر: مجمل اللغة لابن فارس (ص: ٦٨٢)، والنهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ١٢٠).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (١٨/ ٢٠٤)، والآداب الشرعية والمنح المرعية (١/ ٢٨٠).

(٣) غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب (١/ ٩٨).

الثاني: أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن نظر الفجأة وقد علم أنه يؤثر في القلب فأمر بمداواته بصرف البصر لا بتكرار النظر.

الثالث: أنه صرح بأن الأولى له وليست له الثانية ومحال أن يكون داؤه مما له ودواؤه فيما ليس له.

الرابع: أن الظاهر قوة الأمر بالنظرة الثانية لا تناقضه والتجربة شاهدة به والظاهر أن الأمر كما رآه أول مرة فلا تحسن المخاطرة بالإعادة.

الخامس: أنه ربما رأى ما هو فوق الذي في نفسه فزاد عذابه.

السادس: أن إبليس عند قصده للنظرة الثانية يقوم في ركائبه فيزين له ما ليس بحسن لتتم البلية.

السابع: أنه لا يعان على بليته إذا أعرض عن امتثال أوامر الشرع وتداوى بما حرمه عليه بل هو جدير أن تتخلف عنه المعونة.

الثامن: أن النظرة الأولى سهم مسموم من سهام إبليس، ومعلوم أن الثانية أشد سما فكيف يتداوى من السم بالسم.

التاسع: أن صاحب هذا المقام في مقام معاملة الحق عز وجل في ترك محبوب كما زعم وهو يريد بالنظرة الثانية أن يتبين حال المنظور إليه فإن لم يكن مرضيا تركه فإذا يكون تركه لأنه لا يلائم غرضه لا لله تعالى فأين معاملة الله سبحانه بترك المحبوب لأجله.

العاشر: يتبين بضرب مثل مطابق للحال، وهو أنك إذا ركبت فرسا جديدا فمالت بك إلى درب ضيق لا ينفذ ولا يمكنها أن تستدير فيه للخروج، فإذا همت بالدخول فيه فاكبحها؛ لئلا تدخل فإذا دخلت خطوة أو خطوتين فصح بها وردّها إلى وراء عاجلا قبل أن يتمكن دخولها فإن رددتها إلى ورائها سهل الأمر وإن توانيت حتى ولجت وسقتها داخلا ثم قمت تجذبها بذنبها عسر عليك أو تعذر خروجها، فهل يقول عاقل إن طريق تخليصها سوقها إلى داخل فكذلك النظرة إذا أثرت في القلب فإن عجل الحازم وحسم المادة من أولها سهل علاجه وإن كرر النظر ونقب عن محاسن الصورة ونقلها إلى قلب فارغ فنقشها فيه تمكنت المحبة وكلما

تواصلت النظرات كانت كالماء يسقي الشجرة فلا تزال شجرة الحب تنمى حتى يفسد القلب ويعرض عن الفكر. (١)

من الآيات الواردة في الحث على غض البصر:

١ - قال تعالى: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} (٣٠) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [النور: ٣٠، ٣١]

فَجعل سبحانه غض البصر وحفظ الفرج هو أقوى تزكية للنفس وبين أن ترك الفواحش من زكاة النفوس وزكاة النفوس تنصن زوال جميع الشرور من الفواحش والظلم والشرك والكذب وغير ذلك.

وقوله: {يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ} فيه: إيجاز بالحذف، أي: عما حرم الله، لا عن كل شيء. أي يغضوا من أبصارهم حتى لا ينظروا إلى نساء لا يحل لهم أن ينظروا إليهن. {ويحفظوا فروجهم}: أي: يصونونها من النظر إليها ومن إتيان الفاحشة الزنى واللواط. وفي الآية تحريم النظر إلى النساء وعورات الرجال وتحريم كشفها.

....وسر تقديم غض الأبصار على حفظ الفروج، هو أن النظر بريد الزنى ورائد الفجور، كما قال الحماسي:

وكنت إذا أرسلت طرفك رائدا . . لقلبك يوما، أتعبتك المناظر. (٢)

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص: ٩٤)، الفتاوى الكبرى لابن تيمية (١/ ٢٨٤).

(٢) محاسن التأويل (٧/ ٣٧١)، العبودية (ص: ٩١).

وقال القرطبي رحمه الله تعالى: البصر هو الباب الأكبر إلى القلب، وأمر طرق الحواس إليه، وبحسب ذلك كثر السقوط من جهته. ووجب التحذير منه، وغضه واجب عن جميع المحرمات، وكل ما يخشى الفتنة من أجله. (١)

٢ - وقال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) } [النور: ٢٧]

قال المهلب: ومعنى الاستئذان هو خوف أن يفجأ الرجل أهل البيت على عورة فينظر ما لا يحل له. (٢)

٣ - وقال تعالى: { يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩) } [غافر: ١٩]

{ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ } أي: نظراتها الخائنة. وهي الممتدة إلى ما لا يحل وما تُخْفِي الصُّدُورُ أي تكتنه من الضمائر والأسرار واللّه يَقْضِي بِالْحَقِّ أي بالعدل. وهي النظرة المسترقة إلى ما لا يحل والرجل ينظر إلى المرأة الحسناء تمر به أو يدخل بيتاً هي فيه فإذا فطن لها غض بصره. (٣)

الأحاديث الواردة في الحث على غض البصر:

١ - عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كَانَ الْفَضْلُ بْنُ عَبَّاسٍ رَدِيفَ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - فَجَاءَتْهُ امْرَأَةٌ مِنْ خَنَعَمَ تَسْتَفْتِيهِ، فَجَعَلَ الْفَضْلُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا وَتَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - يَصْرِفُ وَجْهَ الْفَضْلِ إِلَى الشَّقِّ الْأَخْرِ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ فَرِيضَةَ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ فِي الْحُجِّ أَدْرَكَتْ أَبِي شَيْخًا كَبِيرًا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَثْبُتَ عَلَى الرَّاحِلَةِ، أَفَأَحْجُّ عَنْهُ قَالَ: نَعَمْ وَذَلِكَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ. (٤)

(١) التحرير والتنوير (١٨ / ٢٠٤)، الفتاوى الكبرى لابن تيمية (١ / ٢٨٤).

(٢) شرح البخاري لابن بطال (٩ / ١١).

(٣) صحيح البخاري (٢٢٩٩).

(٤) البخاري (٦٢٢٨)، ومسلم (١٣٣٤).

وفي نظر الفضل إلى المرأة مغالبة طباع البشر لابن آدم وضعفه عما ركب فيه من شهوات النساء فإنها مجبولة على الميل إلى الصور الحسنة، وفيه أن على العالم أن يغير من المنكر ما يمكنه إذا رآه. (١)

٢ - وعن بريدة قال قال - صلى الله عليه وسلم - لعليّ - رضي الله عنه -: يَا عَلِيُّ، لَا تُتَّبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ، فَإِنَّ لَكَ الْأُولَى وَلَيْسَتْ لَكَ الْآخِرَةُ. (٢).

فالنظرة الأولى إنما تكون له لا عليه إذا كانت فجأة من غير قصد أو تعمد وليس له أن يكرر النظر ثانية ولا له أن يتعمده بدءا كان أو عودا. (٣)

فلما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم النظرة الثانية؛ لأنها تكون باختيار الناظر، وخالف بين حكمها وحكم ما قبلها إذا كانت بغير اختيار من الناظر، دل على أنه ليس لأحد أن ينظر إلى وجه امرأة إلا أن تكون زوجة أو ذات محرم. (٤)

٣ - عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ نَظَرِ الْفَجَاءَةِ فَأَمَرَنِي أَنْ أَصْرِفَ بَصَرِي. (٥)

قال القاضي عياض: ومعنى نظر الفجاءة: التي لم يقصد صاحبها تأملها والنظر إليها، فتلك معفو عنها، والمنهي عنه المحرم من ذلك إدامة النظر، وتأمل المحاسن على وجه التلذذ والاستحسان والشهوة.

قال النووي: أي: أن يقع بصره على الأجنبية من غير قصد فلا إثم عليه في أول ذلك، ويجب عليه أن يصرف بصره في الحال، فإن صرفه في الحال فلا إثم عليه، وإن استدأ النظر أثم، لهذا

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٤/ ١٨٧)، المفهم (١٠/ ١٤٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٧٧٧)، وأبو داود (٢١٤٩)، وأحمد (١/ ١٥٩). وقال الترمذي: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث شريك. وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١٨٦٥).

(٣) معالم السنن (٣/ ٢٢٢) / المفهم (١٠/ ١٤٨).

(٤) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٧/ ٢٣٨).

(٥) أخرجه مسلم (٢١٥٩).

الحديث فإنه - صلى الله عليه وسلم - أمره أن يصرف بصره، مع قوله تعالى { قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ } .^(١)

٥ - عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما ، قَالَ: مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَشْبَهَ بِاللَّمَمِ مِمَّا قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزَّانَا، أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَرِئَانَا الْعَيْنَ النَّظْرَ، وَزَنَا اللِّسَانَ الْمَنْطِقَ، وَالنَّفْسُ تَمْتَنِي وَتَشْتَهِي، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَيُكَذِّبُهُ^(٢)

قال ابن بطال: سُمِّيَ النظر والنطق زنا؛ لأنه يدعو إلى الزنا الحقيقي، ولذلك قال: والفرج يصدق ذلك ويكذبه. كم من نظرة تحلو في العاجلة، مرارتها لا تطاق في الآجلة، يا ابن آدم قلبك قلب ضعيف، ورأيك في إطلاق الطرف رأي سخي، يا طفل الهوى متى يؤنس منك رشد، عينك مطلقة في الحرام ولسانك مهمل في الآثام، وجسدك يتعب في كسب الحطام، كم نظرة محتقرة زلت بها الأقدام.^(٣)

عناية السلف بغض البصر:

- قال ابن مسعود: الإثم حَوَازِ القلوب وما من نظرة إلا وللشيطان فيها مطمع.

- وقال أيضا: حفظ البصر أشد من حفظ اللسان

- ولما قال رجل للحسن رحمه الله: إن نساء العجم يكشفن صدورهن ورؤوسهن قال: اصرف بصرك.

- عن أنس رضي الله عنه قال: إِذَا مَرَّتْ بِكَ امْرَأَةٌ فغَمَضْ عَيْنِكَ حَتَّى تُتَجَاوَزَكَ.

- قال العلاء بن زياد: لا تتبع بصرك رداء المرأة، فإن النظر يزرع في القلب شهوة.

- وعن ابن عمر: من تضييع الأمانة النظر في الحجرات والدور.

- وعن ابن سيرين قال: إني أرى المرأة في المنام فأعرف أنها لا تحل لي، فأصرف بصري عنها

(١) شرح النووي (٧/ ١٣٤).

(٢) البخاري (٦٦١٢)، ومسلم (٢٦٥٧).

(٣) فتح الباري لابن حجر (١١/ ٢٦)، شرح صحيح البخاري لابن بطال (٧/ ٢٣٨).

- وكان الربيع بن خثيم يغض بصره، فمر به نسوة فأطرق (أي: أمال رأسه إلى صدره) فظن النسوة أنه أعمى وتعوذن بالله من العمى.
- قال المروزي: قلت لأبي عبد الله: رجل تاب، وقال: لو ضرب ظهري بالسياط ما دخلت في معصية غير أنه لا يدع النظر، قال: أي توبة هذه!
- وقال ابن الجوزي: أكثر فساد القلب من تخليط العين مادام باب العين موثقًا بالغض فالقلب سليم من آفة فإذا فتح الباب طار طائر وربما لم يعد. (١)
- قال ذو النون: النظرات تورث الحسرات.
- وقال بعضهم: من حفظ بصره أورثه الله نورًا في بصيرته.
- قال مجاهد: غض البصر عن محارم الله يورث حب الله. (٢)
- قال بعض السلف: النظر سهم سم إلى القلب، فلهذا أمر الله بحفظ الفروج كما أمر بغض الأبصار التي هي بواعث إلى ذلك. (٣)
- وقال بعض العلماء: النظر بريد الزنا ورائد الفجور والبلوى فيه أشد وأكثر ولا يكاد يقدر على الاحتراس منه. (٤)
- وقال أحمد بن حنبل: كم نظرة ألفت في قلب صاحبها البلبل.
- وقال أبو حاتم: الأمر بصرف البصر أمر حتم عما لا يحل، وهو مقرون بالزجر عن ضده وهو النظر إلى ما حرم. (٥)

(١) المدهش (ص: ٣٦٣).

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١٨٣/٦)، والفسوي في المعرفة (٥٦٩/٢).

(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٣٤٥/٩)، مجموع الفتاوى (٣٩٥/١٥).

(٤) التفسير الكبير للرازي ١٧٨/٢٣، وفيض القدير للمناوي ٦٥/٤.

(٥) صحيح ابن حبان ٣٨٣/١٢.

١٧- الإيثار

همّ المتطوع تحصيل النفع للغير حتى لو كان على حساب النفس قيّوثر غيره على نفسه في حظوظ الدنيا رغبة فيما عند الله .

تعريف الإيثار:

الإيثار لغة:

الإيثار مصدر قولهم آثره عليه يؤثره إيثارًا بمعنى فضّله وقدمه وهو مأخوذ من مادة (أث ر) التي تدلّ على تقديم الشيء قال الأصمعيّ: آثرتك إيثارًا أي فضّلتك وضدّه الأثرة من قولهم استأثر بالشيء انفرد به أو اختصّ به نفسه. (١).

تعريف الإيثار اصطلاحًا:

قال القرطبيّ: الإيثار: هُوَ تَقْدِيمُ الْغَيْرِ عَلَى النَّفْسِ وَحُطُوطُهَا الدُّنْيَاوِيَّةِ، وَرَغْبَةُ فِي الْحُطُوطِ الدِّينِيَّةِ. وَذَلِكَ يَنْشَأُ عَنْ قُوَّةِ الْيَقِينِ، وَتَوْكِيدِ الْمَحَبَّةِ، وَالصَّبْرِ عَلَى الْمَشَقَّةِ. يُقَالُ: أَثَرْتُهُ بِكَذَا، أَيْ حَصَصْتُهُ بِهِ وَفَضَّلْتُهُ. (٢)

وفي المعجم الوسيط: (الإيثار) تَفْضِيلُ الْمُرءِ غَيْرِهِ عَلَى نَفْسِهِ (٣)

فضائل الإيثار في القرآن:

١- الإيثار سبب للفلاح

قال الله تبارك وتعالى: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر: ٩]

قال ابن كثير: يُقَدِّمُونَ الْمَحَاوِيجَ عَلَى حَاجَةِ أَنْفُسِهِمْ، وَيَبْدَأُونَ بِالنَّاسِ قَبْلَهُمْ فِي حَالِ احْتِيَاجِهِمْ إِلَى ذَلِكَ. (١).

(١) المغرب في ترتيب المعرب (ص: ١٩).

(٢) تفسير القرطبي (١٨ / ٢٦)، والتعريفات للجرجاني (١ / ٥٩).

(٣) المعجم الوسيط (١ / ٦).

٢- سبب لنيل البر:

قال الله تعالى: لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ [آل عمران: ٩٢].

يقول السعدي: يعني: لن تنالوا وتدرکوا البر، الذي هو اسم جامع للخيرات، وهو الطريق الموصل إلى الجنة، حتى تنفقوا مما تحبون، من أطيب أموالكم وأزكاها. فإن النفقة من الطيب المحبوب للنفوس، من أكبر الأدلة على ساحة النفس، واتصافها بمكارم الأخلاق، ورحمتها ورقتها، ومن أدل الدلائل على محبة الله، وتقديم محبته على محبة الأموال، التي جبلت النفوس على قوة التعلق بها. (٢)

٣- دليل على صدق الإيمان وتقوى الله تعالى:

قال تبارك وتعالى: {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} [البقرة: ١٧٧]

فبين الله تبارك وتعالى أن من البر بعد الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والأنبياء. إطعام الطعام لمحتاجيه، وبذله لمريديه، مع حبه واشتهائه والرغبة فيه، وقد جاء به الله تعالى - أي إطعام الطعام - بعد أركان الإيمان مباشرة وفي ذلك دلالة على عظمته وعلو منزلته. (٣)

٤- من صفات الأبرار الذين ينعمون في الجنان

قال تعالى: {عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا يُوفُونَ بِالْغَدْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا} [الإنسان: ٦ - ٩]

(١) سنن أبي داود (١٦٧٨)، وحسنه الألباني.

(٢) تفسير السعدي ص (٩٧٠)

(٣) جامع البيان (٣/ ٣٤٠).

قال السعدي: أي: وهم في حال يحبون فيها المال والطعام، لكنهم قدموا محبة الله على محبة نفوسهم، ويتحرون في إطعامهم أولى الناس وأحوجهم {مُسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا}. ويقصدون بإنفاقهم وإطعامهم وجه الله تعالى، ويقولون بلسان الحال: {إِنَّمَا نَطْعُمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا} أي: لا جزاء ماليًّا ولا ثناء قوليًّا. (١)

فضائل الإيثار في السنة:

١- الله يعجب من أهل الإيثار لحسن صنيعهم

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَصَابَنِي الْجُحْدُ، فَأَرْسَلْ إِلَى نِسَائِهِ فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهُنَّ شَيْئًا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَلَا رَجُلٌ يُضَيِّفُ هَذَا اللَّيْلَةَ، رَحِمَهُ اللَّهُ؟". فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ: ضَيِّفِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تَدْخِرِيهِ شَيْئًا. فَقَالَتْ: وَاللَّهِ مَا عِنْدِي إِلَّا قَوْتُ الصَّبِيَّةِ. قَالَ: فَإِذَا أَرَادَ الصَّبِيَّةُ الْعِشَاءَ فَنَوِّمِيهِمْ وَتَعَالَي فَاطْفِئِي السَّرَاجَ وَنَطْوِي بُطُونَنَا اللَّيْلَةَ. ففعلت، ثُمَّ غَدَا الرَّجُلُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: "لَقَدْ عَجِبَ اللَّهُ، عَزَّ وَجَلَّ -أَوْ: ضَحِكَ- مِنْ فُلَانٍ وَفُلَانَةٍ" (٢). وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ}. (٣)

٢- أهل الإيثار متعاونون في الشدة يحبهم النبي صلى الله عليه وسلم.

عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ الْأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أُرْمِلُوا فِي الْعَزْوِ، أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ، فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ (٤)

(١) تفسير السعدي تيسير الكريم الرحمن (ص: ٩٠١).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٨٩).

(٣) قال النووي في شرح مسلم (١٤ / ١٢).

(٤) أخرجه البخاري (٢٤٨٦).

قال القرطبي: هذا الحديث يدل على أن الغالب على الأشعرين الإيثار، والمواساة عند الحاجة، كما دلّ الحديث المتقدم على أن الغالب عليهم القراءة والعبادة، فثبت لهم بشهادة رسول الله. صلى الله عليه وسلم: أنهم علماء عاملون، كرماء مؤثرون. (١)

٣- الإيثار والمواساة من أسباب نزول البركة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: طَعَامُ الْإِثْنَيْنِ كَافِي الثَّلَاثَةِ، وَطَعَامُ الثَّلَاثَةِ كَافِي الْأَرْبَعَةِ (٢). وفي لفظ لمسلم: طَعَامُ الْوَاحِدِ يَكْفِي الْإِثْنَيْنِ، وَطَعَامُ الْإِثْنَيْنِ يَكْفِي الْأَرْبَعَةَ، وَطَعَامُ الْأَرْبَعَةِ يَكْفِي الثَّمَانِيَةَ (٣).

قال المهلب: والمراد بهذه الأحاديث الحض على المكارمة في الأكل والمواساة والإيثار على النفس الذي مدح الله به أصحاب نبيه، فقال: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} [الحشر: ٩]، ولا يراد بها معنى التساوي في الأكل والتشاح؛ لأن قوله عليه السلام: (كافي الثلاثة) دليل على الأثرة التي كانوا يمتدحون بها والتقنع بالكفاية، وقد هم عمر بن الخطاب في سنة مجاعة أن يجعل مع كل أهل بيت مثلهم وقال: (لن يهلك أحد عن نصف قوته) (٤).

نماذج وصور من الإيثار:

١- قَالَ سَهْلُ بْنُ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَتْ امْرَأَةٌ بِرِدَّةٍ، قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا الْبُرْدَةُ؟ فَقِيلَ لَهُ: نَعَمْ، هِيَ السَّمْلَةُ مَنْسُوجٌ فِي حَاشِيَتِهَا، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي نَسَجْتُ هَذِهِ بِيَدَيَّ أَكْسُوكَهَا، فَأَخَذَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا، فَخَرَجَ إِلَيْنَا وَإِنَّمَا إِزَارُهُ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اكْسُيْهَا. فَقَالَ: نَعَمْ. فَجَلَسَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَجْلِسِ، ثُمَّ رَجَعَ، فَطَوَّأَهَا ثُمَّ أَرْسَلَ بِهَا إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ الْقَوْمُ: مَا أَحْسَنْتَ، سَأَلْتَهَا إِيَّاهُ، لَقَدْ

(١) المفهم لما أشكل من صحيح مسلم (٢٠/٦).

(٢) أخرجه البخاري (٥٣٩٢).

(٣) أخرجه مسلم (٢٠٥٩).

(٤) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٤٧١/٩).

عَلِمْتَ أَنَّهُ لَا يَرُدُّ سَائِلًا، فَقَالَ الرَّجُلُ: وَاللَّهِ مَا سَأَلْتُهُ إِلَّا لِتَكُونَ كَفَنِي يَوْمَ أَمُوتُ، قَالَ سَهْلٌ: فَكَانَتْ كَفَنُهُ (١).

٢- عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قَالَ: إِنَّا يَوْمَ الْحَنْدَقِ نَحْفِرُ، فَعَرَضْتُ كُدْيَةً شَدِيدَةً، فَجَاءُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا: هَذِهِ كُدْيَةٌ عَرَضَتْ فِي الْحَنْدَقِ، فَقَالَ: أَنَا نَازِلٌ. ثُمَّ قَامَ وَبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ بِحَجَرٍ، وَلَبِثْنَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لَا نَذُوقُ ذَوَاقًا، فَأَخَذَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَعُولَ فَضْرَبَ، فَعَادَ كَثِيبًا أَهِيلًا، أَوْ أَهِيمًا، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، انْثَنَ لِي إِلَى الْبَيْتِ، فَقُلْتُ لِمَرْأَتِي: رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا مَا كَانَ فِي ذَلِكَ صَبْرٌ، فَعِنْدَكَ شَيْءٌ؟ قَالَتْ: عِنْدِي شَعِيرٌ وَعَنَاقٌ، فَذَبَحَتِ الْعَنَاقَ، وَطَحَنَتِ الشَّعِيرَ حَتَّى جَعَلْنَا اللَّحْمَ فِي الْبُرْمَةِ، ثُمَّ جِئْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْعَجِينُ قَدْ انْكَسَرَ، وَالْبُرْمَةُ بَيْنَ الْأَثَافِي قَدْ كَادَتْ أَنْ تَنْضَجَ، فَقُلْتُ: طُعِيمٌ لِي، فَقُمْتُ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَرَجُلٌ أَوْ رَجُلَانِ، قَالَ: كَمْ هُوَ فَذَكَرْتُ لَهُ، قَالَ: " كَثِيرٌ طَيِّبٌ، قَالَ: قُلْ لَهَا: لَا تَنْزِعِ الْبُرْمَةَ، وَلَا الْخُبْزَ مِنَ التَّنُورِ حَتَّى آتِي، فَقَالَ: قُومُوا " فَقَامَ الْمُهَاجِرُونَ، وَالْأَنْصَارُ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ قَالَ: وَيْحَكَ جَاءَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَمَنْ مَعَهُمْ، قَالَتْ: هَلْ سَأَلْتُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَ: ادْخُلُوا وَلَا تَضَاغَطُوا فَجَعَلَ يَكْسِرُ الْخُبْزَ، وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ اللَّحْمَ، وَيُخَمِّرُ الْبُرْمَةَ وَالتَّنُورَ إِذَا أَخَذَ مِنْهُ، وَيُقَرِّبُ إِلَى أَصْحَابِهِ ثُمَّ يَنْزِعُ، فَلَمْ يَزَلْ يَكْسِرُ الْخُبْزَ، وَيَغْرِفُ حَتَّى شَبِعُوا وَبَقِيَ بَقِيَّةٌ، قَالَ: كُلِّي هَذَا وَاهْدِي، فَإِنَّ النَّاسَ أَصَابَتْهُمْ مَجَاعَةٌ (٢).

٣- وفي إيثار الأنصار يقول أنس بن مالك رضي الله عنه، قَالَ: لَمَّا قَدِمَ الْمُهَاجِرُونَ الْمَدِينَةَ مِنْ مَكَّةَ، وَلَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ - يَعْنِي شَيْئًا - وَكَانَتِ الْأَنْصَارُ أَهْلَ الْأَرْضِ وَالْعَقَارِ، فَقَاسَمَهُمُ الْأَنْصَارُ عَلَى أَنْ يُعْطَوْهُمْ ثَمَارَ أَمْوَالِهِمْ كُلِّ عَامٍ، وَيَكْفُوهُمْ الْعَمَلَ وَالْمَتُونَةَ (٣).

(١) أخرجه البخاري (٢٠٩٣).

(٢) أخرجه البخاري (٤١٠١).

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٣٠).

٤- قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ آخَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ، فَقَالَ سَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ: إِنِّي أَكْثَرُ الْأَنْصَارِ مَالًا، فَأَقْسِمُ لَكَ نِصْفَ مَالِي، وَانْظُرْ أَيَّ زَوْجَتَيَّ هَوَيْتَ نَزَلْتُ لَكَ عَنْهَا، فَإِذَا حَلَلْتُ، تَزَوَّجْتُهَا، قَالَ: فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: لَا حَاجَةَ لِي فِي ذَلِكَ هَلْ مِنْ سُوقٍ فِيهِ تِجَارَةٌ؟ قَالَ: سُوقٌ قَيْتَقَاعٍ، قَالَ: فَغَدَا إِلَيْهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، فَأَتَى بِأَقِطٍ وَسَمْنٍ، قَالَ: ثُمَّ تَابَعَ الْغُدُوَّ، فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ عَلَيْهِ أَثَرُ صُفْرَةٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: تَزَوَّجْتَ؟، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: وَمَنْ؟، قَالَ: امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، قَالَ: كَمْ سُقْتَ؟، قَالَ: زِنَةَ نَوَاةٍ مِنْ ذَهَبٍ - أَوْ نَوَاةٍ مِنْ ذَهَبٍ -، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَوْلَمْ وَلَوْ بِشَاةٍ^(١)

٥- عَنْ أَبِي جَهْمٍ بْنِ حُذَيْفَةَ الْعَدَوِيِّ قَالَ: انْطَلَقْتُ يَوْمَ الْيَرْمُوكِ أَطْلُبُ ابْنَ عَمِّي، وَمَعِيَ شَتَّةٌ مِنْ مَاءٍ، وَإِنَاءٌ، فَقُلْتُ: إِنْ كَانَ بِهِ رَمَقٌ سَقَيْتُهُ مِنَ الْمَاءِ، وَمَسَحْتُ بِهِ وَجْهَهُ، فَإِذَا أَنَا بِهِ يَنْشَعُ فَقُلْتُ لَهُ: أَسْقَيْكَ؟ فَأَشَارَ أَنْ نَعَمْ، فَإِذَا رَجُلٌ يَقُولُ: آه، فَأَشَارَ ابْنُ عَمِّي أَنْ انْطَلِقُ بِهِ إِلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ هِشَامُ بْنُ الْعَاصِ أَخُو عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، فَأَتَيْتُهُ، فَقُلْتُ: أَسْقَيْكَ؟ فَسَمِعَ آخَرَ يَقُولُ: آه، فَأَشَارَ هِشَامٌ أَنْ نَطْلُقَ بِهِ إِلَيْهِ، فَجِئْتُهُ فَإِذَا هُوَ قَدْ مَاتَ، ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى هِشَامٍ، فَإِذَا هُوَ قَدْ مَاتَ، ثُمَّ أَتَيْتُ ابْنَ عَمِّي، فَإِذَا هُوَ قَدْ مَاتَ^(٢)

٦- عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ الْأَوْدِيِّ، قَالَ: رَأَيْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ ابْنَ عُمَرَ، اذْهَبْ إِلَى أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَقُلْ: يَقْرَأُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ عَلَيْكَ السَّلَامَ، ثُمَّ سَلِّهَا، أَنْ أُدْفِنَ مَعَ صَاحِبِي، قَالَتْ: كُنْتُ أُرِيدُهُ لِنَفْسِي فَلَاوِثَرْتُهُ الْيَوْمَ عَلَى نَفْسِي، فَلَمَّا أَقْبَلَ، قَالَ: لَهُ مَا لَدَيْكَ؟ قَالَ: أَذِنْتُ لَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ: "مَا كَانَ شَيْءٌ أَهَمَّ إِلَيَّ مِنْ ذَلِكَ الْمَضْجَعِ، فَإِذَا قُبِضْتُ فَاحْمِلُونِي، ثُمَّ سَلِّمُوا، ثُمَّ قُلْ: يَسْتَأْذِنُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، فَإِنْ أَذِنْتُ لِي، فَادْفِنُونِي، وَإِلَّا فَرُدُّونِي إِلَى مَقَابِرِ الْمُسْلِمِينَ..."^(٣)

(١) أخرجه البخاري (٢٠٤٨).

(٢) الزهد والرفائق لابن المبارك والزهد لنعيم بن حماد (٥٢٥).

(٣) أخرجه البخاري (١٣٩٢).

- ٧- عن أبي الحسن الأنطاكي: أنّه اجتمع عنده نيّف وثلاثون رجلاً بقرية من قرى الرّيّ، ومعهم أرغفة معدودة لا تشبع جميعهم، فكسروا الرّغفان، وأطفئوا السّراج، وجلسوا للطّعام، فلمّا رفع فإذا الطّعام بحاله لم يأكل منه أحد شيئاً، إثاراً لصاحبه على نفسه^(١).
- ٨- وقال عباس بن دهقان: ما خرج أحد من الدنيا كما دخلها إلا بشر بن الحرث فإنه أتاه رجل في مرضه فشكا إليه الحاجة فنزع قميصه وأعطاه إياه واستعار ثوباً فمات فيه^(٢).

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٢٨٥).

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي (٣/ ٢٥٨).

١٨- حسن الظن

لا يلزم من كل سائل يسأل الناس تكثراً ، فكم من سائل ما ألجأه السؤال إلا لعوز أصابه ، ومن هنا فالمتطوعون لا يليق بهم أن يعاملوا الناس بسوء الظن وإنما يحسنوا الظن بالجميع إلا أن يتبين خلاف ذلك ، كذلك فيما بينهم لا يجوز إلقاء التهم لبعض إلا بينة وذلك حتى يستقيم العمل . فالأصل في تعامل المسلم مع إخوانه خاصة القائمين بعمل الخير تحسين الظن بهم وإبعاد التهمة عنهم .

تعريف حسن الظن:

أولاً: الحسن لغة:

قال ابن فارس: الحاء والسين والنون أصل واحد . فالْحُسْنُ ضدُّ القبح . يقال رجلٌ حسنٌ وامرأةٌ حسناءٌ وحُسَّاءٌ. (١)

ثانياً: الظنُّ لغةً:

قال ابن فارس: الظاء والنون أصيلٌ صحيحٌ يدلُّ على معنيين مختلفين: يقين وشكٌّ . فأما اليقين فقولُ القائل: ظننت ظناً، أي أيقنتُ . قال الله تعالى: { قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ } [البقرة ٢٤٩] أرادَ والله أعلم: يوقنون . والعربُ تقول ذلك وتعرفه . قال شاعرهم:

فقلت لهم ظنُّوا بِالْفَيِّ مُدَجِّجٍ سرائهم في الفارسيِّ المُسَرِّدِ. (٢)

أراد: أيقنوا . وهو في القرآن كثير .

ومن هذا الباب مَظَنَّةُ الشيء، وهو معلَّمه ومكانه . ويقولون: هو مَظَنَّةٌ لكذا . قال النَّابِغَةُ: فَإِنَّ مَظَنَّةَ الْجَهْلِ الشَّبَابُ (٣)

(١) للشماخ في ديوانه (٢١) ، واللسان (حسن) ، وانظر: مقاييس اللغة (٢ / ٤٥) .

(٢) البيت لدريد بن الصمة . الأصمعيات (٣٢) .

(٣) البيت أول بيت في مقطوعة له بالديوان (١٤) ، وكذا أنشده في اللسان (ظنن) . وصدرة: فإن يك عامر قد قال جهلاً .

والأصل الآخر: الشك، يقال ظننت الشيء، إذا لم تتيقنه، ومن ذلك الظن: التهمة. والظن: المتهم. (١)

الظن اصطلاحاً:

الظن: هو الاعتقاد الراجح مع احتمال النقيض ويستعمل في اليقين والشك. وقيل الظن أحد طرفي الشك بصفة الرجحان. (٢)

وقال ابن العربي: الظن تجويز أمرين في النفس لأحدهما ترجيح على الآخر. (٣) وعليه، فحسن الظن معناه: ترجيح جانب الخير على جانب الشر. (٤)

ضابط معنى الظن في القرآن الكريم:

عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: كُلُّ ظَنٍّ فِي الْقُرْآنِ فَهُوَ يَقِينٌ، وَهَذَا يَشْكَلُ بِكَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ. وَقَالَ الزَّرْكَشِيُّ: لِلْفَرْقِ بَيْنَهُمَا ضَابِطَانِ فِي الْقُرْآنِ:

أحدهما: أَنَّهُ حَيْثُ وَجَدَ الظَّنَّ مَحْمُودًا مَثَابًا عَلَيْهِ فَهُوَ يَقِينٌ، وَحَيْثُ وَجَدَ مَذْمُومًا مَتَوَعَّدًا عَلَيْهِ بِالْعَذَابِ فَهُوَ الشَّكُّ.

وَالثَّانِي: أَنَّ كُلَّ ظَنٍّ يَتَّصِلُ بِهِ (أَنْ) الْمَخْفَفَةُ فَهُوَ شَكٌّ نَحْوُ: {بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ}، وَكُلُّ ظَنٍّ يَتَّصِلُ بِهِ (أَنْ) الْمُسَدَّدَةُ فَهُوَ يَقِينٌ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيهِ}، وَالْمَعْنَى فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمُسَدَّدَةَ لِتَأْكِيدِ فَدَخَلَتْ فِي الْيَقِينِ، وَالْمَخْفَفَةَ بِخِلَافِهَا فَدَخَلَتْ فِي الشَّكِّ. (٥)

أقسام الظن وأحكامه:

وصفوة القول أَنَّ الظنَّ لَا يَخْرُجُ عَنْ أُمُورٍ خَمْسَةٍ:

الأول: الظنَّ المحرَّم، وهو سوء الظنَّ بالله. ويقابله وجوب حسن الظنَّ بالله.

(١) أنشده في اللسان (ظنن)، والمخصص (١٢: ٣١٩)، وانظر: مقاييس اللغة (٣ / ٣٦٢).

(٢) التعريفات (١٨٧).

(٣) أحكام القرآن لابن العربي (٤ / ١٧١٢).

(٤) نضرة النعيم (٥ / ١٥٩٧).

(٥) الكليات لأبي البقاء الكفوي (٥٨٨).

الثاني: حرمة سوء الظنّ بالمسلمين الذين ظاهرهم العدالة، والمطلوب حسن الظنّ بهم.
الثالث: الظنّ المباح، وهو الذي يعرض في قلب المسلم في أخيه بسبب ما يوجب الرّيبة، وهذا الظنّ لا يحقّق.

الرابع: الظنّ المندوب إليه، وهو حسن الظنّ بالأخ المسلم وعليه الثواب.
الخامس: الظنّ المأمور به، وهو الظنّ فيما لم ينصّ عليه دليل يوصلنا إلى العلم، وقد تعبّدنا الله بالاعتصار على الغالب الظنّي فيه، كقبول شهادة العدول وتحريّ القبلة وتقويم المستهلكات وأروش الجنایات التي لم يرد نصّ في تقديرها. (١)

الترغيب في حسن الظن من القرآن الكريم والسنة النبوية:

١- قال تعالى: {وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [التوبة: ١١٨]

٢- قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ} [النور: ١١، ١٢]
قال السعدي:.. فهذا من الظن الواجب، حين سماع المؤمن عن أخيه المؤمن، مثل هذا الكلام، أن يبرئه بلسانه، ويكذب القائل لذلك. (٢)

٣- قال تعالى: {فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: ٢٤٩]

(١) منهج الدعوة الاسلامية في البناء الاجتماعي (٤١٢).

(٢) تفسير السعدي (٥٦٣).

قال السعدي: {قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ} أي: يستيقنون ذلك، وهم أهل الإيمان الثابت واليقين الراسخ، مثبتين لباقيهم ومطمئنين لخواطرها، وأمرين لهم بالصبر^(١)

الترغيب في حسن الظن من السنة:

١- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي، إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ، ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شَبْرًا، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا، تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمِشِي أَتَيْتُهُ هَرَوَلَةً. (٢)

٢- وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَبْلَ وَفَاتِهِ بَثَلًا، يَقُولُ: لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللَّهِ الظَّنَّ. (٣)

قال القاري رحمه الله: وَفِي الْحَدِيثِ: حَثُّ عَلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الْمُقْتَضِيَةِ لِحُسْنِ الظَّنِّ، وَفِيهِ تَنْبِيهُ عَلَى تَأْمِيلِ الْعَفْوِ، وَتَحْقِيقِ الرَّجَاءِ فِي رَوْحِ اللَّهِ. (٤)

٣- وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ، حَدَّثَهُ قَالَ: نَظَرْتُ إِلَى أَقْدَامِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى رُءُوسِنَا وَنَحْنُ فِي الْغَارِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمِيهِ أَبْصَرَ نَا تَحْتَ قَدَمِيهِ، فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ بِأَنْتَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا. (٥)

قال ابن رجب: هذه معية خاصة غير قوله تعالى: {مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ} [المجادلة: ٧] الآية، فالمعية العامة تقتضي التحذير من علمه وإطلاعه وقدرته وبطشه وانتقامه، والمعية الخاصة تقتضي حسن الظن بإجابته ورضاه وحفظه وصيانتها، فكذاك القرب. (٦)

(١) تفسير السعدي (ص: ١٠٨).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥).

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٧٧).

(٤) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣/ ١١٥٩).

(٥) أخرجه البخاري (٤٦٦٣)، ومسلم (٢٣٨١) واللفظ له.

(٦) فتح الباري لابن رجب (٢/ ٣٣٣).

٤- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ ، وَلَا تَحَسَّسُوا ، وَلَا تَجَسَّسُوا ، وَلَا تَنَافَسُوا ، وَلَا تَحَاسَدُوا ، وَلَا تَبَاغُضُوا ، وَلَا تَدَابَرُوا ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا . (١)

قال ابن الأثير رحمه الله: " أراد الشكَّ يعرض لك في الشيء فتحققه وتحكم به . وقيل: أراد إياكم وسوء الظنِّ وتحقيقه دون مبادي الظنون التي لا تملك وخاطر القلوب التي لا تدفع " . (٢)

وقال المناوي رحمه الله: أي احذروا اتباع الظن، واحذروا سوء الظن بمن لا يساء الظن به من العدول، والظن تهمة تقع في القلب بلا دليل . (٣)

من الآثار وأقوال العلماء والمفسرين الواردة في (حسن الظن)

أولاً: حسن الظن بالله:

- قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا أُعْطِيَ عَبْدٌ مُمْرِنٌ شَيْئًا خَيْرًا مِنْ حُسْنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ لَا يُحْسِنُ عَبْدٌ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الظَّنَّ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ظَنَّهُ ذَلِكَ بِأَنَّ الْخَيْرَ فِي يَدِهِ . (٤)

- عَنْ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ ، قَالَ : دَخَلْنَا عَلَى أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ نَعُوذُهُ فَذَهَبَ بَعْضُ الْقَوْمِ يَرْجِيهِ ، فَقَالَ : إِنِّي لَأَرْجُو رَبِّي وَقَدْ صُمْتُ لَهُ ثَمَانِينَ رَمَضَانَ . (٥)

- عَنْ سُهَيْلِ الْقُطَيْبِيِّ قَالَ : رَأَيْتُ مَالِكَ بْنَ دِينَارٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي مَنَامِي ، فَقُلْتُ : يَا أَبَا يَحْيَى لَيْتَ شِعْرِي مَاذَا قَدِمْتَ بِهِ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ؟ قَالَ : قَدِمْتُ بِذُنُوبٍ كَثِيرَةٍ ، مَحَاها عَنِّي حُسْنُ الظَّنِّ بِاللَّهِ . (٦)

(١) أخرجه البخاري (٦٧٢٤) ، ومسلم (٢٥٦٣) .

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر (٣ / ١٦٣) .

(٣) فيض القدير (٣ / ١٢٢) بتصرف يسير .

(٤) حسن الظن في الله لابن أبي الدنيا (٩٦) .

(٥) حسن الظن في الله لابن أبي الدنيا (١١٣) .

(٦) حسن الظن في الله لابن أبي الدنيا (٧) .

ثانيًا: حسن الظن بالناس:

-عن سعيد بن المسيب قال: وَضَعَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِلنَّاسِ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ كَلِمَةً حَكَمٌ كُلُّهَا، وَمِنْهَا: وَضَعَ أَمْرَ أَخِيكَ عَلَى أَحْسَنِهِ حَتَّى يَجِيئَكَ مَا يَغْلِبُكَ، وَلَا تَظُنَّ بِكَلِمَةٍ خَرَجْتَ مِنْ مُسْلِمٍ شَرًّا وَأَنْتَ تَجِدُ لَهَا فِي الْخَيْرِ مَحْمَلًا. (١)

-وقال ابن المبارك: المؤمن يطلبُ المعاذير، والمنافق يطلبُ الزلات. (٢)

-وعن أبي قلابة قال: إِذَا بَلَغَكَ عَنْ أَخِيكَ شَيْءٌ تَكْرَهُهُ فَالْتَمَسْ لَهُ الْعُذْرَ جَهْدَكَ، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ لَهُ عُذْرًا فَقُلْ فِي نَفْسِكَ: لَعَلَّ لِأَخِي عُذْرًا لَا أَعْلَمُهُ. (٣)

-عن كثير بن زياد قال: سمعت الحسن يقول: لا تسأل عن عمل أخيك الحسن والسيء فإنه من التجسس. (٤)

-وقال أبو معاوية الأسود: إخواني كلهم خير مني، قيل: وكيف ذلك؟ قال: كلهم يرى لي الفضل عليه، ومن فضلني على نفسه فهو خير مني. (٥)

-قال أبو حاتم البستي رضى الله عنه: التجسس من شعب النفاق كما أن حسن الظن من شعب الإيمان، والعاقل يحسن الظن بإخوانه، وينفرد بغمومه وأحزانه، كما أن الجاهل يسيء الظن بإخوانه، ولا يفكر في جنائياته وأشجانه. (٦)

نماذج لحسن الظن بالله تعالى

أولاً: النبي صلى الله عليه وسلم:

موقفه صلى الله عليه وسلم لما هاجمه أعرابي وهو نائم

(١) المخلصيات لمحمد بن عبد الرحمن بن زكريا البغدادي (٤ / ٨٤).

(٢) إحياء علوم الدين (٢ / ١٧٧).

(٣) حلية الأولياء لأبي نعيم (٢ / ٢٨٥).

(٤) روضة العقلاء (١ / ١٢٥).

(٥) تاريخ دمشق لابن عساكر (٦ / ١٨)، حلية الأولياء (٨ / ٢٧٢).

(٦) حلية الأولياء (١ / ١٢٦).

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ: غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَزْوَةً قَبْلَ نَجْدٍ، فَأَدْرَكَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي وَادٍ كَثِيرِ الْعُضَاهِ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَحْتَ شَجَرَةٍ، فَعَلَّقَ سَيْفَهُ بِغُصْنٍ مِنْ أَغْصَانِهَا، قَالَ: وَتَفَرَّقَ النَّاسُ فِي الْوَادِي يَسْتَظِلُّونَ بِالشَّجَرِ. قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنْ رَجُلًا أَتَانِي وَأَنَا نَائِمٌ، فَأَخَذَ السَّيْفَ فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِي، فَلَمْ أَشْعُرْ إِلَّا وَالسَّيْفُ صَلْتًا فِي يَدِهِ، فَقَالَ لِي: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ قُلْتُ: اللَّهُ، ثُمَّ قَالَ فِي الثَّانِيَةِ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ قُلْتُ: اللَّهُ، قَالَ: فَشَامَ السَّيْفَ فَهَذَا جَالِسٌ " ثُمَّ لَمْ يَعْرِضْ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. (١)

موقفه صلى الله عليه وسلم لما لحق به سراقة في طريق الهجرة:

قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَارْتَحَلْنَا بَعْدَ مَا مَالَتِ الشَّمْسُ، وَاتَّبَعَنَا سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكٍ، فَقُلْتُ: أُتِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَدَعَا عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَارْتَطَمَتْ بِهِ فَرَسُهُ إِلَى بَطْنِهَا - أَرَى - فِي جَلَدٍ مِنَ الْأَرْضِ، - شَكَّ زُهَيْرٌ - فَقَالَ: إِنِّي أُرَاكُمَا قَدْ دَعَوْتُمَا عَلِيَّ، فَادْعُوا لِي، فَاللَّهُ لَكُمْ أَنْ أُرَدَّ عَنْكُمَا الطَّلَبَ، فَدَعَا لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَنَّا، فَجَعَلَ لَا يَلْقَى أَحَدًا إِلَّا قَالَ: قَدْ كَفَيْتُكُمْ مَا هُنَا، فَلَا يَلْقَى أَحَدًا إِلَّا رَدَّهُ، قَالَ: وَوَفَى لَنَا. (٢)

نماذج لحسن الظن بالناس:

* قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَلَى الْمُنْبَرِ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ يَغْدِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَ أَذَاهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا؟ وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي. (٣)

* عَنْ عِثْبَانَ بْنِ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْحَاضِرِينَ: مَا فَعَلَ مَالِكٌ؟ لَا أَرَاهُ. فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: ذَاكَ مُنَافِقٌ لَا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لَا تَقُلْ ذَاكَ أَلَا تَرَاهُ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يَتَنَعَّى بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ ". (١)

(١) أخرجه البخاري (٢٩١٠)، ومسلم (٨٤٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦١٥).

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠).

✽ قال الربيع: دخلت على الشافعي وهو مريض، فقلت: قوى الله ضعفك. فقال: لو قوى ضعفى قتلنى. قلت: والله ما أردت إلا الخير. قال: أعلم أنك لو شمتنى لم ترد إلا الخير. وفي رواية قل: قوى الله قوتك، وضعف ضعفك. (٢)

✽ وَحَكِي عَنْ بِنْتِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُطِيعٍ أَنَّهَا قَالَتْ لِرَوْحِهَا طَلْحَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ الزُّهْرِيِّ، وَكَانَ أَجْوَدَ قُرَيْشٍ فِي زَمَانِهِ: مَا رَأَيْتُ قَوْمًا أَلَامَ مِنْ إِخْوَانِكَ، قَالَ مَهْ وَلَمْ ذَلِكَ؟ قَالَتْ: أَرَاهُمْ إِذَا أَيْسَرَتْ لَزِمُوكَ، وَإِذَا أَعَسَرَتْ تَرَكَوكَ. قَالَ: هَذَا وَاللَّهِ مِنْ كَرَمِهِمْ، يَأْتُونَنَا فِي حَالِ الْقُوَّةِ بَنَاءً عَلَيْهِمْ، وَيَتْرَكُونَنَا فِي حَالِ الضَّعْفِ بَنَاءً عَنْهُمْ. (٣)

✽ عَنْ حُمَيْدٍ، قَالَ: كَانَ لِي ابْنُ أُخْتٍ مُرَهَّقٌ، فَمَرَضَ، فَأَرْسَلْتُ إِلَى أُمِّهِ، فَأَتَيْتُهَا فَإِذَا هِيَ عِنْدَ رَأْسِهِ تَبْكِي، فَقَالَ: يَا خَالِي، مَا يُبْكِيهَا؟ قُلْتُ: مَا تَعْلَمُ مِنْكَ، قَالَ: أَلَيْسَ إِنَّمَا تَرَحُّنِي؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَرْحَمُ بِي مِنْهَا، فَلَمَّا مَاتَ أَنْزَلَتْهُ الْقَبْرَ مَعَ غَيْرِي، فَذَهَبْتُ أَسْوِي لَبَنَةً فَاطْلَعْتُ فِي اللَّحْدِ؛ فَإِذَا هُوَ مَدُّ الْبَصَرِ، فَقُلْتُ لِصَاحِبِي: هَلْ رَأَيْتَ مَا رَأَيْتُ؟ قَالَ: نَعَمْ فَلَيْهَنَكَ ذَلِكَ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُ بِالْكَلِمَةِ الَّتِي قَالَهَا. (٤)

✽ قال أحمد بن أبي الحواري: دخلت على أبي سليمان وهو يبكي فقلت: ما يبكيك؟ قال: لئن طالبني بذنوبي لأطالبنه بعفوه، ولئن طالبني ببخلي لأطالبنه بجوده، ولئن أدخلني النار لأخبرن أهل النار أنني كنت أحبه. (٥)

وأخيراً ما أهمية حسن الظن في العمل التطوعي؟

(١) أخرجه البخاري (١١٨٦).

(٢) طبقات الشافعية الكبرى (٢ / ١٣٥).

(٣) أدب الدنيا والدين (١٨٠)، وانظر: الخبر في روضة العقلاء لأبي حاتم البستي (١ / ١٢٨).

(٤) حسن الظن بالله لابن أبي الدنيا (٤٥).

(٥) التخويف من النار لابن رجب (٢٦٤).

والجواب: إن العامل في المجال التطوعي لا شك أن مقام الحسبة عنده هو أعلى المقامات، فعلى هذا لا بد أن يكون عنده حسن ظنٍ عالٍ بالله تعالى، حيث هو الذي يوفقه في عمله، ويسر له أمره، ويرجو ثوابه على طاعته، وأن الله تعالى لا يضيع أجره.

وكذلك يكون عنده حسن ظنٍ في زملائه ومرافقيه في عمله، فلا يغلب جانب سوء الظن والتهمة معهم، كذلك أن يكون حسن الظن في بقية الناس ممن يخدمهم ويساعدتهم، وأن يعيش بصدر سليم بعيد عن الأحقاد والأضغان وغيرها من أمراض القلوب ولا يظن بكل سائل شرًا فبعض المتطوعين يغلطون على السائلين وأبناء السبيل لاعتقاده سوء الظن بمن يسأل وهذا لا شك فيه عمل قبيح، فالله تعالى أمرنا باستقبال السائلين ببشر الوجه قال تعالى: (قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ البقرة (٢٦٣)).

١٩- الحكمة

الحكمة لغة:

قال ابن فارس: الحاء والكاف والميم أصل واحد، وهو المنع. وأوّل ذلك الحُكْم، وهو المنع من الظُّلم. وسُمِّيَتْ حَكْمَةُ الدَّابَّة؛ لأنها تمنعُها، يقال: حَكَمْتُ الدَّابَّةَ وأَحَكَمْتُها. ويقال: حَكَمْتُ السَّفِيهَ وأَحَكَمْتُهُ، إذا أَخَذْتَ على يديه. قال جرير: إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ أَغْضَبَا. ^(١)

الحكمة اصطلاحاً:

وقال الراغب: والحِكْمَةُ: إصابة الحقّ بالعلم والعقل، فالحكمة من الله تعالى: معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام، ومن الإنسان: معرفة الموجودات وفعل الخيرات. ^(٢)

قال النووي رحمه الله: "وأما الحكمة ففيها أقوال كثيرة مضطربة قد اقتصر كل من قائلها على بعض صفات الحكمة، وقد صفا لنا منها أن الحكمة: عبارة عن العلم المتصف بالأحكام المشتمل على المعرفة بالله تبارك وتعالى، المصحوب بنفاذ البصيرة، وتهذيب النفس وتحقيق الحق والعمل به، والصد عن اتباع الهوى والباطل، والحكيم من له ذلك". ^(٣)

من معاني كلمة الحكمة في القرآن الكريم:

وذكر أهل التفسير أنّ الحكمة في القرآن على ستّة أوجه:

أحدها: الموعظة: ومنه قوله تعالى: {حِكْمَةٌ بِالْعَمَلِ فَمَا تُغْنِ التَّذَكُّرَ}. (القمر: ٥)

الثاني: السنّة: ومنه قوله تعالى: {وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}. (البقرة: ١٥١)

الثالث: الفهم: ومنه قوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ}. (لقمان: ١٢)

الرابع: النبوة: ومنه قوله تعالى: {وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ}. (ص: ٢٠)

الخامس: القرآن: أمره ونهيه: ومنه قوله تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ}. (النحل: ١٢٥)

(١) ديوانه (٥٠)، واللسان (حكم).

(٢) المفردات في غريب القرآن (٢٤٩).

(٣) شرح النووي على مسلم (٢/ ٣٣).

السادس: علوم القرآن: ومنه قوله تعالى: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا} (البقرة: ٢٦٩). (١)

الحكيم من أسماء الله تعالى:

قال البيهقي: " قَالَ الْحَلِيمِيُّ فِي مَعْنَى الْحَكِيمِ: الَّذِي لَا يَقُولُ وَلَا يَفْعَلُ إِلَّا الصَّوَابَ، وَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يُوصَفَ بِذَلِكَ لِأَنَّ أَفْعَالَهُ سَدِيدَةٌ، وَصُنْعُهُ مُتَّقَنٌ، وَلَا يَظْهَرُ الْفِعْلُ الْمُتَّقَنُ السَّدِيدُ إِلَّا مِنْ حَكِيمٍ، كَمَا لَا يَظْهَرُ الْفِعْلُ عَلَى وَجْهِ الْاِخْتِيَارِ إِلَّا مِنْ حَيٍّ عَالِمٍ قَدِيرٍ ". (٢)

الترغيب في الحكمة من القرآن والسنة النبوية:

الترغيب في الحكمة من القرآن الكريم:

أولاً: الحكمة من صفة المولى - عز وجل - (مراداً بها إيجاد الأشياء على غاية الأحكام والدقة):

قال تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ }. (سورة البقرة ٣١، ٣٢).

ثانياً: الحكمة من صفة القرآن الكريم:

قال تعالى: {وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} (٥٧) ذَلِكَ تَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ { (آل عمران: ٥٧ - ٥٨).

ثالثاً: والحكمة فضل من الله يتفضل بها على عباده:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا} [البقرة: ٢٦٩]

قال السعدي رحمه الله: لما أمر تعالى بهذه الأوامر العظيمة المشتملة على الأسرار والحكم وكان ذلك لا يحصل لكل أحد، بل لمن منَّ عليه وآتاه الله الحكمة، وهي العلم النافع والعمل الصالح ومعرفة أسرار الشرائع وحكمها، وإن من آتاه الله الحكمة فقد آتاه خيراً كثيراً وأي

(١) نضرة النعيم (٥ / ١٦٧٩).

(٢) الأسماء والصفات (١ / ٦٧).

خير أعظم من خير فيه سعادة الدارين والنجاة من شقاوتها! وفيه التخصيص بهذا الفضل وكونه من ورثة الأنبياء، فكمال العبد متوقف على الحكمة، إذ كماله بتكميل قوته العلمية والعملية فتكميل قوته العلمية بمعرفة الحق ومعرفة المقصود به، وتكميل قوته العملية بالعمل بالخير وترك الشر، وبذلك يتمكن من الإصابة بالقول والعمل وتنزيل الأمور منازلها في نفسه وفي غيره، وبدون ذلك لا يمكنه ذلك. (١)

الترغيب في الحكمة من السنة النبوية:

١- عن أبي بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إِنَّ مِنَ الشُّعْرِ حِكْمَةً". (٢)

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: قوله: "إِنَّ مِنَ الشُّعْرِ حِكْمَةً" أي: قَوْلًا صَادِقًا مُطَابِقًا لِلْحَقِّ. وَقِيلَ: أَصْلُ الْحِكْمَةِ الْمُنْعُ فَالْمُعْنَى: إِنَّ مِنَ الشُّعْرِ كَلَامًا نَافِعًا يَمْنَعُ مِنَ السَّفَةِ. (٣)

- وعن ابن عباس رضي الله عنه قَالَ: ضَمَّنِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى صَدْرِهِ، وَقَالَ: "اللَّهُمَّ عَلِّمْنِي الْحِكْمَةَ". (٤)

قال ابن حجر رحمه الله: وَاخْتَلَفَ الشُّرَاحُ فِي الْمُرَادِ بِالْحِكْمَةِ هُنَا، فَقِيلَ: الْقُرْآنُ كَمَا تَقَدَّمَ. وَقِيلَ: الْعَمَلُ بِهِ. وَقِيلَ: السُّنَّةُ. وَقِيلَ: الْإِصَابَةُ فِي الْقَوْلِ. وَقِيلَ: الْحَشْيَةُ. وَقِيلَ: الْفَهْمُ عَنِ اللَّهِ. وَقِيلَ: الْعَقْلُ. وَقِيلَ: مَا يَشْهَدُ الْعَقْلُ بِصِحَّتِهِ. وَقِيلَ: نُورٌ يُفَرِّقُ بِهِ بَيْنَ الْإِلْهَامِ وَالْوَسْوَاسِ. وَقِيلَ: سُرْعَةُ الْجَوَابِ مَعَ الْإِصَابَةِ. وَبَعْضُ هَذِهِ الْأَقْوَالِ ذَكَرَهَا بَعْضُ أَهْلِ التَّفْسِيرِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ} والأقرب أن المراد بها في حديث ابن عباس الفهم في القرآن. (٥)

(١) تفسير السعدي (١١٥).

(٢) أخرجه البخاري (٦١٤٥).

(٣) فتح الباري (١٠ / ٥٤٠).

(٤) أخرجه البخاري (٣٧٥٦).

(٥) فتح الباري (١ / ١٧٠).

- وعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه ، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا، فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ حِكْمَةً، فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا ". (١)

قال ابن حجر رحمه الله: " وَأَمَّا الْحَسَدُ الْمَذْكُورُ فِي الْحَدِيثِ فَهُوَ الْغِبْطَةُ وَأُطْلِقَ الْحَسَدَ عَلَيْهَا مَجَازًا وَهِيَ أَنْ يَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ لَهُ مِثْلُ مَا لِعَیْرِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَزُولَ عَنْهُ وَالْحِرْصُ عَلَى هَذَا يُسَمَّى مُنَافَسَةً فَإِنْ كَانَ فِي الطَّاعَةِ فَهُوَ مُحْمُودٌ وَمِنْهُ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ وَإِنْ كَانَ فِي الْمَعْصِيَةِ فَهُوَ مَذْمُومٌ وَمِنْهُ وَلَا تَنَافَسُوا وَإِنْ كَانَ فِي الْجَائِزَاتِ فَهُوَ مُبَاحٌ فَكَأَنَّهُ قَالَ فِي الْحَدِيثِ لَا غِبْطَةَ أَعْظَمُ أَوْ أَفْضَلُ مِنَ الْغِبْطَةِ فِي هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ ". (٢)

من الآثار وأقوال العلماء والمفسرين الواردة في (الحكمة):

* قال ابن مسعود رضي الله عنه: ينبغي لحامل القرآن، أن يكون باكيًا محزونًا حكيمًا حليماً سكيناً. (٣)

* وقال أيضاً: نعم المجلس مجلس ينشر فيه الحكمة، وترجى فيه الرحمة. (٤)

* عن شُرَحْبِيلِ بْنِ شَرِيكٍ، أَنَّهُ: سَمِعَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحِمْيَرِيَّ يَقُولُ: لَيْسَ هَدِيَّةً أَفْضَلَ مِنْ كَلِمَةٍ حَكْمَةٍ تُهْدِيهَا لِأَخِيكَ. (٥)

* عن وهب بن منبه قال: أجمعت الأطباء على أن رأس الطبّ الحمية، وأجمعت الحكماء أن رأس الحكمة الصّمت. (٦)

(١) أخرجه البخاري (١٤٠٩)، ومسلم (٨١٦).

(٢) فتح الباري (١ / ١٦٧).

(٣) الفوائد (٢٠١).

(٤) أخرجه الدارمي (٢٨٧).

(٥) أخرجه الدارمي (٣٦٣).

(٦) حسن السميت في الصمت للسيوطي (٢٤).

❖ عَنْ السَّكَنِ بْنِ عُمَيْرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ وَهْبَ بْنَ مُنْبِهِ، يَقُولُ: "يَا بُنَيَّ عَلَيْكَ بِالْحِكْمَةِ، فَإِنَّ الْخَيْرَ فِي الْحِكْمَةِ كُلِّهِ: وَتَشَرَّفَ الصَّغِيرَ عَلَى الْكَبِيرِ، وَالْعَبْدَ عَلَى الْحُرِّ، وَتَزِيدُ السَّيِّدَ سُودًا، وَتُجْلِسُ الْفَقِيرَ مَجَالِسَ الْمُلُوكِ". (١)

❖ عَنْ كَثِيرِ بْنِ مُرَّةٍ، قَالَ: لَا تُحَدِّثِ الْبَاطِلَ الْحُكَمَاءَ فَيَمَقُّتُوكَ، وَلَا تُحَدِّثِ الْحِكْمَةَ لِلْسَفَهَاءِ، فَيَكْذِبُوكَ". (٢)

❖ عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، قَالَ: إِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَطِيلُ الصَّمْتَ وَيَهْرَبُ مِنَ النَّاسِ، فَاقْتَرَبُوا مِنْهُ فَإِنَّهُ يَلْقَى الْحِكْمَةَ. (٣)

❖ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ، فِي قَوْلِهِ: يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ قَالَ: الْحِكْمَةُ: الْخَشْيَةُ، فَإِنَّ خَشْيَةَ اللَّهِ رَأْسُ كُلِّ حِكْمَةٍ. (٤)

❖ وَعَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزَّيْرِ قَالَ: كَانَ يَقَالُ: الرَّفَقُ رَأْسُ الْحِكْمَةِ. (٥)

نماذج للحكمة من حياة النبي صلى الله عليه وسلم:

١- عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ - رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: اسْتَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَغَضِبَ أَحَدُهُمَا فَاشْتَدَّ غَضَبُهُ، حَتَّى انْتَفَخَ وَجْهُهُ وَتَغَيَّرَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنِّي لَا أَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ الَّذِي يَجِدُ، فَاَنْطَلَقَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ فَأَخْبَرَهُ بِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ: تَعَوَّذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ... (٦)

٢- حكمته العظيمة في اختياره للبن في رحلة الإسراء والمعراج:

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: حِينَ أُسْرِيَ بِي لَقِيتُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَنَعَتَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَإِذَا رَجُلٌ - حَسِبْتُهُ قَالَ -

(١) أخرجه الدارمي (٤٠٣).

(٢) أخرجه الدارمي (٣٩٠).

(٣) حسن السميت في الصمت (٣٢).

(٤) تفسير ابن أبي حاتم (٢٨٢٤).

(٥) الدر المنثور للسيوطي (٢ / ٦٧).

(٦) أخرجه البخاري (٦٠٤٨).

مُضْطَرَبٌ، رَجُلُ الرَّأْسِ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنْوَةَ، قَالَ: وَلَقِيتُ عِيسَى - فَفَعَتَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَإِذَا رُبْعَةُ أَحْمَرٌ، كَأَنَّمَا خَرَجَ مِنْ دِيْمَاسٍ - يَعْنِي حَمَامًا - قَالَ: وَرَأَيْتُ إِبْرَاهِيمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَأَنَا أَشْبُهُ وَلَدَهُ بِهِ، قَالَ: " فَأُتِيتُ بِإِنَاءَيْنِ فِي أَحَدِهِمَا لَبَنٌ، وَفِي الْآخَرِ خَمْرٌ، فَقِيلَ لِي: خُذْ أَيُّهُمَا شِئْتَ، فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ، فَشَرِبْتُهُ، فَقَالَ: هُدَيْتَ الْفِطْرَةَ - أَوْ أَصَبْتَ الْفِطْرَةَ - أَمَّا إِنَّكَ لَوْ أَخَذْتَ الْخَمْرَ غَوَتْ أُمَّتُكَ " (١).

٣- حكمته العظيمة في جوابه لملك الجبال أثناء عودته من الطائف حزينا:

-عَنْ عَائِشَةَ، زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهَا قَالَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ فَقَالَ: " لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكَ وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كَلَالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَقِفْ إِلَّا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظْلَمَتْنِي فَظَنَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِرِيلٌ، فَتَادَانِي، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رُدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ "، قَالَ: " فَتَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، فَمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطَبِّقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبِينَ "، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا. (٢)

٤- وتتجلى حكمته العظيمة صلى الله عليه وسلم بعد هجرته إلى المدينة:

-عندما وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة كان فيها مجموعات من السكان متباينة في عقيدتها، مختلفة في أهدافها، متفرقة في اجتماعاتها، وكانت لديهم خلافات بعضها قديم موروث، وبعضها حديث موجود، وقد كانت هذه المجموعات على ثلاثة أصناف:

١- المسلمون، من: الأوس، والخزرج، والمهاجرين.

(١) أخرجه البخاري (٣٤٣٧)، ومسلم (١٦٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).

٢- المشركون، من: الأوس، والخزرج الذين لم يدخلوا في الإسلام.

٣- اليهود، وهم عدة قبائل: بنو قينقاع، وقد كانوا حلفاء الخزرج، وبنو النضير، وبنو قريظة، وهاتان القبيلتان كانتا حلفاء الأوس.

وقد كان هناك خلاف مستحکم بين الأوس والخزرج، وكانت بينهما حروب في الجاهلية، وآخرها يوم بُعَاثٍ ولا يزال في النفوس شيء منها.

لقد قام النبي صلى الله عليه وسلم بحل هذه المشكلات كلها، بحكمته العظيمة، وحسن سياسته، وكان حله وإصلاحه لهذه الأوضاع، وجمعه لشمل المسلمين كالتالي:

١- بناء المسجد والاجتماع فيه أول عمل وحد بين القلوب.

٢- دعوة اليهود إلى الإسلام بالقول الحكيم.

٣- المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار. (١)

٥- وتتجلى حكمته مع الشاب الذي جاءه يستأذنه في الزنا

- عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّ فَتًى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ائْذَنْ لِي بِالزَّيْنَةِ، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فزَجَرُوهُ وَقَالُوا: مَهْ. مَهْ. فَقَالَ: " ائْذَنْهُ، فَذَنَا مِنْهُ قَرِيبًا ". قَالَ: فَجَلَسَ قَالَ: " أَتُحِبُّهُ لِأُمَّكَ؟ " قَالَ: لَا. وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ. قَالَ: " وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ ". قَالَ: " أَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟ " قَالَ: لَا. وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ قَالَ: " وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِابْنَاتِهِمْ ". قَالَ: " أَتُحِبُّهُ لِأَخِيكَ؟ " قَالَ: لَا. وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ. قَالَ: " وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ ". قَالَ: " أَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟ " قَالَ: لَا. وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ. قَالَ: " وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ ". قَالَ: " أَتُحِبُّهُ لِحَالَتِكَ؟ " قَالَ: لَا. وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ. قَالَ: " وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِحَالَاتِهِمْ ". قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ: "

(١) مفهوم الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى، سعيد بن وهف القحطاني (١ / ١٦٢).

اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ " قَالَ: فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ.

(١)

نماذج للحكمة من الصحابة:

١- موقف أبي بكر عقب وفاة النبي صلى الله عليه وسلم:

أصيب المسلمون يوم وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بمصيبة عظيمة، وهزة عنيفة أفقدت الكثير منهم صوابهم، لكن أبا بكر كان حكيماً في معالجة الموقف

عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم، قالت: أَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى فَرْسِهِ مِنْ مَسْكِنِهِ بِالسُّنْحِ حَتَّى نَزَلَ فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَلَمْ يُكَلِّمِ النَّاسَ حَتَّى دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَتَيَمَّمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُسَجَّى بِبُرْدٍ حَبْرَةٍ، فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ ثُمَّ أَكَبَّ عَلَيْهِ فَقَبَّلَهُ ثُمَّ بَكَى فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، لَا يَجْمَعُ اللَّهُ عَلَيْكَ مَوْتَيْنِ؛ أَمَّا الْمَوْتَةُ الَّتِي كُتِبَتْ عَلَيْكَ فَقَدْ مَتَّهَا. قَالَ أَبُو سَلَمَةَ: فَأَخْبَرَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَرَجَ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُكَلِّمُ النَّاسَ فَقَالَ: اجْلِسْ. فَأَبَى، فَقَالَ: اجْلِسْ، فَأَبَى فَتَشَهَّدَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالِ إِلَيْهِ النَّاسُ وَتَرَكَوا عُمَرَ، فَقَالَ: أَمَّا بَعْدُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْْبُدُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ} إِلَى الشَّاكِرِينَ.

وَاللَّهُ لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ حَتَّى تَلَاهَا أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَتَلَقَّاهَا مِنْهُ النَّاسُ فَمَا يُسْمَعُ بَشَرٌ إِلَّا يَتْلُوهَا. (٢)

٢- موقفه رضي الله عنه في إنفاذ جيش أسامة بن زيد رضي الله عنهما:

ظهرت حكمة الصديق رضي الله عنه أثناء تنفيذ جيش أسامة بن زيد رضي الله عنهما من عدة وجوه:

(١) أخرجه أحمد (٢٢٢١١)، وقال الألباني في الصحيحة (١ / ٣٦٩) : هذا سند صحيح رجاله كلهم ثقات رجال الصحيح.

(٢) أخرجه البخاري (١٢٤٢) .

- (أ) تنفيذه بعث أسامة رضي الله عنه على الرغم من شدة الأحوال ومعارضة بعض الصحابة، وذلك امتثالاً لأمر النبي صلى الله عليه وسلم.
- (ب) ثم إن بعض الناس أشار على أبي بكر أن يولي أمر الجيش رجلاً أقدم سنّاً من أسامة؛ فغضب رضي الله عنه لذلك؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الذي أَمَرَ أسامة على هذا الجيش، فلا يريد - رضي الله عنه - أن يغير شيئاً فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم.
- (ج) وخرج أبو بكر رضي الله عنه يشيع الجيش ويودع أسامة وجيشه، وأبو بكر يسير على قدميه، وأسامة راكباً، فقال له أسامة: يا خليفة رسول الله، إما أن تركب، وإما أن أنزل، فقال أبو بكر: والله لست براكب ولست بنازل، وما علي أن أغبر قدمي ساعة في سبيل الله.
- (د) واستأذن أبو بكر رضي الله عنه من أسامة لعمر بن الخطاب وقد كان عمر من ضمن الجنود في جيش أسامة، فأذن أسامة لعمر بن الخطاب رضي الله عن الجميع وأرضاهم.
- فكان خروج أسامة إلى الروم بأرض الشام في ذلك الوقت من أكبر المصالح، فساروا لا يمرون بحي من أحياء العرب إلا أربعوا منهم وأخذهم الخوف والفرع، وقالوا: ما خرج هؤلاء القوم إلا وبهم شديدة، وستركهم حتى يلقوا الروم، فلقوا الروم فهزموهم وقتلوهم وبقوا أربعين يوماً - وقيل سبعين يوماً - ثم أتوا سالمين غانمين، وعندما رجعوا جهزهم أبو بكر مع الجيش لقتال أهل الردة ومانعي الزكاة. (١)

٣- موقف عمر رضي الله عنه في تشييته الناس على بيعة أبي بكر رضي الله عنه:

عقب وفاة النبي صلى الله عليه وسلم اجتمع الأنصار إلى سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة، فقالوا: منّا أميرٌ ومنكم أميرٌ، فذهب إليهم أبو بكر وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح، فذهب عمر يتكلم فأسكته أبو بكر، وكان عمر يقول: والله ما أردت بذلك إلا أني قد هيأت كلاماً قد أعجبني، خشيت أن لا يبلغه أبو بكر، ثم تكلم أبو بكر فتكلم أبلغ الناس، فقال في كلامه: نحن الأمراء وأنتم الوزراء. فقال حباب بن المنذر: لا والله لا نفعل منّا أميراً

(١) تاريخ الطبري ٢ / ٢٤٦، والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢ / ٢٢٦، الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى (١ / ٢١٩).

وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: لَا وَلَكِنَّا الْأَمْرَاءُ وَأَنْتُمْ الْوُزَرَاءُ، هُمْ أَوْسَطُ الْعَرَبِ دَارًا، وَأَعَزُّهُمْ أَحْسَابًا، فَبَايَعُوا عُمَرَ أَوْ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنِ الْجُرَّاحِ فَقَالَ عُمَرُ: بَلْ نُبَايِعُكَ أَنْتَ، فَأَنْتَ سَيِّدُنَا وَخَيْرُنَا وَأَحَبُّنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخَذَ عُمَرُ بِيَدِهِ فَبَايَعَهُ وَبَايَعَهُ النَّاسُ. (١)

٤- موقف عثمان بن عفان العظيم في جمع الأمة على قراءة واحدة، وحسم الاختلاف:

كان من أعظم مواقف الحكمة التي وقفها عثمان جمع شمل أمة محمد صلى الله عليه وسلم على قراءة واحدة، فقد كان من مناقبه الكبار، وحسناته العظيمة، أنه جمع الناس على قراءة واحدة، وكتب المصحف على العريضة الأخيرة التي درسها جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في آخر سني حياته، وكان سبب ذلك: أَنَّ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانَ قَدِمَ عَلَى عُثْمَانَ وَكَانَ يَغَازِي أَهْلَ الشَّامِ فِي فَتْحِ إِرْمِينَةَ وَأَذْرَبِجَانَ مَعَ أَهْلِ الْعِرَاقِ، فَأَفْرَعَ حُذَيْفَةُ اخْتِلَافَهُمْ فِي الْقِرَاءَةِ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ لِعُثْمَانَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَدْرِكْ هَذِهِ الْأُمَّةَ قَبْلَ أَنْ يَخْتَلِفُوا فِي الْكِتَابِ اخْتِلَافَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَأَرْسَلَ عُثْمَانُ إِلَى حَفْصَةَ أَنْ أَرْسِلِي إِلَيْنَا بِالْصُّحُفِ نَسْخُهَا فِي الْمَصَاحِفِ ثُمَّ تَرُدُّهَا إِلَيْكَ، فَأَرْسَلَتْ بِهَا حَفْصَةُ إِلَى عُثْمَانَ، فَأَمَرَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ وَسَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ فَنَسَخَوْهَا فِي الْمَصَاحِفِ، وَقَالَ عُثْمَانُ لِلرَّهْطِ الْقُرَشِيِّينَ الثَّلَاثَةِ: إِذَا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ فِي شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ فَارْتَبِعُوا بِإِسْنَانٍ قُرَيْشٍ فَإِنَّمَا نَزَلَ بِإِسْنَانِهِمْ، فَفَعَلُوا حَتَّى إِذَا نَسَخُوا الصُّحُفَ فِي الْمَصَاحِفِ رَدَّ عُثْمَانُ الصُّحُفَ إِلَى حَفْصَةَ وَأَرْسَلَ إِلَى كُلِّ أَقْصٍ بِمُصْحَفٍ مِمَّا نَسَخُوا وَأَمَرَ بِمَا سِوَاهُ مِنَ الْقُرْآنِ فِي كُلِّ صَحِيفَةٍ أَوْ مُصْحَفٍ أَنْ يُحْرَقَ. (٢)

٥- موقف الحسن بن علي رضي الله عنهما في تنازله عن الخلافة لمعاوية وجمع شمل الأمة:

(١) أخرجه البخاري (٣٦٦٧).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٨٧).

عن أبي بكرَةَ رضي الله عنه قال: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْمِنْبَرِ، وَالْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يُقْبَلُ عَلَى النَّاسِ مَرَّةً، وَعَلَيْهِ أُخْرَى وَيَقُولُ: إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِتْنَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. ^(١)

(١) أخرجه البخاري (٢٧٠٤).

٢٠- الحياء

التعريف:

الحياء لغة:

قال ابن فارس: الحاء والياء والحرف المعتل أصلان: أحدهما خلاف الموت، والآخر الاستحياء الذي هو ضد الوقاحة. . . . ، أما الأصل الآخر: قولهم استحييت منه استحياءً. وقال أبو زيد: حييتُ منه أحياناً، إذا استحييت. (١)

وقال ابن حجر: الحياء في اللغة: تَغَيُّرٌ وَانْكِسَارٌ يَغْتَرِي الْإِنْسَانَ مِنْ خَوْفٍ مَا يُعَابُ بِهِ، وَقَدْ يُطْلَقُ عَلَى مُجَرَّدِ تَرْكِ الشَّيْءِ بِسَبَبٍ وَالتَّرَكُّ إِنَّمَا هُوَ مِنْ لَوَازِمِهِ. (٢)

الحياء اصطلاحاً:

قال الجرجاني: الحياء: انقباض النفس من شيء وتركه حذراً عن اللوم فيه، وهو نوعان: نفساني؛ وهو الذي خلقه الله تعالى في النفوس كلها كالحياء من كشف العورة، والجماع بين الناس، وإياني؛ وهو أن يمنع المؤمن من فعل المعاصي خوفاً من الله تعالى. (٣)

وقال ابن حجر: الحياء في الشرع: خُلِقَ يَبْعَثُ عَلَى اجْتِنَابِ الْقَبِيحِ، وَيَمْنَعُ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي حَقِّ ذِي الْحَقِّ. (٤)

نقيض الحياء:

قال القرطبي: ونقيضه الصَّلبُ: وهو التَّصَلُّبُ في الأمور، وعدم المبالاة بما يستقبح ويعاب عليه منها. (٥)

الترغيب والحث على الحياء من القرآن والسنة:

الترغيب والحث على الحياء من القرآن الكريم:

(١) معجم مقاييس اللغة (٢/ ١٢٢).

(٢) فتح الباري (١ / ٥٢).

(٣) التعريفات (٩٤).

(٤) فتح الباري (١ / ٥٢).

(٥) المفهم (٦ / ١١٤).

١- قال تعالى: {فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [القصاص: ٢٥].

قال مجاهد: يَعْنِي: وَاضِعَةً ثَوْبَهَا عَلَى وَجْهِهَا لَيْسَتْ بِخَرَّاجَةٍ وَلَا وَلَاجَةٍ. (١)
وقال السعدي: وهذا يدل على كرم عنصرها، وخلقها الحسن، فإن الحياء من الأخلاق الفاضلة، وخصوصاً في النساء.

ويدل على أن موسى عليه السلام، لم يكن فيما فعله من السقي بمنزلة الأجير والخادم الذي لا يستحى منه عادة، وإنما هو عزيز النفس، رأت من حسن خلقه ومكارم أخلاقه، ما أوجب لها الحياء منه. (٢)

٣- وقال سبحانه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَاطِرٍ إِنَّمَا هُوَ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنَسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ [الأحزاب: ٥٣].

قال ابن كثير: وَقِيلَ: الْمُرَادُ أَنَّ دُخُولَكُمْ مَنْزِلَهُ بِغَيْرِ إِذْنِهِ كَانَ يَشُقُّ عَلَيْهِ وَيَتَأَذَّى بِهِ، لَكِنْ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَنْهَاهُمْ عَنْ ذَلِكَ مِنْ شِدَّةِ حَيَاتِهِ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّهْيَ عَنْ ذَلِكَ. (٣)

الترغيب والحث على الحياء من السنة النبوية:

١- عن أبي مسعود رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فافْعَلْ مَا شِئْتَ ". (٤)

(١) تفسير مجاهد (٥٢٩).

(٢) تفسير السعدي (٦١٤).

(٣) تفسير ابن كثير (٦ / ٤٠٢).

(٤) أخرجه البخاري (٣٤٨٣).

قال ابن حجر رحمه الله: وَقَوْلُهُ "مِنْ كَلَامِ النَّبَوَّةِ": أَيُّ مِمَّا اتَّفَقَ عَلَيْهِ الْأَنْبِيَاءُ أَيُّ إِنَّهُ مِمَّا نَدَبَ إِلَيْهِ الْأَنْبِيَاءُ وَلَمْ يُنْسَخْ فِيهَا نُسْخٌ مِنْ شَرَائِعِهِمْ لِأَنَّهُ أَمْرٌ أَطْبَقَتْ عَلَيْهِ الْعُقُولُ.

وَقَوْلُهُ: "فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ": هُوَ أَمْرٌ بِمَعْنَى الْخَيْرِ، أَوْ هُوَ لِلتَّهْدِيدِ أَيُّ: اصْنَعْ مَا شِئْتَ فَإِنَّ اللَّهَ يَجْزِيكَ. أَوْ مَعْنَاهُ: انْظُرْ إِلَى مَا تُرِيدُ أَنْ تَفْعَلَهُ فَإِنْ كَانَ مِمَّا لَا يَسْتَحْيِي مِنْهُ فَافْعَلْهُ وَإِنْ كَانَ مِمَّا يَسْتَحْيِي مِنْهُ فَدَعَهُ. أَوْ الْمَعْنَى: أَنَّكَ إِذَا لَمْ تَسْتَخِ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ يَجِبُ أَنْ لَا تَسْتَحْيِي مِنْهُ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ فَافْعَلْهُ وَلَا تُبَالِ بِالْخَلْقِ. أَوْ الْمُرَادُ: الْحُثُّ عَلَى الْحَيَاءِ وَالتَّنْوِيهِ بِفَضْلِهِ أَيُّ لَمَّا لَمْ يَجْزُ صُنْعُ جَمِيعِ مَا شِئْتَ لَمْ يَجْزِ تَرْكُ الْاسْتِحْيَاءِ. (١)

وقال ابن دقيق العيد: معنى قوله: "من كلام النبوة الأولى": إن الحياء لم يزل ممدوحًا مستحسنًا مأمورًا به لم ينسخ في شرائع الأنبياء الأولين. (٢)

٢- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ. (٣)

قال ابن بطال: الحياء شعبة من الإيمان، يريد - والله أعلم - أن الحياء يبعث على طاعة الله، ويمنع من ارتكاب المعاصي، كما يمنع الإيمان، وإن كان الحياء غريزة فالإيمان فعل المؤمن، فاشتبهت من هذه الجهة. (٤)

وقال القاضي عياض وغيره من الشراح: إنما جعل الحياء من الإيمان وإن كان غريزة؛ لأنه قد يكون تخلُّقًا واكتسابًا كسائر أعمال البر، وقد يكون غريزة ولكن استعماله على قانون الشرع يحتاج إلى اكتساب ونية وعلم فهو من الإيمان بهذا ولكونه باعثًا على أفعال البر ومانعًا من المعاصي. (٥)

(١) فتح الباري لابن حجر (٦/ ٥٢٣).

(٢) شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد (٧٨).

(٣) أخرجه مسلم (٣٥).

(٤) شرح صحيح البخاري (١/ ٦١).

(٥) شرح النووي على مسلم (٢/ ٥).

وقال السعدي رحمه الله: ولعل ذكر الحياء في هذا الحديث؛ لأنه السبب الأقوى للقيام بجميع شعب الإيمان. فإن من استحيا من الله لتواتر نعمه، وسوابغ كرمه، وتحليه عليه بأسمائه الحسنی، والعبد - مع هذا كثير التقصير مع هذا الرب الجليل الكبير يظلم نفسه ويحني عليها - أوجب له هذا الحياء التوقي من الجرائم، والقيام بالواجبات والمستحبات. (١)

٣- وعن عُمَرَانِ بْنِ حُصَيْنٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ". (٢)

قال ابن بطلان: "معناه أن من استحيا من الناس أن يروه يأتي الفجور ويرتكب المحارم، فذلك داعية له إلى أن يكون أشد حياء من ربه وخالفه، ومن استحيا من ربه فإن حياهه زاجر له عن تضييع فرائضه وركوب معاصيه؛ لأن كل ذى فطرة صحيحة يعلم أن الله تعالى النافع له والضرار والرزاق والمحى والمميت، فإذا علم ذلك فينبغي له أن يستحي منه عز وجل".

٤- وعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى رَجُلٍ وَهُوَ يُعَاتِبُ أَهْلَهُ فِي الْحَيَاءِ يَقُولُ: إِنَّكَ لَتَسْتَحْيِي حَتَّى كَأَنَّهُ يَقُولُ: قَدْ أَضْرَبَكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "دَعُهُ فَإِنَّ الْحَيَاءَ مِنَ الْإِيمَانِ". (٣)

قال ابن عبد البر رحمه الله: ومعنى هذا الحديث والله أعلم أن الحياء يمنع من كثير من الفحش والفواحش ويشتمل على كثير من أعمال البر وبهذا صار جزءا وشعبة من الإيمان لأنه وإن كان غريزة مركبة في المرء فإن المستحي يندفع بالحياء عن كثير من المعاصي كما يندفع بالإيمان عنها إذا عصمه الله فكأنه شعبة منه لأنه يعمل عمله فلما صار الحياء والإيمان يعملان عملا واحدا جعلنا كالشيء الواحد وإن كان الإيمان اكتسابا والحياء غريزة والإيمان شعب كثيرة. (٤)

(١) بهجة قلوب الأبرار وقررة عيون الأخيار (١٧٩).

(٢) أخرجه البخاري (٦١١٧)، ومسلم (٣٧).

(٣) أخرجه البخاري (٦١١٨).

(٤) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٩/ ٢٣٤).

٥- وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ: "اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ عِزًّا وَجَلًّا حَقَّ الْحَيَاءِ"، قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا نَسْتَحْيِي، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، قَالَ: "لَيْسَ ذَلِكَ، وَلَكِنْ مَنِ اسْتَحْيَى مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ، فَلْيَحْفَظِ الرَّأْسَ وَمَا حَوَى، وَلْيَحْفَظِ الْبَطْنَ وَمَا وَعَى، وَلْيَذْكُرِ الْمَوْتَ وَالْبَلَى، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ، تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ، فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنَ اللَّهِ عِزًّا وَجَلًّا حَقَّ الْحَيَاءِ". (١)

قال المناوي رحمه الله: "استحيوا من الله حق الحياء": بترك الشهوات والنهات، وتحمل المكاره على النفس حتى تصير مدبوغة؛ فعندها تطهر الأخلاق، وتشرق أنوار الأسماء في صدر العبد، ويقرر علمه فيعيش غنيا بالله ما عاش.

قال البيضاوي: ليس حق الحياء من الله ما تحسبونه؛ بل أن يحفظ نفسه بجميع جوارحه عما لا يرضاه من فعل وقول.

وقال سفيان بن عيينة: الحياء أخف التقوى، ولا يخاف العبد حتى يستحي، وهل دخل أهل التقوى في التقوى إلا من الحياء؟ (٢)

أقوال السلف والعلماء في الحياء:

❖ قال أبو بكر رضي الله عنه وهو يخاطب الناس: يا معشر المسلمين: استحيوا من الله فوالذي نفسي بيده إنِّي لأظلل حين أذهب للغائط في الفضاء متقنعا بثوبي استحياء من ربِّي عزَّ وجلَّ. (٣)

❖ قال عمر رضي الله عنه: من قلَّ حياؤه قلَّ ورعه، ومن قلَّ ورعه مات قلبه. (٤)

(١) أخرجه أحمد (٣٦٧١)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣٥٤٦١)، والترمذي (٢٤٥٨)، والحاكم في (٧٩١٥)، وقال الترمذي: هذا حديث غريب إنما نعرفه من هذا الوجه. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال النووي في خلاصة الأحكام في مهمات السنن وقواعد الإسلام (٣١٦٠): إسناده حسن، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٧٢٤): حسن لغيره.

(٢) فيض القدير (١ / ٤٨٧).

(٣) مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا (٢٠).

(٤) مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا (٢٠).

❖ قال عليّ: كنت رجلاً مذاءً، فاستحييت أن أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمرت المقداد بن الأسود فسأله فقال: فيه الموضوع. (١)

❖ قال إياس بن قرّة: كنت عند عمر بن عبد العزيز فذكر عنده الحياء، فقالوا: الحياء من الدين. فقال عمر: بل هو الدين كله. (٢)

❖ قال وهب بن منبه: الإيمان عريان، ولباسه التقوى، وزينته الحياء، وماله العفة. (٣)

❖ قال مجاهد: لا يتعلم العلم مستحي ولا مستكبر. (٤)

وقال أيضاً: لو أن المسلم لم يصب من أخيه، إلا أن حيائه منه يمنعه من المعاصي. (٥)

❖ قال الحسن البصري: الحياء والتكرم خصلتان من خصال الخير، لم يكونا في عبد إلا رفعه الله بهما. (٦)

❖ قال الفضيل بن عياض: خمس من علامات الشقاوة: القسوة في القلب، وجهود العين، وقلة الحياء، والرغبة في الدنيا، وطول الأمل. (٧)

❖ من كلام بعض الحكماء: أحيوا الحياء بمجالسة من يستحيى منه، وعمارة القلب بالهيبة والحياء، فإذا ذهب من القلب لم يبق فيه خير. (٨)

نماذج من حياء الأنبياء والمرسلين:

١ - حياء أبينا آدم وأمنا حواء:

(١) أخرجه البخاري (١٣٢).

(٢) مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا (١٩).

(٣) مكارم الأخلاق، لابن أبي الدنيا (٢١).

(٤) البخاري (٣٨ / ١) معلقاً.

(٥) مكارم الأخلاق (٨٤)، والمعنى: أن المسلم حين يستحيى من أخيه يمتنع عن ارتكاب المعاصي.

(٦) مكارم الأخلاق (٢٤).

(٧) مدارج السالكين لابن القيم (٢ / ٢٧١).

(٨) مدارج السالكين لابن القيم (٢ / ٢٧٠).

قال تعالى: {فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا مَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ} [الأعراف: ٢٢]

قال السعدي: أي: ظهرت عورة كل منهما بعد ما كانت مستورة، فصار للعي الباطن من التقوى في هذه الحال أثر في اللباس الظاهر، حتى انخلع فظهرت عوراتها، ولما ظهرت عوراتها خجلًا وجعلًا يخصفان على عوراتها من أوراق شجر الجنة، ليستترا بذلك. وهذا يدل على أن الإنسان مفطور على الحياء، وأما قلة الحياء فهي منافية للفطرة، بل من اتباع الشيطان. (١)

٢ - حياء النبي الله موسى عليه السلام:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ مُوسَى كَانَ رَجُلًا حَيًّا سَتِيرًا لَا يَرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتَحْيَاءَ مِنْهُ فَأَذَاهُ مَنْ أَذَاهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَالُوا: مَا يَسْتَرُ هَذَا التَّسْتُرُ إِلَّا مِنْ عَيْبٍ بِجِلْدِهِ إِمَّا بَرَصٌ وَإِمَّا أُدْرَةٌ وَإِمَّا آفَةٌ وَإِنَّ اللَّهَ أَرَادَ أَنْ يُبَرِّكَهُ مِمَّا قَالُوا لِمُوسَى فَخَلَا يَوْمًا وَحْدَهُ فَوَضَعَ ثِيَابَهُ عَلَى الْحَجَرِ ثُمَّ اغْتَسَلَ فَلَمَّا فَرَغَ أَقْبَلَ إِلَى ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا وَإِنَّ الْحَجَرَ عَدَا بِثَوْبِهِ فَأَخَذَ مُوسَى عَصَاهُ وَطَلَبَ الْحَجَرَ فَجَعَلَ يَقُولُ ثَوْبِي حَجَرٌ ثَوْبِي حَجَرٌ حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَلَأٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَرَأَوْهُ عُرْيَانًا أَحْسَنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ وَأَبْرَاهُ مِمَّا يَقُولُونَ وَقَامَ الْحَجَرُ فَأَخَذَ ثَوْبَهُ فَلَبَسَهُ وَطَفِقَ بِالْحَجَرِ ضَرْبًا بِعَصَاهُ فَوَاللَّهِ إِنَّ بِالْحَجَرِ لَنَدَبًا مِنْ أَثَرِ ضَرْبِهِ ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا أَوْ خَمْسًا فَذَلِكَ قَوْلُهُ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا}. (٢)

نهادج من حياء النبي صلى الله عليه وسلم:

(١) تفسير السعدي (٢٨٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٠٤)، ومسلم (٣٣٩).

١- كان النبي صلى الله عليه وسلم أشد الناس حياءً، بل كان أشد حياء من العذراء في خدرها؛ فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي خَدْرِهَا، فَإِذَا رَأَى شَيْئًا يَكْرَهُهُ عَرَفْنَاهُ فِي وَجْهِهِ. (١)

٢- ومن مظاهر حياته صلى الله عليه وسلم:

أولاً: حياؤه من الله سبحانه وتعالى: وذلك لما طلب موسى عليه السلام من نبينا صلى الله عليه وسلم في ليلة الإسراء أن يراجع ربه في قضية تخفيف فرض الصلاة، قال النبي صلى الله عليه وسلم لموسى عليه السلام: "اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي". (٢)

فحياء النبي صلى الله عليه وسلم من الله عليه وسلم منعه من مراجعة ربه بعد أن سأله مرات أن يخفف عن أمته عدد الصلوات.

ثانياً: حياؤه من الناس:

١- من ذلك ما ورد عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَأَلَتِ امْرَأَةً النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. كَيْفَ تَغْتَسِلُ مِنْ حَيْضَتِهَا؟ قَالَ: فَذَكَرْتُ أَنَّهُ عَلِمَهَا كَيْفَ تَغْتَسِلُ. ثُمَّ تَأْخُذُ فِرْصَةً مِنْ مِسْكِ فَتَطَهَّرُ بِهَا. قَالَتْ: كَيْفَ أَتَطَهَّرُ بِهَا؟ قَالَ: تَطَهَّرِي بِهَا سُبْحَانَ اللَّهِ وَاسْتَرَّ - وَأَشَارَ لَنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ بِيَدِهِ عَلَى وَجْهِهِ - قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ: وَاجْتَذَبْتُهَا إِلَيَّ وَعَرَفْتُ مَا أَرَادَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقُلْتُ: تَتَّبِعِي بِهَا أَثَرَ الدَّمِ. (٣)

٢- حياؤه عند زواجه من زينب رضي الله عنها:

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: بُنِيَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَرِزْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ بِحُبْرِ وَلَحْمٍ، فَأُرْسِلَتْ عَلَى الطَّعَامِ دَاعِيًا فَيَجِيءُ قَوْمٌ فَيَأْكُلُونَ وَيَخْرُجُونَ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ فَيَأْكُلُونَ وَيَخْرُجُونَ، فَدَعَوْتُ حَتَّى مَا أَجِدُ أَحَدًا أَدْعُو، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ مَا أَجِدُ أَحَدًا أَدْعُوهُ، قَالَ: ارْزُقُوا طَعَامَكُمْ وَبَقِي ثَلَاثَةُ رَهْطٍ يَتَحَدَّثُونَ فِي الْبَيْتِ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) أخرجه البخاري (٦١٠٢)، ومسلم (٢٣٢٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٢).

(٣) أخرجه البخاري (٣١٤)، ومسلم (٣٣٢) واللفظ له.

فَانْطَلَقَ إِلَى حُجْرَةِ عَائِشَةَ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَقَالَتْ: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، كَيْفَ وَجَدْتَ أَهْلَكَ بَارَكَ اللَّهُ لَكَ، فَتَقَرَّرَى حُجْرَةَ نِسَائِهِ كُلِّهِنَّ، يَقُولُ لِهِنَّ كَمَا يَقُولُ لِعَائِشَةَ، وَيَقُلْنَ لَهُ كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ، ثُمَّ رَجَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِذَا ثَلَاثَةٌ مِنْ رَهْطٍ فِي الْبَيْتِ يَتَحَدَّثُونَ، وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَدِيدَ الْحَيَاءِ، فَخَرَجَ مُنْطَلِقًا نَحْوَ حُجْرَةِ عَائِشَةَ فَمَا أَدْرِي أَخْبَرْتُهُ أَوْ أَخْبَرَ أَنَّ الْقَوْمَ خَرَجُوا فَرَجَعَ، حَتَّى إِذَا وَضَعَ رِجْلَهُ فِي أُسْكُفَةِ الْبَابِ دَاخِلَةً، وَأُخْرَى خَارِجَةً أَرَحَى السِّتْرَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَأُنْزِلَتْ آيَةُ الْحِجَابِ. (١)

٣- حياؤه في ألفاظ عتابه لبعض الصحابة

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا بَلَغَهُ عَنِ الرَّجُلِ الشَّيْءُ لَمْ يَقُلْ: مَا بَالَ فُلَانٌ يَقُولُ؟ وَلَكِنْ يَقُولُ: مَا بَالَ أَقْوَامٌ يَقُولُونَ كَذَا وَكَذَا؟. (٢)

نماذج من حياء الصحابة رضي الله عنهم:

١- حياء عثمان بن عفان رضي الله عنه:

- عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُضْطَجِعًا فِي بَيْتِي، كَاشِفًا عَنْ فَخِذَيْهِ، أَوْ سَاقِيَيْهِ، فَاسْتَأْذَنَ أَبُو بَكْرٍ فَأَذِنَ لَهُ، وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ، فَتَحَدَّثَتْ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُمَرُ، فَأَذِنَ لَهُ، وَهُوَ كَذَلِكَ، فَتَحَدَّثَتْ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُثْمَانُ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَسَوَّى ثِيَابَهُ - قَالَ مُحَمَّدٌ: وَلَا أَقُولُ ذَلِكَ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ - فَدَخَلَ فَتَحَدَّثَتْ، فَلَمَّا خَرَجَ قَالَتْ عَائِشَةُ: دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ وَلَمْ تُبَالِهِ، ثُمَّ دَخَلَ عُمَرُ فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ وَلَمْ تُبَالِهِ، ثُمَّ دَخَلَ عُثْمَانُ فَجَلَسَتْ وَسَوَّيْتُ ثِيَابَكَ فَقَالَ: أَلَا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ. (٣)

- قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: وَذَكَرَ عُثْمَانُ وَشِدَّةَ حَيَاتِهِ، فَقَالَ: إِنْ كَانَ لِيَكُونُ فِي الْبَيْتِ وَالْبَابُ عَلَيْهِ مُعْلَقٌ، فَمَا يَضَعُ عَنْهُ الثَّوبَ لِيُفِيضَ عَلَيْهِ الْمَاءَ، يَمْنَعُهُ الْحَيَاءُ أَنْ يُقِيمَ صُلْبَهُ. (٤)

(١) أخرجه البخاري (٤٧٩٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٨٨)، والطحاوي في شرح المشكل (٥٨٨١)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٠٦٤).

(٣) أخرجه مسلم (٢٤٠١).

(٤) أخرجه أحمد (٥٤٣).

٢- حياء فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم:

منع الحياء فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم أن تحمل بعد موتها على النعش وجسدها يراه الناس.

عَنْ أُمِّ جَعْفَرٍ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَتْ: يَا أَسْمَاءُ إِنِّي قَدْ اسْتَقْبَحْتُ مَا يُصْنَعُ بِالنِّسَاءِ إِنَّهُ يُطْرَحُ عَلَى الْمَرْأَةِ الثَّوْبُ فَيَصِفُّهَا. فَقَالَتْ أَسْمَاءُ: يَا بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- أَلَا أُرِيكَ شَيْئًا رَأَيْتُهُ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ فَدَعَتْ بِجَرَائِدَ رَطْبَةٍ فَحَتَّتْهَا، ثُمَّ طَرَحَتْ عَلَيْهَا ثَوْبًا. فَقَالَتْ فَاطِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: مَا أَحْسَنَ هَذَا وَأَجْمَلَهُ يُعْرَفُ بِهِ الرَّجُلُ مِنَ الْمَرْأَةِ فَإِذَا أَنَا مِتُّ فَأَغْسِلْنِي أَنْتِ وَعَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَلَا تُدْخِلِي عَلَى أَحَدًا فَلَمَّا تُوفِّيتُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا جَاءَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تَدْخُلُ فَقَالَتْ أَسْمَاءُ: لَا تَدْخُلِي فَشَكَتُ أَبَا بَكْرٍ فَقَالَتْ: إِنَّ هَذِهِ الْخُتْعَمِيَّةَ تَحُولُ بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنَةِ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- وَقَدْ جَعَلَتْ لَهَا مِثْلَ هَوْدَجِ الْعُرُوسِ. فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَوَقَفَ عَلَى الْبَابِ وَقَالَ: يَا أَسْمَاءُ مَا حَمَلَكَ أَنْ مَنَعْتَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- يَدْخُلْنَ عَلَى ابْنَةِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- وَجَعَلْتَ لَهَا مِثْلَ هَوْدَجِ الْعُرُوسِ. فَقَالَتْ: أَمَرْتَنِي أَنْ لَا تُدْخِلِي عَلَى أَحَدًا وَأُرِيَتْهَا هَذَا الَّذِي صَنَعْتُ وَهِيَ حَيَّةٌ فَأَمَرْتَنِي أَنْ أَصْنَعَ ذَلِكَ لَهَا. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَاصْنَعِي مَا أَمَرْتُكَ، ثُمَّ انْصَرَفَ وَغَسَلَهَا عَلِيٌّ وَأَسْمَاءُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. (١)

٣- حياء عائشة رضي الله عنها:

- عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: "كُنْتُ أَدْخُلُ بَيْتِي الَّذِي دُفِنَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَبِي فَأَضَعُ ثَوْبِي، وَأَقُولُ إِنَّهَا هُوَ زَوْجِي وَأَبِي، فَلَمَّا دُفِنَ عُمَرُ مَعَهُمْ فَوَاللَّهِ مَا دَخَلْتُهُ إِلَّا وَأَنَا مَشْدُودَةٌ عَلَى ثِيَابِي، حَيَاءٌ مِنْ عُمَرَ". (٢)

٤- حياء فاطمة بنت عتبة رضي الله عنها:

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى (٧١٨٠)، وأبو نعيم في الحلية (٤٣ / ٢).

(٢) أخرجه أحمد (٢٥٦٦١)، والحاكم (٤٤٠٢)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (١٠).

- عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: جَاءَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ عُبَيْثَةَ بْنِ رَبِيعَةَ تَبَايَعُ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَأَخَذَ عَلَيْهَا أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَزْنِينَ. الْآيَةَ قَالَتْ: فَوَضَعْتُ يَدَهَا عَلَى رَأْسِهَا حَيَاءً فَأَعْجَبَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَا رَأَى مِنْهَا فَقَالَتْ عَائِشَةُ: " أَقْرَى أَيُّهَا الْمَرْأَةُ فَوَاللَّهِ مَا بَايَعْنَا إِلَّا عَلَى هَذَا ". قَالَتْ: فَتَنَعَمُ إِذَا. فَبَايَعَهَا بِالْآيَةِ ". (١)

٥- حياء أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها:

- عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ، قَالَتْ: تَزَوَّجَنِي الزُّبَيْرُ وَمَا لَهُ فِي الْأَرْضِ مِنْ مَالٍ وَلَا مَمْلُوكٍ وَلَا شَيْءٍ، غَيْرَ فَرَسِهِ، قَالَتْ: فَكُنْتُ أَعْلِفُ فَرَسَهُ، وَأَكْفِيهِ مَثْوًى وَأَسْوِسُهُ وَأَذُقُّ النَّوَى لِنَاضِحِهِ، وَأَعْلِفُهُ، وَأَسْتَقِي الْمَاءَ وَأَخْرُزُ غَرْبَهُ وَأَعْجِنُ، وَلَمْ أَكُنْ أَحْسَنُ أَخْبِرُ، وَكَانَ يُخْبِرُنِي بِجَارَاتٍ مِنَ الْأَنْصَارِ وَكُنَّ نِسْوَةَ صَدِيقٍ، قَالَتْ: وَكُنْتُ أَنْقُلُ النَّوَى مِنْ أَرْضِ الزُّبَيْرِ الَّتِي أَقْطَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى رَأْسِي، وَهِيَ عَلَى ثُلْثِي فَرَسَخٍ قَالَتْ: فَجِئْتُ يَوْمًا وَالنَّوَى عَلَى رَأْسِي، فَلَقِيتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَعَهُ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَدَعَانِي، ثُمَّ قَالَ: إِنْخِإْ لِيَحْمِلَنِي خَلْفَهُ، قَالَتْ: فَاسْتَحْيَيْتُ وَعَرَفْتُ غَيْرَتَكَ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَحَمْلُكَ النَّوَى عَلَى رَأْسِكَ أَشَدُّ مِنْ رُكُوبِكَ مَعَهُ، قَالَتْ: حَتَّى أَرْسَلَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ، بَعْدَ ذَلِكَ، بِخَادِمٍ فَكَفَّتْنِي سِيَاسَةَ الْفَرَسِ فَكَانَتْهَا أَعْتَقْتَنِي. (٢)

نماذج من حياء السلف:

الأمثلة من حياء السلف كثيرة، ونذكر منها على سبيل المثال بعض النماذج:

١ - قال محمد بن الفضل: ما خطوت أربعين سنة خطوة لغير الله عز وجل، وما نظرت أربعين سنة في شيء أستحسنه حياء من الله عز وجل، وما أملت على ملكي ثلاثين سنة شيئاً، ولو فعلت ذلك لاستحييت منها. (٣)

(١) أخرجه أحمد (٢٥١٧٥)، وابن حبان في صحيحه (٤٥٥٤)، وقال الألباني في التعليقات الحسان (٤٥٣٧): صحيح الإسناد.

(٢) أخرجه البخاري (٥٢٢٤)، ومسلم (٢١٨٢).

(٣) صفة الصفوة (٢ / ٢٤٣).

٢ - وقال الجراح الحكمي: تركت الذنوب حياء أربعين سنة، ثم أدركني الورع.^(١)

٣ - وروي أن عمرو بن عتبة بن فرق قد كان يصلي ذات ليلة فسمعوا صوت الأسد فهرب من كان حوله، وهو قائم يصلي فلم ينصرف، فقالوا له: أما خفت الأسد؟ فقال: إني لأستحي من الله أن أخاف شيئاً سواه.^(٢)

٤ - وقال جعفر الصانع: كان في جيران أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل رجل ممن يمارس المعاصي والقاذورات فجاء يوماً إلى مجلس أحمد يسلم عليه فكأن أحمد لم يرد عليه ردًا تامًا وانقبض منه فقال له: يا أبا عبد الله! لم تنقبض مني؟ فإني قد انتقلت عما كنت تعهدني برؤيا رأيتهما قال: وأي شيء رأيته؟ قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم كأنه على علو من الأرض وناس كثير أسفل جلوس قال: فيقوم رجل رجل منهم إليه فيقول: ادع لي! فيدعو له حتى لم يبق من القوم غيري قال: فأردت أن أقوم فاستحييت من قبيح ما كنت عليه قال لي: يا فلان! لم لا تقوم إلي فتسألني أدعو لك؟ قال: قلت: يا رسول الله! يقطعني الحياء لقبيح ما أنا عليه فقال: إن كان يقطعك الحياء فقم فسألني أدع لك فإنك لا تسب أحدًا من أصحابي. قال: فقامت فدعالي فانتبهت وقد بغض الله إلي ما كنت عليه قال: فقال لنا أبو عبد الله: يا جعفر! يا فلان احفظوا هذا وحدثوا به فإنه ينفع.^(٣)

٥ - وكان الربيع بن خثيم من شدة غضبه لبصره وإطرافه يظن بعض الناس أنه أعمى، وكان يختلف إلى منزل ابن مسعود عشرين سنة فإذا رآته جاريته قالت لابن مسعود: صديقك الأعمى قد جاء، فكان يضحك ابن مسعود من قولها، وكان إذا دق الباب تخرج الجارية إليه فتراها مطرقًا غاضًا بصره.^(٤)

(١) سير أعلام النبلاء (٥ / ١٩٠).

(٢) حلية الأولياء (٢ / ٤٠).

(٣) المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد لابن مفلح (١ / ٣٠٠).

(٤) إحياء علوم الدين للغزالي (١ / ١٨١).

٦- ولما احتضر الأسود بن يزيد بكى، فقيل له: ما هذا الجزع؟ قال: ما لي لا أجزع؟ ومن أحق مني بذلك؟ والله لو أُتيت بالمغفرة من الله لأهمني الحياء منه ممّا قد صنعت، وإن الرجل ليكون بينه وبين الرجل الذنب الصغير، فيعفو عنه، ولا يزال مستحيًا منه. ^(١)

وأخيرًا، ما أهمية خلق الحياء في العمل التطوعي

لا شك أنه قد استبان جليًا بعد هذا العرض أهمية تحلي المتطوع بخلق الحياء ويشمل ذلك حياءه مع نفسه فلا يليق بمن تطوع بعمل لله عز وجل أن يكون في خلواته عاصيًا أو فاسقًا، أو يراه الناس في مواطن التهم وأماكن الريب.

وكذلك حياؤه في معاملته للناس فالمفترض فيه أن يكون صاحب خلق دمث يحبه الناس ويحبون محاورته والكلام معه، فلا يؤذي مشاعرهم بنظراته أو بكلماته أو بمعاملاته، بل يتمثل دائمًا أمام عينيه خلق النبي صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح في حيائهم ومعاملاتهم. والله الموفق لما يحبه ويرضاه.

(١) حلية الأولياء (٢/ ١٠٣).

٢١- الصفح والعفو

الصفح لغة:

قال ابن فارس: (صَفَحَ) الصَّادُ وَالْفَاءُ وَالْحَاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ مُطَرِّدٌ يَدُلُّ عَلَى عَرَضٍ وَعَرَضٍ. مِنْ ذَلِكَ صَفَحَ الشَّيْءُ: عَرَضَهُ. وَيُقَالُ: رَأْسٌ مُصَفَّحٌ: عَرِيضٌ. وَالصَّفِيحَةُ: كُلُّ سَيْفٍ عَرِيضٍ. وَصَفَحَتَا السَّيْفِ: وَجَّهَاهُ. وَكُلُّ حَجَرٍ عَرِيضٍ صَفِيحَةٌ، وَالْجَمْعُ: صَفَائِحُ. (١)

الصفح اصطلاحاً:

هُوَ التَّجَاوُزُ عَنِ الذَّنْبِ وَتَرْكُ الْعِقَابِ عَلَيْهِ وَأَصْلُهُ الْمُخَوُّ وَالطَّمْسُ (٢).

الفرق بين العفو والصفح:

العفو معناه، ترك المؤاخذة على الذنب والرفق في المظهر، والمعاملة الحسنة، والصفح هو: إزالة كل أثر في النفس، فالعفو يتعلق بالمظهر كقوله تعالى: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ}، والصفح ألا يبقى في النفس أثر من الآلام التي أثارها الحسد والعمل على مقتضاه، وكلاهما أعلى درجة من الصبر المجرد؛ لأن الصبر معناه الضبط والتحمل مع ملاحظة ورجاء، والعفو يتضمن كالصفح معنى الصبر، مع تجمل المظهر وألا تكون آلام قط مما يصنعون. (٣)

(الهجر الجميل والصفح الجميل والصبر الجميل)

قال ابن تيمية رحمه الله: وَالله تَعَالَى ذَكَرَ فِي الْقُرْآنِ الْهَجْرَ الْجَمِيلَ وَالصَّفْحَ الْجَمِيلَ وَالصَّبْرَ الْجَمِيلَ وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ الْهَجْرَ الْجَمِيلَ هُوَ هَجْرٌ بِلَا أَذَى وَالصَّفْحَ الْجَمِيلَ صَفْحٌ بِلَا مَعَاتِبَةٍ وَالصَّبْرَ الْجَمِيلَ صَبْرٌ بَغَيْرِ شَكْوَى إِلَى الْمَخْلُوقِ وَلِهَذَا قَرَأَ عَلَى أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ فِي مَرَضِهِ: إِنَّ طَاوَسًا كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَرَى الْمَرِيضَ وَيَقُولَ: إِنَّهُ شَكْوَى فَمَا أَنْ أَحْمَدَ حَتَّى مَاتَ.

(١) مقاييس اللغة (٣/ ٢٩٣)، وانظر: أساس البلاغة (١/ ٥٤٩)، ومختار الصحاح (ص: ١٧٦)، وتاج

العروس (٦/ ٥٤١-٥٤٥)

(٢) النهاية (٣/ ٢٦٥)، وتحفة الأحوذى (١/ ٤٤٠)، والأدب النبوي (١/ ١٣٨).

(٣) زهرة التفاسير (١/ ٣٦٢).

وَأَمَّا الشُّكُوى إِلَى الْخَالِقِ فَلَا تَنَافِي الصَّبْرُ الْجَمِيلُ، فَإِنْ يَعْتُوبَ قَالَ: {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ} [يُوسُف: ٨٣]، وَقَالَ: {إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ} [يُوسُف: ٨٦]. (١)

فضائل الصفح والعفو في القرآن الكريم:

١- العفو الصفح من صفات المحسنين الذين يحبهم الله عز وجل

قال الله تعالى: {فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} (المائدة: ١٣)

قال الطبري: وهذا أمر من الله عز ذكره نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بالعفو عن هؤلاء القوم الذين هموا أن يبسطوا أيديهم إليه من اليهود. يقول الله جل وعز له: اعف، يا محمد، عن هؤلاء اليهود الذين هموا بما هموا به من بسط أيديهم إليك وإلى أصحابك بالقتل، واصفح لهم عن جرمهم بترك التعرض لمكروهم، فإني أحب من أحسن العفو والصفح إلى من أساء إليه (٢)

وقال أبو حيان: ظاهره الأمر بالمعروف والصفح عنهم جميعهم، وذلك بعث على حسن التخلُّق معهم ومكارم الأخلاق (٣).

٢- قال الله تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ} (الحجر: ٨٥)

والصفح الجميل هو الذي لا عتاب فيه، فهذا من الرِّدِّ العملي على كيد الكائدين، وحقد الحاقدين وحسد الحاسدين أنه لا يعاتبهم، ولا يتحدث إليهم، ولا يناقشهم، ولا يسألهم عن الأسباب التي دعته لكل هذا الكيد الرهيب العجيب الذي تأمر فيه أهل الكتاب مع كل أعداء الإسلام، يريدون إطفاء نور الله، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

(١) العبودية لابن تيمية (٨٥)، ودقائق التفسير (٢/ ٢٩٤).

(٢) تفسير الطبري (١٠/ ١٣٤).

(٣) البحر المحيط في التفسير (٤/ ٢٠٦).

وقال السمعاني: وَقَوْلُهُ: {فاصْفَح الصَّفْحَ الْجَمِيلَ} أَي: أَعْرَضَ عَنْهُمْ مِنْ غَيْرِ جَزَعٍ وَلَا شَكْوَى^(١)

٣- قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} (النور: ٢٢).

وَالْمُعْنَى: فَلْيَطْمَسُوا أَثَارَ الْإِسَاءَةِ بِحِلْمِهِمْ وَتَجَاوُزِهِمْ، وَالصَّفْحُ: قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ مُشْتَقٌّ مِنْ صَفْحَةِ الْعُنُقِ، أَي: أَعْرِضُوا عَنْ مُكَافَأَةِ إِسَاءَتِهِمْ حَتَّى كَأَنَّكُمْ تَوَلَّوْنَهَا بِصَفْحَةِ الْعُنُقِ، مُعْرِضِينَ عَنْهَا... وَقَدْ ذَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ كَظْمَ الْغَيْطِ وَالْعَفْوَ عَنِ النَّاسِ مِنْ صِفَاتِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَكَفَى بِذَلِكَ حَتًّا عَلَى ذَلِكَ، وَذَلَّتْ أَيْضًا: عَلَى أَنَّ ذَلِكَ مِنَ الْإِحْسَانِ الَّذِي يُحِبُّ اللَّهُ الْمُتَصِفِينَ بِهِ. (٢)

٤- قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} (التغابن: ١٤)

قال السعدي: ولما كان النهي عن طاعة الأزواج والأولاد، فيما هو ضرر على العبد، والتحذير من ذلك، قد يوهم الغلظة عليهم وعقابهم، أمر تعالى بالحدز منهم، والصفح عنهم والعفو، فإن في ذلك، من المصالح ما لا يمكن حصره، فقال: {وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} لأن الجزء من جنس العمل. فمن عفا عفا الله عنه، ومن صفح صفح الله عنه، ومن غفر غفر الله له، ومن عامل الله فيما يجب، وعامل عباده كما يحبون وينفعهم، نال محبة الله ومحبة عباده، واستوثق له أمره. (٣)

٥- العفو والصفح صفة من صفات أهل الجنة

(١) تفسير السمعاني (٣/ ١٤٩).

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٥/ ٤٨٥-٤٨٩).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٦٨).

قال تعالى: { وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } [آل عمران: ١٣٣]

قال الشنقيطي: وَقَدْ دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ كَظْمَ الْغَيْظِ وَالْعَفْوَ عَنِ النَّاسِ مِنْ صِفَاتِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَكَفَى بِذَلِكَ حَتًّا عَلَى ذَلِكَ، وَدَلَّتْ أَيْضًا: عَلَى أَنَّ ذَلِكَ مِنَ الْإِحْسَانِ الَّذِي يُحِبُّ اللَّهُ الْمُتَصِفِينَ بِهِ^(١).

فضل العفو والصفح في السنة النبوية:

١- التأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم ومواقفه في ذلك كثيرة.

منها عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَذَبَهُ جَذْبَةً شَدِيدَةً، حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَثَرَتْ بِهِ حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَذْبَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: مُرِّي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ^(٢).

قال النووي: فِيهِ احْتِمَالُ الْجَاهِلِينَ وَالْإِعْرَاضِ عَنْ مُقَابَلَتِهِمْ وَدَفْعِ السَّيِّئَةِ بِالْحَسَنَةِ وَإِعْطَاءِ مَنْ يُتَأَلَّفُ قَلْبُهُ وَالْعَفْوَ عَنْ مُرْتَكِبِ كَبِيرَةٍ لَا حَدَّ فِيهَا بِجَهْلِهِ وَإِبَاحَةِ الضَّحِكِ عِنْدَ الْأُمُورِ الَّتِي يُتَعَجَّبُ مِنْهَا فِي الْعَادَةِ وَفِيهِ كَمَالُ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحِلْمِهِ وَصَفْحِهِ الْجَمِيلِ^(٣).

ومنها- عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، قَالَ: لَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي التَّوَرَةِ؟ قَالَ: " أَجَلٌ، وَاللَّهُ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوَرَةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا } [الأحزاب: ٤٥]، وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمِيتُكَ الْمُتَوَكَّلَ لَيْسَ بِفُظٍّ وَلَا

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٥/ ٤٨٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣١٤٩).

(٣) شرح النووي على مسلم (٧/ ١٤٧).

غَلِيظٌ، وَلَا سَخَابٍ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَغْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ، بَأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيَفْتَحَ بِهَا أَعْيُنًا عُمِيًّا، وَأَذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا " (١)

٢- طلب العزة بالعمو عن الناس

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ، إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ (٢).
قال النووي: فيه وجهان أحدهما أَنَّهُ عَلَى ظَاهِرِهِ وَأَنَّ مَنْ عُرِفَ بِالْعَفْوِ وَالصَّفْحِ سَادَ وَعَظُمَ فِي الْقُلُوبِ وَزَادَ عِزُّهُ وَإِكْرَامُهُ، وَالثَّانِي أَنَّ الْمُرَادَ أَجْرُهُ فِي الْآخِرَةِ وَعِزُّهُ هُنَاكَ (٣).

٣- إرشاد النبي صلى الله عليه وسلم إلى طلب العفو في أوقات الإجابة

عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ عَلِمْتُ أَيَّ لَيْلَةٍ لَيْلَةُ الْقَدْرِ مَا أَقُولُ فِيهَا؟ قَالَ: "قُولِي: اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي" (٤).

٤- عن سُلَيْمَانَ بْنِ جُبَيْرٍ بْنِ مُطْعِمٍ، قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عُمَرَ، يَقُولُ: لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُ هَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ، حِينَ يُمَسِّي، وَحِينَ يُصْبِحُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَتِي، وَقَالَ عُمَرَانُ: عَوْرَاتِي وَأَمِنْ رَوْعَاتِي، اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيْ، وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي، وَعَنْ شِمَالِي، وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي (٥).

الآثار في العفو والصفتح.

١- عَنْ الْأَصْمَعِيِّ قَالَ: قَالَ أَعْرَابِيٌّ: تَنَاسَ مَسَاوِيَّ الْإِخْوَانِ يَدُومُ لَكَ وَدُهُمْ (٦).

(١) صحيح البخاري (٢١٢٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨٨).

(٣) شرح النووي على مسلم (١٦ / ١٤١).

(٤) أخرجه الترمذي (٣٥١٣)، قال الترمذي: حسن صحيح وصححه الألباني في الصحيحة (٣٣٣٧).

(٥) أخرجه أبو داود (٥٠٧٤)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٩١٥).

(٦) آداب الصحبة لأبي عبد الرحمن السلمي (ص: ٤٦).

٢- عن صالح بن أحمد بن حنبل قال: قُلْتُ لِأَبِي يَوْمًا إِنَّ فَضْلًا الْأَنْطَاطِيَّ جَاءَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ: اجْعَلْنِي فِي حِلٍّ، قَالَ: لَا جَعَلْتُ أَحَدًا فِي حِلٍّ أَبَدًا قَالَ فَتَبَسَّمَ فَلَمَّا مَضَتْ أَيَّامٌ قَالَ يَا بَنِيَّ مَرَرْتُ بِهَذِهِ الْآيَةِ {فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ} فَتَنَظَّرْتُ فِي تَفْسِيرِهَا فَإِذَا هُوَ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ قَامَ مُنَادٍ فَنَادَى لَا يَقُومُ إِلَّا مَنْ كَانَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ فَلَا يَقُومُ إِلَّا مَنْ عَفَا فَجَعَلْتُ الْمَيْتَ فِي حِلٍّ مِنْ ضَرْبِهِ إِيَّايَ ثُمَّ جَعَلَ يَقُولُ وَمَا عَلَى رَجُلٍ إِلَّا أَنْ يُعَذِّبَ اللَّهُ بِسَبَبِهِ أَحَدًا عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - رضي الله عنه في قوله - تعالى: فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ قال: الرِّضَا بغير عتاب. (١)

٣- قال أبو حاتم: الواجب على العاقل لزوم الصَّفْح عند ورود الإساءة عليه من العالم بأسرهم رجاء عفو الله جل وعلا عن جنایاته التي ارتكبها في سالف أيامه لأن صاحب الصَّفْح إنما يتكلف الصَّفْح بإيثاره الجزاء وصاحب العقاب وإن انتقم كان إلى الندم أقرب فأما من له أخ يوده فإنه يحتمل عنه الدهر كله زلاته وقال أيضًا: الواجب على العاقل توطین النفس على لزوم العفو عن الناس كافة وترك الخروج لمجازاة الإساءة إذ لا سبب لتسكين الإساءة أحسن من الإحسان ولا سبب لنماء الإساءة وتهيجها أشد من الاستعمال بمثلها (٢).

٤- وَقِيلَ لِلْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ: مَا تَقُولُ فِي الْعَفْوِ وَالْعُقُوبَةِ؟ قَالَ: هُمَا بِمَنْزِلَةِ الْجُودِ وَالْبُخْلِ فَتَمَسَّكَ بِأَيِّمَا شِئْتَ. (٣)

٥- وقيل لأبي الدرداء: من أعز الناس؟ فقال: الذين يعفون إذا قدرُوا؛ فاعفوا يعزكم الله تعالى.

٦- وَقَالَ رَجَاءُ بْنُ حَيَّوَةَ لِعَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ، فِي أُسَارَى ابْنِ الْأَشْعَثِ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَاكَ مَا تُحِبُّ مِنَ الظَّفَرِ فَأَعْطِ اللَّهَ مَا يُحِبُّ مِنَ الْعَفْوِ. (٤)

نماذج من عفوهِ صلى الله عليه وسلم:

(١) المتقى من كتاب مكارم الأخلاق ومعاليها (ص: ٨٧)، وحلية الأولياء (٩/٢٠٣).

(٢) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (ص: ١٦٦ و١٦٨).

(٣) أدب الدنيا والدين (ص: ٣٤١).

(٤) أدب الدنيا والدين (ص: ٢٦٠).

١- عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْجَدَلِيِّ قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ، عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ: لَمْ يَكُنْ فَاحِشًا وَلَا مُتَفَحِّشًا وَلَا صَخَبًا فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَغْفُو وَيَصْفَحُ^(١)

٢- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ، وَلَا أَمْرًا، وَلَا خَادِمًا، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ، فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ، إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللَّهِ، فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ^(٢).

٣- عَنِ عُرْوَةَ، أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَدَّثَتْهُ أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ، قَالَ: "لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكَ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كِلَالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جَبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ، ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطَبِّقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبِينَ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا^(٣)"

نماذج من عفو الصحابة رضي الله عنهم:

عفو أبي بكر رضي الله عنه:

١- عفوه عن مسطح بن أثاثة: وكان مسطح بن أثاثة ممن تكلم في الإفك فلما أنزل الله براءة عائشة قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه وكان يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أَثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ: وَاللَّهِ لَا أَنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ مَا قَالَ لِعَائِشَةَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ

(١) أخرجه الترمذي (٢٠١٦)، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٢٨).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٣١).

مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا} إِلَى قَوْلِهِ {عَفُورٌ رَحِيمٌ} [البقرة: ١٧٣] فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَلَى وَاللَّهِ إِنِّي لِأَحَبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ الَّذِي كَانَ يُجْرِي عَلَيْهِ وَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا^(١).

عفو عمر رضي الله عنه:

٣- عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَدِمَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ بْنُ حُدَيْفَةَ فَتَزَلَّ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ الْخُرَّ بْنَ قَيْسٍ، وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ الَّذِينَ يُدْنِيهِمْ عُمَرُ، وَكَانَ الْقُرَاءُ أَصْحَابَ مَجَالِسِ عُمَرَ وَمُشَاوَرَتِهِ، كُھُولًا كَانُوا أَوْ شُبَّانًا، فَقَالَ عُيَيْنَةُ لِابْنِ أَخِيهِ: يَا ابْنَ أَخِي، هَلْ لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الْأَمِيرِ، فَاسْتَأْذَنْ لِي عَلَيْهِ، قَالَ: سَأَسْتَأْذِنُ لَكَ عَلَيْهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَاسْتَأْذَنَ الْخُرُّ لِعُيَيْنَةَ فَأَذِنَ لَهُ عُمَرُ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ: هِيَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، فَوَاللَّهِ مَا تُعْطِينَا الْجَزَلَ وَلَا تَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالْعَدْلِ، فَغَضِبَ عُمَرُ حَتَّى هَمَّ أَنْ يُوقِعَ بِهِ، فَقَالَ لَهُ الْخُرُّ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف: ١٩٩]، وَإِنَّ هَذَا مِنَ الْجَاهِلِينَ، وَاللَّهِ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِينَ تَلَاهَا عَلَيْهِ، وَكَانَ وَقَافًا عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٢٦٦١).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٤٢).

٢٢- الرفق

الرفق لغة:

قال ابن فارس: الرء والفاء والقاف أصل واحد يدل على موافقة ومقاربة بلا عنف. فالرفق: خلاف العنف؛ يقال رفقت أرفق. هذا هو الأصل ثم يشتق منه كل شيء يدعو إلى راحة وموافقة. (١)

الرفق اصطلاحاً:

قال ابن حجر: هو لين الجانب بالقول والفعل والأخذ بالأسهل، وهو ضد العنف. (٢)

الرفق في القرآن الكريم:

١- قال تعالى: { فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ } [آل عمران: ١٥٩].

قال السعدي رحمه الله: " أي: برحمة الله لك ولأصحابك، من الله عليك أن ألنت لهم جانبك، وخففت لهم جناحك، وترقت عليهم، وحسنت لهم خلقك، فاجتمعوا عليك وأحبوك، وامثلوا أمرك.

{ولو كنت فظاً} أي: سيئ الخلق {غليظ القلب} أي: قاسيه، {لأنفصوا من حولك} لأن هذا ينفرهم ويبغضهم لمن قام به هذا الخلق السيئ.

فالأخلاق الحسنة من الرئيس في الدين، تجذب الناس إلى دين الله، وترغبهم فيه، مع ما لصاحبه من المدح والثواب الخاص، والأخلاق السيئة من الرئيس في الدين تنفر الناس عن الدين، وتبغضهم إليه، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب الخاص، فهذا الرسول المعصوم يقول الله له ما يقول، فكيف بغيره؟! (٣)

٢- وقال سبحانه: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [الشعراء: ٢١٥]

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٢ / ٤١٨).

(٢) فتح الباري (١٠ / ٤٤٩).

(٣) تفسير السعدي (ص ١٥٤).

أي: لئن جانبك لهم، مستعارٌ من حال الطائرِ فإنه إذا أراد أن ينحطَّ خفضَ جناحه. (١)
 ٣- وقال سبحانه: {اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ}
 [طه: ٤٣ - ٤٤].

قال ابن كثير رحمه الله: هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهو أن فرعونَ في غاية العُتُوِّ والاستكبارِ ومُوسَى صَفْوَةُ اللَّهِ مِنْ خَلْقِهِ إِذْ ذَاكَ، ومع هذا أمر أن لا يُحَاطَبَ فرعونَ إِلَّا بِالْمُلَاطَفَةِ وَاللِّينِ، كَمَا قَالَ يَزِيدُ الرَّقَاشِيُّ عِنْدَ قَوْلِهِ: فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا:
 يَا مَنْ يَتَحَبَّبُ إِلَى مَنْ يُعَادِيهِ... فَكَيْفَ يَمَنْ يَتَوَلَّاهُ وَيُنَادِيهِ؟
 وَقَالَ وَهْبُ بْنُ مُنْبِهٍ: قُولَا لَهُ إِنِّي إِلَى الْعَفْوِ وَالْمَغْفِرَةِ أَقْرَبُ مِنِّي إِلَى الْغَضَبِ وَالْعُقُوبَةِ. (٢)

الترغيب والحث على الرفق من السنة النبوية:

١- عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ: دَخَلَ رَهْطٌ مِنَ الْيَهُودِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكُمْ. قَالَتْ عَائِشَةُ: فَفَهَّمْتُهَا، فَقُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ. قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَهْلًا يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ. فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " (٣)

٢- وَعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " مَنْ يُحْرِمِ الرَّفْقَ يُحْرِمِ الْخَيْرَ ". (٤)

قال القرطبي: " أي: يفضي ذلك به إلى أن يحرم خير الدنيا والآخرة ". (٥)
 وقال ابن عثيمين: " يعني أن الإنسان إذا حُرِمَ الرفق في الأمور فيما يتصرف فيه لنفسه، وفيما يتصرف فيه مع غيره، فإنه يحرم الخير كله أي فيما تصرف فيه، فإذا تصرف الإنسان بالعنف

(١) تفسير أبي السعود (٦ / ٢٦٨).

(٢) تفسير ابن كثير (٥ / ٢٦٠).

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٢٤)، ومسلم (٢١٦٥).

(٤) مسلم (٢٥٩٢).

(٥) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٦ / ٥٧٨).

والشدة فإنه يحرم الخير فيما فعل، وهذا شيء مجرب ومشاهد أن الإنسان إذا صار يتعامل بالعنف والشدة؛ فإنه يحرم الخير ولا ينال الخير، وإذا كان يتعامل بالرفق والحلم والأناة وسعة الصدر؛ حصل على خير كثير، وعلى هذا فينبغي للإنسان الذي يريد الخير أن يكون دائماً رقيقاً حتى ينال الخير". (١).

٣- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي بَيْتِي هَذَا: "اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا، فَشَقَّ عَلَيْهِمْ، فَاشْتَقُّ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا، فَارْفَقَ بِهِمْ، فَارْفُقْ بِهِ". (٢)

قال النووي: "هذا من أبلغ الزواجر عن المشقة على الناس وأعظم الحث على الرفق بهم وقد تظاهرت الأحاديث بهذا المعنى". (٣)

وقال القاضي عياض: "فيه الخض على الرفق والنهي عن المشقة، وهو الذي أمر الله به نبيه صلى الله عليه وسلم ووصفه به، وحض عليه صلى الله عليه وسلم في غير حديث، وأثنى عليه، وأنه يشب على الرفق ما لا يشب على المشقة". (٤)

٤- وعن عائشة رضي الله تعالى عنها، أنها قالت: كُنْتُ عَلَى بَعِيرٍ صَغِيرٍ، فَجَعَلْتُ أَضْرِبُهُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "عَلَيْكَ بِالرَّفْقِ، فَإِنَّ الرَّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانُهُ". (٥)

٥- وعن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرَّفْقِ، أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الْخَيْرِ، وَمَنْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الرَّفْقِ، فَقَدْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الْخَيْرِ". (١)

(١) شرح رياض الصالحين (٣ / ٥٩٢).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٢٨).

(٣) شرح النووي على مسلم (١٢ / ٢١٣).

(٤) إكمال المعلم شرح صحيح مسلم للقاضي عياض (٦ / ١١٨).

(٥) أخرجه مسلم (٢٥٩٤).

قال المناوي: "إذ بالرفق تنال المطالب الأخروية والدينية وبفوته يفوتان". (٢)

أقوال السلف والعلماء في الرفق:

١- قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "أَيُّهَا الرَّعِيَّةُ: إِنَّ لَنَا عَلَيْكُمْ حَقَّ النَّصِيحَةِ بِالْغَيْبِ، وَالْمُعَاوَنَةِ عَلَى الْخَيْرِ، إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ حِلْمٍ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ وَلَا أَعَمَّ نَفْعًا مِنْ حِلْمٍ إِمَامٍ وَرَفَقَةٍ أَيُّهَا الرَّعِيَّةُ، إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ جَهْلٍ أَبْغَضَ إِلَى اللَّهِ وَلَا أَعَمَّ شَرًّا مِنْ جَهْلٍ إِمَامٍ وَخُرْقِهِ أَيُّهَا الرَّعِيَّةُ، إِنَّهُ مَنْ يَأْخُذُ بِالْعَافِيَةِ لَمْ يَنْظُرْ ظَهْرَانِيهِ، يُؤْتَى اللَّهُ الْعَافِيَةَ مِنْ فَوْقِهِ". (٣)

٢- قال عمرو بن العاص لابنه عبد الله رضي الله عنهما: - ما الرفق؟ . قال: تكون ذا أناة فتلاين الولاية. قال: فما الخرق؟ . قال: معادة إمامك، ومناوأة من يقدر على ضررك. (٤)

٣- وعن عروة بن الزبير قال: مكتوب في الحكمة (الرفق رأس الحكمة). (٥)

٤- قال أبو الدرداء - رضي الله عنه -: إن من فقه الرجل رفقه في معيشته. (٦)

٥- وقال سفيان لأصحابه: تدرون "ما الرفق"؟ قالوا: قل يا أبا محمد! قال: أن تضع الأمور من مواضعها الشدة في موضعها، واللين في موضعه، والسيف في موضعه، والسوط في موضعه. (٧)

٦- قال وهب بن منبه: الرفق ثني الحلم. (٨)

٧- وعن قيس بن أبي حازم قال: كان يقال: الرفق يمن، والخرق شؤم. (٩)

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٢٥٨١٤)، والبخاري في الأدب المفرد (٤٦٤)، والترمذي (٢٠١٣)، وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٠٥٥).

(٢) فيض القدير (٧٥/٦).

(٣) أخرجه الطبري في تاريخه (٢٢٤/٤).

(٤) إحياء علوم الدين (١٨٦/٣).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٥٣٠٨)، وأحمد في الزهد (ص ٤٤).

(٦) أخرجه وكيع في الزهد (٤٦٥)، وهناد في الزهد (٦٥٤/٢)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٢١١/١).

(٧) إحياء علوم الدين للغزالي (١٨٦/٣).

(٨) إحياء علوم الدين للغزالي (١٨٦/٣).

(٩) الزهد لهناد بن السري (٦٥٤/٢).

٨- وعن حبيب بن حجر القيسي قال: كان يقال: ما أحسن الإيمان يزينه العلم، وما أحسن العلم يزينه العمل، وما أحسن العمل يزينه الرفق. (١)

٩- وعن قيس بن أبي حازم، قال: كان يقال: من يُعطِ الرفق في الدنيا نفعه في الآخرة. (٢)

نماذج في الرفق:

أولاً: نماذج من رفق النبي صلى الله عليه وسلم:

١- كان صلى الله عليه وسلم رفيقاً في تعليمه للجاهل، فعن أنس بن مالك قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَاعِدًا فِي الْمَسْجِدِ وَأَصْحَابُهُ مَعَهُ، إِذْ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَبَالَ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: مَهْ مَهْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لَا تُزْرِمُوهُ دَعْوَهُ "، ثُمَّ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ: " إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لَشَيْءٍ مِنَ الْقَذَرِ وَالْبَوْلِ وَالْخَلَاءِ "، أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنَّمَا هِيَ لِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَذِكْرِ اللَّهِ وَالصَّلَاةِ ". فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِرَجُلٍ مِنَ الْقَوْمِ: " قُمْ فَأْتِنَا بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ، فَشَنَّهُ عَلَيْهِ " فَأَتَاهُ بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ فَشَنَّهُ عَلَيْهِ. (٣)

٢- وعن معاوية بن الحكم السلمي، قال: بَيْنَا نَحْنُ نُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: يَرْحَمَكَ اللَّهُ، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَاتَّكَلُ أُمِّيَاهُ مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ؟ قَالَ: فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَادِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصِمُّونِي، لَكِنِّي سَكَتُ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَبَإِي هُوَ وَأُمِّي مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، وَاللَّهِ مَا كَهَرَنِي وَلَا سَتَمَنِي وَلَا ضَرَبَنِي قَالَ: " إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ هَذَا، إِنَّمَا هِيَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ " أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. (٤)

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة (١/ ٣٩٦).

(٢) أخرجه وكيع في الزهد (٣٧٧ / ٤٦٠)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٢٥٨١٨).

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٢٥)، ومسلم (٢٨٥) واللفظ لمسلم.

(٤) أخرجه مسلم (٥٣٧).

٣- وكان رفيقا بأصحاب المعاصي فعن أبي أمامة قال: إن فتى شاباً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا: مه. مه. فقال: " اذنه، فدنا منه قريباً ". قال: فجلس قال: " أتحبه لأهلك؟ " قال: لا. والله جعلني الله فداءك. قال: " ولا الناس يحبونه لأمهاتهم ". قال: " أفتحبه لابنتك؟ " قال: لا. والله جعلني الله فداءك قال: " ولا الناس يحبونه لبناتهم ". قال: " أفتحبه لأختك؟ " قال: لا. والله جعلني الله فداءك. قال: " ولا الناس يحبونه لأخواتهم ". قال: " أفتحبه لعمتك؟ " قال: لا. والله جعلني الله فداءك. قال: " ولا الناس يحبونه لعماتهم ". قال: " أفتحبه لخالتك؟ " قال: لا. والله جعلني الله فداءك. قال: " ولا الناس يحبونه لخالاتهم ". قال: فوضع يده عليه وقال: " اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه، وحسن فرجه " قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء. (١)

٤- وكان صلى الله عليه وسلم رفيقاً بنسائه، فعن أنس بن مالك قال كان للنبي صلى الله عليه وسلم خادم يقال له أنجشة، وكان حسن الصوت فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: رويدك يا أنجشة لا تكسر القوارير. قال فتادة: يعني ضعفة النساء. (٢)

ثانياً: نماذج من رفيق الصحابة رضي الله عنهم:

رفيق عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

١ - عن زيد بن أسلم، عن أبيه، أنه قال: خرجت مع عمر بن الخطاب إلى السوق فلحقته عمر امرأة شابة، فقالت: يا أمير المؤمنين هلك زوجي وترك صبيةً صغيراً والله ما ينضجون كراعاً، ولا لهم زرع ولا صرع، ولقد خشيت أن تأكلهم الضبع وأنا ابنة خفاف بن إبياء الغفاري، وقد شهد أبي الحديبية مع النبي صلى الله عليه وسلم، فوقف معها عمر ولم يمتص، ثم قال: مرحباً، نسب قريب، ثم انصرف إلى بعير ظهير كان مربوطاً في الدار، فحمل عليه

(١) أخرجه أحمد (٢٢٢١١)، وقال الألباني في الصحيحة (٣٧٠): وهذا سند صحيح رجاله كلهم ثقات رجال الصحيح.

(٢) أخرجه البخاري (٦٢١١)، ومسلم (٢٣٢٣).

غَرَارَتَيْنِ مَلَأَهُمَا طَعَامًا وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا نَفَقَةً وَثِيَابًا، ثُمَّ نَاوَلَهَا خِطَامَهُ، ثُمَّ قَالَ: اقْتَادِيهِ، فَلَنْ يَفْنَى حَتَّى يَأْتِيَكُمُ اللَّهُ بِخَيْرٍ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَكْثَرْتَ لَهَا، فَقَالَ عُمَرُ: تَكَلَّنْتَ أُمَّكَ، وَاللَّهِ إِنِّي لَا أَرَى أَبَا هَذِهِ أَوْ أَخَاهَا قَدْ حَاصَرَ حِصْنًا زَمَانًا فَافْتَتَحْنَاهُ وَأَصْبَحْنَا نَسْتَفِيءُ سَهْمَانَهُمَا فِيهِ". (١)

٢ - عَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ قَالَ: خَرَجَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَيَدَاهُ فِي أُذُنَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ: يَا لَبِيكَا يَا لَبِيكَا. قَالَ النَّاسُ: مَا لَهُ؟ قَالَ: جَاءَهُ بَرِيدٌ مِنْ بَعْضِ أَمْرَائِهِ أَنَّ نَهْرًا حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْعُبُورِ وَلَمْ يَجِدُوا سُلْفًا فَقَالَ أَمِيرُهُمْ: اطْلُبُوا لَنَا رَجُلًا يَعْلَمُ غَوْرَ الْمَاءِ فَأَتَى بِشَيْخٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ الْبَرْدَ وَذَلِكَ فِي الْبَرْدِ. فَافْكِرْهُ فَأَدْخَلَهُ فَلَمْ يُلْبِثْهُ الْبَرْدُ فَجَعَلَ يُنَادِي: يَا عُمَرَا يَا عُمَرَا فَغَرِقَ فَكَتَبَ إِلَيْهِ فَأَقْبَلَ فَمَكَثَ أَيَّامًا مُعْرِضًا عَنْهُ وَكَانَ إِذَا وَجَدَ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ فَعَلَ بِهِ ذَلِكَ ثُمَّ قَالَ: مَا فَعَلَ الرَّجُلُ الَّذِي قَتَلْتَهُ؟ قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا تَعَمَّدْتُ قَتْلَهُ لَمْ نَجِدْ شَيْئًا نَعْبُرُ فِيهِ وَأَرَدْنَا أَنْ نَعْلَمَ غَوْرَ الْمَاءِ فَفَتَحْنَا كَذَا وَكَذَا وَأَصْبْنَا كَذَا وَكَذَا. فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَرَجُلٍ مُسْلِمٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ جِئْتُ بِهِ لَوْلَا أَنْ تَكُونَ سُنَّةً لَصَرَبْتُ عُنُقَكَ أَذْهَبَ فَأَعْطِ أَهْلَهُ دِيَّتَهُ وَاخْرُجْ فَلَا أَرَاكَ. (٢)

رفق عمر بن عبد العزيز بالحيوان:

عَنْ أَبِي عَثْمَانَ الثَّقَفِيِّ قَالَ: كَانَ لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ غُلَامٌ يَعْمَلُ عَلَى بَغْلٍ لَهُ، يَأْتِيهِ بِدَرَاهِمٍ كُلَّ يَوْمٍ، فَجَاءَهُ يَوْمًا بِدَرَاهِمٍ وَنُصْفٍ، فَقَالَ: مَا بَدَا لَكَ؟ فَقَالَ: نَفَقَتِ السُّوقُ، قَالَ: لَا، وَلَكِنَّكَ أَتَعَبْتَ الْبَغْلَ، أَرِحْهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ. (٣)

صور الرفق:

١ - الرفق في الدين:

المسلم لا يحمل نفسه من العبادة مالا تطيقه،

(١) أخرجه البخاري (٤١٦١).

(٢) أخرجه ابن شبة في تاريخ المدينة (٣ / ٨١٢)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٨٠١٠) واللفظ له.

(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٥ / ٢٦٠).

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَكِنْ يُشَادُّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدَّلْجَةِ. (١)

قال ابن حجر: وَالْمُشَادَّةُ بِالشَّدِيدِ الْمُغَالِبَةِ. يُقَالُ: شَادَهُ يُشَادُّهُ مُشَادَّةً إِذَا قَاوَاهُ. وَالْمُعْنَى: لَا يَتَعَمَّقُ أَحَدٌ فِي الْأَعْمَالِ الدِّينِيَّةِ وَيَتْرُكُ الرَّفْقَ إِلَّا عَجَزَ وَانْقَطَعَ فَيُغْلَبُ.

٢ - الرفق مع الناس عامة:

ويكون بلين الجانب، وعدم الغلظة والجفاء، والتعامل مع الناس بالسماحة، وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ يَقُولُ: بُنِيَ، إِنَّ الْبِرَّ شَيْءٌ هَيِّنٌ، وَجَهٌ طَلِيقٌ وَكَلَامٌ لَيِّنٌ. (٢)

٣ - الرفق بالرعية:

الراعي سواء كان حاكماً، أو رئيساً في عمل، أو مسؤولاً عليه أن يرفق برعيته، فيقضي حاجتهم، ويؤدي مصالحهم برفق،

٤ - الرفق بالمدعوين:

الداعية عليه أن يرفق في دعوته، فيشفق على الناس ولا يشق عليهم، ولا ينفهم من الدين بأسلوبه الغليظ والعنيف، "وأولى الناس بالتخلق بخلق الرفق الدعاة إلى الله والمعلمون، فالدعوة إلى الله لا تؤثر ما لم تقترن بخلق الرفق في دعوة الخلق إلى الحق، وتعليم الناس لا يؤتي ثمراته الطيبات ما لم يقترن بخلق الرفق الذي يملك القلوب بالمحبة" (٣).

٥ - الرفق بالخادم والمملوك:

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "حَدَّثْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرَ سِنِينَ، فَمَا قَالَ لِي: أَفٌّ، وَلَا: لَمْ صَنَعْتَ؟ وَلَا: أَأَلَّا صَنَعْتَ" (٤)

(١) أخرجه البخاري (٣٩).

(٢) أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق (١٤٨ / ٦٤) والبيهقي في الشعب (٨٠٥٩).

(٣) الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن حبنكة الميداني (٢ / ٣٥٥).

(٤) أخرجه البخاري (٦٠٣٨)، ومسلم (١٦٦٢).

٦ - الرفق بالحيوان:

فمن الرفق بالحيوان أن تدفع عنه أنواع الأذى كالعطش والجوع والمرض والحمل الثقيل،

٢٣- السماحة

معنى السماحة لغة:

قال ابن فارس: " السَّيْنُ وَالْمَيْمُ وَالْحَاءُ أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى سَلَاَسَةٍ وَسُهُوَلَةٍ. يُقَالُ سَمَحَ لَهُ بِالشَّيْءِ. وَرَجُلٌ سَمِيحٌ، أَيْ جَوَادٌ، وَقَوْمٌ سُمَحَاءُ وَمَسَامِيحٌ". (١)

معنى السماحة اصطلاحاً:

السماحة في الاصطلاح تطلق على معنيين:

الأول: السماحة: هي إذا جادَ وأعطى عن كَرَمٍ وَسَخَاءٍ. (٢)

الثاني: في معنى التسامح مع الغير في المعاملات المختلفة، ويكون ذلك بتيسير الأمور والملاينة فيها التي تتجلى في التيسير وعدم القهر، وسماحة المسلمين التي تبدو في تعاملاتهم المختلفة سواء مع بعضهم أو مع غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى. (٣)

مرادفات السماحة:

الكرم: وهو إنفاق المال الكثير بسهولة من النفس في الأمور الجليلة القدر الكثيرة النفع كما ينبغي.

والإيثار: هو فضيلة للنفس بها يكف الإنسان عن بعض حاجاته التي تخصه حتى يبذله لمن يستحقه.

والنبل: هو سرور النفس بالأفعال العظام وابتهاجها بلزوم هذه السيرة.

والمواساة: هي معاونة الأصدقاء والمستحقين ومشاركتهم في الأموال والأقوات.

والسماحة: هي بذل بعض ما لا يجب.

والمسامحة: هي ترك بعض ما يجب. والجميع يكون بالإرادة والاختيار. (٤)

الترغيب في السماحة من القرآن والسنة:

(١) معجم مقاييس اللغة (٣ / ٩٩)، وانظر: القاموس المحيط (ص ٢٨٧).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٢ / ٣٩٨).

(٣) نضرة النعيم (٦ / ٢٢٨٨).

(٤) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق لابن مسكويه (٣١).

الترغيب في الساحة من القرآن الكريم:

١- قال تعالى: { خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ } [الأعراف: ١٩٩].

قال الآلوسي رحمه الله: " أي خذ ما عفا وسهل وتيسر من أخلاق الناس، وإلى هذا ذهب ابن عمر وابن الزبير وعائشة ومجاهد رضي الله تعالى عنهم وغيرهم، . . . ، والأخذ مجاز عن القبول والرضا، أي ارض من الناس بما تيسر من أعمالهم وما أتى منهم وتسهل من غير كلفة، ولا تطلب منهم الجهد وما يشق عليهم حتى لا ينفروا، ومن ذلك قوله:

خذي العفو مني تستديمي مودتي . . . ولا تنطقي في سورتني حين أغضب " . (١)

٢- وقال سبحانه: { وَإِنْ طَلَقْتُمْوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ هُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } . [البقرة: ٢٣٧].

قال ابن عاشور رحمه الله: " وَمَعْنَى كَوْنِ الْعَفْوِ أَقْرَبَ لِلتَّقْوَى: أَنَّ الْعَفْوَ أَقْرَبُ إِلَى صِفَةِ التَّقْوَى مِنَ التَّمَسُّكِ بِالْحَقِّ لِأَنَّ التَّمَسُّكَ بِالْحَقِّ لَا يُنَافِي التَّقْوَى لَكِنَّهُ يُؤْذِنُ بِتَصَلُّبِ صَاحِبِهِ وَشِدَّتِهِ، وَالْعَفْوُ يُؤْذِنُ بِسَمَاحَةِ صَاحِبِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَالْقَلْبُ الْمُطْبُوعُ عَلَى السَّمَاحَةِ وَالرَّحْمَةِ أَقْرَبُ إِلَى التَّقْوَى مِنَ الْقَلْبِ الصُّلْبِ الشَّدِيدِ، لِأَنَّ التَّقْوَى تَقَرُّبُ بِمِقْدَارِ قُوَّةِ الْوَازِعِ، وَالْوَازِعُ شَرْعِيٌّ وَطَبِيعِيٌّ، وَفِي الْقَلْبِ الْمُفْطُورِ عَلَى الرَّأْفَةِ وَالسَّمَاحَةِ لَيْنٌ يَزَعُهُ عَنِ الْمُظَالِمِ وَالْقَسَاوَةِ، فَتَكُونُ التَّقْوَى أَقْرَبَ إِلَيْهِ، لِكثْرَةِ أَسْبَابِهَا فِيهِ.

وَقَوْلُهُ: وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ تَذِيْلٌ ثَانٍ، مَعْطُوفٌ عَلَى التَّذْيِيلِ الَّذِي قَبْلَهُ، لِزِيَادَةِ التَّرْغِيبِ فِي الْعَفْوِ بِمَا فِيهِ مِنَ التَّفَضُّلِ الدُّنْيَوِيِّ، وَفِي الطَّبَاعِ السَّلِيمَةِ حُبُّ الْفَضْلِ. " . (٢)

٣- ونفى الله عن رسوله الفظاظة وغلظ القلب فقال تعالى:

{ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ } [آل عمران: ١٥٩].

(١) روح المعاني (٥ / ١٣٧).

(٢) التحرير والتنوير (٢ / ٤٦٤).

قال ابن كثير رحمه الله: والفظ الغليظ، والمراد به هاهنا غليظُ الكلام لقوله بعد ذلك غليظ القلب أي لو كنت سيء الكلام، قاسي القلب عليهم لأنفضوا عنك وتركوك، ولكن الله جمعهم عليك، ولأن جانبك لهم تأليفاً لقلوبهم. (١)

٤- وقال تعالى: {وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة: ٢٨٠].

ففي هذه الآية وجه الله الدائنين إلى التيسير على المدينين المعسرين، فعلمهم الله بذلك سماحة النفس، وحسن التغاضي عن المعسرين. (٢)

الترغيب في السماحة من السنة النبوية:

١- عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمَحًا إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَى، وَإِذَا اقْتَضَى". (٣)

قال ابن بطال: "فيه الحُصُّ على السماحة وحسن المعاملة، واستعمال معالي الأخلاق ومكارمها، وترك المشاحة والركة في البيع، وذلك سبب إلى وجود البركة فيه لأن النبي عليه السلام لا يحض أمته إلا على ما فيه النفع لهم في الدنيا والآخرة". (٤)

٢- وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَحْرُمُ عَلَى النَّارِ؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: كُلُّ هَيْنٍ لَيْنٍ قَرِيبٍ سَهْلٍ. (٥)

قال القاري: "أي: تحريم على كل سهل طلق حليم لين الجانب، ثم قوله: "هَيْنٌ" فَعِيلٌ مِنَ الْهُونِ وَهُوَ السُّكُونُ وَالْوَقَارُ وَالسَّهُولَةُ (قَرِيبٌ) أَي: مِنَ النَّاسِ بِمُجَالَسَتِهِمْ فِي مُحَافِلِ الطَّاعَةِ

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١٣٠).

(٢) الأخلاق الإسلامية وأسسها (٢/ ٤٨٣).

(٣) أخرجه البخاري (٢٠٧٦).

(٤) شرح البخاري (٦/ ٢١٠).

(٥) أخرجه الترمذي (٢٤٨٨)، وأبو يعلى في مسنده (٥٠٥٣)، وصححه الألباني لغيره في صحيح الترغيب (١٧٤٤).

وَمُلَاظَفَتِهِمْ قَدَرُ الطَّاعَةِ (سَهْلٌ) أَي: فِي قَضَاءِ حَوَائِجِهِمْ، أَوْ مَعْنَاهُ: أَنَّهُ سَمَحَ الْقَضَاءِ، سَمَحَ الْإِقْتِضَاءِ، سَمَحَ الْبَيْعِ، سَمَحَ الشَّرَاءِ عَلَى مَا وَرَدَ فِي فَضْلِ الْمُؤْمِنِ الْكَامِلِ". (١)

٣- وَعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدَرِ الْأَرْضِ. جَاءَ مِنْهُمْ الْأَبْيَضُ وَالْأَحْمَرُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالْحَبِيثُ، وَالطَّيِّبُ وَالسَّهْلُ، وَالْحَزَنُ وَبَيْنَ ذَلِكَ". (٢)

قَالَ الطَّيِّبِيُّ: وَلَمَّا كَانَتْ الْأَوْصَافُ الْأَرْبَعَةُ ظَاهِرَةً فِي الْإِنْسَانِ وَالْأَرْضِ أُجْرِيَتْ عَلَى حَقِيقَتَيْهَا، وَأُوَلِّتِ الْأَرْبَعَةُ الْأَخِيرَةُ؛ لِأَنَّهَا مِنَ الْأَخْلَاقِ الْبَاطِنَةِ، فَإِنَّ الْمُعْنِيَّ بِالسَّهْلِ الرَّفْقُ وَاللِّينُ، وَبِالْحَزَنِ الْخَرْقُ وَالْعُنْفُ، وَبِالطَّيِّبِ الَّذِي يَعْنِي بِهِ الْأَرْضُ الْعَذْبَةُ الْمُؤْمِنُ الَّذِي هُوَ نَفْعُ كُلِّهِ، وَبِالْحَبِيثِ الَّذِي يُرَادُ بِهِ الْأَرْضُ السَّبْخَةُ الْكَافِرُ الَّذِي هُوَ ضَرُّ كُلِّهِ". (٣)

من الآثار وأقوال العلماء الواردة في (السباحة)

- قال عليّ - رضي الله عنه -: أفيلوا ذوي المروءات عثراتهم، فما يعثر منهم عاثر إلا ويده بيد الله يرفعه. (٤)

- وعن أبي عبيدة قال: كَانَ الْحَسَنُ إِذَا اشْتَرَى شَيْئًا وَكَانَ فِي ثَمَنِهِ كَسْرٌ جَبَرَهُ لِصَاحِبِهِ. قَالَ: وَمَرَّ الْحَسَنُ بِقَوْمٍ يَقُولُونَ: نَقْصُ دَانِقٍ، وَزِيَادَةُ دَانِقٍ. فَقَالَ: "مَا هَذَا لَا دِينَ إِلَّا بِمُرُوءَةٍ". (٥)

- ذكر الأبشيهي في مستطرفه: أَنَّ رَجُلًا سَبَّ رَجُلًا وَقَالَ لَهُ: إِيَّاكَ أَعْنِي، فَقَالَ الْآخَرُ وَعَنْكَ أَعْرِض. (٦)

- وقيل: من عادة الكريم إذا قدر غفر وإذا رأى زلة ستر. (١)

(١) مرقاة المفاتيح للقاري (٨/ ٣١٧٩).

(٢) أخرجه أحمد (١٩٥٨٢)، وأبو داود (٤٦٩٥)، والترمذي (٢٩٥٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٧٥٩).

(٣) مرقاة المفاتيح (١/ ١٧٦).

(٤) المستطرف في كل فن مستظرف (١/ ١٩٧).

(٥) المصدر السابق (١٣٣ / ٣٠٣).

(٦) المستظرف (١/ ١٩٧).

- وقال الشافعي - رحمه الله -:

وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى . . . ودافع ولكن بالتي هي أحسن. (٢)

نماذج من سماحة النبي صلى الله عليه وسلم:

- عن أنس رضي الله عنه قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقًا، فَأَرْسَلَنِي يَوْمًا لِحَاجَةٍ، فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَذْهَبُ، وَفِي نَفْسِي أَنْ أَذْهَبَ لِمَا أَمَرَنِي بِهِ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَخَرَجْتُ حَتَّى أَمُرَّ عَلَى صَبِيَّانٍ وَهُمَا يَلْعَبُونَ فِي الشُّوقِ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ قَبَضَ بِقَفَايَ مِنْ وَرَائِي، قَالَ: فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَقَالَ: يَا أُنَيْسُ أَذْهَبْتَ حَيْثُ أَمَرْتُكَ؟ قَالَ قُلْتُ: نَعَمْ، أَنَا أَذْهَبُ، يَا رَسُولَ اللَّهِ. (٣)

- ومن سماحته صلى الله عليه وسلم قضاء حوائج الناس فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: " إِنْ كَانَتْ الْأَمَّةُ مِنْ إِمَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَتَأْخُذُ بِيَدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَنْطَلِقُ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ ". (٤)

- ومن سماحته صلى الله عليه وسلم تعامله مع الأعرابي الذي جذب رداءه بشدة ليأمر له بعطاء. عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ، فَأَذْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَبَذَهُ بِرِدَائِهِ جَبَذَةً شَدِيدَةً حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَثَرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الْبُرْدِ مِنْ شِدَّةِ جَبَذَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، مُرِّي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ ضَحِكَ ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ. (٥)

- ومن سماحته في قضاء الدين ما ورد عَنْ أَبِي رَافِعٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتَسْلَفَ مِنْ رَجُلٍ بَكْرًا، فَقَدِمَتْ عَلَيْهِ إِبِلٌ مِنْ إِبِلِ الصَّدَقَةِ، فَأَمَرَ أَبَا رَافِعٍ أَنْ يَقْضِيَ الرَّجُلَ

(١) المستطرف (١ / ١٩٧).

(٢) ديوان الشافعي (١١٩).

(٣) أخرجه مسلم (٢٣١٠).

(٤) أخرجه البخاري (٦٠٧١).

(٥) أخرجه البخاري (٣١٤٩).

بَكَرَهُ، فَرَجَعَ إِلَيْهِ أَبُو رَافِعٍ، فَقَالَ: لَمْ أَجِدْ فِيهَا إِلَّا خِيَارًا رِبَاعِيًّا، فَقَالَ: أَعْطِهِ إِيَّاهُ، إِنَّ خِيَارَ النَّاسِ أَحْسَنُهُمْ قَضَاءً. (١)

نماذج من سماحة السلف مع غير المسلمين:

١ - في خلافة أبي بكر رضي الله عنه كتب خالد بن الوليد رضي الله عنه في عقد الذمة لأهل الحيرة بالعراق - وكانوا من النصارى - : " وَجَعَلْتُ هُمْ أَتَمًّا شَيْخٍ ضَعْفَ عَنِ الْعَمَلِ أَوْ أَصَابَتْهُ آفَةٌ مِنَ الْآفَاتِ أَوْ كَانَ غَنِيًّا فَافْتَقَرَ وَصَارَ أَهْلُ دِينِهِ يَتَصَدَّقُونَ عَلَيْهِ طَرَحْتُ جَزِيَّتَهُ وَعَيْلَ مِنْ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ ". (٢)

٢ - كما أن أبا بكر رضي الله عنه كان يوصي الجيوش الإسلامية بقوله: " وستمرون على قوم في الصوامع رهباناً يزعمون أنهم ترهبوا في الله فدعوهم ولا تهدموا صوامعهم ". (٣)

٣ - وعن أبي بكره قَالَ: مَرَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِبَابِ قَوْمٍ وَعَلَيْهِ سَائِلٌ يَسْأَلُ: شَيْخٌ كَبِيرٌ ضَرِيرٌ الْبَصَرِ، فَضَرَبَ عَضْدَهُ مِنْ خَلْفِهِ، وَقَالَ: مِنْ أَيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنْتَ؟ فَقَالَ: يَهُودِيٌّ. قَالَ: فَمَا أَجْلُكَ إِلَى مَا أَرَى؟ قَالَ: أَسْأَلُ الْجَزِيَّةَ وَالْحَاجَةَ وَالسَّنَّ. قَالَ: فَأَخَذَ عُمَرُ بِيَدِهِ، وَذَهَبَ بِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ فَرَضَّخَ لَهُ شَيْءًا مِنَ الْمَنْزِلِ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى خَازِنِ بَيْتِ الْمَالِ فَقَالَ: انْظُرْ هَذَا وَضُرْبَاءَهُ؛ فَوَاللَّهِ مَا أَنْصَفْنَاهُ أَنْ أَكَلْنَا شَبِيَّتَهُ ثُمَّ نَخْذُلُهُ عِنْدَ الْهَرَمِ " إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ "، وَالْفُقَرَاءُ هُمْ الْمُسْلِمُونَ وَهَذَا مِنَ الْمَسَاكِينِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَوَضَعَ عَنْهُ الْجَزِيَّةَ وَعَنْ ضُرْبَائِهِ. قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرَةَ: أَنَا شَهِدْتُ ذَلِكَ مِنْ عُمَرَ وَرَأَيْتُ ذَلِكَ الشَّيْخَ. (٤)

٤ - وأوصى عمر في مرض موته الخليفة من بعده فقال: " وَأُوصِيهِ بِذِمَّةِ اللَّهِ وَذِمَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُوفَى هُمْ بِعَهْدِهِمْ وَأَنْ يُقَاتَلَ مِنْ وَرَائِهِمْ وَأَنْ لَا يُكَلَّفُوا فَوْقَ طَاقَتِهِمْ ". (٥)

(١) أخرجه مسلم (١٦٠٠).

(٢) الخراج لأبي يوسف (١ / ١٥٧).

(٣) ذكره الواقدي في فتوح الشام (١ / ٨).

(٤) الخراج لأبي يوسف (ص ١٣٩).

(٥) أخرجه البخاري (١٣٩٢).

٥ - وَعَنْ مُجَاهِدٍ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو ذُبِحَتْ لَهُ شَاةٌ فِي أَهْلِهِ، فَلَمَّا جَاءَ قَالَ: أَهْدَيْتُمْ لِحَارِنَا الْيَهُودِيَّ؟ أَهْدَيْتُمْ لِحَارِنَا الْيَهُودِيَّ؟ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْحَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورُّهُ. (١)

٦ - وَكَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى عَدِيِّ بْنِ أَرْطَاةَ فَقَالَ: . . . ، وَانْظُرْ مِنْ قَبْلِكَ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ قَدْ كَبُرَتْ سِنُّهُ، وَضَعُفَتْ قُوَّتُهُ، وَوَلَّتْ عَنْهُ الْمَكَاسِبُ، فَأَجِرْ عَلَيْهِ مِنْ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ مَا يُصْلِحُهُ، فَلَوْ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانَ لَهُ مَمْلُوكٌ كَبُرَتْ سِنُّهُ وَضَعُفَتْ قُوَّتُهُ وَوَلَّتْ عَنْهُ الْمَكَاسِبُ كَانَ مِنَ الْحَقِّ عَلَيْهِ أَنْ يَقْتُوهُ حَتَّى يُفَرِّقَ بَيْنَهُمَا مَوْتُ أَوْ عِتْقٌ، وَذَلِكَ أَنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ مَرَّ بِشَيْخٍ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ يَسْأَلُ عَلَى أَبْوَابِ النَّاسِ، فَقَالَ: مَا أَنْصَفْنَاكَ، أَنْ كُنَّا أَخَذْنَا مِنْكَ الْجَزْيَةَ فِي شَبِيبِكَ ثُمَّ ضَعَعْنَاكَ فِي كِبَرِكَ، قَالَ: ثُمَّ أَجْرَى عَلَيْهِ مِنْ بَيْتِ الْهَالِ مَا يُصْلِحُهُ. (٢)

صور السباحة:

الناس على اختلاف مستوياتهم في الذكاء، واختلاف نماذجهم الخلقية يوجد فيهم من يتمتعون بخلق سباحة النفس، فهم هينون لينون سمحاء، ويوجد فيهم آخرون نكدون متشددون يتدمرون من كل شيء لا يوافق هواهم. (٣)

وصور سباحة النفس كثيرة فمنها:

١ - السباحة في التعامل مع الآخرين:

ويكون بعدم التشديد والغلظة في التعامل مع الآخرين حتى ولو كان خادماً فعن أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَدَمْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرَ سِنِينَ فَمَا قَالَ لِي أَوْفٍّ، وَلَا لَمْ صَنَعْتُ، وَلَا أَلَّا صَنَعْتُ. (٤)

(١) أخرجه أبو داود (٥١٥٢)، والترمذي (١٩٤٣)، وقال: حسن غريب من هذا الوجه، وصححه

الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٥٧٤).

(٢) الأموال للقاسم بن سلام (ص ٥٧).

(٣) الأخلاق الإسلامية (٢ / ٤٤١).

(٤) أخرجه البخاري (٦٠٣٨).

٢- السباحة في البيع والشراء:

وتكون السباحة في البيع والشراء، بأن لا يكون البائع مغاليًا في الربح، ومكثرًا في المساومة، بل عليه أن يكون كريم النفس. وبالمقابل على المشتري أيضًا أن يتساهل وأن لا يدقق في الفروق البسيطة، وأن يكون كريمًا مع البائع وخاصة إذا كان فقيرًا.

٣- السباحة في قضاء الحوائج:

فإنَّ الذي يقضي حوائج الناس فينفس كربتهم، ويسر على معسرهم ييسر الله عنه في الدنيا والآخرة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا، نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسِّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسِّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ". (١)

٤- السباحة في الاقتضاء:

قال تعالى: { وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [البقرة: ٢٨٠].

فمن السباحة في الاقتضاء أن يراعي حال المدين، وأن لا يطالبه بشدة وأمام الناس، فعن ابن عمر، وعائشة رضي الله عنهما، قالوا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَنْ طَلَبَ حَقًّا، فَلْيُطْلَبْهُ فِي عَفَافٍ، وَافٍ أَوْ غَيْرِ وَافٍ". (٢)

٥- السباحة في العمل التطوعي:

ويكون ذلك بأن يكون العامل سمحًا في معاملته مع زملائه وإخوانه المشاركين له في هذا العمل، وأن يكون حسن الخلق معهم، ويتحمل ما قد يقع من غلظة من أحدهم طالما أنه يعمل لوجه الله تعالى.

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٤٢١) وابن حبان في صحيحه (٥٠٨٠) والبخاري في مسنده (٥٩٩٤)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٧٥٦).

وأيضاً يكون سمحاً مع من يتعامل معهم من بقية الناس الذين يختلط بهم، وأن يرفق بهم في كلامه، ويتلطف معهم، وألا يجرح مشاعرهم بنظرة أو بكلمة، فما هو إلا أمين استأمنه الله على عمل خير، فليثق الله فيه.

علامات سماحة النفس:

هناك علامات للمتصف بخلق السماحة منها:

أولاً: طلاقة الوجه واستقبال الناس بالبشر، ومشاركتهم بالسمع والفكر والقلب.

وطلق الوجه، حسن البشر بالناس محب إليهم، مألوف في نفوسهم، قريب إلى قلوبهم.

وقد حث الرسول صلى الله عليه وسلم على هذه الصفة بقوله وعمله، فمن ذلك ما يلي:

- عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا تَحْفَرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَحَاكَ بِوَجْهِ طَلِقٍ. (١)

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم دائم البشر، طلق الوجه مشرقاً، يواجه الناس بابتسامة حلوة، ويشارك الناس بمشاعره وحواسه.

١- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ جَزْءٍ، قَالَ: " مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَكْثَرَ تَبَسُّمًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ". (٢)

٢- وَعَنْ جَرِيرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: " مَا حَجَبَنِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُنْذُ أَسْلَمْتُ، وَلَا رَأَيْتُ إِلَّا تَبَسَّمَ فِي وَجْهِهِ ". (٣)

ثانياً: مبادرة الناس بالتحية والسلام والمصافحة وحسن المحادثة:

فمن كان سمح النفس بادر إلى هذه المحاسن، ووجودها في الإنسان طبيعية غير متكلفة، يدل على أنه سمح هين لين رقيق حاشية النفس، ألوف ودود لا فظ ولا غليظ.

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٦٤١)، وأحمد (١٧٧٠٤)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٨٨٠).

(٣) أخرجه البخاري (٣٠٣٥) ومسلم (٢٤٧٥).

وقد حث الإسلام على هذه المحاسن من ظواهر الأخلاق الاجتماعية بنصوصه، كما كان الرسول صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة فيها بعمله وأخلاقه
 فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوْ لَا أَذْذُكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ. (١)

ثالثاً: حسن المصاحبة والمعاشرة والتغاضي وعدم التشدد في الأمور:

فمن كان سمح النفس كان حسن المصاحبة لإخوانه، ولأهله، ولأولاده، ولخدمه، ولكل من يخالطه، ولكل من يراه.

وكان حسن المعاشرة خفيف المحاسبة والمؤاخذه، متغاضياً عن المخالفات التي تتعلق به، لا يتشدد في الأمور، ولا يعظم الصغائر، بل يلتمس العذر لمن يقصر معه أو لا يعطيه من الاحترام أو الخدمة حقه.

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل الكامل في ذلك كله
 فعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَدَمْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرَ سِنِينَ فَمَا قَالَ لِي: أَفٍّ، وَلَا لَمْ صَنَعْتُ، وَلَا أَلَّا صَنَعْتُ. (٢)

فكان صلى الله عليه وسلم من سماحة نفسه وخلقه العظيم لا يتضجر من عملٍ عمله خادمه ولو خالف ما يريد منه، ولا يلومه على عمل لو ما صريحا ولا لو ما غير صريح، وإذا كان هذا شأنه مع خادمه، فكيف ببقية أصحابه.

وهذا مهم جداً لمن يعمل في العمل التطوعي أن يحاول بقدر المستطاع التخلص بأخلاق نبيه صلى الله عليه وسلم في معاملته مع الناس، ومن يحتاجونه، وأن يصبر عليهم ويتحملهم، وله الأجر الكبير من العلي الكبير يوم القيامة.

(١) أخرجه مسلم (٥٤).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٣٨).

٢٤. الصبر

تعريف الصبر لغة:

الصَّبْرُ نقيض الجَزَعِ صَبَرَ يَصْبِرُ صَبْرًا فهو صَابِرٌ وَصَبَّارٌ وَصَبِيرٌ وَصَبُورٌ وَالْأُنْثَى صَبُورٌ أَيْضًا بغير هاء وجمعه صُبْرٌ. وأصل الصَّبْرِ الحَبْسُ وكل من حَبَسَ شيئًا فَقَدْ صَبَرَهُ. (١)

معنى الصبر اصطلاحًا:

عرفه ابن القيم بقوله: هو خلق فاضل من أخلاق النفس يمتنع به من فعل ما لا يحسن ولا يجمل، وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها. (٢)

وقيل الصبر: حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع، أو عما يقتضيان حبسها عنه. (٣)

أهمية الصبر في العمل التطوعي (٤):

لا شك أن العمل التطوعي في أصله دعوة إلى الله تعالى، والصبر في الدعوة إلى الله تعالى من أهم المهمات، ومن أعظم الواجبات على الدعاة إلى الله -، والصبر وإن كان واجبًا بأنواعه على كل مسلم، فإنه على الدعاة إلى الله من باب أولى وأولى؛ ولهذا أمر الله به إمام الدعاة وقدوتهم رسول الله عليه الصلاة والسلام: { وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ } * إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ { النحل: ١٢٧، ١٢٨ وقال تعالى: { فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ { الأحقاف: ٣٥، وقال تعالى: { وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبِإِ الْمُرْسَلِينَ { الأنعام: ٣٤، فهذا سيد ولد آدم - قد أمره الله بالصبر.

(١) لسان العرب لابن منظور (٤/ ٣٧٧)، انظر: الصحاح للجوهري (ص ٧٠٦)، النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٧/ ٣، والمصباح المنير، ٣٣١/ ١، والقاموس المحيط ص ٥٤٠.

(٢) عدة الصابرين لابن القيم (ص ٣٤)

(٣) مفردات ألفاظ القرآن الكريم للراغب الأصفهاني (٤٧٤).

(٤) أنواع الصبر ومجالاته د. سعيد بن علي بن وهف القحطاني ص ٥ - ١٠ بتصرف

والله سبحانه قد أوضح للناس أنه لا بد من الابتلاء، والاختبار، والامتحان لعباده، وخاصة الدعاة إلى الله تعالى؛ ليظهر الصادق من الكاذب، والمؤمن من المنافق، والصابر من غيره، وهذه سنة الله في خلقه، قال سبحانه: {لَمْ أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَتَرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُتَّقُونَ} * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ { العنكبوت: ١-٣، وقال -: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ} محمد: ٣١.

وقد ذم الله - من لم يصبر على الأذى من أجل الدعوة إلى الله فقال سبحانه: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ { العنكبوت: ١٠. ولهذا قال سبحانه: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ { البقرة: ٢١٤. وقال تعالى: {مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ} آل عمران: ١٧٩.

وتبرز أهمية الصبر في الدعوة إلى الله ﷻ في عدة أمور، منها:

أولاً: إن الابتلاء للدعاة إلى الله لا بد منه، فلو سلم أحد من الأذى لسلم رسل الله عليهم الصلاة والسلام وعلى رأسهم إمامهم محمد بن عبد الله عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام فقد أودوا فصبروا، وجاهدوا حتى نصرهم الله على أعداء الدعوة إلى الله تعالى، ولا شك أن كل داعية مخلص يصيبه الأذى، وإن سلم أحد فذلك من أندر النواذر.

ثانياً: الصبر يحتاجه المتطوع في ثلاثة أحوال:

١ - قبل العمل بتصحيح النية والإخلاص، وتجنب دواعي الرياء والسمعة، وعقد العزم على الوفاء بالواجب.

٢ - أثناء العمل، فيلازم الصبر عن دواعي التقصير والتفريط، ويلازم الصبر على استصحاب ذكر النية، وعلى حضور القلب بين يدي الله تعالى، ولا ينساه في أمره.

٣ - بعد العمل، وذلك من وجوه:

الوجه الأول: أن يُصبر نفسه عن الإتيان بما يُبطل عمله، فليس الشأن الإتيان بالطاعة، وإنما الشأن في حفظها مما يبطلها.

الوجه الثاني: أن يصبر عن رؤيتها والعجب بها، والتكبر، والتعظم بها.

الوجه الثالث: أن يصبر عن نقلها من ديوان السر إلى ديوان العلانية، فإن العبد يعمل العمل سرًا بينه وبين الله سبحانه فيكتب في ديوان السر، فإن تحدث به نُقل إلى ديوان العلانية^(١).

ثالثا: الصبر يشتمل على أكثر مكارم الأخلاق، فيدخل فيه الحلم؛ فإنه صبر عن دواعي الانتقام عند الغضب، والأناة: صبر عن إجابة دواعي العجلة، والعفو والصفح صبر عن إجابة دواعي الانتقام، والجود والكرم صبر عن إجابة دواعي الإمساك، والكيس: صبر عن إجابة دواعي الكسل والخمول، والعدل صبر إذا تعلق بالتسوية بين المتماثلين، وسعة الصدر صبر عن الضجر، والكتمان وحفظ السر صبر عن إظهار ما لا يحسن إظهاره، والشجاعة صبر عن إجابة دواعي الفرار، وهذا يدل على أهمية الصبر في العمل التطوعي، وأن المتطوع لا يسعه أن يستغني عنه في جميع أحواله.

رابعًا: الصبر يجعل الداعية إلى الله عز وجل يضبط نفسه عن أمور لا بد له من الابتعاد عنها، ومنها: ضبط النفس عن الاندفاع بعوامل الضجر، والجزع، والسأم، والملل، والعجلة، والرعونة، والغضب، والطيش، والخوف، والطمع، والأهواء، والشهوات، وبالصبر يتمكن الداعية أن يضع الأشياء مواضعها، ويتصرف في الأمور بعقل واتزان، وينفذ ما يريد من تصرف في الزمن المناسب بالطريقة المناسبة الحكيمة، وعلى الوجه المناسب، بخلاف عدم الصبر الذي يوقع في التسرع والعجلة، فيضع الداعية الأشياء في غير مواضعها، ويتصرف فيخطئ في تحديد الزمان، ويسيء في طريقة التنفيذ، وربما يكون صاحب حق فيكون مفسدًا، ولو أنه اعتصم بالصبر لسلم من ذلك كله بإذن الله تعالى^(٢)

(١) عدة الصابرين، ص ٩٠.

(٢) انظر: عدة الصابرين لابن القيم ص ١٤٠، والأخلاق الإسلامية وأسسها لعبد الرحمن حبنكة ٣٠٥/٢،

منزلة الصبر:

ومن منازل {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} منزلة الصبر.

قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: الصبر في القرآن في نحو تسعين موضعاً.

وهو واجب بإجماع الأمة. وهو نصف الإيمان. فإن الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر. وهو مذكور في القرآن على ستة عشر نوعاً.

الأول: الأمر به. نحو قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ} [البقرة: ٢] وقوله: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ} [البقرة: ٤٥] وقوله: {اصْبِرُوا وَصَابِرُوا} [آل عمران: ٢٠٠] وقوله {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ} [النحل: ١٢٧].

الثاني: النهي عن ضده كقوله {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ} [الأحقاف: ٣٥] وقوله: {فَلَا تُؤَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ} [الأنفال: ١٥] فإن تولية الأدبار. ترك للصبر والمصابرة وقوله {وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ} [محمد: ٣٣] فإن إبطالها ترك الصبر على إتمامها. وقوله {وَلَا يَمْنُوا وَلَا تَحْزُنُوا} [آل عمران: ١٣٩] فإن الوهن من عدم الصبر.

الثالث: الثناء على أهله، كقوله تعالى: {الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ} [آل عمران: ١٧] وقوله {وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} [البقرة: ١٧٦] وهو كثير في القرآن.

الرابع: إيجابه سبحانه وتعالى محبته لهم. كقوله: {وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} [البقرة: ١٤٦].

الخامس: إيجاب معيته لهم. وهي معية خاصة. تتضمن حفظهم ونصرهم، وتأيدهم. ليست معية عامة. وهي معية العلم، والإحاطة. كقوله {وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال: ٤٧] وقوله: {وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: ٢٤٩، والأنفال: ٦٦].

السادس: إخباره بأن الصبر خير لأصحابه. كقوله {وَلَكِنَّ صَبْرَ تُمْ هُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ} [النحل: ١٢٦] وقوله {وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ} [النساء: ٢٤].

السابع: إيجاب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم. كقوله تعالى {وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النحل: ٩٦].

الثامن: إيجابه سبحانه الجزاء لهم بغير حساب. كقوله تعالى {إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [يونس: ٣٩].

التاسع: إطلاق البشرى لأهل الصبر. كقوله تعالى {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ} [البقرة: ١٥٥].

العاشر: ضمان النصر والممدد لهم. كقوله تعالى {بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمِدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ} [آل عمران: ١٢٥]، ومنه قول النبي ﷺ: واعلم أن النصر مع الصبر.

الحادي عشر: الإخبار منه تعالى أن أهل الصبر هم أهل العزائم. كقوله تعالى: {وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [الشورى: ٤٣].

الثاني عشر: الإخبار أنه ما يُلقَى الأعمال الصالحة وجزاءها والحظوظ العظيمة إلا أهل الصبر، كقوله تعالى {وَيَلْكَم ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَن آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ} [القصص: ٨٠] وقوله {وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} [فصلت: ٣٥].

الثالث عشر: الإخبار أنه إنما ينتفع بالآيات والعبر أهل الصبر كقوله لموسى {أَن أَخْرِجَ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكَرَهُمْ بِآيَامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} [إبراهيم: ٥] وقوله في أهل سبأ {فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} [سبأ: ١٩] وقوله في سورة الشورى {وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ * إِنَّ يَسَاءَ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} [الشورى: ٣٣].

الرابع عشر: الإخبار بأن الفوز المطلوب المحبوب، والنجاة من المكروه المرهوب، ودخول الجنة، إنما نالوه بالصبر. كقوله تعالى {وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد: ٢٦].

الخامس عشر: أنه يورث صاحبه درجة الإمامة. سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- يقول: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين. ثم تلا قوله تعالى {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} [السجدة: ٢٤].

السادس عشر: اقترانه بمقامات الإسلام، والإيمان، كما قرنه سبحانه باليقين وبالإيمان والتوكل. وبالشكر والعمل الصالح والرحمة^(١).

١- قرنه باليقين {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} [السجدة: ٢٤]

٢- ربطه الله تعالى بالشكر في أربع سور: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} [إبراهيم: ٥]

٣- جمعه مع التوكل: {الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [النحل: ٤٢]

٤- قرنه بالصلاة: {وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: ١٥٣]

٥- قرنه بالتسبيح والاستغفار: {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ} [الطور: ٤٨]

٦- جمعه مع الجهاد: {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} [النحل: ١١٠]

٧- ربطه بالتقوى: {وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَاتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [آل عمران: ١٨٦]

٨- ربطه بالحق: {وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [العصر: ٣]

٩- قرنه بالرحمة: {وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَةِ} [البلد: ١٧]

الثامن عشر: رتب الله تعالى خيرات الدنيا والآخرة على الصبر ومن ذلك:

١- معية الله مع الصابرين {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: ١٥٣]

٢- محبة الله للصابرين {وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} [آل عمران: ١٤٦]

٣- صلوات الله ورحمته على الصابرين { . . . وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ } [البقرة: ١٥٥-١٥٧]

٤- ضمان النصر والمدد للصابرين {بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ * وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بَشْرًا لَّكُم وَلِتَطمِئن قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ } آل عمران: [١٢٥-١٢٦]

٥- الحفاظ من كيد الأعداء {إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا } آل عمران: [١٢٠]

٦- استحقاق دخول الجنة {أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا } [الفرقان: ٧٥].

أقوال السلف في الصبر

قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: إِنَّا وَجَدْنَا خَيْرَ عَيْشِنَا بِالصَّبْرِ. (١)

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: الصَّبْرُ مِنَ الدِّينِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ، إِذَا قُطِعَ الرَّأْسُ تَعَرَّى الْجَسَدُ، وَلَا إِيمَانُ لِمَنْ لَا صَبْرَ لَهُ. (٢)

وَقَالَ أَيْضًا: الصَّبْرُ مَطِيَّةٌ لَا تَكْبُؤ. (٣)

قال عبد الله بن مسعود: الصَّبْرُ نِصْفُ الْإِيمَانِ، وَالْيَقِينُ الْإِيمَانُ كُلُّهُ. (٤)

قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ مِنْ نِعْمَةٍ فَانْتَرَعَ عَنْهَا مِنْهُ فَعَاضَهُ بِمَا انْتَرَعَ مِنْهُ صَبْرًا إِلَّا كَانَ الَّذِي عَاضَهُ خَيْرًا مِّمَّا انْتَرَعَ مِنْهُ. (٥)

(١) الزهد والرفائق لابن المبارك (٦٣٠).

(٢) المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي (ص: ٤٣١)، جامع معمر بن راشد (٢١٠٣١).

(٣) مدارج السالكين (٢/ ١٥٨).

(٤) السنة لأبي بكر بن الخلال (٥/ ٢٣).

(٥) مصنف ابن أبي شيبة (٣٦٢٤٢).

قَالَ الْحَسَنُ: قَطْرَتَانِ وَجُرْعَتَانِ، فَمَا جُرْعَةٌ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ جُرْعَةٍ غَيْظٍ يَكْظُمُهَا عَبْدٌ بِحِلْمٍ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ، وَجُرْعَةٌ مُصِيبَةٍ مُوجِعَةٍ يَصْبِرُ عَلَيْهَا عِنْدَ اللَّهِ، قَالَ: وَمَا قَطْرَةٌ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ قَطْرَةٍ دَمٍ فِي سَبِيلِهِ أَوْ قَطْرَةٍ دَمْعٍ مِنْ عَبْدٍ سَاجِدٍ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ لَا يَرَى مَكَانَهُ إِلَّا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ. (١)

وقال الحسن: الصَّبْرُ كَثْرٌ مِنْ كُنُوزِ الْخَيْرِ، لَا يُعْطِيهِ اللَّهُ إِلَّا لِعَبْدٍ كَرِيمٍ عَلَيْهِ. (٢)
عَنْ عَوْنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: الْخَيْرُ الَّذِي لَا شَرَّ فِيهِ: الشُّكْرُ مَعَ الْعَافِيَةِ، وَالصَّبْرُ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ؛ فَكَمْ مِنْ مُنْعَمٍ عَلَيْهِ غَيْرِ شَاكِرٍ، وَمُبْتَلًى غَيْرِ صَابِرٍ. (٣)
نماذج فيمن وصف بالصبر:

صبر الأنبياء على أذى أقوامهم:

ومن أشد الناس صبراً على البلاء الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وقاص رضي الله عنه قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: "الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ، فَيُتَلَّى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ" (٤)،

فكم لاقى الأنبياء من أقوامهم من التكذيب والصد عن الحق، والرغبة إلى الباطل، فكذبوا بعضهم، وقتلوا آخرين، قال تعالى: { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ } [البقرة: ٨٧]، وقال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم تسلياً له، وبيانا لما حصل للأنبياء قبله: { فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا

(١) شعب الإيمان (١٠ / ٥٤٩).

(٢) الصبر والثواب عليه لابن أبي الدنيا (ص: ٢٨).

(٣) المجالسة وجواهر العلم (٦ / ٣١٣).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي، ٥٦٥ / ٢.

بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ} [فاطر ١٨٤]، وقال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا} [الفرقان ٣١]، وما قاله عَبْدُ اللَّهِ بن مسعود رضي الله عنه، كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَذْمَوْهُ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: {اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} (١)

ومع ذلكم التكذيب ومعاداة الأنبياء، إلا أن أنبياء الله ورسله صبروا على تكذيب أقوامهم فنالوا أشرف المنى، واعتلوا أعلى المكانة، وكانت العاقبة لهم، والنصر والتمكين نتيجة صبرهم واحتمال أذى أقوامهم،

أخرج البخاري من حديث عَبْدِ اللَّهِ بن عَبَّاسٍ، أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ هِرْقْلَ قَالَ لَهُ: سَأَلْتُكَ كَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ؟ فَزَعَمْتَ أَنَّ الْحَرْبَ سِجَالٌ وَدَوَّلٌ، فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَى ثُمَّ تَكُونُ لَهُمُ الْعَاقِبَةُ" (٢).

فما من قوم إلا وكذبوا نبيهم وربما تطاولوا عليه.

فقال قوم نوح لنبيهم: {قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [الأعراف: ٦٠]
وقال قوم هود لنبيهم: {قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ} [الأعراف: ٦٦]

وقال قوم لوط لنبيهم: {وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ} [الأعراف: ٨٢]

وقال قوم شعيب لنبيهم: {قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ} [الأعراف: ٨٨]

وقال قوم موسى لنبيهم: {قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ} [الأعراف: ١٠٩]
[وقال قوم إبراهيم لنبيهم: {قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ} [الأنبياء: ٦٨]

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٧)، ومسلم (١٧٩٢).

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٠٤)، ومسلم (١٧٧٣).

ولقد تعرض نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لأذى قومه مراراً، ولكنه صبر رجاء إسلامهم، ومن صور تحمله للأذى حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُصَلِّي عِنْدَ الْبَيْتِ، وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابٌ لَهُ جُلُوسٌ، إِذْ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَيَكُمُ يَمِجِيءُ بِسَلَى جَزُورِ بَنِي فُلَانٍ، فَيَضَعُهُ عَلَى ظَهْرِ مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ؟ فَانْبَعَثَ أَشَقَى الْقَوْمِ فَجَاءَ بِهِ، فَنَظَرَ حَتَّى سَجَدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَضَعَهُ عَلَى ظَهْرِهِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، وَأَنَا أَنْظُرُ لَا أَغْنِي شَيْئًا، لَوْ كَانَ لِي مَنَعَةٌ، قَالَ: فَجَعَلُوا يَضْحَكُونَ وَيُحِيلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَاجِدٌ لَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ، حَتَّى جَاءَتْهُ فَاطِمَةُ، فَطَرَحَتْ عَنْ ظَهْرِهِ، فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأْسَهُ ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ. ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَشَقَّ عَلَيْهِمْ إِذْ دَعَا عَلَيْهِمْ، قَالَ: وَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ الدَّعْوَةَ فِي ذَلِكَ الْبَلَدِ مُسْتَجَابَةٌ، ثُمَّ سَمَى: اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ، وَعَلَيْكَ بِعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَالْوَلِيدَ بْنِ عُتْبَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنَ خَلْفٍ، وَعُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ - وَعَدَّ السَّابِعَ فَلَمْ يَخْفِظْ -، قَالَ: فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ رَأَيْتُ الَّذِينَ عَدَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَرْعَى، فِي الْقَلْبِ قَلْبِ بَذْرٍ" (١)

ومع دعوة النبي صلى الله عليه وسلم لقومه إلا أنهم كذبوه واتهموه بالجنون والسحر والشعوذة والشعر، وحاولوا قتله، وطرده من بلده، وأذوه أيما أذية، ومع ذلك صبر واحتسب، قال تعالى: "وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ" [الأنفال ٣٠]، وقال سبحانه: "بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ" [الأنبياء ٥]

وعَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَسِرَتْ رَبَاعِيَّتُهُ يَوْمَ أُحُدٍ، وَشَجَّ فِي رَأْسِهِ، فَجَعَلَ يَسْلُتُ الدَّمَ عَنْهُ وَيَقُولُ: "كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ سَجَّوْا نَبِيَّهُمْ، وَكَسَرُوا رَبَاعِيَّتَهُ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: "لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ" (٢)،

(١) أخرجه البخاري (٢٤٠)، ومسلم (١٧٩٤).

(٢) أخرجه مسلم (١٧٩١)

٢٥- كظم الغيظ

تعريف كظم الغيظ:

الكظم:

الْكَافُ وَالظَّاءُ وَالْمِيمُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى مَعْنَى وَاحِدٍ، وَهُوَ الْإِمْسَاكُ وَالْجُمْعُ لِلشَّيْءِ. وَأَصْلُ الْكُظْمِ: حَسْبُ الشَّيْءِ عَنْ امْتِلَائِهِ، يُقَالُ: كَظَمْتُ الْقُرْبَةَ إِذَا مَلَأْتُهَا، كَظَمَهُ يَكْظُمُهُ كَظْمًا: رَدَّهُ وَحَبَسَهُ، فَهُوَ رَجُلٌ كَظِيمٌ، وَالْغَيْظُ مَكْظُومٌ. (١)

الغيظ:

الْغَيْظُ غَضَبٌ كَامِنٌ لِلْعَاجِزِ، وَقِيلَ: هُوَ أَشَدُّ مِنَ الْغَضَبِ، وَقِيلَ: هُوَ سُورَتُهُ وَأَوَّلُهُ. وَغِظْتُ فُلَانًا أَغِيظُهُ غَيْظًا وَقَدْ غَاظَهُ فَاغْتَاظَ وَغِيظَهُ فَتَغَيَّظَ وَهُوَ مَغِيظٌ. (٢)

كظم الغيظ:

كَظَمَ الْغَيْظَ: تَجَرَّعَهُ وَاحْتَمَلَ سَبَبَهُ وَالصَّبْرُ عَلَيْهِ. (٣) ويقال: كظم غيظه أي: سكت عليه ولم يظهره بقول أو فعل. مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى إِيقَاعِهِ بَعْدَهُ. (٤)

فوائد كظم الغيظ:

١- اعتدَادُ الْجَنَّةِ لَهُ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ) [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٤] قَالَ الطَّبَّيُّ: وَإِنَّمَا حُمِدَ الْكُظْمُ لِأَنَّهُ قَهْرٌ لِلنَّفْسِ الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ، وَلِذَلِكَ مَدَحَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: {وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ} [آل عمران: ١٣٤]. (٥)

(١) مقاييس اللغة (٥ / ١٨٤)، والكشف والبيان عن تفسير القرآن (٣ / ١٦٥)، ولسان العرب (١٢ / ٥١٩)

(٢) لسان العرب (٧ / ٤٥٠)، وانظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٣ / ٤٠٢).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر (٤ / ١٧٨)، وفتح الباري لابن حجر (١ / ١٧٩).

(٤) تفسير القرطبي (٤ / ٢٠٦)، ومعجم ديوان الأدب (٢ / ١٨٦).

(٥) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨ / ٣١٨١).

٢- سبب في دفع الإساءة بالإحسان والمكروه بالمعروف والقهر باللطف:

قال تعالى: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} [فصلت: ٣٤، ٣٥]

قال الزجاج: وما يلقى هذه الفعلة وهذه الحالة، وهي دفع السيئة بالحسنة. {إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا} على كظم الغيظ، واحتمال المكروه. (١)

٣- سبب في دفع الإساءة بالإحسان:

قال الله تعالى: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} [فصلت: ٣٤- ٣٥].

٤- مِنْ أَعْظَمِ الْعِبَادَةِ وَجْهَادِ النَّفْسِ:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ (٢)
قال النووي: فِيهِ كَظْمُ الْغَيْظِ وَإِمْسَاكُ النَّفْسِ عِنْدَ الْغَضَبِ عَنِ الْإِتِّصَارِ وَالْمُخَاصَمَةِ وَالْمُنَازَعَةِ. (٣)

٥- عظم الأجر به وتوفيره:

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا مِنْ جُرْعَةٍ أَعْظَمُ أَجْرًا عِنْدَ اللَّهِ، مِنْ جُرْعَةٍ غَيِظٍ كَظَمَهَا عَبْدٌ ابْتِغَاءً وَجْهَ اللَّهِ (٤)

(١) التفسير الوسيط للواحدي (٤ / ٣٦)، تفسير البغوي (٤ / ١٣٤).

(٢) أخرجه البخاري (٦١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).

(٣) شرح النووي على مسلم (١٦ / ١٦٢).

(٤) أخرجه ابن ماجه (٤١٨٩)، والبخاري في الأدب المفرد (١٣١٨)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد.

شَبَّهَ جُرْعَ غَيْظِهِ وَرَدَّهُ إِلَى بَاطِنِهِ بِتَجَرُّعِ الْمَاءِ وَهِيَ أَحَبُّ جُرْعَةٍ يَتَجَرَّرُهَا الْعَبْدُ وَأَعْظَمُهَا ثَوَابًا وَأَرْفَعُهَا دَرَجَةً لِحُبْسِ نَفْسِهِ عَنِ التَّشْفِي وَلَا يَحْصُلُ هَذَا الْعِظَمُ إِلَّا عِنْدَ الْقُدْرَةِ عَلَى الْإِنْتِقَامِ وَبِكَفِّ غَضَبِهِ لِلَّهِ. تَعَالَى (ابْتِغَاءً وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى) (١).

٦-التَّخْيِيرُ فِي الْحُورِ الْعِينِ:

عَنْ سَهْلِ بْنِ مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ الْجُهَنِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْفِذَهُ دَعَاهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ حَتَّى يُخَيَّرَهُ فِي أَيِّ الْحُورِ شَاءَ (٢)

أقوال السلف والعلماء في كظم الغيظ:

❖ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَنْ خَافَ اللَّهَ لَمْ يَشْفِ غَيْظُهُ وَمَنْ اتَّقَى اللَّهَ لَمْ يَصْنَعْ مَا يُرِيدُ، وَلَوْ لَا يَوْمُ الْقِيَامَةِ لَكَانَ غَيْرَ مَا تَرَوْنَ. (٣)

❖ قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: دَمٌ عَلَى كَظْمِ الْغَيْظِ تَحْمَدُ عَوَاقِبُكَ. (٤)

❖ قَالَ الْحَسَنُ: قَطْرَتَانِ وَجُرْعَتَانِ، فَمَا جُرْعَةٌ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ جُرْعَةٍ غَيْظٍ يَكْظُمُهَا عَبْدٌ بِحِلْمٍ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ، وَجُرْعَةٌ مُصِيبَةٌ مُوجِعَةٌ يَصْبِرُ عَلَيْهَا عِنْدَ اللَّهِ، قَالَ: وَمَا قَطْرَةٌ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ قَطْرَةٍ دَمٍ فِي سَبِيلِهِ أَوْ قَطْرَةٍ دَمْعٍ مِنْ عَبْدٍ سَاجِدٍ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ لَا يَرَى مَكَانَهُ إِلَّا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ. (٥)

❖ قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: مَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ وَرَدَّ غَضَبَهُ؛ أَخْزَى شَيْطَانَهُ وَسَلَمَتْ مَرْوَعَتُهُ وَدِينُهُ. (٦)

❖ قَالَ الرَّاعِبُ: الْكَظْمُ يَدْفَعُ مَحْذُورَ النَّدَمِ كَالْمَاءِ يَطْفِئُ حَرَّ الضَّرْمِ. كَظْمٌ يَتَرَدَّدُ فِي حَلْقِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَقْصِ أَجْدِهِ فِي خَلْقِي. (١)

(١) فيض القدير (٥ / ٤٧٦).

(٢) أخرجه أحمد (١٥٦٣٧)، والترمذي (٢٠٢١).

(٣) أحكام القرآن للجصاص (٢ / ٤٨).

(٤) روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار (ص ٣٤٢).

(٥) شعب الإيمان (١٠ / ٥٤٩).

(٦) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٧ / ٢٥٠).

قال الغزالي: إن كظم الغيظ يحتاج إليه الإنسان إذا هاج غيظه ويحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة، ولكن إذا تعود ذلك مدة صار ذلك اعتيادا فلا يهيج الغيظ، وإن هاج فلا يكون في كظمه تعب وحينئذ يوصف بالحلم.

الوسائل المعينة على كظم الغيظ^(٢)

هناك أسباب ينتج عنها أو عن واحد منها ضبط النفس وكظم الغيظ:

أولاً: الرحمة بالمخطئ والشفقة عليه، واللين معه والرفق به.

قال سبحانه وتعالى لنبيه محمد - صلى الله عليه وسلم -:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ) [آل عمران: ١٥٩].

ثانياً: سعة الصدر وحسن الثقة؛ مما يحمل الإنسان على العفو.

ولهذا قال بعض الحكماء: "أحسن المكارم؛ عَفْوُ الْمُقْتَدِرِ وَجُودُ الْمُفْتَقِرِ"، فإذا قدر الإنسان على أن ينتقم من خصمه؛ غفر له وسامحه، قال تعالى: (وَلَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لِنَ عَزْمِ الْأُمُورِ) [الشورى: ٤٣].

وقال يوسف لإخوته بعد ما أصبحوا في ملكه وتحت سلطانه: (لا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَعْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) [يوسف: ٩٢].

ثالثاً: شرف النفس وعلو الهمة.

بحيث يترفع الإنسان عن السباب، ويسمو بنفسه فوق هذا المقام.

رابعاً: طلب الثواب عند الله.

إن جرعة غيظ تتجرعها في سبيل الله - سبحانه وتعالى - لها ما لها عند الله - عز وجل - من الأجر والرفعة.

خامساً: استحياء الإنسان أن يضع نفسه في مقابلة المخطئ.

(١) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء للراغب الأصفهاني (١ / ٢٧٧).

(٢) من دروس الشيخ سلمان العودة.

وقد قال بعض الحكماء: "اِحْتِمَالُ السَّنِيهِ خَيْرٌ مِنْ التَّحَلِّي بِصُورَتِهِ وَالْإِغْضَاءُ عَنِ الْجَاهِلِ خَيْرٌ مِنْ مُشَاكَلَتِهِ".

وقال بعض الأدباء: "مَا أَفْحَشَ حَلِيمٌ وَلَا أَوْحَشَ كَرِيمٌ".

سادسًا: التدرب على الصبر والسماحة فهي من الإيمان.

إن هذه العضلة التي في صدرك قابلة للتدريب والتمرين، فمرّن عضلات القلب على كثرة التسامح، والتنازل عن الحقوق، وعدم الإمساك بحظ النفس، وجرب أن تملأ قلبك بالمحبة! فلو استطعت أن تحب المسلمين جميعًا فلن تشعر أن قلبك ضاق بهم، بل سوف تشعر بأنه يتسع كلما وفد عليه ضيف جديد، وأنه يسع الناس كلهم لو استحقوا هذه المحبة. فمرّن عضلات قلبك على التسامح في كل ليلة قبل أن تخلد إلى النوم، وتسلم عينيك لنومة هادئة لذيدة.

سامح كل الذين أخطؤا في حقك، وكل الذين ظلموك، وكل الذين حاربوك، وكل الذين قصرُوا في حقك، وكل الذين نسوا جميلك، بل وأكثر من ذلك. . انهمك في دعاء صادق لله - سبحانه وتعالى- بأن يغفر الله لهم، وأن يصلح شأنهم، وأن يوفقهم. . ؛ ستجد أنك أنت الرابع الأكبر.

وكما تغسل وجهك ويدك بالماء في اليوم بضع مرات أو أكثر من عشر مرات؛ لأنك تواجه بهما الناس؛ فعليك بغسل هذا القلب الذي هو محل نظر الله - سبحانه وتعالى-!

سابعًا: قطع السباب وإنهاؤه مع من يصدر منهم، وهذا لا شك أنه من الحزم.
حُكِيَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِضَرَارِ بْنِ الْقَعْقَاعِ: وَاللَّهِ لَوْ قُلْتُ وَاحِدَةً؛ لَسَمِعْتَ عَشْرًا!
فَقَالَ لَهُ ضَرَارٌ: وَاللَّهِ لَوْ قُلْتُ عَشْرًا؛ لَمْ تَسْمَعْ وَاحِدَةً!

ثامنًا: رعاية المصلحة

ولهذا أثنى النبي - صلى الله عليه وسلم - على الحسن رضي الله عنه بقوله: (ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِتْنَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) ^(١).

(١) صحيح البخاري (٢٧٠٤).

فدل ذلك على أن رعاية المصلحة التي تحمل الإنسان على الحرص على الاجتماع، وتجنب المخالفة هي السيادة.

تاسعاً: حفظ المعروف السابق، والجميل السالف.

ولهذا كان الشافعي - رحمه الله - يقول: إِنَّ الْخُرَّ مَنْ رَاعَى وَدَادَ لِحُظَّةٍ وَانْتَمَى لِمَنْ أَفَادَ لَفْظَةً.

عاشراً: تذكير النفس بما في الانتقام من نفرة القلوب عن المتشفي به.

ومن نسبته إلى الخفة والطيش وأشد من ذلك على الرؤساء أعمال الحيلة عليهم في طلب الخلاص منهم متى عرفوا بسُرعة البطش ومعالجة الانتقام.

٢٦- حسن السمات

الحُسْنُ لغة:

قال الرازي: الحُسْنُ ضد القبح والجمع محاسِنُ على غير قياس كأنه جمع مُحَسِّنٍ وقد حَسُنَ الشيء بالضم حُسْنًا، وحَسَّنَ الشيء تحسِينًا زينه وأَحْسَنَ إليه وبه وهو يحسن الشيء أي يعلمه ويستحسنه أي يعده حَسَنًا. (١)

السَّمْتُ اصطلاحًا:

الطَّرِيقُ وَهَيْئَةُ أَهْلِ الْخَيْرِ وَالسَّيْرِ عَلَى الطَّرِيقِ بِالظَّنِّ وَحُسْنُ النَّحْوِ وَقَصْدُ الشَّيْءِ. (٢)

قال أبو عبيد:

السمت يكون في معنيين: أحدهما: حسن الهيئة والمنظر في مذهب الدين وَلَيْسَ من الجمال والزينة وَلَكِنْ يكون لَهُ هَيْئَةُ أَهْلِ الْخَيْرِ ومنظرهم، وأما الوجه الآخر فَإِنَّ السَّمْتَ الطَّرِيقُ يُقَالُ: الزم هَذَا السَّمْتَ كِلَاهُمَا لَهُ معنى جيد يكون أَنْ يَلْزَمَ طَرِيقَةَ أَهْلِ الْإِسْلَامِ وَيَكُونُ أَنْ يَكُونَ لَهُ هَيْئَةُ أَهْلِ الْإِسْلَامِ. (٣)

حسن السمات اصطلاحًا:

قال ابن الأثير: حُسْنُ الْهَيْئَةِ وَالْمَنْظَرِ فِي الدِّينِ، وَلَيْسَ مِنَ الْحُسْنِ وَالْجَمَالِ (٤).

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: حسن السمات صلاح الظاهر الذي يكون عن صلاح القلب (٥).

قال ابن القيم رحمه الله: فالهدي الطريقة التي عليها العبد، من أخلاقه وأقواله وأعماله، والدل ما يدل من ظاهره على باطنه، والسمات هيأته ووقاره ورزاقته. (٦)

(١) مختار الصحاح للرازي (ص: ١٦٧)، وانظر: الصحاح في اللغة للجوهري (٥/ ٢٠٩٩).

(٢) القاموس المحيط (ص: ١٩٧).

(٣) غريب الحديث للقاسم بن سلام (٣/ ٣٨٤)، وانظر: غريب الحديث لابن الجوزي (١/ ٤٩٥).

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٣٩٧).

(٥) جامع المسائل لابن تيمية (١/ ١٣٠).

(٦) إغاثة اللفهان من مصايد الشيطان (١/ ١١٥).

أثر السمات الحسن في العمل التطوعي:

السمت والمظهر الإسلامي هو أول رسالة دعوية تخرج من الإنسان؛ لتصل إلى قلوب الآخرين فإذا نجحت الرسالة الأولى كان وصول باقي الرسائل أكثر سهولة.

وأهل السنة أكرم الناس أخلاقاً، موصوفون بالاستقامة في الهدى والسمت والسلوك الظاهر قال الله عز وجل مادحاً نبيه صلى الله عليه وسلم: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: ٤]، وقال صلى الله عليه وسلم: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" (١)،

وقد ندبنا الله عز وجل إلى الاقتداء برسوله صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب: ٢١].

إن أهل السنة والجماعة هم حملة ميراث النبوة في جانبيها العلمي والعمل، ولا شك أن أبرز الجوانب العملية في الهدى النبوي هو الجانب الأخلاقي، ولذلك فإن أخلاق النبوة -من الرحمة، ومحبة الخير للناس، واحتمال أذاهم، والصبر على دعوتهم، هي المنبع الذي يستقي منه أهل السنة خصائصهم السلوكية والأخلاقية، والتي لا تقل أهمية في منظور الحق عن ميراث العلم والهدى الذي اختص به الله هذه الفرقة الناجية بفضلله ورحمته.

قال شيخ الإسلام: "الرسول صلى الله عليه وسلم بعثه الله تعالى هدى ورحمة للعالمين، فإنه كما أرسله بالعلم والهدى والبراهين العقلية والسمعية، فإنه أرسله بالإحسان إلى الناس، والرحمة لهم بلا عوض، وبالصبر على أذاهم واحتماله، فبعثه بالعلم والكرم والحلم، عليم هاد، كريم محسن، حلیم صفوح. . . فهو يعلم، ويهدي، ويصلح القلوب، ويدلها على صلاحها في الدنيا والآخرة بلا عوض. وهذا نعت الرسل كلهم. . . وهذه سبيل من اتبعه. . . وكذلك نعت أمته بقوله: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} [آل عمران: ١١٠]، قال أبو هريرة: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ}، قَالَ: خَيْرَ النَّاسِ لِلنَّاسِ تَأْتُونَ بِهِمْ فِي السَّلَاسِلِ فِي

(١) أخرجه أحمد (٨٧٢٩)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٧٣)، والحاكم في المستدرک (١٣)، وصححه، والألباني في صحيح الجامع (٢٣٤٩).

أَعْنَقِهِمْ، حَتَّى يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ. فيجاهدون ويبدلون أنفسهم وأموالهم، لمنفعة الخلق وصالحهم، وهم يكرهون ذلك لجهلهم^(١).

قال فضل الله الجيلاي: "لا يكون دين من الأديان خاليا من مكارم الأخلاق، لكن لم تكن الأخلاق الكريمة مجموعة كلها في دين من الأديان السابقة حتى جمع الله في دين الإسلام كل ما كان من أخلاق حسنة في أي دين، فهذا معنى: "أتم مكارم الأخلاق". . أي: أبلغ نهايتها لجهلهم"^(٢)

وقد تميز أهل السنة بهذه الخصلة الجميلة -كرم الخلق وحسن الهدي والسمت- وحرصوا عليها أشد الحرص.

قال ابن سيرين: "كانوا يتعلمون الهدي كما يتعلمون العلم" فافتدى السلف الصالح رضي الله عنهم برسول الله صلى الله عليه وسلم، وتخلقوا بأخلاقه، وامثلوا ما أمرهم به، وانتهوا عما نهاهم عنه، وكانوا كما قال الله عز وجل: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} [آل عمران: ١١٠].^(٣)

ومن ثمرات الالتزام بالهدي الظاهر ما يتبعه غالباً من صلاح الباطن وقد فصل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله هذه المسألة في الاقتضاء قال رحمه الله: ثم إن الصراط المستقيم هو أمور باطنة في القلب: من اعتقادات، وإرادات، وغير ذلك، وأمور ظاهرة: من أقوال، أو أفعال قد تكون عبادات، وقد تكون أيضاً عادات في الطعام واللباس، والنكاح والمسكن، والاجتماع والافتراق، والسفر والإقامة، والركوب وغير ذلك.

وهذه الأمور الباطنة والظاهرة بينهما ارتباط ومناسبة، فإن ما يقوم بالقلب من الشعور والحال يوجب أموراً ظاهرة، وما يقوم بالظاهر من سائر الأعمال، يوجب للقلب شعوراً وأحوالاً.

(١) مجموع الفتاوى (٣١٤/١٦-٣١٦) باختصار.

(٢) باختصار من فضل الله الصمد شرح الأدب المفرد ١/ ٢٧١.

(٣) طريق الهداية مبادئ ومقدمات علم التوحيد عند أهل السنة والجماعة (ص: ٧٩)

وقد بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم بالحكمة التي هي سنته، وهي الشريعة والمنهاج الذي شرعه له، فكان من هذه الحكمة أن شرع له من الأعمال والأقوال ما يبين سبيل المغضوب عليهم والضالين، فأمر بمخالفتهم في الهدى الظاهر وإن لم يظهر لكثير من الخلق في ذلك مفسدة لأمر:

منها: أن المشاركة في الهدى الظاهر تورث تناسبا وتشاكلاً بين المتشابهين، يقود إلى موافقة ما في الأخلاق والأعمال، وهذا أمر محسوس؛ فإن اللابس ثياب أهل العلم يجد من نفسه نوع انضمام إليهم، واللابس لثياب الجند المقاتلة - مثلاً - يجد من نفسه نوع تخلق بأخلاقهم، ويصير طبعه متقاضياً لذلك، إلا أن يمنعه مانع.

ومنها: أن المخالفة في الهدى الظاهر توجب مباينة ومفارقة توجب الانقطاع عن موجبات الغضب وأسباب الضلال، والانعطاف على أهل الهدى والرضوان، وتحقيق ما قطع الله من الموالاتة بين جنده المفلحين وأعدائه الخاسرين.

وكلما كان القلب أتم حياة، وأعرف بالإسلام - الذي هو الإسلام، لست أعني مجرد التوسم به ظاهراً أو باطناً بمجرد الاعتقادات من حيث الجملة - كان إحساسه بمفارقة اليهود والنصارى باطناً وظاهراً أتم، وبعده عن أخلاقهم الموجودة في بعض المسلمين أشد. (١)

فضل حسن السمات:

أولاً: من القرآن الكريم:

١- يقول تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ} (الأعراف: ٣٦).

روى الطبري في تفسيره عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: وَلِبَاسُ التَّقْوَى قال: السمات الحسن في الوجه. (٢)

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (١/ ١٠ - ١١).

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن الطبري: (١٢/ ٣٦٧).

٢- يقول تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيَاهُكُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} (الفتح: ٢٩)

وصف الله سبحانه وتعالى نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - ومن معه من الصحابة بأنهم أشداء أقوياء على الكفار رحماء مع بعضهم بعضا، ووصفهم بأنهم يكثرون الركوع والسجود لله، كما وصف نبيه ووصف من معه بأنهم ممن حُسن سميتهم

قال الطبري في تفسيره: "وقال ابن عباس ومجاهد: السيام في الدنيا وهو السميت الحسن". (١)
٣- قال تعالى: {قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي} (طه: ٩٤)

فدلالة الآية أن من علامات السميت الظاهر وهدي الأنبياء إعفاء اللحية:

وفي هذا كلام نفيس للعلامة الشنقيطي رحمه الله في "أضواء البيان" عند تفسير قوله قال: هذه الآية الكريمة بضميمة آية (الأنعام) إليها تدل على لزوم إعفاء اللحية، فهي دليل قرآني على إعفاء اللحية وعدم حلقها. وآية الأنعام المذكورة هي قوله تعالى: {ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون} الآية [الأنعام: ٨٤]. ثم إنه تعالى قال بعد أن عد الأنبياء الكرام المذكورين أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده، فدل ذلك على أن هارون من الأنبياء الذين أمر نبينا - صلى الله عليه وسلم - بالاعتداء بهم، وأمره - صلى الله عليه وسلم - بذلك أمر لنا. لأن أمر القدوة أمرٌ لأتباعه. (٢)

ثانياً: من السنة النبوية:

(١) تفسير الطبري (٢٢/٢٦٤).

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٤/ ٩٢).

١- عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: الْهُدْيُ الصَّالِحُ، وَالسَّمْتُ الصَّالِحُ، وَالْاِقْتِصَادُ، جُزْءٌ مِنْ خَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوَّةِ". (١)

قال الحافظ ابن حجر: قال القرطبي في المفهم: يحتمل أن يكون المراد من هذا الحديث أن المنام الصادق خصلة من خصال النبوة كما جاء في الحديث الآخر التؤدة والاقتصاد وحسن السميت جزء من ستة وعشرين جزءا من النبوة أي النبوة مجموع خصال مبلغ أجزائها ذلك وهذه الثلاثة جزء منها. (٢)

٢- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: خَصَلَتَانِ لَا تَجْتَمِعَانِ فِي مُنَافِقٍ حُسْنُ سَمْتٍ وَلَا فِقْهٌ فِي الدِّينِ. (٣)

قال السيوطي: قال الطيبي: ليس المراد أن واحدة منهما قد تحصل في المنافق دون الأخرى بل هو تحريض للمؤمن على اتصافه بهما معاً، والاجتناب عن ضدهما فإنَّ المنافق يكون عارياً منهما وهو من باب التغليظ ونحوه، قوله تعالى: {وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ} وليس من المشركين من يزكي لكنه حث للمؤمنين على الأداء، وتخويف من المنع حيث جعله من أوصاف المشركين، وحسن عطف، "ولا فقه" على "حسن سمت" وهو مثبت لأنه في سياق النفي. (٤)

٣- عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ، عَنْ أَبِيهِ مَالِكِ بْنِ عَوْفٍ، قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ثَوْبٍ دُونٍ، فَقَالَ: أَلَاكَ مَالٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: مِنْ أَيِّ الْمَالِ؟ قَالَ: قَدْ آتَانِي اللَّهُ مِنَ الْإِبِلِ، وَالْغَنَمِ، وَالْخَيْلِ، وَالرَّقِيقِ، قَالَ: فَإِذَا آتَاكَ اللَّهُ مَالًا فَلْيُرْ أَنْتُ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكَ، وَكَرَامَتِهِ. (٥)

نماذج من السميت الحسن عند الأنبياء :

١- إبراهيم عليه السلام

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٩٦)، وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٦١١).

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم للقرطبي (٦ / ١٥).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه (٢٦٨٤)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٧٨).

(٤) قوت المغتذي على جامع الترمذي (٢ / ٦٧٢).

(٥) أخرجه أبو داود (٤ / ٥١)، وأحمد (١٧٢٣١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٤).

في حديث ابن عباس قال: **أَوَّلَ مَا اتَّخَذَ النِّسَاءُ الْمِنْطَقَ مِنْ قَبْلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ** وفيه وَشَبَّ الْغُلَامَ وَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ، وَأَنْفَسَهُمْ وَأَعْجَبَهُمْ حِينَ شَبَّ، فَلَمَّا أَدْرَكَ زَوْجُوهُ امْرَأَةً مِنْهُمْ، وَمَاتَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، فَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ بَعْدَمَا تَزَوَّجَ إِسْمَاعِيلُ يُطَالِعُ تَرْكَتَهُ، فَلَمْ يَجِدْ إِسْمَاعِيلَ، فَسَأَلَ امْرَأَتَهُ عَنْهُ فَقَالَتْ: **خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، ثُمَّ سَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَقَالَتْ نَحْنُ بِشَرٍّ، نَحْنُ فِي ضَيْقٍ وَشِدَّةٍ، فَشَكَتْ إِلَيْهِ، قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكَ فَاقْرَأِي عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَقُولِي لَهُ يُغَيِّرُ عَتَبَةَ بَابِهِ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ كَانَتْهُ آتَسَ شَيْئًا، فَقَالَ: هَلْ جَاءَكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، جَاءَنَا شَيْخٌ كَذَا وَكَذَا، فَسَأَلْنَا عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ، وَسَأَلْنِي كَيْفَ عَيْشُنَا، فَأَخْبَرْتُهُ أَنَا فِي جَهْدٍ وَشِدَّةٍ، قَالَ: فَهَلْ أَوْصَاكَ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ السَّلَامَ، وَيَقُولَ غَيْرَ عَتَبَةَ بَابِكَ، قَالَ: ذَاكَ أَبِي، وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أَفَارِقَكَ، الْحَقِّي بِأَهْلِكَ، فَطَلَّقَهَا، وَتَزَوَّجَ مِنْهُمْ أُخْرَى، فَلَبِثَ عَنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَتَاهُمْ بَعْدُ فَلَمْ يَجِدْهُ، فَدَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ فَسَأَلَهَا عَنْهُ، فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، قَالَ: كَيْفَ أَنْتُمْ؟ وَسَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَقَالَتْ: نَحْنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ، وَأَنْتِ عَلَى اللَّهِ، فَقَالَ: مَا طَعَامُكُمْ؟ قَالَتْ اللَّحْمُ، قَالَ فَمَا شَرَابُكُمْ؟ قَالَتْ الْمَاءُ. قَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي اللَّحْمِ وَالْمَاءِ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ حَبٌّ، وَلَوْ كَانَ لَهُمْ دَعَا هُمْ فِيهِ. قَالَ: فَهُمَا لَا يَخْلُو عَلَيْهِمَا أَحَدٌ بَغَيْرِ مَكَّةَ إِلَّا لَمْ يُوَافِقَاهُ، قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكَ فَاقْرَأِي عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَمُرِّيهِ يُثَبِّتْ عَتَبَةَ بَابِهِ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ قَالَ: هَلْ أَتَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أَتَانَا شَيْخٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ، وَأَنْتِ عَلَيْهِ، فَسَأَلْنِي عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ. الحديث (١)**

٢- يوسف عليه السلام

يقول تعالى: {وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} (يوسف: ٣٦).

قال ابن كثير: قال السدي: كان سبب حبس الملك إياهما أنه توهم أنهما تمالآ على سمه في طعامه وشرابه، وكان يوسف عليه السلام قد اشتهر في السجن بالجلود والأمانة، وصدق

الحديث، وحسن السمات، وكثرة العبادة، صلوات الله عليه وسلامه، وَمَعْرِفَةُ التَّعْيِيرِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى أَهْلِ السَّجْنِ وَعِيَادَةُ مَرْضَاهُمْ وَالْقِيَامُ بِحُقُوقِهِمْ. (١)

٣- النبي محمد صلى الله عليه وسلم

في ذكر صفته صلى الله عليه وسلم الخلقية تجدها تين حسن سمته ومنها:

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَزْهَرَ اللَّوْنِ، كَانَ عَرَقُهُ اللَّؤْلُؤُ، إِذَا مَشَى تَكْفَأَ، وَلَا مَسِسْتُ دِيبَاجَةً، وَلَا حَرِيرَةً أَلَيَنَ مِنْ كَفِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا شَمِمْتُ مِسْكَةً وَلَا عَنْبَرَةً أَطْيَبَ مِنْ رَائِحَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٢)

وَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا مَشَى تَكْفَأَ تَكْفُؤًا كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ لَمْ أَرْ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ مِثْلَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. (٣)

قال النووي: قَوْلُهُ (إِذَا مَشَى تَكْفَأَ) هُوَ بِالْهَمْزِ وَقَدْ يُتْرَكُ هَمْزُهُ وَرَعَمَ كَثِيرُونَ أَنَّ أَكْثَرَ مَا يَرَوَى بِلَا هَمْزٍ وَلَيْسَ كَمَا قَالُوا قَالَ شِمْرُ أَيُّ مَالٍ يَمِينًا وَشِمَالًا كَمَا تَكْفَأُ السَّفِينَةُ قَالَ الْأَزْهَرِيُّ هَذَا خَطَأٌ لِأَنَّ هَذَا صِفَةُ الْمُخْتَالِ وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ أَنْ يَمِيلَ إِلَى سَمْتِهِ وَقَصْدُ مَشْيِهِ كَمَا قَالَ فِي الرَّوَايَةِ الْأُخْرَى: كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ فِي صَبَبٍ. قال القاضي: لا بعد فيما قاله شِمْرُ إِذَا كَانَ خِلْقَةً وَجِبَلَةً وَالْمَذْمُومُ مِنْهُ مَا كَانَ مُسْتَعْمَلًا مَقْصُودًا. (٤)

٤- عبد الله بن مسعود

ومن وصف بحسن السمات من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله بن مسعود. فعن عبد الرحمن بن يزيد - رحمه الله - قال: سألنا حذيفة عن رجل قريب السمات والهدي والدل من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى نأخذ عنه؟ فقال: ما أعرف أحدا أقرب

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤ / ٣٨٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٣٠).

(٣) سنن الترمذي (٥ / ٥٩٨)، وصححه الألباني في مختصر الشئائل (٤).

(٤) شرح النووي على مسلم (١٥ / ٨٦).

سَمَتَا وَهَدَيَا وَدَلَّا بِالنَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - من ابنِ أُمِّ عبد، يقصد عبد الله بن مسعود.

(١)

٥- فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم رضي الله عنها:

عن عائشة أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ قَالَتْ: إِنَّا كُنَّا أَزْوَاجَ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - عِنْدَهُ جَمِيعًا، لَمْ تُغَادِرْ مِنَّا وَاحِدَةً، فَأَقْبَلَتْ فَاطِمَةُ - عَلَيْهَا السَّلَامُ - تَمْشِي، لَا وَاللَّهِ مَا تَخْفَى مِشْيَتُهَا مِنْ مِشْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - فَلَمَّا رَأَاهَا رَحَّبَ قَالَ "مَرْحَبًا بِابْنَتِي" (٢)

ومن طريق آخر عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَشَبَّهَ سَمَتًا وَدَلًّا وَهَدِيًّا بِرَسُولِ اللَّهِ فِي قِيَامِهَا وَقُعُودِهَا مِنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - (٣)

٦- قال عبد الرحمن بن مهدي رحمه الله تعالى: كُنَّا نَأْتِي الرَّجُلَ مَا نُرِيدُ عِلْمَهُ لَيْسَ إِلَّا أَنْ نَتَعَلَّمَ مِنْ هَدِيهِ وَسَمَتِهِ وَدَلِّهِ. (٤)

٧- وقال أيضا: كان علي بن المديني وغير واحد يحضرون عند يحيى بن سعيد القطان ما يريدون أن يسمعوا شيئا إِلَّا أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى هَدِيهِ وَسَمَتِهِ. (٥)

٨- قال أبو عاصم النبيل - رحمه الله تعالى -: مات حماد بن زيد يوم مات ولا أعلم له في الإسلام نظيرا في هيئته ودلِّهِ وَسَمَتِهِ. (٦)

٩- قال ابن الجوزي: وقد كان جماعة من السلف يقصدون العبد الصالح للنظر إلى سمته وهديه لا لاقتباس علمه، وذلك أن ثمرة علمه هديه وسمته. فافهم هذا، وامزج طلب الفقه والحديث بمطالعة سير السلف والزهاد في الدنيا، ليكون سببا لركة قلبك (١).

(١) أخرجه البخاري (٣٥٥١).

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٢٨).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه (٣٨٧٢)، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وقد روي

هذا الحديث من غير وجه عن عائشة.

(٤) الآداب الشرعية (٢/ ١٤٩).

(٥) الآداب الشرعية (٢/ ١٤٩).

(٦) سير أعلام النبلاء (٧/ ٤٥٩).

١٠- قال ابن مفلح رحمه الله: كان يحضر مجلس أحمد زهاء خمسة آلاف أو يزيدون، أقلّ من خمسمائة يكتبون، والباقي يتعلّمون منه حسن الأدب وحسن السمت. (٢)

(١) صيد الخاطر (ص ٧١).

(٢) الآداب الشرعية (٢ / ١٢).

٢٧-الوقار

الوقار لغة:

مصدر قولهم: وقر يقر وقرًا وهو مأخوذ من مادة (وقر) التي تدلّ على ثقل في الشيء، ومن ذلك الوقار: الحلم والرّزانة، والتّوقير: التّعظيم والترزين، وأمّا قولك: وقر الرّجل: أي بجّله وعظّمه، ومنه قوله تعالى: {وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ} (١).

واصطلاحًا:

هو سكون النفس وثباتها عند الحركات التي تكون في المطالب (٢)

وقيل: هو التّأني في التّوجّه نحو المطالب. (٣)

قال الغزالي: أما الوقار فهو وسط بين الكبر والتواضع (٤)

الآيات الواردة في فضل الوقار والحث عليه:

١- يقول تعالى ذكره: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا}

قال الطبري: أي بالحلم والسكينة والوقار غير مستكبرين، ولا متجبرين، ولا ساعين فيها بالفساد ومعاصي الله. (٥)

قال ابن كثير: هَذِهِ صِفَاتُ عِبَادِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ {الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا} أي: بِسَكِينَةٍ وَوَقَارٍ مِنْ غَيْرِ جَبَرِيَّةٍ وَلَا اسْتِكْبَارٍ، كَمَا قَالَ: {وَلَا تَمْشِي فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا} [الإِسْرَاءِ: ٣٧]. فَأَمَّا هَؤُلَاءِ فَإِنَّهُمْ يَمْشُونَ مِنْ غَيْرِ اسْتِكْبَارٍ وَلَا مَرَحٍ، وَلَا أَشْرَ وَلَا بَطَرَ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّهُمْ يَمْشُونَ كَالْمُرْضَى مِنَ التَّصَانِعِ تَصْنَعًا وَرِيَاءً،

(١) الصحاح (٢/ ٨٤٨)، ولسان العرب مادة وقر، مفردات القرآن (٨٨٠)، المصباح المنير في غريب الشرح

الكبير (٢/ ٦٦٨)

(٢) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق لمسكويه (ص ٢٨).

(٣) التعريفات (٢٠٥).

(٤) ميزان العمل (ص ٢٧٧).

(٥) تفسير الطبري (١٩/ ٢٩٣).

فَقَدْ كَانَ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا مَشَى كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ، وَكَأَنَّمَا الْأَرْضُ تُطْوَى لَهُ. (١).

٢- وقال الله تبارك وتعالى: {وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ} [لقمان: ١٩].

قال الخازن: أي: ليكون في مشيتك قصدٌ بين الإسراع والتأني، أمّا الإسراع فهو من الخيلاء، وأمّا التأني فهو أن يُرى في نفسه الضعف ترهّداً، وكلا الطرفين مذمومٌ، بل ليكون مشيك بين السكينة والوقار. (٢)

الأحاديث الواردة في فضل الوقار والحث عليه:

١- عَنِ الْمُقَدِّمِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ الْكِنْدِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنْ لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ سِتْ خِصَالٍ: أَنْ يُغْفَرَ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ مِنْ دَمِهِ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُحَلَّى حُلَّةَ الْإِيمَانِ، وَيُزَوَّجَ مِنَ الْخُورِ الْعَيْنِ، وَيُجَارَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَيَأْمَنَ مِنَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ، وَيُوضَعَ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ الْيَاقُوتَةُ مِنْهُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَيُزَوَّجَ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الْخُورِ الْعَيْنِ، وَيُسَفَّعَ فِي سَبْعِينَ إِنْسَانًا مِنْ أَقَارِبِ. (٣)

قال المبكفوري: قوله: (ويوضع على رأسه تاج الوقار) أي: تاج هو سبب العزة والعظمة.

وفي النهاية: التاج ما يصاغ للملوك من الذهب والجواهر (الياقوتة منها) أي من التاج والتأنيث باعتبار أنه علامة العز والشرف أو باعتبار أنه مجموع من الجواهر وغيرها. (٤)

٢- عَنْ بُرَيْدَةَ الْأَسْلَمِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: " تَعَلَّمُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ؛ فَإِنَّ أَخَذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرَكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا يَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ ". قَالَ: ثُمَّ سَكَتَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: " تَعَلَّمُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، وَآلَ عِمْرَانَ؛ فَإِنَّهُمَا الزَّهْرَاوَانِ يُظْلَانِ "

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ١٢٢.

(٢) تفسير الخازن ٣/ ٣٩٩.

(٣) أخرجه عبد الرزاق (٩٥٥٩)، وأحمد (١٣١/٤)، والترمذي (١٦٦٣) قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٢١٣).

(٤) تحفة الأحوذى (٥/ ٢٤٨).

صَاحِبُهُمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ غَيَّاتَانِ أَوْ فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍّ، وَإِنَّ الْقُرْآنَ يَلْقَى صَاحِبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَنْشَقُّ عَنْهُ قَبْرُهُ كَالرَّجُلِ الشَّاحِبِ. فَيَقُولُ لَهُ: هَلْ تَعْرِفُنِي؟ فَيَقُولُ: مَا أَعْرِفُكَ فَيَقُولُ: أَنَا صَاحِبُكَ الْقُرْآنَ الَّذِي أَظْمَأْتُكَ فِي الْهُوَاجِرِ وَأَسْهَرْتُ لَيْلَكَ، وَإِنَّ كُلَّ تَاجِرٍ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَتِهِ، وَإِنَّكَ الْيَوْمَ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ تِجَارَةٍ فَيُعْطَى الْمُلْكُ بِيَمِينِهِ، وَالْخُلْدُ بِشِمَالِهِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، وَيُكْسَى وَالِدَاهُ حُلَّتَيْنِ لَا يَقُومُ هُمَا أَهْلُ الدُّنْيَا فَيَقُولَانِ: بِمِ كَسِينَا هَذَا؟ فَيَقَالُ: بِأَخْذِ وَلَدِكُمَا الْقُرْآنَ. ثُمَّ يَقَالُ لَهُ: اقْرَأْ وَاصْعَدْ فِي دَرَجِ الْجَنَّةِ وَغَرَفْهَا، فَهُوَ فِي صُعودٍ مَا دَامَ يَقْرَأُ، هَذَا كَانَ، أَوْ تَرْتِيلاً. (١)

٣- عن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي صلى الله عليه وسلم: أَتَاكُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ، هُمْ أَرْقُ أَفْنَدَةٍ وَالْأَيْنُ قُلُوبًا، الْإِيمَانُ يَمَانٌ وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَّةٌ، وَالْفَخْرُ وَالْخِيَلَاءُ فِي أَصْحَابِ الْإِبِلِ، وَالسَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ فِي أَهْلِ الْغَنَمِ. (٢)

تخصيص الخيلاء بأصحاب الإبل، والوقار بأهل الغنم يدل على أن مخالطة الحيوان تؤثر في النفس وتعدي إليها هيئات وأخلاقا تناسب طباعها وتلائم أحوالها، قلت: ولهذا قيل الصحبة تؤثر في النفس، ولعل هذا أيضا وجه الحكمة في أن كل نبي رعى الغنم، وخلاصة الكلام ورابطة النظام بين فصول الحديث أن أهل اليمن يغلب عليهم الإيمان والحكمة، كما أن أهل الإبل يغلب عليهم الفخر، وأهل الغنم يغلب عليهم السكون، فمن أراد صحبة أهل الإيمان والعرفان، فعليه بمصاحبة نحو أهل اليمن على وجه الإيمان قال تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ } [التوبة: ١١٩] (٣)

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٤٨)، والدارمي (٣٣٩١)، والبيهقي في الشعب (١٨٣٥)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٣٣٠): رجاله رجال الصحيح، وقال ابن حجر في إتحاف الخيرة المهرة (٥٩٥٢): إسناده حسن، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٨٢٩).

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٨٨)، ومسلم (٥٢).

(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/ ٤٠٣٧).

٤- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِذَا سَمِعْتُمُ الْإِقَامَةَ، فَأْمُسُوا إِلَى الصَّلَاةِ وَعَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ، وَلَا تُسْرِعُوا، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا. (١)

قال النووي: قوله صلى الله عليه وسلم: (وعليه السكينة والوقار) قيل: هما بمعنى وجمع بينهما تأكيداً والظاهر أن بينهما فرقاً وأن السكينة التأني في الحركات واجتناب العبث ونحو ذلك، والوقار في الهيئة وغيض البصر وخفض الصوت والإقبال على طريقه بغير التفات ونحو ذلك والله أعلم. (٢)

٥- قال تعالى: {مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا} (نوح-١٣)

قال الطبري: ما لكم لا تخافون الله عظمة، وذلك أن الرجاء قد تضعه العرب إذا صحبه الجحد في موضع الخوف. (٣)

قال ابن القيم:

من أعظم الظلم والجَهل أن تطلب التَّعْظِيمَ والتَّوقِيرَ مِنَ النَّاسِ وَقَلْبَكَ خَالٍ مِنْ تَعْظِيمِ اللَّهِ وَتَوْقِيرِهِ فَإِنَّكَ تَوَقِّرُ الْمَخْلُوقَ وَتَجَلِّهِ أَنْ يَرَاكَ فِي حَالٍ لَا تَوَقِّرُ اللَّهَ أَنْ يَرَاكَ عَلَيْهَا، قَالَ تَعَالَى "مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا" أَي: لَا تَعَامِلُونَهُ مُعَامَلَةً مَنْ تَوَقَّرُونَهُ وَالتَّوقِيرَ وَالْعِظَمَةَ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: "وَتَوَقَّرُوهُ: قَالَ الْحَسَنُ: مَا لَكُمْ لَا تَعْرِفُونَ لِلَّهِ حَقًّا وَلَا تَشْكُرُونَهُ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: لَا تَبَالُونَ عِظَمَةَ رَبِّكُمْ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: لَا تَرَوْنَ لِلَّهِ طَاعَةً، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا تَعْرِفُونَ حَقَّ عِظَمَتِهِ. وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ تَرْجِعُ إِلَى مَعْنَى وَاحِدٍ وَهُوَ أَنَّهُمْ لَوْ عَظَّمُوا اللَّهَ وَعَرَفُوا حَقَّ عِظَمَتِهِ وَخَدَّوهُ وَأَطَاعُوهُ وَشَكَرُوهُ فَطَاعَتُهُ سُبْحَانَهُ اجْتَنَابُ مَعَاصِيهِ وَالْحَيَاءُ مِنْهُ بِحَسَبِ وَقَارِهِ فِي الْقَلْبِ وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: لِيَعْظُمَ وَقَارُ اللَّهِ فِي قَلْبِ أَحَدِكُمْ أَنْ يَذْكُرَهُ عِنْدَ مَا يَسْتَحْيِي مِنْ ذِكْرِهِ فَيَقْرَنَ اسْمُهُ بِهِ كَمَا تَقُولُ قَبَّحَ اللَّهُ الْكَلْبَ وَالْخَنَزِيرَ وَالتَّنَّ وَنَحْوَ ذَلِكَ، فَهَذَا مِنْ وَقَارِ

(١) أخرجه البخاري (٦٣٦)، صحيح مسلم (٦٠٢).

(٢) شرح النووي على مسلم (١٠٠ / ٥).

(٣) تفسير الطبري (٢٣ / ٦٣٤ - ٦٣٥).

الله وَمَنْ وقاره أَنْ لَا تعدل بِهِ شَيْئًا مِنْ خلقه لَا فِي اللَّفْظِ بَحِثْ تَقُول: وَالله وحياتك مَالِي إِلَّا الله وَأَنْت وَمَا شَاءَ الله وشئت وَلَا فِي الْحَبِّ والتَّعْظِيم والإجلال وَلَا فِي الطَّاعَةِ فتطيع المَخْلُوق فِي أمره وَمَنْهيه كَمَا تطيع الله بل أعظم كَمَا عَلَيْهِ أَكْثَر الظلمة والفجرة وَلَا فِي الْخَوْف والرجاء ويجعله أَهْوَن الناظرين إِلَيْهِ وَلَا يستهين بِحَقِّهِ وَيَقُول هُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى الْمُسَامَحَةِ وَلَا يجعله عَلَى الفضلة ويقدم حق المَخْلُوق عَلَيْهِ وَلَا يكون الله وَرَسُوله فِي حد وناحية وَالنَّاس فِي نَاحِيَةٍ وَحد فيكون فِي الحُد والشق الَّذِي فِيهِ النَّاس دون الحُد والشق الَّذِي فِيهِ الله وَرَسُوله وَلَا يُعْطِي المخلوق فِي مخاطبته قلبه ولبه وَيُعْطِي الله فِي خدمته بدنه وَلِسَانه دون قلبه وروحه وَلَا يَجْعَل مُرَادَ نَفْسِهِ مقدما عَلَى مُرَادِ رَبِّهِ.

فَهَذَا كُلُّهُ مِنْ عَدَم وقار الله فِي القلب وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَإِنَّ الله لَا يَلْقِي لَهُ فِي قُلُوبِ النَّاسِ وقَارًا وَلَا هَيْبَةً بل يَسْقُط وقاره وهيبته مِنْ قُلُوبِهِمْ وَإِنْ وَقَرُوهُ مَخَافَةً شَرَّهُ فَذَاكَ وقار بغض لَا وقار حب وتعظيم. وَمَنْ وقار الله أَنْ يستحي مِنْ إطلاعه عَلَى سره وضميره فَيَرى فِيهِ مَا يَكْرَهُ. وَمَنْ وقاره أَنْ يستحي مِنْهُ فِي الْخُلُوةِ أعظم مِمَّا يستحي مِنْ أَكْبَرِ النَّاسِ. (١)

أقوال السلف والعلماء فِي مدح (صفة الوقار)

❖ قَالَ ذُو الثُّنُونِ: ثَلَاثَةٌ مِنْ أَعْلَامِ الْوَقَارِ: تَعْظِيمُ الْكَبِيرِ، وَالتَّرَحُّمُ عَلَى الصَّغِيرِ، وَالتَّحَلُّمُ عَلَى الْوَضِيعِ. (٢)

❖ عَنْ عَمْرَانَ بْنِ مُسْلِمٍ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: تَعْلَمُوا الْعِلْمَ وَعَلِمُوهُ النَّاسَ وَتَعْلَمُوا لَهُ الْوَقَارَ وَالسَّكِينَةَ وَتَوَاضَعُوا لِمَنْ يَعْلَمُكُمْ عِنْدَ الْعِلْمِ وَتَوَاضَعُوا لِمَنْ تَعْلَمُوهُ الْعِلْمَ وَلَا تَكُونُوا جَبَابِرَةَ الْعُلَمَاءِ فَلَا يَقُومُ عِلْمُكُمْ بِجَهْلِكُمْ. (٣)

❖ الْوَقَارُ مِنَ اللَّهِ فَمَنْ رَزَقَهُ اللَّهُ الْوَقَارَ فَقَدْ وَسَّمَهُ بِسِمَةِ الْخَيْرِ وَقَالُوا مَنْ تَكَلَّمَ بِالْحِكْمَةِ لَا حَظَّ لَهُ الْعُيُونُ بِالْوَقَارِ. (١)

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ١٨٧)

(٢) شعب الإيمان (١٣ / ٣٦٠)

(٣) أخرجه البيهقي فِي شعب الإيمان (١٦٥١).

نماذج لصفة الوقار.

١- في وصف أم معبد للنبي صلى الله عليه وسلم: "إِنْ صَمَتَ فَعَلَيْهِ الْوَقَارُ، وَإِنْ تَكَلَّمَ سَمًا وَعَلَاهُ الْبَهَاءُ، أَجْمَلُ النَّاسِ مِنْ بَعِيدٍ، وَأَخْلَاهُ وَأَحْسَنُهُ مِنْ قَرِيبٍ، حُلُوُ الْمُنْطِقِ، فَضْلٌ، لَا نَزْرٌ وَلَا هَذْرٌ، كَانَ مَنْطِقُهُ خَرَزَاتٍ نَظْمٌ يَنْحَدِرْنَ، رُبْعَةٌ" (٢)

٢- وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: مَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُسْتَجْمِعًا قَطُّ ضَاحِكًا، حَتَّى أَرَى مِنْهُ هَوَاتِيهِ، إِنَّمَا كَانَ يَتَبَسَّمُ (٣).

قال ابن حجر: والذي يظهر من مجموع الأحاديث: أنه صلى الله عليه وسلم كان - في معظم أحواله - لا يزيد على التبسم، وربما زاد على ذلك، فضحك، والمكروه من ذلك إنما هو الإكثار منه أو الإفراط فيه؛ لأنه يذهب الوقار. (٤)

٣- عن سعيد بن المسيب قال: كان إبراهيم أول الناس أضاف الضيف، وأول الناس قص شاربه وقلم أظفاره واستحد، وأول الناس اختتن، وأول الناس رأى الشيب فقال: يا رب، ما هذا؟ قال: الوقار، قال: رب زدني وقارا. (٥)

٤- قال عمر - رضي الله عنه -: كان أبو بكر - رضي الله عنه - يوم السقيفة أحلم مني وأوقر، والله ما ترك من كلمة أعجبتني في تزويري. إلا قال في بديته مثلها أو أفضل منها حتى سكت. . . الحديث (٦).

٥- وقال ابن المبارك يمدح الإمام مالك إمام دار الهجرة:
يأبى الجواب فما يراجع هيبة. . . فالسائلون نواكس الأذقان

(١) الآداب الشرعية (٢ / ٣٢٧).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣ / ٩ - ١٠)، وقال: إسناده صحيح.

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٩٢)، وقد ذكر النووي هذا الحديث تحت باب الوقار والسكينة في كتابه رياض الصالحين.

(٤) فتح الباري لابن حجر (١٠ / ٥٠٥).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة مصنفه (٩ / ٥٨) مرسلًا.

(٦) أخرجه البخاري (٦٨٣٠) وهو جزء من حديث طويل.

هدي الوقار وعز سلطان التقى . . . فهو المهيّب وليس ذا سلطان^(١)

(١) من أعلام أهل السنة والجماعة عبد الله بن المبارك ١/٤١.

٢٨- كتمان السر

المتطوع مؤتمن على الكثير من أسرار الناس فقد يأتيه أحد المكلومين يشكوهما ألم به أو فضيحة وقعت له ، فلا يليق بالمتطوع أن ينشر سرا ، بل يحفظ ولا يجهر ويستر ولا يفضح .
الكتمان لغة: مصدر قولهم: كتم يكتم، كتمًا وكتمانًا، وهو مأخوذ من مادة (ك ت م) التي تدلّ على الإخفاء، ومن ذلك قولك: كتمت الحديث كتمًا وكتمانًا،^(١).
وقولهم: سرّ كاتم، أي مكتوم. ومكتم (بالتشديد) بولغ في كتمان، واكتتمته مثل كتمته.^(٢)
الكتمان اصطلاحًا:

قال المناويّ: الكتمان: هو ستر الحديث.^(٣)

وعرفه الميداني بقوله: هو ضبط النفس ضد دوافع التعبير عما يختلج فيها.^(٤)
السّر لغة:

السّر في اللّغة: اسم لما يسرّ به الإنسان أي يكتمه، وهو مأخوذ من مادة (س ر ر) التي تدلّ على إخفاء الشيء^(٥).
والإسرار خلاف الإعلان.^(٦)

السّر اصطلاحًا: قال الرّاغب: السّر: هو الحديث المكتم في النفس.^(٧)
علاقة كتمان السر بالعمل التطوعي:

(١) المفردات (٤٢٦).

(٢) لسان العرب (كتم) (٣٨٢٢ - ٣٨٢٤).

(٣) التوقيف (٢٨٠).

(٤) الأخلاق الإسلامية لعبد الرحمن الميداني (٢ / ٣٤٣).

(٥) مقاييس اللغة (٦٧ / ٣).

(٦) المفردات (٢٢٨).

(٧) الذريعة إلى مكارم الشريعة، الأصبهاني (١٩٤).

إن أساس العمل التطوعي هو التعامل مع خلق الله ودعائه التعرف على حاجاتهم ولوازمهم معرفة كثير من شئونهم وربما عوراتهم فمن لم يستطع تحمل أمانة كتمان سرهم، فأثني له أن يؤدي أمانة ربه فيهم.

ثانيا: الأدلة على صفة الكرم من القرآن والسنة:

من القرآن:

١- قال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} الأنفال: ٢٧ - ٢٨

كانوا يسمعون من النبي صلى الله عليه وسلم الحديث فيفشونه حتى يبلغ المشركين. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم نهاكم أن تخونوا الله والرسول، كما صنع المنافقون.^(١)

٢- قال تعالى حكاية عن كتمان يوسف عليه السلام للرؤيا التي رآها بأمر من أبيه: {قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ} [يوسف: ٥]

قال ابن كثير: يقول تعالى مخبراً عن قول يعقوب لابنه يوسف حين قص عليه ما رأى من هذه الرؤيا، التي تعبيرها خضوع إخوته له وتعظيمهم إياه تعظيماً زائداً، بحيث يخرجون له ساجدين إجلالاً وإكراماً واحتراماً فخشي يعقوب، عليه السلام، أن يحدث بهذا المنام أحداً من إخوته فيحسدوه على ذلك، فيبغوا له الغوائل، حسداً منهم له؛ ولهذا قال له: لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا أَي: يحتالوا لك حيلة يردونك فيها. . . ومن هذا يؤخذ الأمر بكتمان النعمة حتى توجد وتظهر.^(٢)

٣- وقال سبحانه في مؤمن آل فرعون الذي كتم إيمانه: {وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ} [غافر: ٢٨]

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤ / ٤٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤ / ٣٧١).

الأحاديث الواردة في كتمان السر:

١- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ مِنْ أَشْرِّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الرَّجُلُ يُفْضِي إِلَى امْرَأَتِهِ، وَتُفْضِي إِلَيْهِ، ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا. (١)
قال النووي: في هذا الحديث تحريم إفشاء الرجل ما يجري بينه وبين امرأته من أمور الاستمتاع ووصف تفاصيل ذلك وما يجري من المرأة فيه من قول أو فعل ونحوه، فأما مجرد ذكر الجماع فإن لم تكن فيه فائدة ولا إليه حاجة فمكروه لأنه خلاف المروءة. (٢)

٢- عن جابر - رضي الله عنه - عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: إِذَا حَدَّثَ الرَّجُلُ الْحَدِيثَ ثُمَّ التَفَتَ فَهِيَ أَمَانَةٌ. (٣).

قال المناوي في شرحه لهذا الحديث: ((ثم التفت)) أي: غاب عن المجلس أو التفت يميناً وشمالاً فظهر من حاله بالقرائن أن قصده أن لا يطلع على حديثه غير الذي حدث به (فهي) أي: الكلمة التي حدث بها (أمانة) عند المحدث أو دعه إياها فإن حدث بها غيره فقد خالف أمر الله حيث أدّى الأمانة إلى غير أهلها فيكون من الظالمين فيجب عليه كتمانها إذ التفاته بمنزلة استكثامه بالنطق قالوا: وهذا من جوامع الكلم لما في هذا اللفظ الوجيز من الحمل على آداب العشرة وحسن الصحبة وكنم السر وحفظ الود والتحذير من النسيئة بين الإخوان المؤدية للشنآن ما لا يخفى. (٤)

٣- عن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اسْتَعِينُوا عَلَى إِنْجَاحِ الْخَوَائِجِ بِالْكِتْمَانِ، فَإِنَّ كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ مَحْسُودٌ. (٥)

(١) أخرجه مسلم (١٤٣٧).

(٢) شرح مسلم للنووي (٨ / ١٠).

(٣) أخرجه أحمد (٣ / ٣٢٤)، وأبو داود (٤٨٦٨)، والترمذي (١٩٥٩) وحسنه، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٨٦).

(٤) فيض القدير للمناوي (٣٢٩ / ١).

(٥) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٩٤ / ٢٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٤٣).

أي: كونوا لها كاتمين عن الناس واستعينوا بالله على الظفر بها ثم علل طلب الكتمان لها بقوله ((فإن كل ذي نعمة محسود)) يعني إن أظهرتم حوائجكم للناس حسدوكم فعارضوكم في مرامكم وموضع الخبر الوارد في التحدث بالنعمة ما بعد وقوعها وأمن الحسد وأخذ منه أن على العقلاء إذا أرادوا التشاور في أمر إخفاء التحاور فيه ويجتهدوا في طي سرهم.^(١)

من الآثار وأقوال العلماء الواردة في كتمان السر:

- ١- قال علي بن أبي طالب: سرّك أسيرك، فإن تكلمت به صرت أسيره.^(٢)
- ٢- قال عمرو بن العاص - رضي الله عنه - ما وضعت سرّي عند أحد أفشاه علي فلمته، أنا كنت أضيق به حيث استودعته إيّاه.^(٣)
- ٣- عن الحسن رحمه الله - قال: إن من الخيانة أن تحدّث بسرّ أخيك.^(٤)
- ٤- عن سعيد بن المسيّب - رحمه الله - قال: كتب إليّ بعض إخواني من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم: أن ضع أمر أخيك على أحسنه ما لم يأتك ما يغلبك، ولا تظنّ بكلمة خرجت من امرئ مسلم شراً وأنت تجد لها في الخير محملاً، ومن عرض نفسه للتهم فلا يلومنّ إلا نفسه. ومن كتم سرّه كانت الخيرة في يده. وما كافأت من عصي الله تعالى فيك بمثل أن تطيع الله تعالى فيه. . . الأثر^(٥).
- ٥- قال بعض الحكماء لابنه: يا بني كن جواداً بالمال في موضع الحقّ. ضنيماً بالأسرار عن جميع الخلق، فإنّ أحمد جود المرء، الإنفاق في وجه البرّ، والبخل بمكتوم السرّ.^(٦)
- ٦- وقال بعض الفصحاء: ما لم تغيّب الأضالع فهو مكشوف ضائع.^(٧)

(١) فيض القدير للمناوي (١/ ٤٩٣).

(٢) أدب الدنيا والدين، الهارودي (٢٩٥).

(٣) الصمت وآداب اللسان (٤٥١ - ٤٥٢).

(٤) الصمت وآداب اللسان (٤٥٠ - ٤٥١).

(٥) شعب الإيثار (٨٣٤٥).

(٦) أدب الدنيا والدين (٢٩٥).

(٧) أدب الدنيا والدين (٢٩٥).

٧- وقد قيل: الصبر على القبض على الجمر أيسر من الصبر على كتمان السر. (١)

نماذج لكتمان السر:

كتمان السر عند النبي صلى الله عليه وسلم

١- كان النبي صلى الله عليه وسلم يكتُم أسرار خططه في الغزوات، وكان من هديه إذا أراد غزوة ورى بغيرها. (٢)

٢- عن عبيد الله بن أبي رافع، قال: سَمِعْتُ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَقُولُ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَا وَالزُّبَيْرُ، وَالْمُقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ، قَالَ: انْطَلَقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخ، فَإِنَّ بِهَا ظُعِينَةً، وَمَعَهَا كِتَابٌ فَخُذُوهُ مِنْهَا، فَانْطَلَقْنَا تَعَادَى بَنَّا حَيْلُنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى الرَّوْضَةِ، فَإِذَا نَحْنُ بِالظُّعِينَةِ، فَقُلْنَا أَخْرِجِي الْكِتَابَ، فَقَالَتْ: مَا مَعِيَ مِنْ كِتَابٍ، فَقُلْنَا: لَتُخْرِجَنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَتُلْقِيَنَّ الْكِتَابَ، فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا، فَاتَيْنَا بِهِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِذَا فِيهِ مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى أَنَاسٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا حَاطِبُ مَا هَذَا؟، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ، وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا، وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ بِمَكَّةَ يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَاهُمْ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ، أَنْ أَخْجِدَ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي، وَمَا فَعَلْتُ كُفْرًا وَلَا ارْتِدَادًا، وَلَا رِضًا بِالْكَفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَقَدْ صَدَقَكُمُ، قَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْنِي أَضْرِبَ عَنْقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، قَالَ: " إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ قَدْ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ. (٣)

من كتمان السر عند الصحابة:

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة الأصفهاني (٢٩٨).

(٢) سيرة ابن هشام (٦٠٢/١).

(٣) أخرجه البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (١٦١).

١- عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، حِينَ تَأَيَّمَتْ حَفْصَةُ بِنْتُ عُمَرَ مِنْ حُنَيْسِ بْنِ حُذَافَةَ السَّهْمِيِّ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، تُوفِّيَ بِالْمَدِينَةِ، قَالَ عُمَرُ: فَلَقِيتُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ، فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ حَفْصَةَ، فَقُلْتُ: إِنْ شِئْتَ أَنْكَحْتُكَ حَفْصَةَ بِنْتَ عُمَرَ، قَالَ: سَأَنْظُرُ فِي أَمْرِي، فَلَبِثْتُ لَيْلًا، فَقَالَ: قَدْ بَدَأَ لِي أَنْ لَا أَتَزَوَّجَ يَوْمِي هَذَا، قَالَ عُمَرُ: فَلَقِيتُ أَبَا بَكْرٍ، فَقُلْتُ: إِنْ شِئْتَ أَنْكَحْتُكَ حَفْصَةَ بِنْتَ عُمَرَ، فَصَمَتَ أَبُو بَكْرٍ فَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا، فَكُنْتُ عَلَيْهِ أَوْجَدَ مِنِّي عَلَى عُثْمَانَ، فَلَبِثْتُ لَيْلًا ثُمَّ خَطَبَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَنْكَحْتُهَا إِيَّاهُ فَلَقِيتُ أَبَا بَكْرٍ فَقَالَ: لَعَلَّكَ وَجَدْتَ عَلَيَّ حِينَ عَرَضْتَ عَلَيَّ حَفْصَةَ فَلَمْ أَرْجِعْ إِلَيْكَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَإِنَّهُ لَمْ يَمْنَعْنِي أَنْ أَرْجِعَ إِلَيْكَ فِيمَا عَرَضْتَ، إِلَّا أَنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ ذَكَرَهَا، فَلَمْ أَكُنْ لِأُفْشِي سِرَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَوْ تَرَكَهَا لَقِيلَتْهَا. (١)

٢- عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كُنَّ أَزْوَاجُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَهُ، لَمْ يُغَادِرْ مِنْهُنَّ وَاحِدَةً، فَأَقْبَلَتْ فَاطِمَةُ تَمْشِي، مَا تُخْطِئُ مَشْيُهَا مِنْ مِشْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا، فَلَمَّا رَأَاهَا رَحَّبَ بِهَا، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِابْنَتِي ثُمَّ أَجْلَسَهَا عَنْ يَمِينِهِ أَوْ عَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ سَارَهَا فَبَكَتْ بُكَاءً شَدِيدًا، فَلَمَّا رَأَى جَزَعَهَا سَارَهَا الثَّانِيَةَ فَضَحِكَتْ، فَقُلْتُ لَهَا: خَصَّكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ بَيْنِ نِسَائِهِ بِالسَّرَارِ، ثُمَّ أَنْتِ تَبْكِينَ؟ فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سَأَلْتُهَا مَا قَالَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَتْ: مَا كُنْتُ أَفْشِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِرَّهُ، قَالَتْ: فَلَمَّا تُوفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْتُ: عَزَمْتُ عَلَيْكَ، بِمَا لِي عَلَيْكَ مِنَ الْحَقِّ، لَمَّا حَدَّثْتَنِي مَا قَالَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ: أَمَّا الْآنَ، فَنَعَمْ، أَمَّا حِينَ سَارَنِي فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى، فَأَخْبَرَنِي أَنَّ جَبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُهُ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ سَنَةٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ، وَإِنَّهُ عَارَضَهُ الْآنَ مَرَّتَيْنِ، وَإِنِّي لَا أَرَى الْأَجَلَ إِلَّا قَدْ اقْتَرَبَ، فَأَتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي، فَإِنَّهُ نِعَمَ السَّلَفُ أَنَا لَكَ " قَالَتْ: فَبَكَيتُ بُكَائِي الَّذِي رَأَيْتُ، فَلَمَّا رَأَى جَزَعِي سَارَنِي الثَّانِيَةَ، فَقَالَ: يَا فَاطِمَةُ أَمَّا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، أَوْ سَيِّدَةَ

نِسَاءَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، قَالَتْ: فَضَحِكْتُ ضَحِكِي الَّذِي رَأَيْتِ. ^(١)

٣- عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَتَى عَلِيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَا أَلْعَبُ مَعَ الْغُلَامِ، قَالَ: فَسَلَّمَ عَلَيْنَا، فَبَعَثَنِي إِلَى حَاجَةٍ، فَأَبْطَأْتُ عَلَى أُمِّي، فَلَمَّا جِئْتُ قَالَتْ: مَا حَبَسَكَ؟ قُلْتُ بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِحَاجَةٍ، قَالَتْ: مَا حَاجَتُهُ؟ قُلْتُ: إِنَّهَا سِرٌّ، قَالَتْ: لَا تُحَدِّثَنَّ بِسِرِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَدًا قَالَ أَنَسٌ: وَاللَّهِ لَوْ حَدَّثْتُ بِهِ أَحَدًا لَحَدَّثْتُكَ يَا ثَابِتُ ^(٢)

٤- عَنْ خَيْثَمَةَ بِنِ أَبِي سَبْرَةَ، قَالَ: أَتَيْتُ الْمَدِينَةَ فَسَأَلْتُ اللَّهَ أَنْ يُسِّرَ لِي جَلِيسًا صَالِحًا، فَيَسِّرَ لِي أَبَا هُرَيْرَةَ، فَجَلَسْتُ إِلَيْهِ، فَقُلْتُ لَهُ: إِنِّي سَأَلْتُ اللَّهَ أَنْ يُسِّرَ لِي جَلِيسًا صَالِحًا فَوَفَّقْتَ لِي، فَقَالَ: مِنْ أَيْنَ أَنْتَ؟ قُلْتُ: مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ، جِئْتُ أَلْتَمِسُ الْخَيْرَ وَأَطْلُبُهُ، فَقَالَ: أَلَيْسَ فِيكُمْ سَعْدُ بْنُ مَالِكٍ مُجَابِبُ الدَّعْوَةِ، وَابْنُ مَسْعُودٍ صَاحِبُ طَهُورِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَعْلَيْهِ، وَخُذَيْفَةُ صَاحِبُ سِرِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعِمَارُ الَّذِي أَجَارَهُ اللَّهُ مِنَ الشَّيْطَانِ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ، وَسَلَمَانُ صَاحِبُ الْكِتَابَيْنِ؟ ^(٣)

أخطاء شائعة حول كتمان السر

الكتمان المحرم:

إذا كان الكتمان أمراً مطلوباً، وحث عليه النبي صلى الله عليه وسلم فإن هناك أموراً لا يجوز للمسلم أن يكتُم ما عنده فيها، بل عليه أن يُحَدِّثَ بكل ما يعرفه وإلا أثم وارتكب وزراً، ومن هذه الأمور:

^(١) أخرجه البخاري (٣٧١٥)، ومسلم (٢٤٥٠) واللفظ له.

^(٢) أخرجه مسلم (٢٤٨٢).

^(٣) أخرجه الترمذي (٣٨١١)، والحاكم (٤٤٣ / ٣)، قال الترمذي: حسن صحيح غريب، وصححه في تخریج المشكاة (٦٢٣٢).

١- كتمان الشهادة: فلا يجوز للمسلم أن يكتم الشهادة، بل عليه أن يؤديها كما رأى، وقد أمر الله - تعالى - بعدم كتمان الشهادة، فقال: { وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ } [البقرة: ٢٨٣]

٢- كتمان العيب في البيع والشراء: على البائع المسلم أن يبين ما في سلعته، وأن يصدق في بيعه، حتى يبارك الله - عز وجل - له في تجارته. يقول النبي صلى الله عليه وسلم: البَيَّعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما. ^(١)

٣- كتمان العلم: لا يجوز للمسلم أن يكتم العلم؛ لأن كتمان ذنب عظيم يُعاقب عليه أشد العقاب، وكتمان العلم يؤدي إلى لعنة الله على من يكتمه.

قال تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٌ } [البقرة: ١٧٤]

وقال تعالى: { وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [البقرة: ٤٢]

من صور كتمان السر:

١- كتمان الطاعات:

المسلم لا بد أن يحرص على كتم أموره التعبدية دفعا للرياء وحب الظهور، قال تعالى: { ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً } [الأعراف: ٥٥].

وذكر صلى الله عليه وسلم في السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ((وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا، حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا صَنَعَتْ يَمِينُهُ)) ^(٢)

٢ - كتمان الذنوب:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((كُلُّ أُمَّتِي مُعَاذِي إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهِرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا، ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ

^(١) أخرجه البخاري (٢٠٧٩)، ومسلم (١٥٣١).

^(٢) أخرجه البخاري (١٤٢٣)، ومسلم (١٠٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

عَلَيْهِ، فَيَقُولُ: يَا فُلَانُ، عَمِلْتَ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ))^(١)

٣ - كتمان قضاء الحاجات:

من يريد أن يقوم بعمل ما عليه أن يكتمه وأن لا يحدث به كل أحد حتى يقوم بإكماله.

٤ - كتمان الأسرار الزوجية

٥ - كتمان الرؤيا المكروهة:

عن أبي سعيد الخدري: أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ((إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ رُؤْيَا يُحِبُّهَا، فَإِنَّمَا هِيَ مِنَ اللَّهِ، فَلْيُحْمَدِ اللَّهَ عَلَيْهَا وَلْيُحَدِّثْ بِهَا، وَإِذَا رَأَى غَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَكْرَهُ، فَإِنَّمَا هِيَ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَلْيَسْتَعِذْ مِنْ شَرِّهَا، وَلَا يَذْكُرْهَا لِأَحَدٍ، فَإِنَّمَا لَا تَنْصُرُهُ))^(٢)

٦ - كتمان أسرار الدولة:

اهتم الإسلام بأسرار الدولة الإسلامية وخاصة الأسرار الحربية، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يكتُم أسرار خططه في الغزوات، فكان من هديه إذا كان يريد غزوة ورى بغيرها.

^(١) أخرجه البخاري (٦٠٦٩).

^(٢) أخرجه البخاري (٦٩٨٥).

٢٩ - الكرم

معنى الكرم لغة:

الكَرْمُ، مَحْرَكَةٌ: ضِدُّ اللُّؤْمِ، كَرَمٌ، بضم الراء، كرامةٌ وكَرَمًا وكَرَمَةً، مَحْرَكَتَيْنِ، فهو كَرِيمٌ وكَرِيمَةٌ وكَرِيمَةٌ، بالكسر. (١)

معنى الكرم اصطلاحًا:

الكَرِيم: مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ وَأَسْمَائِهِ، وَهُوَ الْكَثِيرُ الْخَيْرِ الْجَوَادُ الْمُعْطِي الَّذِي لَا يَنْقُدُ عَطَاؤَهُ، وَهُوَ الْكَرِيمُ الْمُطْلَقُ. (٢)

قال الجرجاني: الكرم هو الإعطاء بسهولة. (٣)

وقال المناوي: هو إفادة ما ينبغي لا لغرض. (٤)

وقال القاضي عياض: هو الإنفاق بطيب نفس فيما يعظم خطره ونفعه. (٥)

ثانيا: الأدلة على صفة الكرم من القرآن والسنة

١- قال تعالى: {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ فَرَأَى إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ}. (الذاريات: ٢٤-٢٦)

قال الرازي رحمه الله تعالى: بَيَّانٌ مَا أَتَى بِهِ مِنْ آدَابِ الْإِضَافَةِ وَمَا أَتَوْا بِهِ مِنْ آدَابِ الضِّيَافَةِ، فَلِإِكْرَامٍ أَوْ لَأَمِّنْ جَاءَهُ ضَيْفٌ قَبْلَ أَنْ يَجْتَمَعَ بِهِ وَيُسَلِّمَ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ أَنْوَاعٌ مِنَ الْإِكْرَامِ وَهِيَ اللَّقَاءُ الْحَسَنُ وَالْخُرُوجُ إِلَيْهِ وَالتَّهَيُّؤُ لَهُ ثُمَّ السَّلَامُ مِنَ الضَّيْفِ عَلَى الْوَجْهِ الْحَسَنِ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ النَّصْبُ فِي قَوْلِهِ سَلَامًا إِمَّا لِكَوْنِهِ مُؤَكَّدًا بِالمُصْدَرِ أَوْ لِكَوْنِهِ مُبْلَغًا مِمَّنْ هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ، ثُمَّ الرَّدُّ الْحَسَنُ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الرَّفْعُ ثُمَّ تَعْجِيلُ الْفَرَى الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: {فَمَا لَبَتَ أَنْ جَاءَ} [هُود: ٦٩] وقوله هاهنا فَرَاغَ فَإِنَّ الرُّوْعَانَ يَدُلُّ عَلَى السُّرْعَةِ وَالرُّوْعِ الَّذِي بِمَعْنَى النَّظَرِ

(١) القاموس المحيط ص ١١٥٣

(٢) لسان العرب لابن منظور (١٢/ ٥١٠)

(٣) التعريفات للجرجاني (ص ١٨٤).

(٤) التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي (ص ٢٨١).

(٥) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض (١/ ٢٣٠).

الْحَفِيِّ أَوْ الرَّوَّاحِ الْمُخْفِيِّ أَيْضًا كَذَلِكَ، ثُمَّ الْإِخْفَاءُ فَإِنَّ الْمُضِيفَ إِذَا أَحْضَرَ شَيْئًا يَنْبَغِي أَنْ يُخْفِيَهُ عَنِ الضَّيْفِ كَيْ لَا يَمْنَعَهُ مِنَ الْإِحْضَارِ بِنَفْسِهِ حَيْثُ رَاغَ هُوَ وَلَمْ يَقُلْ هَاتُوا، وَغَيْبَةُ الْمُضِيفِ لَحْظَةً مِنَ الضَّيْفِ مُسْتَحْسَنٌ لِيَسْتَرِيحَ وَيَأْتِيَ بِدَفْعٍ مَا يَخْتَاجُ إِلَيْهِ وَيَمْنَعُهُ الْحَيَاءُ مِنْهُ ثُمَّ اخْتِيَارُ الْأَجُودِ بِقَوْلِهِ سَمِينَ ثُمَّ تَقْدِيمُ الطَّعَامِ إِلَيْهِمْ لَا نَقْلُهُمْ إِلَى الطَّعَامِ بِقَوْلِهِ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ لِأَنَّ مَنْ قَدَّمَ الطَّعَامَ إِلَى قَوْمٍ يَكُونُ كُلُّ وَاحِدٍ مُسْتَقَرًّا فِي مَقَرِّهِ لَا يَخْتَلِفُ عَلَيْهِ الْمَكَانُ فَإِنْ نَقَلَهُمْ إِلَى مَكَانِ الطَّعَامِ رَبَّمَا يَحْصُلُ هُنَاكَ اخْتِلَافٌ جُلُوسٍ فَيُقَرَّبُ الْأَدْنَى وَيُضَيِّقُ عَلَى الْأَعْلَى ثُمَّ الْعَرْضُ لَا الْأَمْرَ حَيْثُ قَالَ: أَلَا تَأْكُلُونَ وَلَمْ يَقُلْ كُلُّوا ثُمَّ كَوْنُ الْمُضِيفِ مَسْرُورًا بِأَكْلِهِمْ غَيْرَ مَسْرُورٍ بِتَرْكِهِمُ الطَّعَامَ كَمَا يُوجَدُ فِي بَعْضِ الْبُخَلَاءِ الْمُتَكَلِّفِينَ الَّذِينَ يُخْضِرُونَ طَعَامًا كَثِيرًا وَيَكُونُ نَظَرُهُ وَنَظَرُ أَهْلِ بَيْتِهِ فِي الطَّعَامِ مَتَى يَمْسُكُ الضَّيْفُ يَدَهُ عَنْهُ (١)

٢- قال تعالى: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}. [البقرة: ٢٧٤]

قال ابن كثير: هذا مدحٌ منه تعالى للمنفقين في سبيله، وابتغاء مرضاته في جميع الأوقات من ليلٍ أو نهارٍ، والأحوال من سرٍّ وجهارٍ، حتى إن النفقة على الأهل تدخل في ذلك أيضًا (٢) وقال الرازي: الآية عامةٌ في الذين يعمون الأوقات والأحوال بالصدقة تحريضهم على الخير، فكلما نزلت بهم حاجة محتاج عجلوا قضاءها ولم يؤخروها ولم يعلقوها بوقتٍ ولا حالٍ. (٣)

٣- قال تعالى: {قُلْ إِنْ رَبِّي يَسْطُرُ الرَّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [سبا: ٣٩]

قال ابن كثير رحمه الله: يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل، وفي الآخرة بالجزاء والثواب. (٤)

(١) مفاتيح الغيب للرازي (١٧٧/٢٨) بتصرف يسير

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٧٠٧).

(٣) مفاتيح الغيب للرازي (٧/ ٧٠).

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٥٢٣).

٤- وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: ٢٦٧-٢٦٨]

ومن الأحاديث النبوية :

١- عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: انْتَهَيْتُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، فَلَمَّا رَأَيْتُ قَالَ: هُمُ الْأَخْسَرُونَ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ قَالَ: فَجِئْتُ حَتَّى جَلَسْتُ، فَلَمْ أَتَقَارَّ أَنْ قُمْتُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي، مَنْ هُمْ؟ قَالَ: هُمُ الْأَكْثَرُونَ أَمْوَالًا، إِلَّا مَنْ قَالَ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا - مِنْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ - وَقَلِيلٌ مَا هُمْ، مَا مِنْ صَاحِبِ إِبِلٍ، وَلَا بَقَرٍ، وَلَا غَنَمٍ لَا يُؤَدِّي زَكَاةَهَا إِلَّا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْظَمَ مَا كَانَتْ، وَأَسَمَنَهُ تَنْطَحُهُ بِقُرُونِهَا وَتَطَوُّهُ بِأُظْلَافِهَا، كُلَّمَا نَفَدَتْ أُخْرَاهَا، عَادَتْ عَلَيْهِ أَوْلَاهَا، حَتَّى يُفْصَى بَيْنَ النَّاسِ. (١)

قال المباركفوري: فقلوه: (قال هكذا) الخ كناية عن التصديق العام في جميع جهات الخير (٢)

٢- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي سَفَرٍ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَةٍ لَهُ، قَالَ: فَجَعَلَ يَصْرِفُ بَصْرَهُ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلٌ ظَهَرَ، فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا ظَهَرَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ، فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ)) (٣).

(١) البخاري (٦٦٣٨) ومسلم (٩٩٠).

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للمباركفوري (٢/ ٩٢).

(٣) أخرجه مسلم (١٧٢٨).

قال النووي: في هذا الحديث الحث على الصدقة والجود والمواساة والإحسان إلى الرفقة والأصحاب والاعتناء بمصالح الأصحاب وأمر كبير القوم أصحابه بمواساة المحتاج وأنه يكتفي في حاجة المحتاج بتعرضه للعطاء وتعريضه من غير سؤال^(١)

٣- عن جابر رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((لَوْ قَدْ جَاءَنَا مَالُ الْبَحْرَيْنِ لَقَدْ أَعْطَيْتُكَ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا، وَقَالَ بِيَدَيْهِ جَمِيعًا، فَقَبِضَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ أَنْ يَجِيءَ مَالُ الْبَحْرَيْنِ فَقَدِمَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ بَعْدَهُ، فَأَمَرَ مُنَادِيًا فَنَادَى: مَنْ كَانَتْ لَهُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِدَّةٌ أَوْ دَيْنٌ فَلْيَأْتِ، فَقُمْتُ فَقُلْتُ: إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لَوْ قَدْ جَاءَنَا مَالُ الْبَحْرَيْنِ أَعْطَيْتُكَ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا، فَحَتَّى أَبُو بَكْرٍ مَرَّةً، ثُمَّ قَالَ لِي: عُدَّهَا، فَعَدَدْتُهَا فَإِذَا هِيَ خَمْسُمِائَةٍ، فَقَالَ: خُذْ مِثْلَهَا))^(٢)

وفيه دليل على كرم النبي صلى الله عليه وسلم حيث يحثو المال حثيا ولا يعده عدداً لأنه قال بيديه وهذا يدل على الكرم وأن المال لا يساوي عنده شيئاً صلوات الله وسلامه عليه^(٣)

٤- عن سهل بن سعد - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكَرَمَ وَيُحِبُّ مَعَالِيَ الْأَخْلَاقِ وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا)^(٤)

٥- عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الْمُؤْمِنُ غَرٌّ كَرِيمٌ وَالْفَاجِرُ خَبٌّ لَيْئِمٌ)^(٥)

نماذج من كرم الأنبياء والمرسلين:

١- إبراهيم الخليل عليه السلام

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي (١٢ / ٣٣).

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٩٧) ومسلم (٢٣١٤)، واللفظ للبخاري

(٣) شرح رياض الصالحين لابن عثيمين (٤ / ٥٢).

(٤) أخرجه الحاكم (١ / ٤٨) واللفظ له وقال: صحيح الإسناد. والطبراني في الكبير (٦ / ١٨١) و صححه الألباني في صحيح الجامع (١٨٠١).

(٥) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٤١٨) وأبو داود (٤٧٩٠). واللفظ له، وقال الألباني: صحيح (٣ / ٩٠٩).

الغز: الرجل غير المجرب، والخب: الرجل الخداع.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كان أول من أضاف الضيف إبراهيم^(١)

من كرم النبي صلى الله عليه وسلم:

١- عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ: ذَكَرَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ: كَانَ أَحْسَنَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَشْجَعَ النَّاسِ، وَلَقَدْ فَرَعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ لَيْلَةً فَأَنْطَلَقُوا قِبَلَ الصَّوْتِ، فَتَلَقَّاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَقَدْ سَبَقَهُمْ إِلَى الصَّوْتِ، وَهُوَ عَلَى فَرَسٍ لِأَيِّ طَلْحَةَ عُرَي، مَا عَلَيْهِ سَرْجٌ، فِي عُنُقِهِ السَّيْفُ، وَهُوَ يَقُولُ: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَنْ تُرَاعُوا" يَرُدُّهُمْ، ثُمَّ قَالَ، لِلْفَرَسِ: "وَجَدْنَاكَ بَحْرًا" أَوْ: "إِنَّهُ لَبَحْرٌ"^(٢)

٢- عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجْوَدَ النَّاسِ وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جَبْرِيلُ وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ فَلَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ^(٣)

٣- عَنْ جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ مَا سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ شَيْءٍ قَطُّ فَقَالَ لَا.^(٤)

من كرم الصحابة:

١- عن زيد بن أسلم، عن أبيه، قال: سمعت عمر بن الخطاب، يقول: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتصدق فوافق ذلك عندي مالاً، فقلت: اليوم أسبق أبا بكرٍ إن سبقته يوماً، قال: فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ما أبقيت لأهلك؟ قلت: مثله، وأتى أبو بكرٍ بكل ما عنده، فقال: يا أبا بكرٍ ما أبقيت لأهلك؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: لا أسبقه إلى شيءٍ أبداً^(٥)

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٨٦٤١). قال البيهقي: الصحيح موقوف، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٤٥١).

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٠٨)، ومسلم (٢٣٠٧).

(٣) أخرجه البخاري (٦).

(٤) أخرجه البخاري (٦٠٣٤).

(٥) أخرجه أبو داود (١٦٧٨)، والترمذي (٣٦٧٥)، والدارمي (١٦٦٠)، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

٢- عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الْأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالًا مِنْ نَخْلٍ، وَكَانَ أَحَبُّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرُحَاءَ، وَكَانَتْ مُسْتَقْبَلَةَ الْمَسْجِدِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ، قَالَ أَنَسٌ: فَلَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} [آل عمران: ٩٢] قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} [آل عمران: ٩٢] وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ، أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ، فَضَعَهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بَخْ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِعٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِعٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ، فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَخَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ. (١)

٣- وعن أبان بن عثمان قال: أَرَادَ رَجُلٌ أَنْ يَسُوءَ عُبَيْدَ اللَّهِ بْنَ الْعَبَّاسِ فَذَهَبَ إِلَى وَجْهِهِ النَّاسِ، فَقَالَ: إِنَّ عُبَيْدَ اللَّهِ بْنَ الْعَبَّاسِ يَقُولُ لَكُمْ: تَعَالَوْا تَغْدُوا عِنْدِي الْيَوْمَ، فَأَتَاهُ النَّاسُ حَتَّى مَلَأُوا دَارَهُ، فَقَالَ: مَا شَأْنُ النَّاسِ؟ ، فَقِيلَ: رَسُولُكَ أَتَاهُمْ فَعَرَفَ مِنْ أَيْنَ أَتَى؟ فَأَمَرَ بِالْبَابِ فَأُغْلِقَ وَأَرْسَلَ إِلَى السُّوقِ فَجَاءَ بِالْفَاكِهَةِ كُلِّهَا، وَكَانَ فِيهَا أَكْلُوا أُتْرَجًا بِعَسَلٍ، وَبَعَثَ قَوْمًا فَشَوُّوا وَخَبَزُوا فَأَتَوْا بِهِ فَأَكَلُوا، فَلَمَّا فَرَّغُوا قَالَ: أَلَيْسَ هَذَا كُلُّ مَا أَرَدْنَاهُ وَجَدْنَاهُ؟ قَالُوا: نَعَمْ قَالَ: مَا أَبَالِي مَنْ أَتَانِي بَعْدَ هَذَا. (٢)

من كرم السلف الصالح:

١- قال محمد بن صبيح: لَمَّا قَدِمَ أَبُو الزَّنَادِ الْكُوفَةَ عَلَى الصَّدَقَاتِ، كَلَّمَ رَجُلٌ حَمَادَ بْنَ أَبِي سُلَيْمَانَ فِي رَجُلٍ يُكَلِّمُ لَهُ أَبَا الزَّنَادِ، يَسْتَعِينُ فِي بَعْضِ أَعْمَالِهِ، فَقَالَ حَمَادُ: كَمْ يُؤْمَلُ صَاحِبُكَ مِنْ أَبِي الزَّنَادِ أَنْ يُصِيبَ مَعَهُ؟ قَالَ: أَلْفُ دِرْهَمٍ، قَالَ: فَقَدْ أَمَرْتُ لَهُ بِخَمْسَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ، وَلَا يُبَدَّلُ وَجْهِي إِلَيْهِ، قَالَ: جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا، فَهَذَا أَكْثَرُ مِمَّا أَمَّلَ وَرَجَا، قَالَ عُثْمَانُ بْنُ زُفَرٍ: وَقَالَ ابْنُ

(١) أخرجه البخاري (١٤٦١)، ومسلم (٩٩٨).

(٢) مكارم الأخلاق للطبراني (١٨٨).

السَّامِكُ: فَكَلَّمَهُ آخَرُ فِي ابْنِهِ أَنْ يُحَوِّلَهُ مِنْ كِتَابٍ إِلَى كِتَابٍ، فَقَالَ لِلَّذِي يُكَلِّمُهُ: إِنَّمَا نُعْطِي الْمُعَلِّمَ ثَلَاثِينَ كُلَّ شَهْرٍ، وَقَدْ أَجْرَيْنَاهَا لِصَاحِبِكَ مِائَةً، دَعِ الْغُلَامَ مَكَانَهُ. ^(١)

٢- كان موركق يتجر، فيصيب المال، فلا يأتي عليه جمعة وعنده منه شيء، وكان يأتي الأخ، فيعطيه الأربع مائة والخمس مائة، ويقول: ضعها لنا عندك. ثم يلقاه بعد، فيقول: شأنك بها، لا حاجة لي فيها. ^(٢)

٣- كان هشام بن حسان إذا ذكر يزيد بن المهلب يقول: إن كادت السفن لتجري في جوده. ^(٣)

٤- قال أبو السوار العدوي: كان رجال من بني عدي يصلون في هذا المسجد، ما أفطر أحد منهم على طعام قط وحده، إن وجد من يأكل معه أكل، وإلا أخرج طعامه إلى المسجد، فأكله مع الناس، وأكل الناس معه. ^(٤)

من صور الكرم:

١ - العطاء من المال من كل ما يمتلك الإنسان من أشياء ينتفع بها، كالذهب والفضة، والخيول، والأنعام، والحرث، وكل مأكل، أو مشروب، أو ملبوس، أو مركوب، أو مسكون، أو يؤوي إليه، وكل آلة أو سبب أو وسيلة ينتفع بها، وكل ما يتداوى به أو يقي ضرًا أو يدفع بأسًا، إلى غير ذلك من أشياء يصعب إحصاؤها.

٢ - ومنها العطاء من العلم والمعرفة، وفي هذا المجال من يحبون العطاء، وفيه بخلاء مسكون ضنينون، والمعطاء في هذا المجال هو الذي لا يدخر عنده علمًا ولا معرفة عمن يحسن الانتفاع بذلك، والبخیل هو الذي يحتفظ بمعارفه وعلومه لنفسه، فلا ينفق منها لمستحقيها، ضنًا بها ورغبة بالاستئثار.

^(١) الكرم والجود وسخاء النفوس للبرجلاني (ص ٥٧).

^(٢) إحياء علوم الدين للغزالي (٣/ ٢٤٨ - ٢٤٩).

^(٣) الكرم والجود وسخاء النفوس للبرجلاني (ص ٥٥).

^(٤) الكرم والجود وسخاء النفوس للبرجلاني (ص ٥٣).

٣ - ومنها عطاء النصيحة، فالإنسان الجواد كريم النفس لا يبخل على أخيه الإنسان بأي نصيحة تنفعه في دينه أو دنياه، بل يعطيه نصحه الذي نفعه مبتغيًا به وجه الله تعالى.

٤ - ومنها العطاء من النفس، فالجود يعطي من جاهه، ويعطي من عطفه وحنانه، ويعطي من حلو كلامه وابتسامته وطلاقة وجهه، ويعطي من وقته وراحته، ويعطي من سمعه وإصغائه، ويعطي من حبه ورحمته، ويعطي من دعائه وشفاعته، وهكذا إلى سائر صور العطاء من النفس.

٥ - ومنها العطاء من طاقات الجسد وقواه، فالجواد يعطي من معونته، ويعطي من خدماته، ويعطي من جهده، فيعين الرجل في دابته فيحمله عليها أو يحمل له عليها، ويميط الأذى عن طريق الناس وعن المرافق العامة، ويأخذ بيد العاجز حتى يجتاز به إلى مكان سلامته، ويمشي في مصالح الناس، ويتعب في مساعدتهم، ويسهر من أجل معונتهم، ومن أجل خدمتهم، وهكذا إلى سائر صور العطاء من الجسد.

٦ - ويرتقي العطاء حتى يصل على مستوى التضحية بالحياة كلها: كالمجاهد المقاتل في سبيل الله يجود بحياته لإعلاء كلمة الله ونصرة دينه، ابتغاء مرضاة ربه، والذي يؤثر أخاه بشربة الماء، وهو على وشك الهلاك، لينقذ أخاه من الموت، يضحي ويجود بحياته من أجل غيره.^(١)

(١) الأخلاق الإسلامية وأسسها لعبدالرحمن الميداني (٢/ ٣٦١ - ٣٦٣) بتصرف واختصار.

٣٠- الكلمة الطيبة

تعريف الكلم الطيب:

قال الكفوي: الكلم الطيب: هو الذكر والدعاء وقراءة القرآن. (١).

وقال القرطبي: الكلم الطيب هو التوحيد الصادر عن عقيدة طيبة، وقيل هو التحميد والتمجيد وذكر الله ونحو ذلك (٢).

أما الطيب من القول فقد قيل فيه إنه القرآن، وقيل لا إله إلا الله، وقيل الأذكار المشروعة (٣). ونستطيع أن نستنبط من هذا التفسير أن المراد بالكلم الطيب أو القول الطيب: ما يطيب به خاطر المؤمن من تبرئة ساحته ودفع الريبة عنه وأن هذا حقيق بالمؤمنين.

الأدلة على الكلمة الطيبة من القرآن والسنة:

١- قال تعالى: {قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ} (البقرة

(٢٦٣)

قال الرازي رحمه الله: أَمَّا الْقَوْلُ الْمَعْرُوفُ، فَهُوَ الْقَوْلُ الَّذِي تَقْبَلُهُ الْقُلُوبُ وَلَا تَنْكَرُهُ، وَالْمُرَادُ مِنْهُ هَاهُنَا أَنْ يَرُدَّ السَّائِلُ بِطَرِيقٍ جَمِيلٍ حَسَنٍ، وَقَالَ عطاء: عدة حَسَنَةٌ، أَمَّا الْمَغْفِرَةُ فَفِيهِ وُجُوهٌ أَحَدُهَا: أَنَّ الْفَقِيرَ إِذَا رُدَّ بِغَيْرِ مَقْصُودِهِ شَقَّ عَلَيْهِ ذَلِكَ، فَرُبَّمَا حَمَلَهُ ذَلِكَ عَلَى بَدَاءَةِ اللِّسَانِ، فَأَمَرَ بِالْعَفْوِ عَنْ بَدَاءَةِ الْفَقِيرِ وَالصَّفْحِ عَنْ إِسَاءَتِهِ وَثَانِيهَا: أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ وَتَيْلٌ مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ بِسَبَبِ الرَّدِّ الْجَمِيلِ وَثَالِثُهَا: أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنَ الْمَغْفِرَةِ أَنْ يَسْتُرَ حَاجَةَ الْفَقِيرِ وَلَا يَهْتِكَ سِرَّهُ، وَالْمُرَادُ مِنَ الْقَوْلِ الْمَعْرُوفِ رَدُّهُ بِأَحْسَنِ الطَّرِيقِ وَبِالْمَغْفِرَةِ أَنْ لَا يَهْتِكَ سِرَّهُ بِأَنْ يَذْكُرَ حَالَهُ عِنْدَ مَنْ يَكْرَهُ الْفَقِيرُ وَقُوفَهُ عَلَى حَالِهِ وَرَابِعُهَا: أَنْ يَقُولَهُ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ خَطَابٌ مَعَ الْمَسْئُولِ بِأَنْ يَرُدَّ

(١) الكليات للكفوي (٤ / ٩٩).

(٢) تفسير القرطبي (١٤ / ٣٢٩).

(٣) - تفسير ابن كثير (٣ / ٢٢٣).

السَّائِلَ بِأَحْسَنِ الطَّرِيقِ، وَقَوْلُهُ وَمَغْفِرَةٌ خُطَابٍ مَعَ السَّائِلِ بِأَن يَعْذِرَ الْمَسْئُولُ فِي ذَلِكَ الرَّدِّ، فَرُبَّمَا لَمْ يَقْدِرْ عَلَى ذَلِكَ الشَّيْءِ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ. ^(١)

٢- قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧)} إبراهيم: ٢٤-٢٧

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى - : شبه سبحانه الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة، لأن الكلمة الطيبة تثمر العمل الصالح والشجرة الطيبة تثمر الثمر النافع، وهذا ظاهر على قول جمهور المفسرين الذين يقولون: الكلمة الطيبة: هي شهادة ألا إله إلا الله، فإنها تثمر جميع الأعمال الصالحة، الظاهرة والباطنة، فكل عمل صالح مرضي لله تعالى فهو ثمرة هذه الكلمة. ^(٢)

٣- وقال تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ} [البقرة: ٨٣]

قال ابن كثير: قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا} أَي: كَلِّمُوهُمْ طَيِّبًا، وَلِينُوا لَهُمْ جَانِبًا، وَيَدْخُلْ فِي ذَلِكَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ بِالْمَعْرُوفِ، كَمَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ فِي قَوْلِهِ: {وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا} فَالْحُسْنُ مِنَ الْقَوْلِ: يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيَحْلُمُ، وَيَعْفُو، وَيَصْفَحُ، وَيَقُولُ لِلنَّاسِ حُسْنًا كَمَا قَالَ اللَّهُ، وَهُوَ كُلُّ خُلُقٍ حَسَنٍ رَضِيَهُ اللَّهُ. ^(٣)

٤- قال تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْورُ} [فاطر: ١٠]

^(١) مفاتيح الغيب (٤٣/٧).

^(٢) التفسير القيم (٣٢٧).

^(٣) تفسير ابن كثير (٣١٧ / ١).

قال الرازي رحمه الله: وَالْمُخْتَارُ أَنَّ كُلَّ كَلَامٍ هُوَ ذِكْرُ اللَّهِ أَوْ هُوَ لِلَّهِ كَالنَّصِيحَةِ وَالْعِلْمِ، فَهُوَ إِلَيْهِ يَصْعَدُ. (١)

قال الفراء في قوله تعالى {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ}: معناه: أَنَّ العمل الصَّالِح يرفع الكلام الطَّيِّب، أي يتقبل الكلام الطَّيِّب إذا كان معه عمل صالح (٢)

الأحاديث الواردة في (الكلم الطيب):

١- عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلَّم: كُلُّ سَلَامِي (٣) مِنْ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلُّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ، يَعْدُلُ بَيْنَ الْإِثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَيُعِينُ الرَّجُلَ عَلَى دَابَّتِهِ فَيَحْمِلُ عَلَيْهَا، أَوْ يَرْفَعُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَيُمِيطُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ (٤)

ووجه تشبيهه على السلام الكلمة الطيبة بالصدقة بالمال هو أَنَّ الصدقة بالمال تحيا بها نفس المتصدق عليه ويفرح بها، والكلمة الطيبة يفرح بها المؤمن ويحسن موقعها من قلبه فاشتبهها من هذه الجهة (٥)

٢- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ، وَلَا اللَّعَّانِ، وَلَا الْفَاحِشِ، وَلَا الْبَذِيءِ. (٦)

٣- عَنْ أَبِي جَرِيٍّ جَابِرِ بْنِ سُلَيْمٍ قَالَ: أَتَيْتُ الْمَدِينَةَ فَرَأَيْتُ رَجُلًا يَصْدُرُ النَّاسُ عَنْ رَأْيِهِ لَا يَقُولُ شَيْئًا إِلَّا صَدَرُوا عَنْهُ قُلْتُ مَنْ هَذَا قَالُوا: هَذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْتُ: عَلَيْكَ السَّلَامُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَرَّتَيْنِ قَالَ: لَا تَقُلْ عَلَيْكَ السَّلَامُ فَإِنَّ عَلَيْكَ السَّلَامَ تَحِيَّةُ الْمَيِّتِ قُلْ

(١) مفاتيح الغيب (٢٦ / ٢٢٦).

(٢) فتح الباري (١٣ / ٤٢٧).

(٣) السَّلامى: بضم السين وتخفيف اللام هو المفصل، وجمعه: سلاميات، بفتح الميم وتخفيف الياء. وفي القاموس: السَّلامى: كحبارى: عظام صغار طول الإصبع في اليد والرجل.

(٤) البخاري (٢٩٨٩)، واللفظ له، ومسلم (١٠٠٩).

(٥) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٩ / ٢٢٥).

(٦) أخرجه الترمذي (١٩٧٧)، والحاكم (٢٩)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٢٠).

السَّلَامُ عَلَيْكَ قُلْتَ: أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ؟ قَالَ: أَنَا رَسُولُ اللَّهِ الَّذِي إِذَا أَصَابَكَ ضُرٌّ فَدَعَوْتُهُ كَشَفَهُ عَنْكَ وَإِنْ أَصَابَكَ عَامٌ سَنَةٍ فَدَعَوْتُهُ أَنْبَتَهَا لَكَ وَإِذَا كُنْتَ بِأَرْضٍ قَفْرَاءَ أَوْ فَلَاقَةٍ فَضَلَّتْ رَاحِلَتُكَ فَدَعَوْتُهُ رَدَّهَا عَلَيْكَ. قُلْتُ: اعْهَدْ إِلَيَّ. قَالَ: لَا تَسْبِنَنَّ أَحَدًا قَالَ فَمَا سَبَبْتُ بَعْدَهُ حُرًّا وَلَا عَبْدًا وَلَا بَعِيرًا وَلَا شَاةً. قَالَ: وَلَا تَحْقِرَنَّ شَيْئًا مِنَ الْمَعْرُوفِ وَأَنْ تُكَلِّمَ أَحَاكَ وَأَنْتَ مُنْبَسِطٌ إِلَيْهِ وَجْهُكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنَ الْمَعْرُوفِ وَارْفَعْ إِرَارَكَ إِلَى نِصْفِ السَّاقِ فَإِنْ أَبَيْتَ فَلِئْلِ الْكَعْبَيْنِ وَإِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الْإِرَارِ فَإِنَّهَا مِنَ الْمُخِيلَةِ وَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُخِيلَةَ وَإِنْ امْرُؤٌ شَتَمَكَ وَعَيَّرَكَ بِمَا يَعْلَمُ فِيكَ فَلَا تَعِيره بِمَا تَعْلَمُ فِيهِ فَإِنَّمَا وَبَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِ^(١).

٤- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي إِذَا رَأَيْتُكَ طَابَتْ نَفْسِي وَقَرَّتْ عَيْنِي، فَأَنْبِئْنِي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ. فَقَالَ: كُلُّ شَيْءٍ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ " قَالَ: قُلْتُ: أَنْبِئْنِي عَنْ أَمْرِ إِذَا أَخَذْتُ بِهِ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ. قَالَ: أَفْشِ السَّلَامَ، وَأَطْعِمِ الطَّعَامَ، وَصِلِ الْأَرْحَامَ، وَقُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، ثُمَّ ادْخُلِ الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ^(٢).

٥- عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اتَّقُوا النَّارَ ثُمَّ أَعْرَضَ وَأَشَاحَ، ثُمَّ قَالَ: اتَّقُوا النَّارَ ثُمَّ أَعْرَضَ وَأَشَاحَ ثَلَاثًا، حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا، ثُمَّ قَالَ: اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فِيكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ^(٣).

قال ابن بطال: وإذا كانت الكلمة الطيبة يتقى بها النار، فالكلمة الخبيثة يستوجب بها النار^(٤).

٦- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " إِنْ فِي الْجَنَّةِ غُرْفَةٌ يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا، وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا "، فَقَالَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ: لِمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: " لِمَنْ أَلَانَ الْكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَبَاتَ لِلَّهِ قَائِمًا وَالنَّاسُ نِيَامٌ " ^(٥).

نهادج من الكلمة الطيبة من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم:

(١) أخرجه أبو داود (٢ / ١٧٩)، و الترمذي (٢ / ١٢٠)، وصححه الألباني في المشكاة (١ / ٥٩٨).

(٢) أخرجه أحمد (٢ / ٤٩٣)، وقال الشيخ أحمد شاكر (٤ / ١٠٤): إسناده صحيح.

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٤٠، ٦٥٦٣) واللفظ له، ومسلم (١٠١٦).

(٤) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٣ / ٤١٤).

(٥) أخرجه أحمد (٢ / ١٧٣) واللفظ له، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح.

١- عن عائشة، رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: دخل رهط من اليهود على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: السام عليكم، قالت عائشة: ففهمتها فقلت: وعليكم السام واللعة، قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مهلاً يا عائشة، إن الله يحب الرفق في الأمر كله فقلت: يا رسول الله، أولم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قد قلت: وعليكم" (١)

٢- عن عائشة رضي الله عنها: أن رجلاً استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم، فلما رآه قال: يس أخو العشيرة، وبس ابن العشيرة فلما جلس تطلق النبي صلى الله عليه وسلم في وجهه وأنسط إليه، فلما انطلق الرجل قالت له عائشة: يا رسول الله، حين رأيت الرجل قلت له كذا وكذا، ثم تطلقت في وجهه وأنسطت إليه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا عائشة، متى عهدتني فحاشاً، إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره. (٢)

ابن عمر رضي الله عنه:

قال ابن عمر رضي الله عنه: "البر شيء هين، وجه طليق، وكلام لين". (٣)

سلمان وأبو الدرداء

عن أبي البخري قال: جاء الأشعث ابن قيس وجري بن عبد الله البجلي إلى سلمان، فقالا: جنناك من عند أخيك أبي الدرداء، قال: فأين هديته التي أرسلها معكما؟ قالوا: ما أرسل معنا هدية. قال: اتقيا الله، وأديا الأمانة، ما جاءني أحد من عنده إلا جاء معه هدية. قالوا: والله ما بعث معنا شيئاً إلا أنه قال: أقرئوه مني السلام. قال: فأني هدية كنت أريد منكما غير هذه؟ وأي هدية أفضل من السلام تحية من عند الله مباركة طيبة؟ (٤)

سفيان الثوري:

(١) أخرجه البخاري (٦٠٢٤).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٣٢).

(٣) شعب الإيمان (٢٥٥/٦).

(٤) الدر المشور (٢٢٦/٦).

قال الفضيل بن عياض: سمعت الثوري يقول: لو رميت رجلاً بسهم كان أحب إلي من أن أرميه بلساني، لأن رمي اللسان لا يكاد يخطئ^(١)

ومن الأخطاء الشائعة حول صفة الكلم الطيب هو:

١- الخضوع بالقول سواء من النساء للرجال أو العكس، فذاك لا يسمى كلمة طيبة بل هو استهانة بتلك الحدود المفروضة في التعامل من الطرفين فلا بد للكلمة الطيبة أيضاً أن تكون بحدود معينة لا تخالف ما جاء في الكتاب والسنة.

قال تعالى: { يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَحْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٣٢) وَقرن في بيوتكنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا } [الأحزاب ٣٢، ٣٣]

٢- الغلظة بالكلام مع السائل

قال تعالى: {وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ} (الضحى: ١٠)

قال قتادة: يعني رد المسكين برحمة ولين.^(٢)

قال أبو حيان: {فَلَا تَنْهَرْ}: أي: تَزْجُرُهُ، لَكِنْ أَعْطِهِ أَوْ رُدَّهُ رَدًّا جَمِيلًا.^(٣)

علاقة الكلم الطيب بالعمل التطوعي:

- ١- تسر السامع وتؤلف القلب.
- ٢- تحدث أثراً طيباً في نفوس الآخرين.
- ٣- تثمر عملاً صالحاً في كل وقت بإذن الله.
- ٤- تفتح أبواب الخير، وتغلق أبواب الشر.
- ٥- كثيراً ما تكون بديلاً يخفف به عن السائل عند عدم توافر ما يسدده به حاجته.

(١) مكارم الأخلاق للخرائطي (١/٤٢٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/٤٢٧).

(٣) البحر المحيط (١٠/٤٩٨).

- ٦- بها تنادي المدعو وتدعوه بأحب الأسماء إليه وأوقعها في نفسه، فهو أسلوب محبب إلى قلب المدعو.
- ٧- بها تدع للمدعو إلى الاستجابة لأمر الله وأمر رسوله من خلال الترغيب في الخير والترهيب من الشر.
- ٨- بها تربط حياة المدعو بمعاني الإسلام قولاً وعملاً من خلال العيش معه عيشاً جماعياً.
- ٩- سبيل للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالحكمة والموعظة الحسنة.
- ١٠- بها تشكر كل من ساهم في نشر الخير والدعوة، ففي هذا الشكر تشجيع للعاملين للعمل الخيري والدعوي.
- ١١- تهدي ضالاً، وتعلم جاهلاً، وترشد تائهاً، وتذكر غافلاً.
- ١٢- بها تدعو كافرًا إلى الإسلام.
- ١٣- بها تنشر دعوة، تنشط خاملاً، وتنمي موهبة وتخطط مشروعاً.
- ١٤- بها تعلن عن محاضرة أو كتاب قيم.
- ١٥- يمنع كيد الشيطان في الإفساد بين المسلمين.
- ١٦- يطفئ نار الخصومة ولو مع الأعداء.
- ١٧- إن الحرمان مع الأدب خير من العطاء مع البذاذة.

٣١- المواساة

تعريف المواساة:

لغة: المواساة مصدر قولهم: واسيته وهي لغة في آسيته،
يقول ابن فارس: الهمزة والسين والواو أصل واحد يدل على المداواة والإصلاح.
يقال: أسوت الجرح إذا داويته، ولذلك يسمّى الطّبيب الآسي. ^(١)

اصطلاحًا:

قال ابن مسكويه: المواساة: معاونة الأصدقاء والمستحقين ومشاركتهم في الأموال والأقوات ^(٢).

وقال ابن حجر: المواساة: أن يجعل صاحب المال يده ويد صاحبه في ماله سواء ^(٣).
قال الجرجاني: المواساة: أن ينزل غيره منزلة نفسه في النفع له والدفع عنه ^(٤).

فضل المواساة من القرآن والسنة:

١- المواساة سبب في الفلاح

قال تعالى: { وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } (٩) الحشر

قال السعدي: وهذا دعاء شامل لجميع المؤمنين، السابقين من الصحابة، ومن قبلهم ومن بعدهم، وهذا من فضائل الإيثار أن المؤمنين ينتفع بعضهم ببعض، ويدعو بعضهم لبعض،

^(١) تهذيب اللغة للأزهري (١٣ / ١٣٨ - ١٣٩)، ولسان العرب (٨ / ٤٨٤٠)، والصحاح (٦ / ٢٥٢٤)،

وتاج العروس (١٠ / ٣٩٠ - ٣٩١) ومقاييس اللغة (١ / ١٠٧)، المفردات (١٨).

^(٢) تهذيب الأخلاق لابن مسكويه (٣ / ٣١).

^(٣) الفتوح (٧ / ٢٥).

^(٤) التعريفات (١ / ٣٠٤).

بسبب المشاركة في الإيثار المقتضي لعقد الأخوة بين المؤمنين التي من فروعها أن يدعو بعضهم لبعض، وأن يحب بعضهم بعضاً.

ولهذا ذكر الله في الدعاء نفي الغل عن القلب، الشامل لقليل الغل وكثيره، الذي إذا انتفى ثبت ضده، وهو المحبة بين المؤمنين والموالات والنصح، ونحو ذلك مما هو من حقوق المؤمنين.

فوصف الله من بعد الصحابة بالإيمان، لأن قولهم: {سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ} دليل على المشاركة في الإيمان، وأنهم تابعون للصحابة في عقائد الإيمان وأصوله، وهم أهل السنة والجماعة، الذين لا يصدق هذا الوصف التام إلا عليهم، ووصفهم بالإقرار بالذنوب والاستغفار منها، واستغفار بعضهم لبعض، واجتهادهم في إزالة الغل والحق عن قلوبهم لإخوانهم المؤمنين، لأن دعاءهم بذلك مستلزم لما ذكرنا، ومتضمن لمحبة بعضهم بعضاً، وأن يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، وأن ينصح له حاضراً وغائباً، حياً وميتاً، ودلت الآية الكريمة على أن هذا من جملة حقوق المؤمنين بعضهم لبعض.^(١)

٢- المواصلة سبب من أعظم أسباب دخول الجنة

قال تعالى: {إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (٦) يُوفُونَ بِالْأَنْدَرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧) وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا} (الإنسان: ٩)

قال الرازي: اعْلَمْ أَنَّ بَجَائِعِ الطَّاعَاتِ مَحْصُورَةٌ فِي أَمْرَيْنِ التَّعْظِيمِ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: {يُوفُونَ بِالْأَنْدَرِ} [الإنسان: ٧] وَالشَّفَقَةِ عَلَى خَلْقِ اللَّهِ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: {وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ} ^(٢)

(١) تفسير السعدي (٨٥١).

(٢) تفسير الرازي (٣٠ / ٧٤٦).

٣- بيان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن البركة تنزل مع الموساة والاجتماع على الطعام
 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: طَعَامُ الْاِثْنَيْنِ
 كَافِي الثَّلَاثَةِ، وَطَعَامُ الثَّلَاثَةِ كَافِي الْأَرْبَعَةِ ^(١)
 وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ: طَعَامُ الْوَاحِدِ يَكْفِي الْاِثْنَيْنِ وَطَعَامُ الْاِثْنَيْنِ يَكْفِي الْأَرْبَعَةَ وَطَعَامُ
 الْأَرْبَعَةِ يَكْفِي الثَّمَانِيَةَ.

قال ابن بطال: قال المهلب: والمراد بهذه الأحاديث الحظ على المكارمة في الأكل والموساة
 والإيثار على النفس الذي مدح الله به أصحاب نبيه، فقال: {ويؤثرون على أنفسهم ولو كان
 بهم خصاصة} ولا يراد بها معنى التساوي في الأكل والتشاح. . . وقد هم عمر بن الخطاب
 في سنة مجاعة أن يجعل مع كل أهل بيت مثلهم وقال: لن يهلك أحد عن نصف قوته ^(٢).
 وقال النووي: هَذَا فِيهِ الْحُثُّ عَلَى الْمُوَاسَاةِ فِي الطَّعَامِ وَأَنَّهُ وَإِنْ كَانَ قَلِيلًا حَصَلَتْ مِنْهُ الْكِفَايَةُ
 الْمَقْصُودَةُ وَوَقَعَتْ فِيهِ بَرَكَةٌ تَعْمُ الْحَاضِرِينَ عَلَيْهِ. ^(٣)

٤- أظهر النبي صلى الله عليه وسلم أن العبد يجد ثواب الموساة عند الله في يوم يحتاج إليه
 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ
 الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ مَرَضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ:
 أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضٌ فَلَمْ تَعُدَّهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟ يَا ابْنَ
 آدَمَ اسْتَطَعْمَتَكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ وَكَيْفَ أَطْعِمُكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: أَمَا
 عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطَعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ، فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ

(١) أخرجه البخاري (٥٣٩٢).

(٢) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٤٧١ / ٩).

(٣) شرح النووي على مسلم (٢٣ / ١٤).

عِنْدِي، يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ، فَلَمْ تَسْقِنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فَلَانَ فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي" (١)

أنواع المواساة:

قال ابن القيم رحمه الله:

المُؤَاوَاةُ لِلْمُؤْمِنِ أَنْوَاعٌ:

١- مواساة بالمال.

٢- مواساة الجاه.

٣- مواساة بالبدن والخدمة.

٤- مواساة بالنصيحة والإرشاد.

٥- مواساة بالدُّعَاءِ وَالِاسْتِغْفَارِ لَهُمْ.

٦- مواساة بالتوجع لهم.

على قدر الإيَّان تكون هذه المُؤَاوَاةُ فكلما ضعف الإيَّان ضعفت المُؤَاوَاةُ وكلما قوي قويت. (٢)

لما كانت المواساة لا تقتصر على مشاركة المسلم لأخيه في المال والجاه أو الخدمة والنصيحة. . أو غير ذلك فإن من المواساة مشاركة المسلم في مشاعره خاصّة في أوقات حزنه، وعند تعرّضه لما يعكر صفوه، وهنا فإن إدخال السرور عليه وتطبيب خاطره بالكلمة الطيبة، أو المساعدة الممكنة بالمال أو الجاه، أو المشاركة الوجدانية هو من أعظم المواساة وأجل أنواعها، وقد كان صلى الله عليه وسلم يواسي بالقليل والكثير، وقد علمنا أنّ من أقال مسلماً من عثرته أقال الله عثرته، وأنّ الله عزّ وجلّ لا يزال في حاجة العبد مادام العبد في حاجة أخيه.

إنّ حاجة المسلم تتنوّع وتختلف من موقف إلى آخر، فهناك من تكون حاجته إلى المال، وهناك من تكون حاجته إلى عمل أو وظيفة، وهناك من تكون حاجته إلى كلمة طيبة، وهناك من

(١) أخرجه مسلم ((٢٥٦٩)).

(٢) الفوائد لابن القيم (١/١٧١).

تكون حاجته إلى دفع الظلم عنه، وهناك من تكون حاجته إلى مشاركة الناس له في أتراحه أو أفراحه، وهناك من تكون حاجته في وضع الدين عنه أو إرجائه، إلى غير ذلك من الحاجات وكل ذلك يدخل في إطار القاعدة العامة للمواساة، وهي أن يكون المسلم في حاجة أخيه، وعلى المسلم أن يعرف أن فائدة هذه الموساة لا ترجع إلى صاحب الحاجة (المواسي) فقط، وإنما تشمل أيضا المواسي؛ لأن الله عز وجل يقف إلى جانبه ويكون في حاجته، هذا في الدنيا، ويجازيه عليها أفضل جزاء يوم القيامة، وقد أخبر الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم أن من لقي أخاه بما يحب ليسرّه بذلك سرّه الله عز وجل يوم القيامة، لقد حفلت سير أعلام النبلاء بنماذج مشرّفة من الموساة، ومن تأمل هذه الصفحات المشرقة التي حفلت بها سير هؤلاء يتّضح أن مجالسة المساكين والتحدّث معهم فيه جبر خاطرهم وإدخال السرور عليهم، وإذا كان الإنسان واجدا فإنه كان يتكفّل بنفقة هؤلاء وإعالتهم مع المحافظة على كرامتهم وتقديم المعونة لهم سرّا.^(١)

نماذج مشرقة في الموساة

١ - لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة؛

عَنْ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ، قَالَ: سَمِعْتُ عَبَادَ بْنَ زَاهِرٍ أَبَا رُوَاعٍ، قَالَ: سَمِعْتُ عُثْمَانَ يَخْطُبُ، فَقَالَ: إِنَّا وَاللَّهِ قَدْ صَحَبْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي السَّفَرِ وَالْحَضَرِ، فَكَانَ يَعُودُ مَرَضَانًا، وَيَتَّبِعُ جَنَائِزَنَا، وَيَغْزُو مَعَنَا، وَيُؤَاسِينَا بِالْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ، وَإِنَّ نَاسًا يُعَلِّمُونِي بِهِ، عَسَى أَنْ لَا يَكُونَ أَحَدُهُمْ رَأَى قَطُّ.^(٢)

٢ - ولنا في أصحابه أسوة حسنة؛ فقد أثنى النبي صلى الله عليه وسلم على أبي بكر بمواساته له بهاله وفضله على غيره.

(١) انظر: نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (٨ / ٣٤٦٠).

(٢) أخرجه أحمد (٥٠٤).

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذْ أَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ آخِذًا بِطَرْفِ ثَوْبِهِ حَتَّى أَبْدَى عَنْ رُكْبَتِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَمَّا صَاحِبُكُمْ فَقَدْ غَامَرَ فَسَلَّمَ وَقَالَ: إِنِّي كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِ الْخَطَّابِ شَيْءٌ، فَأَسْرَعْتُ إِلَيْهِ ثُمَّ نَدِمْتُ، فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَغْفِرَ لِي فَأَبَى عَلَيَّ، فَأَقْبَلْتُ إِلَيْكَ، فَقَالَ: يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ ثَلَاثًا، ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ نَدِمَ، فَأَتَى مَنْزِلَ أَبِي بَكْرٍ، فَسَأَلَ: أَتَمَّ أَبُو بَكْرٍ؟ فَقَالُوا: لَا، فَأَتَى إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَلَّمَ، فَجَعَلَ وَجْهُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَمَعَّرُ، حَتَّى أَشْفَقَ أَبُو بَكْرٍ، فَجَنَّا عَلَى رُكْبَتِهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ أَنَا كُنْتُ أَظْلَمَ، مَرَّتَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ فَقُلْتُمْ كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ صَدَقَ، وَوَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُوا لِي صَاحِبِي مَرَّتَيْنِ، فَمَا أُوذِيَ بَعْدَهَا. ^(١)

٣- وكذلك الأنصار في مواساتهم للمهاجرين

عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ أَتَاهُ الْمُهَاجِرُونَ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا رَأَيْنَا قَوْمًا أَبْذَلَ مِنْ كَثِيرٍ وَلَا أَحْسَنَ مُوَاسَاةً مِنْ قَلِيلٍ مِنْ قَوْمٍ نَزَلْنَا بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ لَقَدْ كَفَوْنَا الْمُؤَنَةَ وَأَشْرَكُونَا فِي الْمَهْنَةِ حَتَّى لَقَدْ خِفْنَا أَنْ يَذْهَبُوا بِالْأَجْرِ كُلِّهِ. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا مَا دَعَوْتُمْ اللَّهَ هُمْ وَأَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِمْ. ^(٢)

قال الكلاباذي رحمه الله: فِي هَذَا الْحَدِيثِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْفَقِيرَ يُدْرِكُ بِقَوْلِهِ وَنَيْتِهِ مَا يُدْرِكُ الْغَنَى بِفُضُولِ مَالِهِ، فَإِنَّ الْأَنْصَارَ بَذَلُوا أَمْوَالَهُمْ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ، وَقَاسَمُوهُمْ أَمْوَالَهُمْ وَآثَرُوهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ {الْأَيَّةُ، فَهُمْ بَذَلُوا أَمْوَالَهُمْ، وَقَاسَمُوهُمْ إِيَّاهَا حَتَّى خَافَ الْمُهَاجِرُونَ أَنْ يَفْضُلُوهُمْ، وَيَفُوتَهُمْ مَا يُعْطَى الْأَنْصَارُ عَلَى نَفَقَاتِهِمْ وَبَذَلِ أَمْوَالِهِمْ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِمْ: خِفْنَا أَنْ يَذْهَبُوا بِالْأَجْرِ كُلِّهِ؛ لِأَنَّ الْأَجْرَ هُوَ الثَّوَابُ، وَاللَّهُ تَعَالَى وَاسِعٌ غَنِيٌّ لَا تَفْنَى خَزَائِنُهُ وَلَا يَنْقُصُ أَجْرُهُ، وَإِنَّمَا مَعْنَى مَا قُلْنَا أَنَّهُمْ

(١) أخرجه البخاري (٣٦٦١).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٨٧) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وصححه الألباني

في صحيح الترمذي.

يَفْضُلُونَا بِأَجُورِ نَفَقَاتِهِمْ، فَيَكُونُ لَهُمْ ذَلِكَ دُونَنَا، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا أَيْ: لَيْسَ ذَلِكَ كَمَا تَظُنُّونَ، أَيْ لَا يَفْضُلُونَكُمْ وَلَا يَفُوتُكُمْ، فَإِنَّ دُعَاءَكُمْ اللَّهُ هُمْ، وَثَنَاءَكُمْ عَلَيْهِمْ يَقُومُ مِنْكُمْ مَقَامَ نَفَقَاتِهِمْ مِنْهُمْ وَبَذَلِ أَمْوَالِهِمْ، فَتُعْطُونَ عَلَى الدُّعَاءِ وَالثَّنَاءِ مِنَ الْأَجْرِ مَا يُعْطُونَ عَلَى النَّفَقَةِ وَالْعَطَاءِ. فِيهِ أَيْضًا وَجُوبُ مُكَافَأَةِ الْمُعْطِي وَمُجَازَاةُ الْمُحْسِنِ، وَمَعْرِفَةُ الْفَضْلِ لِلْمُنْعَمِ، أَعْنِي فَضْلَ أَيْ أَفْضَالًا، لَا فَضْلَ الشَّرَفِ بِالْهَالِ، وَإِنْ كَانَ الْمُتَنَقُّ وَالْمُعْطِي وَالْمُحْسِنُ لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَفْضُلَهُ بِإِحْسَانِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ. ^(١)

عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ عَامَ الرَّمَادَةِ - وَكَانَتْ سَنَةً شَدِيدَةً مُلِيْمَةً بَعْدَ مَا اجْتَهَدَ عُمَرُ فِي إِمْدَادِ الْأَعْرَابِ بِالْإِبِلِ وَالْقَمَحِ وَالزَّيْتِ مِنَ الْأَرِيافِ كُلِّهَا حَتَّى بَلَغَتْ الْأَرِيافُ كُلُّهَا مِمَّا جَهَدَهَا ذَلِكَ - فَقَامَ عُمَرُ يَدْعُو - فَقَالَ: (اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَهُمْ عَلَى رُؤُوسِ الْجِبَالِ). فَاسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ وَلِلْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ حِينَ نَزَلَ بِهِ الْغَيْثُ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ فَوَاللَّهِ لَوْ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يُفْرِجْهَا مَا تَرَكْتُ أَهْلَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَهُمْ سَعَةٌ إِلَّا أَدْخَلْتُ مَعَهُمْ أَعْدَادَهُمْ مِنَ الْفُقَرَاءِ فَلَمْ يَكُنْ اثْنَانِ يَهْلِكَانِ مِنَ الطَّعَامِ عَلَى مَا يُقِيمُ وَاحِدًا) ^(٢)

أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها:

عَنْ عَائِشَةَ، زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنَّهَا كَانَتْ إِذَا مَاتَ الْمَيِّتُ مِنْ أَهْلِهَا، فَاجْتَمَعَ لِذَلِكَ النِّسَاءِ، ثُمَّ تَفَرَّقْنَ إِلَّا أَهْلَهَا وَخَاصَّتَهَا، أَمَرَتْ بِرُومَةٍ مِنْ تَلْبِينَةٍ فَطَبَخَتْ، ثُمَّ صَنَعَ ثَرِيدٌ فَصَبَّتِ التَّلْبِينَةَ عَلَيْهَا، ثُمَّ قَالَتْ: كُلْنَ مِنْهَا، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: التَّلْبِينَةُ مِجْمَعَةٌ لِفُؤَادِ الْمَرِيضِ، تَذْهَبُ بِبَعْضِ الْحُزَنِ ^(٣)

وأما الأشعريون فقال عنهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هم مني وأنا منهم

(١) بحر الفوائد المسمى بمعاني الأخبار للكلا باذي (ص: ٣٣٢).

(٢) الأدب المفرد (٢٨٨/١)، قال الألباني في صحيح الأدب المفرد: صحيح الإسناد (٢١١/١).

(٣) أخرجه البخاري (٥٤١٧)، ومسلم (٢٢١٦).

عَنْ أَبِي مُوسَى، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ الْأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا فِي الْغَزْوِ، أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ جَمَعُوا مَا كَانَ عَنْدهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ، فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ.^(١)

قال البغوي قوله: أَرْمَلُوا أَيُّ: فَنِيَتْ أَزْوَادَهُمْ، يُقَالُ: أَرْمَلَ الْقَوْمُ، فَهُمْ مُرْمَلُونَ.^(٢)

وقال ابن عثيمين: وهذا الحديث أصل في الجمعيات التعاونية التي يفعلها بعض الناس اليوم، تجتمع القبيلة على أن يضعوا صندوقاً يجمعون فيه ما يريد الله عز وجل من المال؛ إما بالنسبة وإما بالاجتهاد والترشيح، فيكون مثلاً على كل واحد منهم أن يدفع اثنين في المائة من راتبه أو من كسبه أو ما أشبه ذلك، ويكون هذا الصندوق معداً للحوادث والنكبات التي تحصل على واحد منهم.

فهذا أصله حديث أبي موسى رضي الله عنه الذي سبق، فإذا جمع الناس صندوقاً على هذا النحو ليتساعدوا فيه على نكبات الزمان من الحوادث وغيرها، فإن لذلك أصلاً في السنة، وهو من الأمور المشروعة.

ولكن ينبغي أن نعمل أن هذا الصندوق قد يكون لمن يقع عليه الحادث، وقد يكون لمن يقع منه الحادث.

أما الأول: فأن يوضع الصندوق للناس لمساعدة الناس الذين يحصل عليهم جوائح؛ مثل جوائح تتلف زروعهم ومواشيهم، أو أمطار تهدم بيوتهم، أو ما أشبه ذلك، أو حوادث تحدث على سياراتهم من غيرهم، فيحتاجون إلى المساعدة؛ فهذا طيب ولا إشكال فيه.

أما الثاني: فهو للحوادث التي تقع من الشخص، فإذا فعل شخص حادثاً مثل دغس أحد أو ما أشبه ذلك يساعد، فهذا ينبغي أن ينظر في هذا الأمر؛ لأننا إذا وضعنا صندوقاً لهذا فإن السفهاء قد يتهورون، ولا يهتمهم أن تقع الحوادث منهم، فإذا قدر أننا وضعنا صندوقاً لهذا الشيء فليكن ذلك بعد الدراسة؛ دراسة ما حدث من الشخص دراسة عميقة، وأنه لم يحدث

(١) أخرجه البخاري (٢٤٨٦).

(٢) شرح السنة للبغوي (٨/ ٢١٥).

منه تهوّر ولم يحدث منه تفريطٌ، وإلا فلا ينبغي أن توضع الصناديق لمساعدة هؤلاء السفهاء الذين يوماً يدعسون شخصاً، ويوماً يصدمون سيارة وما أشبه ذلك، وربما يقع ذلك عن حال غير مرضية كسُكرٍ، أو عن حال يفرط فيها الإنسان كالنوم وما أشبه ذلك.

والحاصل أن هذه الصناديق تكون على وجهين:

الوجه الأول: مساعدة من يحصل عليه حادث، فهذا طيب ولا إشكال فيه.

والوجه الثاني: أن يكون ممن يحصل منه حادث، فهذا إن وضع - ولا أحبذ أن يوضع، لكن إن وضع - فإنه يجب التحرز والتثبت من كون هذا الرجل الذي حصل منه الحادث لم يحصل منه تفريط ولا تعدّ.

ثم إن هذا المال الذي يوضع في الصندوق ليس فيه زكاة مهما بلغ من القدر، وذلك لأنه ليس له مالك، ومن شروط وجوب الزكاة أن يكون المال له مالك، وهذا الصندوق ليس له مالك؛ بل من حصل عليه حادث فإنه يساعد منه، وأصحابه الذين وضعوا هذه النقود في هذا الصندوق فإنهم لا يملكون أخذها؛ لأنهم قد أخرجوها من أموالهم لمال من؛ لا لأحدٍ وإنما هو للمساعدة، وعلى هذا فلا يكون فيها زكاة.

ثم هاهنا مسألة يسأل عنها الكثير من الناس، وهي أنه يجتمع أناس من الموظفين مثلاً، ويقولون: سنخصم من كل راتب من رواتب هؤلاء نفر ألف ريال على كل واحد، أو عشرة في المائة من راتبه، يعني إما بالنسبة أو بالتعيين، ونعطيها واحداً منا، وفي الشهر الثاني نعطيها الثاني، وفي الشهر الثالث نعطيها الثالث، وفي الشهر الرابع نعطيها الرابع، حتى تدور عليهم ثم ترجع للأول للمرة الثانية، فبعض الناس يسأل عنها.

والجواب على هذا أن نقول: إن هذا صحيحٌ ولا بأس به، وليس فيه حرج، ومن توهم أنه من باب القرض الذي جر نفعاً فقد وهم؛ لأنني إذا سلفتُ أنا هؤلاء الإخوان الذين معي شيئاً فأنا لا آخذ أكثر مما أعطيت، وكونهم يقولون سوف يرجع إليه مال كثيرٌ نقول: نعم، ولكن لم يرجع عليه أكثر مما أعطى، فغاية ما فيه أنه سلف بشرط أن يوفى وليس في هذا شيء.

فهذا وهم من بعض الإخوان وهم بعض طلبة العلم الذين يظنون أن هذا من باب الربا؛ هذا ليس فيه ربا إطلاقاً، بل هو من باب التساعد والتعاون، وكثيراً ما يحتاج بعض الزملاء إلى أموال حاضرة تفك مشاكله، ويسلم من أن يذهب إلى أحد يتدين منه ويربي عليه، أو يذهب إلى بنك يأخذ منه بالربا أو ما أشبه ذلك، فهذه مصلحة وليس فيها مفسدة بأي وجه من الوجوه والله الموفق. ^(١)

إبراهيم بن أدهم

عن إبراهيم بن بشار، قال: أَمْسَيْنَا مَعَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدَهَمَ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَلَيْسَ مَعَنَا شَيْءٌ نُنْفِطِرُ عَلَيْهِ وَلَا لَنَا حِيلَةٌ، فَرَأَى مُعْتَمِلًا حَزِينًا، قَالَ: " يَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ بَشَّارٍ، مَاذَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ مِنَ النَّعْمِ وَالرَّاحَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَا يَسْأَلُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ زَكَاةٍ، وَلَا حَجٍّ، وَلَا صَدَقَةٍ، وَلَا عَنْ صَلَاةٍ رَحِمَ، وَلَا عَنْ مُوَاسَاةٍ، وَإِنَّمَا يُسْأَلُ وَيُحَاسَبُ عَنْ هَذَا هَؤُلَاءِ الْمَسَاكِينُ أَغْنِيَاءُ فِي الدُّنْيَا، فَقَرَاءُ فِي الْآخِرَةِ، أَعَزَّةٌ فِي الدُّنْيَا، أَذَلَّةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا تَعْتَمُّ، وَلَا تَحْزَنُ فَرَزُقُ اللَّهِ مَضْمُونٌ سَيِّئَتِكَ، نَحْنُ - وَاللَّهِ - الْمُلُوكُ الْأَغْنِيَاءُ، نَحْنُ الَّذِينَ تَعَجَّلْنَا الرَّاحَةَ فِي الدُّنْيَا، لَا نُبَالِي عَلَى أَيِّ حَالٍ أَصْبَحْنَا وَأَمْسَيْنَا إِذَا أَطْعَمَنَا اللَّهُ "، ثُمَّ قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ وَقُمْتُ إِلَى صَلَاتِي فَمَا لَبِثْنَا إِلَّا سَاعَةً وَإِذَا نَحْنُ بِرَجُلٍ قَدْ جَاءَ بِثَمَانِيَةِ أَرْغِفَةٍ وَتَمَرٍ كَثِيرٍ، فَوَضَعَهَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَقَالَ: كُلُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ، قَالَ: فَسَلَّمْتُ ثُمَّ قَالَ: " كُلُّ يَا مَغْمُومٌ " فَدَخَلَ سَائِلٌ فَقَالَ: أَطْعِمُونَا شَيْئًا فَأَخَذَ ثَلَاثَةَ أَرْغِفَةٍ مَعَ تَمَرٍ فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ وَأَعْطَانِي ثَلَاثَةً وَأَكَلَ رَغِيفَيْنِ، وَقَالَ: " الْمُوَاسَاةُ مِنْ أَخْلَاقِ الْمُؤْمِنِينَ " ^(٢)

أصحاب زيد بن أسلم

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٤٢٦).

(٢) شعب الإيمان (١٢٧٣)، حلية الأولياء (٧/ ٣٧٠).

قال أبو الأعرج - رضي الله عنه - لقد رأيتنا في مجلس زيد بن أسلم - رضي الله عنه - أربعين فقيها أدنى خصلة فينا التواصي بما في أيدينا، وما رأيت في مجلسه مماريين ولا متنازعين في حديث لا ينفعنا^(١)

علي بن الحسين:

عن عمرو بن ثابت - رحمه الله - قال: لَمَّا مات عليّ بن الحسين وجدوا بظهره أثرا مَمَّا كان ينقل الجرب بالليل إلى منازل الأرامل^(٢)

(١) نزهة الفضلاء (١ / ٢١٦).

(٢) نزهة الفضلاء (١ / ٤٠٦ - ٤٠٧).

٣٢- الصدق

معنى الصدق لغة:

الصدق: لغة، مطابقة الحكم للواقع، ولا يشترط الاعتقاد. ^(١)
وَالصَّادُ وَالذَّالُّ وَالْقَافُ أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى قُوَّةٍ فِي الشَّيْءِ قَوْلًا وَغَيْرَهُ. مِنْ ذَلِكَ الصِّدْقُ: خِلَافُ
الْكَذِبِ، سُمِّيَ لِقُوَّتِهِ فِي نَفْسِهِ، وَلِأَنَّ الْكَذِبَ لَا قُوَّةَ لَهُ، هُوَ بَاطِلٌ. ^(٢)

الصدق اصطلاحاً:

قال الراغب: الصدق والكذب أصلهما في القول ماضياً كان أو مستقبلاً، وعداً كان أو غيره.
والصدق مطابقة القول الضمير والمخبر عنه معاً، ومتى انخرم شرط من ذلك لم يكن صدقاً،
والصدق في اصطلاح أهل الحقيقة: قول الحق في مواطن الهلاك، وقيل هو أن تصدق في مكان
لا ينجيك فيه إلا الكذب.

وقال القشيري: الصدق أن لا يكون في أحوالك شوب ولا في اعتقادك ريب ولا في أعمالك
عيب. وقيل هو ترك الملاحظة ودوام المحافظة، وقيل استواء السر والجهر. ^(٣)

دواعي الصدق:

قال الماوردي رحمه الله: أَمَّا دَوَاعِي الصِّدْقِ
فَمِنْهَا: الْعَقْلُ؛ لِأَنَّهُ مُوجِبٌ لِقُبْحِ الْكَذِبِ، لَا سِيَّمَا إِذَا لَمْ يَحْلِبْ نَفْعًا وَلَمْ يَدْفَعْ ضَرَرًا. وَالْعَقْلُ
يَدْعُو إِلَى فِعْلٍ مَا كَانَ مُسْتَحْسَنًا، وَيَمْنَعُ مِنْ إِتْيَانِ مَا كَانَ مُسْتَقْبَحًا.
وَمِنْهَا: الدِّينُ الْوَارِدُ بِاتِّبَاعِ الصِّدْقِ وَحَظَرِ الْكَذِبِ؛ لِأَنَّ الشَّرْعَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَرِدَ بِإِرْخَاصِ مَا
حَظَرَهُ الْعَقْلُ، - الصحيح - بَلْ قَدْ جَاءَ الشَّرْعُ زَائِدًا عَلَى مَا اقْتَضَاهُ الْعَقْلُ مِنْ حَظَرِ الْكَذِبِ؛
لِأَنَّ الشَّرْعَ وَرَدَ بِحَظَرِ الْكَذِبِ وَإِنْ جَرَّ نَفْعًا أَوْ دَفَعَ ضَرَرًا. وَالْعَقْلُ إِنَّمَا حَظَرَ مَا لَا يَحْلِبُ نَفْعًا
وَلَا يَدْفَعُ ضَرَرًا.

^(١) التوقيف على مهمات التعاريف (ص: ٢١٣).

^(٢) مقاييس اللغة (٣/ ٣٣٩).

^(٣) التوقيف على مهمات التعاريف (ص: ٢١٤).

وَمِنْهَا: الْمُرُوءَةُ فَإِنَّهَا مَانِعَةٌ مِنَ الْكَذِبِ بَاعِثَةٌ عَلَى الصَّدَقِ؛ لِأَنَّهَا قَدْ تَمْنَعُ مَنْ فَعَلَ مَا كَانَ مُسْتَكْرَهًا، فَأَوَّلَى مَنْ فَعَلَ مَا كَانَ مُسْتَقْبَحًا.

وَمِنْهَا: حُبُّ الثَّنَاءِ وَالِاشْتِهَارِ بِالصَّدَقِ حَتَّى لَا يُرَدَّ عَلَيْهِ قَوْلٌ وَلَا يُلْحَقُهُ نَدَمٌ. وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ: لِيَكُنْ مَرْجِعُكَ إِلَى الْحَقِّ وَمَنْزَعُكَ إِلَى الصَّدَقِ، فَالْحَقُّ أَقْوَى مُعِينٌ، وَالصَّدَقُ أَفْضَلُ قَرِينٌ. ^(١)

درجات الصدق:

وَالصَّدَقُ دَرَجَاتٌ:

الْأَوَّلَى صِدْقُ اللِّسَانِ: وَحَقٌّ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ أَنْ يَحْفَظَ أَلْفَاظَهُ فَلَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا بِالصَّدَقِ.

الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: الصَّدَقُ فِي النِّيَّةِ وَالْإِرَادَةِ: وَيَرْجِعُ ذَلِكَ إِلَى الْإِخْلَاصِ.

الثَّالِثَةُ صِدْقُ الْعَزْمِ: وَهُوَ الْجَزْمُ فِيهِ بِقُوَّةٍ، وَالصَّادِقُ فِيهِ هُوَ الَّذِي تُصَادِفُ عَزِيمَتُهُ فِي الْخَيْرَاتِ كُلِّهَا قُوَّةً تَامَةً لَيْسَ فِيهَا مَيْلٌ وَلَا ضَعْفٌ وَلَا تَرَدُّدٌ.

الرَّابِعَةُ فِي الْوَفَاءِ بِالْعَزْمِ: فَإِنَّ النَّفْسَ قَدْ تَسْخُو بِالْعَزْمِ فِي الْحَالِ إِذَا لَا مَشَقَّةَ فِي الْوَعْدِ وَالْعَزْمِ، وَالْمُؤُونَةُ فِيهِ خَفِيفَةٌ، فَإِذَا حَقَّتِ الْحَقَائِقُ وَحَصَلَ التَّمَكُّنُ وَهَاجَتِ الشَّهَوَاتُ انْحَلَّتِ الْعَزِيمَةُ وَغَلَبَتِ الشَّهَوَاتُ وَلَمْ يَتَّبِقِ الْوَفَاءُ بِالْعَزْمِ، وَهَذَا يُضَادُّ الصَّدَقَ فِيهِ.

الْخَامِسَةُ الصَّدَقُ فِي الْأَعْمَالِ: وَهُوَ أَنْ يَجْتَهِدَ حَتَّى لَا تَدُلَّ أَعْمَالُهُ الظَّاهِرَةُ عَلَى أَمْرِ فِي بَاطِنِهِ لَا يَتَصِفُ هُوَ بِهِ.

الصدق السادس وهو أعلى الدرجات وأعزها الصدق في مقامات الدين كالصدق في الخوف والرجاء والتعظيم والزهد والرضا والتوكل والحب وسائر هذه الأمور. ^(٢)

أهمية الصدق إجمالاً:

قال ابن القيم: وَمِنْ مَنَازِلِ {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: ٥] مَنَزَلُهُ الصَّدَقُ وَهِيَ مَنَزَلَةُ الْقَوْمِ الْأَعْظَمِ. الَّذِي مِنْهُ تَنْشَأُ جَمِيعُ مَنَازِلِ السَّالِكِينَ، وَالطَّرِيقُ الْأَقْوَمُ الَّذِي مَنْ لَمْ يَسِرْ عَلَيْهِ

(١) أدب الدنيا والدين (ص: ٢٦٣).

(٢) إحياء علوم الدين (٤/ ٣٩١) باختصار شديد.

فَهُوَ مِنَ الْمُتَقَطِّعِينَ الْهَالِكِينَ. وَبِهِ تَمَيَّزَ أَهْلُ النَّقَاقِ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ، وَسَكَّانُ الْجَنَانِ مِنْ أَهْلِ النَّيْرَانِ. وَهُوَ سَيْفُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ الَّذِي مَا وُضِعَ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا قَطَعَهُ. وَلَا وَاجَهَ بَاطِلًا إِلَّا أَرَدَاهُ وَصَرَعَهُ. مَنْ صَالَ بِهِ لَمْ تُرَدِّ صَوْلَتُهُ. وَمَنْ نَطَقَ بِهِ عَلَتْ عَلَى الْخُصُومِ كَلِمَتُهُ. فَهُوَ رُوحُ الْأَعْمَالِ، وَمَحْكُ الْأَحْوَالِ، وَالْحَامِلُ عَلَى اقْتِحَامِ الْأَهْوَالِ، وَالْبَابُ الَّذِي دَخَلَ مِنْهُ الْوَاصِلُونَ إِلَى حَضْرَةِ ذِي الْجَلَالِ. وَهُوَ أَسَاسُ بِنَاءِ الدِّينِ، وَعَمُودُ فُسْطَاطِ الْيَقِينِ. وَدَرَجَتُهُ تَالِيَةٌ لِدَرَجَةِ النَّبُوءَةِ الَّتِي هِيَ أَرْفَعُ دَرَجَاتِ الْعَالَمِينَ. وَمِنْ مَسَاكِينِهِمْ فِي الْجَنَاتِ تُجْرَى الْعُيُونُ وَالْأَنْهَارُ إِلَى مَسَاكِينِ الصَّادِقِينَ. كَمَا كَانَ مِنْ قُلُوبِهِمْ إِلَى قُلُوبِهِمْ فِي هَذِهِ الدَّارِ مَدَدٌ مُتَّصِلٌ وَمَعِينٌ.

وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَهْلَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ. وَخَصَّ الْمُنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِالنَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ. فَقَالَ تَعَالَى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة: ١١٩] وَقَالَ تَعَالَى: {وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ} [النساء: ٦٩] فَهُمْ الرَّفِيقُ الْأَعْلَى {وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} [النساء: ٦٩] وَلَا يَزَالُ اللَّهُ يَمْدُهُمْ بِأَنْعُمِهِ وَأَلْطَافِهِ وَمَزِيدِهِ إِحْسَانًا مِنْهُ وَتَوْفِيقًا. وَلَهُمْ مَرْبَّةٌ الْمُعِيبَةِ مَعَ اللَّهِ. فَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّادِقِينَ، وَلَهُمْ مَنَزِلَةُ الْقُرْبِ مِنْهُ. إِذْ دَرَجَتُهُمْ مِنْهُ ثَانِي دَرَجَةِ النَّبِيِّينَ.

وَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ مَنْ صَدَقَهُ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ. فَقَالَ {فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ} [محمد: ٢١].

وَأَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ أَهْلِ الْبِرِّ. وَأَثْنَى عَلَيْهِمْ بِأَحْسَنِ أَعْمَالِهِمْ: مِنَ الْإِيمَانِ، وَالْإِسْلَامِ، وَالصَّدَقَةِ، وَالصَّبْرِ. بِأَنَّهُمْ أَهْلُ الصَّدَقِ فَقَالَ {وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} [البقرة: ١٧٧] وَهَذَا صَرِيحٌ فِي أَنَّ الصَّدَقَ بِالْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ. وَأَنَّ الصَّدَقَ هُوَ مَقَامُ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ.

وَقَسَمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ النَّاسَ إِلَى صَادِقٍ وَمُنَافِقٍ. فَقَالَ {لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ} [الأحزاب: ٢٤].

وَالْإِيمَانُ أَسَاسُهُ الصِّدْقُ. وَالتَّفَاقُّ أَسَاسُهُ الْكَذِبُ. فَلَا يَجْتَمِعُ كَذِبٌ وَإِيمَانٌ إِلَّا وَاحِدُهُمَا مُحَارِبٌ لِلْآخَرِ.

وَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ: أَنَّهُ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا يَنْفَعُ الْعَبْدَ وَيُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِهِ إِلَّا صِدْقُهُ. قَالَ تَعَالَى {هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [المائدة: ١١٩].^(١)

الحث على الصدق من القرآن:

١ - أمر الله تعالى عموم المؤمنين أن يكونوا مع الصادقين

قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة: ١١٩].

قال الشوكاني: قَوْلُهُ: وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ هَذَا الْأَمْرُ بِالْكُونِ مَعَ الصَّادِقِينَ بَعْدَ قِصَّةِ الثَّلَاثَةِ فِيهِ الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةَ حَصَلَ لَهُمْ بِالصِّدْقِ مَا حَصَلَ مِنْ تَوْبَةِ اللَّهِ، وَظَاهِرُ الْآيَةِ الْأَمْرُ لِلْعِبَادِ عَلَى الْعُمُومِ.^(٢)

٢ - الصدق صفة الله عز وجل

قال: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا} [النساء: ٨٧] وقال: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا} [النساء: ١٢٢].

قال ابن كثير: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا} أَيُّ: لَا أَحَدَ أَصْدَقُ مِنْهُ فِي حَدِيثِهِ وَخَبَرِهِ، وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.^(٣)

وقال السعدي: وفي قوله: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا} {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا} إخبار بأن حديثه وأخباره وأقواله في أعلى مراتب الصدق، بل أعلاها. فكل ما قيل في العقائد

^(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢/ ٢٥٧).

^(٢) فتح القدير للشوكاني (٢/ ٤٧١).

^(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٧٠).

والعلوم والأعمال مما يناقض ما أخبر الله به، فهو باطل لمناقضته للخبر الصادق اليقين، فلا يمكن أن يكون حقاً. ^(١)

٣- جعل الله تعالى منزلة الصديقية بعد منزلة النبيين

قال تعالى: {وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} [النساء: ٦٩].

قال ابن القيم رحمه الله: ولهذا أفضل مراتب الخلق بعد الرسالة والنبوة وهى مرتبة الصديقية قرنها الله في كتابه بالأنبياء فقال تعالى: {وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} [النساء: ٦٩]، فجعل درجة الصديقية معطوفة على درجة النبوة وهؤلاء هم الربانيون، وهم الراسخون في العلم، وهم الوسائط بين الرسول صلى الله عليه وسلم وأمتة، فهم خلفاؤه وأولياؤه وحزبه وخاصته وحملة دينه وهم المضمون لهم أنهم لا يزالون على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك، وقال الله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّدِيقُونَ، وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ} [الحديد: ١٩] ^(٢)

٤- الصدق من أعظم ما ينفع يوم القيامة:

قال عز وجل: {قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [المائدة: ١١٩].

قال الرازي: أجمعوا على أن المراد بهذا اليوم يوم القيامة، والمعنى أن صدقهم في الدنيا ينفعهم في القيامة، والدليل على أن المراد ما ذكرنا: أن صدق الكفار في القيامة لا ينفعهم، ألا ترى أن إبليس قال: إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ [إبراهيم: ٢٢] فلم ينفعه هذا

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ١٩١).

(٢) طريق المهجرتين وباب السعادتین (ص: ٣٥١).

الصَّدُقْ، وَهَذَا الْكَلَامُ تَصْدِيقٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِعِيسَى فِي قَوْلِهِ «مَا قُلْتُ هُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ» [البائدة: ١١٧].^(١)

٥- الصادقون أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا:

- قال تعالى: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [الأحزاب: ٣٥].

قال ابن كثير: وَقَوْلُهُ: {أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} أَي: هَيَّا لَهُمْ مِنْهُ لَذُنُوبِهِمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا وَهُوَ الْجَنَّةُ.^(٢)

الحث على الصدق من السنة النبوية:

١- الصدق يهدي إلى البر

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مسعود رضي الله عنه ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا.^(٣)

قال النووي: قَالَ الْعُلَمَاءُ هَذَا فِيهِ حَثٌّ عَلَى تَحَرِّيِ الصِّدْقِ وَهُوَ قَصْدُهُ وَالِإِعْتِنَاءُ بِهِ وَعَلَى التَّحْذِيرِ مِنَ الْكَذِبِ وَالتَّسَاهُلِ فِيهِ، فَإِنَّهُ إِذَا تَسَاهَلَ فِيهِ كَثُرَ مِنْهُ فَعُرِفَ بِهِ وَكَتَبَهُ اللَّهُ لِمُبَالِغَتِهِ صِدِّيقًا إِنْ اعْتَادَهُ أَوْ كَذَّابًا إِنْ اعْتَادَهُ وَمَعْنَى يُكْتَبُ هُنَا يُحْكَمُ لَهُ بِذَلِكَ وَيَسْتَحَقُّ الْوَصْفَ بِمَنْزِلَةِ الصِّدِّيقِينَ وَثَوَابِهِمْ أَوْ صِفَةِ الْكَذَّابِينَ وَعِقَابِهِمْ وَالْمُرَادُ إِظْهَارُ ذَلِكَ لِلْمَخْلُوقِينَ إِمَّا بِأَنْ

(١) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١٢/ ٤٦٨).

(٢) تفسير ابن كثير (٦/ ٤٢١).

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧)، واللفظ له.

يَكْتَبُهُ فِي ذَلِكَ لِيَشْتَهَرَ بِحَظِّهِ مِنَ الصَّفَتَيْنِ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَإِمَّا بَأَنْ يُلْقَى ذَلِكَ فِي قُلُوبِ النَّاسِ وَاللَّسْتِهِمْ كَمَا يُوضَعُ لَهُ الْقُبُولُ وَالْبُغْضَاءُ وَإِلَّا فَقَدَّرُ اللَّهُ تَعَالَى وَكَتَابَهُ السَّابِقُ قَدْ سَبَقَ بِكُلِّ ذَلِكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(١).

٢- الصدق طمأنينة:

عَنْ أَبِي الْحَوَرَاءِ السَّعْدِيِّ قَالَ: قُلْتُ لِلْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ: مَا حَفِظْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: دَعَا مَا يَرِيئُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيئُكَ، فَإِنَّ الصَّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ، وَإِنَّ الْكَذِبَ رَيْبَةٌ^(٢).

قال ابن رجب رحمه الله: يُشِيرُ إِلَى أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي الْإِعْتِيَادُ عَلَى قَوْلِ كُلِّ قَائِلٍ كَمَا قَالَ فِي حَدِيثٍ وَابْصَرَهُ: "وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ" وَإِنَّمَا يُعْتَمَدُ عَلَى قَوْلِ مَنْ يَقُولُ الصَّدْقَ، وَعَلَامَةُ الصَّدْقِ أَنَّهُ تَطْمَئِنُّ بِهِ الْقُلُوبُ، وَعَلَامَةُ الْكَذِبِ أَنَّهُ تَحْصُلُ بِهِ الرَّيْبَةُ، فَلَا تَسْكُنُ الْقُلُوبُ إِلَيْهِ، بَلْ تَنْفِرُ مِنْهُ. وَمَنْ هُنَا كَانَ الْعُقْلَاءُ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا سَمِعُوا كَلَامَهُ وَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ، عَرَفُوا أَنَّهُ صَادِقٌ، وَأَنَّهُ جَاءَ بِالْحَقِّ، وَإِذَا سَمِعُوا كَلَامَ مُسَيِّئَةٍ، عَرَفُوا أَنَّهُ كَاذِبٌ، وَأَنَّهُ جَاءَ بِالْبَاطِلِ^(٣).

٣- الصدق مما دعا إليه النبي صلى الله عليه وسلم في مهد دعوته:

عَنْ أَبِي سَفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي حَدِيثِهِ الطَّوِيلِ فِي قِصَّةِ هِرَقْلٍ عَظِيمِ الرُّومِ قَالَ هِرَقْلٌ: مَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ قُلْتُ: يَقُولُ: اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَاتْرَكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّدَقِ وَالْعَفَافِ وَالصَّلَةِ^(٤).

٤- الصدق نجاة من النفاق:

(١) شرح النووي على مسلم (١٦ / ١٦٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥١٨) وقال الترمذي: صحيح، وصححه الألباني في الإرواء (١٢).

(٣) جامع العلوم والحكم (١ / ٢٨٥).

(٤) أخرجه البخاري (٧).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبًا، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِنَ خَانَ " (١)

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النَّفَاقِ حَتَّى يَدْعَهَا: إِذَا أُؤْتِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبًا، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ " (٢)

٥-الصدق صفة النبي صلى الله عليه وسلم :

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} [الشعراء: ٢١٤]، صَعِدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الصَّفَا، فَجَعَلَ يُنَادِي: يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ - لِبُطُونِ قُرَيْشٍ - حَتَّى اجْتَمَعُوا فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا لِيَنْظُرَ مَا هُوَ، فَجَاءَ أَبُو هَبٍ وَقُرَيْشٌ، فَقَالَ: أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَكُتِّمُ مُصَدِّقِي؟ قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا، قَالَ: فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ فَقَالَ أَبُو هَبٍ: تَبَّ لَكَ سَائِرُ الْيَوْمِ، أَهَذَا جَمَعْتَنَا؟ فَنَزَلَتْ: {تَبَّتْ يُدَا أَبِي هَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ} [المسد: ٢] (٣) وفي لفظ: قَالُوا: مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا (٤).

٦-الصدق رخاء في الاقتصاد:

عَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " الْبَيْعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، - أَوْ قَالَ: حَتَّى يَتَفَرَّقَا - فَإِنْ صَدَقَا وَبَيْنَا بُورِكَ هُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَّتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا " (٥)

(١) أخرجه البخاري (٣٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤).

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٧٠).

(٤) مسلم (٢٠٨).

(٥) أخرجه البخاري (٢٠٧٩).

قال النووي: أَيُّ بَيِّنٍ كُلِّ وَاحِدٍ لِصَاحِبِهِ مَا يَخْتِاجُ إِلَى بَيَانِهِ مِنْ عَيْبٍ وَنَحْوِهِ فِي السَّلْعَةِ وَالشَّمَنِ وَصَدَقَ فِي ذَلِكَ وَفِي الْإِخْبَارِ بِالشَّمَنِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِالْعَوَظِينَ وَمَعْنَى مُحَقَّتْ بَرَكَةٌ يَبْعُهُمَا أَيُّ ذَهَبَتْ بَرَكَتُهُ وَهِيَ زِيَادَتُهُ وَنَمَاؤُهُ^(١).

أقوال السلف والعلماء في الصدق:

١- قال أبو بكر بعد توليه الخلافة: أَمَّا بَعْدُ أَيُّهَا النَّاسُ، فَإِنِّي قَدْ وُلِّيتُ عَلَيْكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ، فَإِنْ أَحْسَنْتُمْ فَأَعِينُونِي، وَإِنْ أَسَأْتُ فَقَوِّمُونِي، الصَّدْقُ أَمَانَةٌ، وَالْكَذِبُ خِيَانَةٌ، وَالضَّعِيفُ فِيكُمْ قَوِيٌّ عِنْدِي حَتَّى أُرِيحَ عَلَيْهِ حَقَّهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وَالْقَوِيُّ فِيكُمْ ضَعِيفٌ عِنْدِي حَتَّى آخِذَ الْحَقِّ مِنْهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، لَا يَدْعُ قَوْمُ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا ضَرْبَهُمُ اللَّهُ بِالذُّلِّ، وَلَا تَشِيعُ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ إِلَّا عَمَّهُمُ اللَّهُ بِالْبَلَاءِ، أَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِذَا عَصَيْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ.^(٢)

٢- وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ} [البقرة: ٤٢] أَيُّ لَا تَخْلِطُوا الصَّدْقَ بِالْكَذِبِ.

٣- وَقِيلَ فِي مَثْوَرِ الْحَكَمِ: الْكَذَابُ لِصٍّ؛ لِأَنَّ اللَّصَّ يَسْرِقُ مَالَكَ، وَالْكَذَّابُ يَسْرِقُ عَقْلَكَ.

٤- وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: الْحَرَسُ خَيْرٌ مِنَ الْكَذِبِ وَصِدْقُ اللِّسَانِ أَوَّلُ السَّعَادَةِ.

٥- وَقَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ: الصَّادِقُ مُصَانٌّ خَلِيلٌ، وَالْكَاذِبُ مُهَانٌ ذَلِيلٌ. وَقَالَ بَعْضُ الْأَدْبَاءِ: لَا سَيْفَ كَالْحَقِّ، وَلَا عَوْنَ كَالصِّدْقِ وَقَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ:

وَمَا شَيْءٌ إِذَا فَكَّرْتَ فِيهِ... بِأَذْهَبَ لِلْمُرُوءَةِ وَالْجَمَالِ

مِنَ الْكَذِبِ الَّذِي لَا خَيْرَ فِيهِ... وَأَبْعَدَ بِالْبَهَاءِ مِنَ الرَّجَالِ

وَالْكَذِبُ جَمَاعُ كُلِّ شَرٍّ، وَأَصْلُ كُلِّ ذَمٍّ لِسُوءِ عَوَاقِبِهِ، وَخُبْتُ نَتَائِجِهِ؛ لِأَنَّهُ يُنْتِجُ النَّمِيمَةَ، وَالنَّمِيمَةُ تُنْتِجُ الْبَغْضَاءَ، وَالْبَغْضَاءُ تُؤَوِّلُ إِلَى الْعَدَاوَةِ، وَلَيْسَ مَعَ الْعَدَاوَةِ أَمْنٌ وَلَا رَاحَةٌ. وَلِذَلِكَ قِيلَ: مَنْ قَلَّ صِدْقُهُ قَلَّ صَدِيقُهُ.^(١)

(١) شرح النووي على مسلم (١٠ / ١٧٦).

(٢) الصحيح المسند من آثار الصحابة في الزهد والرقائق والأخلاق والأدب (١ / ٤٠).

٦- وقال أبو حاتم: الصدق يرفع المرء في الدارين كما أن الكذب يهوى به في الحالين ولو لم يكن الصدق خصلة تحمد إلا أن المرء إذا عرف به قبل كذبه وصار صدقا عند من يسمعه لكان الواجب على العاقل أن يبلغ مجهوده في رياضة لسانه حتى يستقيم له على الصدق ومجانبة الكذب والعي في بعض الأوقات خير من النطق لأن كل كلام أخطأ صاحبه موضعه فالعي خير منه. (٢)

(١) أدب الدنيا والدين (ص: ٢٦١).

(٢) روضة العقلاء (٥٤).

٣٣- نصرّة المظلوم

نصرة المظلوم لغة:

قال الزبيدي: نَصَرَ الْمَظْلُومَ يَنْصُرُهُ نَصْرًا وَنُصُورًا، كَقُعُودٍ، وَنُصْرَةً، وَالْإِسْمُ النُّصْرَةُ: أَعَانَهُ عَلَى عَدُوِّهِ وَشَدَّ مِنْهُ. (١)

معنى الظلم لغة:

يقال ظَلَمَهُ يَظْلِمُهُ ظُلْمًا وَظُلْمًا وَمَظْلَمَةً، وَأَصْلُ الظُّلْمِ فِي اللُّغَةِ وَضْعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ (٢).
معنى الظلم اصطلاحًا:

هو: وضع الشيء في غير موضعه المختص به؛ إما بنقصان أو بزيادة؛ وإما بعدول عن وقته أو مكانه (٣).

أساس الظلم:

أساس الظلم هو تسلط الهوى والغرض الفاسد والحقْد والحسد على النفس، فتتنحرف عن مدارك الحق ومشارك العرفان، فلا يمكن أن يكون للهداية موضع في النفس، فلا يهديه الله سبحانه، وإن الظلم بطبيعته يفسد الإدراك كله؛ لأن إدراك الحقائق يستلزم صدق النفس في طلبها، وصدق النفس في طلب الحقائق لا يمكن أن يكون مع الظلم. الذي يجعل الهوى مسيطرًا، فالظلم ظلمات في النفس، وظلمات يوم القيامة. (٤)

الحكمة من نصر المظلوم:

قال ابن الجوزي: وَأَمَّا نَصْرُ الْمَظْلُومِ فَلَمَعْنِينَ: أَحَدُهُمَا: إِقَامَةُ الشَّرْعِ بِإِظْهَارِ الْعَدْلِ. وَالثَّانِي نَصْرُ الْأَخِ الْمُسْلِمِ أَوْ الدَّفْعُ عَنِ الْكِتَابِيِّ وَفَاءٌ بِالذِّمَّةِ. (٥)

(١) جمهرة اللغة (٢/ ٧٤٤).

(٢) المصباح المنير للفيومي (ص ١٤٦)، وانظر: تفسير الطبري (٣٧/ ١٠، ٣٤١)، ومعاني القرآن للزجاج (١٣٥/ ٣، ٢٩٣).

(٣) مفردات ألفاظ القرآن للراغب (٥٣٧)، وروح البیان (٣١٧/ ٦).

(٤) زهرة التفاسير (٣/ ١٣٠٦).

(٥) كشف المشكل من حديث الصحيحين (٢/ ٢٣٧).

وقال ابن دقيق العيد: "نَصْرُ الْمَظْلُومِ" مِنْ الْفُرُوضِ الْإِلَازِمَةِ عَلَى مَنْ عَلِمَ بِظُلْمِهِ، وَقَدَّرَ عَلَى نَصْرِهِ وَهُوَ مِنْ فُرُوضِ الْكِفَايَاتِ، لِأَنَّهُ فِيهِ مِنْ إِزَالَةِ الْمُتَكَبِّرِ، وَدَفْعِ الضَّرَرِ عَنِ الْمُسْلِمِ.^(١)

الحث على نصره المظلوم من القرآن الكريم:

١- قال تعالى: {وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا} [النساء: ٧٥].
عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُقَاتِلُوا عَنْ مُسْتَضْعَفِي الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ.^(٢)

قال أبو حيان: هَذَا الْإِسْتِفْهَامُ فِيهِ حَثٌّ وَتَحْرِيطٌ عَلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَعَلَى تَخْلِيصِ الْمُسْتَضْعَفِينَ.^(٣)

٢- وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} (٧٢)

قال القرطبي: قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ} يُرِيدُ أَنْ دَعَا هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ لَمْ يُهَاجِرُوا مِنْ أَرْضِ الْحَرْبِ عَوْنَكُمْ بِتَغْيِيرٍ أَوْ مَالٍ لِاسْتِنْقَادِهِمْ فَأَعِينُوهُمْ، فَذَلِكَ فَرَضٌ عَلَيْكُمْ فَلَا تَخْذُلُوهُمْ. إِلَّا أَنْ يَسْتَنْصِرُوكُمْ عَلَى قَوْمٍ كُفَّارٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَلَا تَنْصُرُوهُمْ عَلَيْهِمْ، وَلَا تَنْقُضُوا الْعَهْدَ حَتَّى تَتِمَّ مُدَّتُهُ.

٣- قال تعالى: {ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ} (الحج: ٦٠)

(١) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام (٢/ ٢٩٦).

(٢) تفسير مجاهد (ص: ٢٨٦).

(٣) البحر المحيط في التفسير (٣/ ٧١٠).

قال ابن عجيبة: أي: من جازى بمثل ما فعل به من الظلم، ثم ظلم، بعد ذلك، وبُغي عليه بعد ذلك، فحق على الله أن ينصره إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ يَمْحُو آثَارَ الذُّنُوبِ، غَفُورٌ يَسْتُرُ أَنْوَاعَ الْعُيُوبِ^(١).

٤- قال تعالى: {وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ (١٧) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (١٩)}

قال ابن العربي: قَوْلُهُ: {فَاسْتَغَاثَهُ} [القصص: ١٥] طَلَبَ عَوْنَهُ وَنُصْرَتَهُ، وَلِذَلِكَ قَالَ فِي الْآيَةِ بَعْدَهَا: {فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ} [القصص: ١٨] وَإِنَّمَا أَغَاثَهُ لِأَنَّ نَصَرَ الْمَظْلُومِ دِينٌ فِي الْمِلَلِ كُلِّهَا عَلَى الْأُمَمِ، وَفَرَضَ فِي جَمِيعِ الشَّرَائِعِ^(٢).

وقال القاسمي: فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ أي يتنازعان هذا أي الواحد مِنْ شِيعَتِهِ أي ممن يشايعه على دينه وهم بنو إسرائيل وهذا أي الآخر مِنْ عَدُوِّهِ أي ممن خالفه في دينه وهم القبط فَاسْتَغَاثَهُ أي سَأَلَهُ الْإِغَاثَةَ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ لَكُونَهُ مَظْلُومًا عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ لَكُونَهُ ظَالِمًا. وَإِغَاثَةُ الْمَظْلُومِ وَاجِبَةٌ فُوجِبَتْ إِغَاثَتُهُ مِنْ جِهَتَيْنِ^(٣)

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٣/ ٥٤٨).

(٢) تفسير القرطبي (١٣/ ٢٦٠).

(٣) محاسن التأويل (٧/ ٥١٦).

٥- قال تعالى: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} (٩)

قال الرازي: فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي أَيُّ الظَّالِمِ يُحِبُّ عَلَيْكُمْ دَفْعُهُ عَنْهُ، ثُمَّ إِنَّ الظَّالِمَ إِنْ كَانَ هُوَ الرَّعِيَّةَ، فَالْوَاجِبُ عَلَى الْأَمِيرِ دَفْعُهُمْ، وَإِنْ كَانَ هُوَ الْأَمِيرَ، فَالْوَاجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَنَعُهُ بِالنَّصِيحَةِ فَمَا فَوْقَهَا، وَشَرْطُهُ أَنْ لَا يُثِيرَ فِتْنَةً مِثْلَ الَّتِي فِي اقْتِتَالِ الطَّائِفَتَيْنِ أَوْ أَشَدَّ مِنْهَا^(١)

٦- قال تعالى في قصة عيسى عليه السلام: {وَجَعَلْنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا} (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدِيَّ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا} (مريم: ٣٢)
قال القرطبي: أَيُّ ذَا بَرَكَاتٍ وَمَنَافِعٍ فِي الدِّينِ وَالدُّعَاءِ إِلَيْهِ وَمُعَلِّمًا لَهُ^(٢).
قال التستري وقوله: {وَجَعَلْنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ} يعني أمر بالمعروف، وأنهى عن المنكر، وأرشد الضال، وأنصر المظلوم، وأغيث الملهوف^(٣).

الترغيب في نصره المظلوم من سنة النبي صلى الله عليه وسلم

١- عن البراء بن عازب رضي الله عنهما، قَالَ: "أَمَرَنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِسَبْعٍ، وَنَهَانَا عَنْ سَبْعٍ فَذَكَرَ: عِيَادَةَ الْمَرِيضِ، وَاتِّبَاعَ الْجَنَائِزِ، وَتَشْمِيتَ الْعَاطِسِ، وَرَدَّ السَّلَامِ، وَنَصْرَ الْمَظْلُومِ، وَإِجَابَةَ الدَّاعِي، وَإِزْرَارَ الْمُفْسِمِ"^(٤) وفي لفظ: قَالَ: "وَعَوْنِ الْمَظْلُومِ"^(٥)
قال البدر العيني: قَالَ الْعُلَمَاءُ: نَصْرُ الْمَظْلُومِ فَرَضٌ وَاجِبٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْكِفَايَةِ، فَمَنْ قَامَ بِهِ سَقَطَ عَنِ الْبَاقِينَ، وَيَتَعَيَّنُ فَرَضُ ذَلِكَ عَلَى السُّلْطَانِ، ثُمَّ عَلَى مَنْ لَهُ قُدْرَةٌ عَلَى نَصْرِهِ إِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مَنْ يَنْصُرُهُ غَيْرُهُ مِنْ سُلْطَانٍ وَشَبِيهِهِ^(٦).

(١) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢٨ / ١٠٤).

(٢) تفسير القرطبي (١١ / ١٠٣).

(٣) تفسير التستري (ص: ٩٩).

(٤) أخرجه البخاري (٢٤٤٥).

(٥) أخرجه البخاري (٦٢٣٥).

٢- وعن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ: تَحْجُزُهُ، أَوْ تَمْنَعُهُ، مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ)) (٢).

قال ابن بطال: والنصرة عند العرب: الإعانة والتأييد، وقد فسر رسول الله أن نصر الظالم منعه من الظلم؛ لأنه إذا تركته على ظلمه ولم تكفه عنه أداه ذلك إلى أن يقتص منه؛ فمنعك له مما يوجب عليه القصاص نصره، وهذا يدل من باب الحكم للشئ وتسميته بما يؤول إليه، وهو من عجيب الفصاحة، ووجيز البلاغة (٣).

٣- عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا وَشَبَكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ. (٤)

قال ابن علان: قال القرطبي: هذا تمثيل يفيد الحض على معاونة المؤمن للمؤمن ونصرته، وأن ذلك أمر متأكد لا بد منه، فإن البناء لا يتم ولا تحصل فائدته إلا بأن يكون بعضه يمسك بعضًا ويقويه. وإن لم يكن ذلك انحلت أجزاؤه وخرب بناؤه، وكذا المؤمن لا يشتغل بأمر دنياه ودينه إلا بمعاونة أخيه ومعاضدته ومناصرته، فإن لم يكن ذلك عجز عن القيام بكل مصالحه وعن مقاومة مضاده فحينئذ لا يتم له نظام دنيا ولا دين ويلحق بالهالكين (٥).

٤- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: ((مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا، نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ)) (٦).

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٢ / ٢٩٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٥٢).

(٣) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٦ / ٥٧٢).

(٤) أخرجه البخاري (٤٨١)، ومسلم (٢٥٨٥).

(٥) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين (٦ / ٣).

(٦) أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

قال النووي: فِي هَذَا فَضْلُ إِعَانَةِ الْمُسْلِمِ وَتَفْرِيجِ الْكُرْبِ عَنْهُ وَسِتْرِ زَلَّاتِهِ وَيَدْخُلُ فِي كَشْفِ الْكُرْبَةِ وَتَفْرِيجِهَا مِنْ إِزَالِهَا بِمَالِهِ أَوْ جَاهِهِ أَوْ مُسَاعَدَتِهِ وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ يَدْخُلُ فِيهِ مِنْ أَزَالِهَا بِإِشَارَتِهِ وَرَأْيِهِ وَدَلَالَتِهِ. (١)

وقال الصنعاني: فَضِيلَةٌ مَنْ فَرَّجَ عَنِ الْمُسْلِمِ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا وَتَفْرِيجُهَا إِمَّا بِإِعْطَائِهِ مِنْ مَالِهِ إِنْ كَانَتْ كُرْبَتُهُ مِنْ حَاجَةٍ أَوْ بِذَلِّ جَاهِهِ فِي طَلْبِهِ لَهُ مِنْ غَيْرِهِ أَوْ قَرْضِهِ، وَإِنْ كَانَتْ كُرْبَتُهُ مِنْ ظُلْمٍ ظَالِمٍ لَهُ فَرَّجَهَا بِالسَّعْيِ فِي رَفْعِهَا عَنْهُ أَوْ تَخْفِيفِهَا وَإِنْ كَانَتْ كُرْبَةً مَرَضٍ أَصَابَهُ أَعَانَهُ عَلَى الدَّوَاءِ إِنْ كَانَ لَدَيْهِ أَوْ طَيِّبَ يَنْفَعُهُ، وَبِالْجُمْلَةِ تَفْرِيجُ الْكُرْبِ بَابٌ وَاسِعٌ فَإِنَّهُ يَشْمَلُ إِزَالَهَ كُلِّ مَا يَنْزِلُ بِالْعَبْدِ أَوْ تَخْفِيفَهُ. (٢)

٥- - عن جابر بن عبد الله قال: لَدَغَتْ رَجُلًا مِّنَّا عَقْرَبٌ، وَنَحْنُ جُلُوسٌ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَقِي؟ قَالَ: مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ فَلْيَفْعَلْ. (٣)

قال ابن رجب: فَإِنَّ الْأَخَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُوَصَلَ لِأَخِيهِ النِّفْعَ، وَيَكْفَى عَنْهُ الضَّرَرُ، وَمَنْ أَعْظَمَ الضَّرَرَ الَّذِي يَجِبُ كَفُّهُ عَنِ الْأَخِ الْمُسْلِمِ الظَّلَمَ، وَهَذَا لَا يَخْتَصُّ بِالْمُسْلِمِ، بَلْ هُوَ مُحْرَمٌ فِي حَقِّ كُلِّ أَحَدٍ. (٤)

٦- محبة النبي صلى الله عليه وسلم لأهل النصره

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَوْ قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَوْ أَنَّ الْأَنْصَارَ سَلَكَوا وَادِيًا، أَوْ شَعْبًا، لَسَلَكْتُ فِي وَادِي الْأَنْصَارِ، وَلَوْ لَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: مَا ظَلَمَ بِأَبِي وَأُمِّي، أَوْوَهُ وَنَصَرُوهُ، أَوْ كَلِمَةً أُخْرَى. (٥)

(١) شرح النووي على مسلم (١٦ / ١٣٥).

(٢) سبل السلام (٢ / ٦٣٨).

(٣) أخرجه مسلم (٢١٩٩).

(٤) جامع العلوم والحكم (٢ / ٢٧٣).

(٥) أخرجه البخاري (٣٧٧٩).

قال الملا علي القاري: فيه بيان أنهم بلغوا من الكرامة مبلغا لولا أنه - صلى الله عليه وسلم - من المهاجرين إلى المدينة لعد نفسه من الأنصار لكرامتهم عند الله تعالى، وتلخيصه: لولا فضلي على الأنصار بسبب الهجرة لكنت واحدا منهم، وهذا تواضع منه - صلى الله عليه وسلم - وحث للناس على إكرامهم واحترامهم^(١)

٧- أخوة الإسلام توجب النصيحة والنصرة

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ التَّقْوَى هَاهُنَا وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعَرْضُهُ. (٢)
قال النووي: قَالَ الْعُلَمَاءُ الْخَذْلُ تَرْكُ الْإِعَانَةِ وَالنَّصْرِ وَمَعْنَاهُ إِذَا اسْتَعَانَ بِهِ فِي دَفْعِ ظَالِمٍ وَنَحْوِهِ لَزِمَهُ إِعَانَتُهُ إِذَا أَمَكَّنَهُ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ عُدْرٌ شَرْعِيٌّ. (٣)

بعض صور الظلم بين العباد:

أولاً: الظلم القولي

التعرض للناس بالغيبة، والنميمة، والسباب والشتيم، والاحتقار، والتنازع بالألقاب، والسخرية والاستهزاء والقذف والافتراء بالباطل... وغيرها.
ومثل هذا ينصر بالكلام والرد عنه في غيبته وهذا يدخل في عموم أحاديث النهي عن المنكر وفيه حديث عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ ذَبَّ عَنْ عَرَضِ أَخِيهِ بِالْغِيْبَةِ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُعْتِقَهُ مِنَ النَّارِ. (٤)

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/ ٤٠٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).

(٣) شرح النووي على مسلم (١٦/ ١٢٠).

(٤) أخرجه أحمد (٢٧٦٠٩)، وقال الألباني في صحيح الجامع الصغير (٦٢٤٠): صحيح.

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَنْ رَدَّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ رَدَّ اللَّهُ عَنْ وَجْهِهِ النَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ^(١).

قال الصنعاني: فِي الْحَدِيثَيْنِ دَلِيلٌ عَلَى فَضِيلَةِ الرَّدِّ عَلَى مَنْ اغْتَابَ أَخَاهُ عِنْدَهُ وَهُوَ وَاجِبٌ؛ لِأَنَّهُ مِنْ بَابِ الْإِنْكَارِ لِلْمُنْكَرِ وَلِذَا وَرَدَ الْوَعِيدُ عَلَى تَرْكِهِ ^(٢).

ثانياً: الظلم الفعلي، وله صور كثيرة منها ما يلي:

١ - القتل بغير حق:

قال تعالى: وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا [الإسراء: ٣٣].

ونصرته بالقصاص له إن كان عمداً وإعطاء الدية لأوليائه إن كان خطأً أو قبلوا الدية من العمد.

٢ - الظلم الواقع على المسلمين لإيمانهم:

ونصرتهم بالجهاد في سبيل كما أمر الله تعالى وقد سبق في أول البحث أن من هدف الجهاد أيضاً إنقاذ المستضعفين في الأرض {وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا} [سورة النساء: ٧٥].

٣ - أخذ متاع الغير بغير حق:

عَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((مَنْ أَخَذَ شَيْئاً مِنَ الْأَرْضِ ظُلْماً، فَإِنَّهُ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ)) ^(٣).

وهذا يقع بين الجيران في الأرض غالباً وبين الشركاء كما يقع في الميراث ومن يغير منار الأرض وينقل الحدود والعلامات بحيث لا يستطيع صاحب الحق أن يثبت حقه.

^(١) سنن الترمذي (١٩٣١)، وقال الترمذي: حديث حسن، وقال الألباني: صحيح.

^(٢) سبل السلام (٢/ ٦٩٢).

^(٣) أخرجه البخاري (٣١٩٨)، ومسلم (١٦١٠).

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قَالَ: قَالَ: لَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَهُ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ آوَى مُحَدِّثًا، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ^(١)
الْمَنَارُ: جَمْعُ مَنَارَةٍ وَهِيَ الْعَلَامَةُ تَجْعَلُ بَيْنَ الْحَدِيدِ وَتَغْيِيرُهَا أَنْ يَدْخُلَهَا فِي أَرْضِهِ^(٢)
وقال الشيخ ابن عثيمين:

قال العلماء: منار الأرض حدودها؛ لأنه مأخوذ من " المنور " وهو العلامة، فإذا غير إنسان من هذه الأرض، بأن أدخل شيئاً من هذه الأرض إلى أرض غيره، فإنه ملعون على لسان النبي صلى الله عليه وسلم.

٤ - الظلم الواقع في الأسر:

ومنه:

- ظلم الأولاد لو ألبسها بعقوبتهما
- ظلم الأزواج لزوجاتهم في حقهن سواء كان صداقاً، أو نفقة، أو كسوة.
- ظلم الزوجات لأزواجهن في تقصيرهن في حقهن وتنكر فضلهم.
- ظلم البنات بعصلهن عن الزواج.
- الدعاء على الأولاد والقسوة في التعامل معهم.
- تفضيل بعض الأولاد على بعض.
- النظام بين الإخوة والأخوات في الميراث وتوزيع التركات

٥ - ظلم العمال:

ومنه:

- أن يعمل له عملاً ولا يعطيه أجره:

(١) أخرجه مسلم (١٩٧٨).

(٢) حاشية السيوطي على سنن النسائي (٧/ ٢٣٢)، والتيسير بشرح الجامع الصغير (٢/ ٢٩٤).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: " قَالَ اللَّهُ: ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصَمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ " (١)

- أن يبخره حقوقه أو أن يؤخرها عن وقتها:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَعْطُوا الْأَجِيرَ أَجْرَهُ، قَبْلَ أَنْ يَحِفَّ عَرْقُهُ (٢)

- تكليفه بأمور غير ما اتفق عليها معه، أو بأمور لم تجري العادة تكليفه بها:

عَنِ الْمَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ، قَالَ: لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ، وَعَلَى غُلَامِهِ حُلَّةٌ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلًا فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إِخْوَانُكُمْ حَوْلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيَلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ. (٣)

٦- ومن صور الظلم بين الناس أكل مال الغير بغير حق:

وهو أنواع ومنه:

١ - أكل أموال الناس بالباطل:

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدُوًّا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا} [النساء: ٢٩ - ٣٠]

٢ - أكل أموال الضعفاء كاليتامى:

(١) أخرجه البخاري (٢٢٢٧).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٤٤٣)، وصححه الألباني في الإرواء (١٤٩٨).

(٣) أخرجه البخاري (٣٠).

قال تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا } [النساء: ١٠].

٣ - الربا:

قال تعالى: { فَظَلَمَ مَنْ لِّلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ، وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا } [النساء: ١٦٠ - ١٦١].

٤ - السرقة:

قال تعالى: { وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ } [المائدة: ٣٨]

٥ - الرشوة.

٦ - الغش في المعاملات.

٧ - الميسر:

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ } [المائدة: ٩٠ - ٩١]

٨ - أخذ مهر المرأة وعدم إعطائه لها

٩ - أخذ ميراث المرأة وحرمانها منه

٣٤- الإنصاف

معنى الإنصاف لغة واصطلاحاً:

معنى الإنصاف لغة:

قال ابن فارس: (نصف) النون والصاد والفاء أصلان صحيحان: أحدهما يدلُّ على شَطْر الشيء، والأخرى على جنسٍ من الخدمة والاستعمال. فالأوَّلُ نِصْفُ الشيء ونَصِيفُهُ: شَطْرُهُ.^(١)

معنى الإنصاف اصطلاحاً:

قال المناوي: الإنصاف هو العدل في المعاملة بأن لا يأخذ من صاحبه من المنافع إلا ما يعطيه، ولا ينيله من المضار إلا كما ينيله.^(٢)

قال الطبري: الإنصاف إعطاء الحق لصاحبك كالذي تستحق لنفسك.^(٣)

قال النيسابوري: حقيقة الإنصاف إعطاء النصف وفيه التسوية بين نفسه وبين صاحبه.^(٤)

الترغيب والحث على الإنصاف من القرآن الكريم:

١- قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } [المائدة: ٨]

قال الطبري: يعني بذلك جل ثناؤه: يا أيها الذين آمنوا بالله وبرسوله محمد، ليكن من أخلاقكم وصفاتكم القيام لله شهداء بالعدل في أوليائكم وأعدائكم، ولا تجوروا في أحكامكم وأفعالكم، فتجاوزوا ما حددت لكم في أعدائكم لعداوتهم لكم، ولا تقصّروا فيما حددت لكم من أحكامي وحدودي في أوليائكم لولايتهم لكم، ولكن انتهوا في جميعهم إلى حدّي، واعملوا فيه بأمري.

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٥/٤٣١).

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف (٦٤).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٦/٤٧٩).

(٤) انظر: غرائب القرآن ورجائب الفرقان (٢/٢٧٨).

وأما قوله: { وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا }، فإنه يقول: ولا يحملنكم عداوة قوم على ألا تعدلوا في حكمكم فيهم وسيرتكم بينهم، فتجوروا عليهم من أجل ما بينكم وبينهم من العداوة^(١).

٢- قال تعالى: { وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } [الأنعام: ١٥٢]

قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: (وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا)، وإذا حكمتم بين الناس فتكلمتم فقولوا الحق بينهم، واعدلوا وأنصفوا ولا تجوروا، ولو كان الذي يتوجه الحق عليه والحكم، ذا قرابة لكم، ولا تحملنكم قرابة قريب أو صداقة صديق حكمتم بينه وبين غيره، أن تقولوا غير الحق فيما احتكم إليكم فيه.^(٢)

الترغيب والحث من السنة على الإنصاف :

(١) عَنْ الْمُعُرُّورِ بْنِ سُوَيْدٍ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: رَأَيْتُ عَلَيْهِ بُرْدًا وَعَلَىٰ غُلَامِهِ بُرْدًا فَقُلْتُ: لَوْ أَخَذْتَ هَذَا فَلَبَسْتَهُ كَانَتْ حُلَّةً وَأَعْطَيْتَهُ ثَوْبًا آخَرَ فَقَالَ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ رَجُلٍ كَلَامٌ وَكَانَتْ أُمُّهُ أَعْجَمِيَّةً فَلَيْتُ مِنْهَا فَذَكَرَنِي إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لِي أَسَابَيْتَ فُلَانًا قُلْتُ نَعَمْ قَالَ أَفَلَيْتَ مِنْ أُمِّهِ قُلْتُ نَعَمْ قَالَ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ قُلْتُ عَلَى حِينِ سَاعَتِي هَذِهِ مِنْ كِبَرِ السِّنِّ قَالَ نَعَمْ هُمْ إِخْوَانُكُمْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ فَمَنْ جَعَلَ اللَّهُ أَخَاهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ وَلَا يُكَلِّفْهُ مِنَ الْعَمَلِ مَا يَغْلِبُهُ فَإِنْ كَلَّفَهُ مَا يَغْلِبُهُ فَلْيَعْنَهُ عَلَيْهِ^(٣)

(٢) عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ بَعْضِ نِسَائِهِ، فَأَرْسَلَتْ إِحْدَى أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بِصُحْفَةٍ فِيهَا طَعَامٌ، فَضَرَبَتِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَيْتِهَا

(١) تفسير الطبري (١٠ / ٩٥).

(٢) تفسير الطبري (١٢ / ٢٢٥).

(٣) أخرجه البخاري (٥٥٩٠)، مسلم (٣١٣٩).

يَدَ الْخَادِمِ، فَسَقَطَتِ الصَّحْفَةُ فَأَنْفَلَقَتْ، فَجَمَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَقَّ الصَّحْفَةَ، ثُمَّ جَعَلَ يَجْمَعُ فِيهَا الطَّعَامَ الَّذِي كَانَ فِي الصَّحْفَةِ، وَيَقُولُ: غَارَتْ أُمُّكُمْ ثُمَّ حَبَسَ الْخَادِمَ حَتَّى أَتَى بِصَحْفَةٍ مِنْ عِنْدِ أَلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا، فَدَفَعَ الصَّحْفَةَ الصَّحِيحَةَ إِلَى أَلَّتِي كُسِرَتْ صَحْفَتُهَا، وَأَمْسَكَ الْمَكْسُورَةَ فِي بَيْتِ أَلَّتِي كُسِرَتْ (١)

أقوال السلف والعلماء في الإنصاف

* عَنْ عَمَّارٍ قَالَ: ثَلَاثٌ مَنْ جَمَعَهُنَّ جَمَعَ الْإِيَّانَ: الْإِنْصَافُ مِنْ نَفْسِكَ، وَالْإِنْفَاقُ مِنَ الْإِقْتَارِ، وَبَذْلُ السَّلَامِ لِلْعَالَمِ. (٢)

* قَالَ ابْنُ حَزْمٍ: مَنْ أَرَادَ الْإِنْصَافَ فَلْيَتَوَهَّمْ نَفْسَهُ مَكَانَ خَصْمِهِ فَإِنَّهُ يَلُوحُ لَهُ وَجْهٌ تَعْسَفُهُ. (٣)
* قَالَ الْأَخْنَفُ بْنُ قَيْسٍ: مَا عَرَضَتْ الْإِنْصَافَ عَلَى أَحَدٍ فَقَبِلَهُ إِلَّا هَبْتَهُ، وَلَا أَبَاهُ إِلَّا طَمَعَتْ فِيهِ. (٤)

وَقَالَ: الْإِنْصَافُ يُنْبِتُ الْمَوَدَّةَ، وَمَعَ كَرَمِ الْعِشْرَةِ تَطُولُ الْمَوَدَّةُ.
وَقَالَ: ثَلَاثٌ خِصَالٍ تُجْتَلَبُ بِهِنَّ الْمَحَبَّةُ: الْإِنْصَافُ فِي الْمَعَاشَرَةِ، وَالْمُؤَاسَاةُ فِي الشَّدَّةِ، وَالْإِنْطَوَاءُ عَلَى الْمَوَدَّةِ. (٥)

وقال ابن القيم - رحمه الله - : "والإنصاف أن تكتال لمنازعك بالصاع الذي تكتال به لنفسك؛ فإن في كل شيء وفاءً وتطفيلاً" (٦)

نماذج من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم في الإنصاف

١- إنصاف النبي مع الصحابة لما امتنع بعضهم من دفع الصدقة

(١) أخرجه البخاري (٥٢٢٥).

(٢) انظر: مصنف ابن أبي شيبة (٤٨/١١).

(٣) انظر: الأخلاق والسير لابن حزم (١٦٥/١).

(٤) انظر: البصائر والذخائر (٢١٩/١).

(٥) ترتيب الأمالي الخميسية للشجري (١٩٩ / ٢).

(٦) تهذيب السنن (١/١٢٢).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ : بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُمَرَ عَلَى الصَّدَقَةِ ، فَقِيلَ : مَنْعَ ابْنُ جُمَيْلٍ ، وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ ، وَالْعَبَّاسُ عَمَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا يَنْقُمُ ابْنُ جُمَيْلٍ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ فَقِيرًا فَأَغْنَاهُ اللَّهُ ، وَأَمَّا خَالِدٌ فَإِنَّكُمْ تَظْلِمُونَ خَالِدًا ، قَدْ احْتَبَسَ أَذْرَاعَهُ وَأَعْتَادَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَأَمَّا الْعَبَّاسُ فَهِيَ عَلَيَّ ، وَمِثْلُهَا مَعَهَا ثُمَّ قَالَ : يَا عُمَرُ ، أَمَا شَعَرْتَ أَنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صِنُو أَبِيهِ؟ (١)

قال ابن حجر: وَهُوَ مُشْعِرٌ بِأَنَّهَا صَدَقَةُ الْفَرَضِ لِأَنَّ صَدَقَةَ التَّطَوُّعِ لَا يَبْعَثُ عَلَيْهَا السَّعَاءُ وَقَالَ بَنُ الْقَصَّارِ الْمَالِكِيُّ الْأَلَيْقُ أَنَّهَا صَدَقَةُ التَّطَوُّعِ لِأَنَّهُ لَا يُظَنُّ بِهَؤُلَاءِ الصَّحَابَةِ أَنَّهُمْ مَنَعُوا الْفَرَضَ وَتُعَقَّبُ بِأَنَّهُمْ مَا مَنَعُوهُ كُلُّهُمْ جَحْدًا وَلَا عَنَادًا أَمَا بَنُ جُمَيْلٍ فَقَدْ قِيلَ إِنَّهُ كَانَ مُتَأَفِّقًا ثُمَّ تَابَ بَعْدَ ذَلِكَ كَذَا. (٢)

٢-إنصاف عائشة رضي الله عنها

إنصاف عائشة رضي الله عنه مع من هجاها ورمأها، فمع أن حسان بن ثابت رضي الله عنه قد رمأها بالفاحشة، لكن لم يمنعها هذا من أن تُقر له بالفضل الذي له وكانت عائشة تكره أن يسب عندها حسان، وتقول إنه الذي يقول:

فإن أبي ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وقاء (٣)

أقوال في الإنصاف :

❖ قال بعض الحكماء: أحق الناس بالإحسان من أحسن الله إليه وأولاهم بالإنصاف من بسطت بالمقدرة يده فاستدم ما أوتيت من النعمة بتأدية ما عليك من الحق (٤)

❖ وقالوا: المروءة إنصاف الرجل من هو دونه والسمو إلى من هو فوقه والجزاء بها أتى إليه (٥)

(١) أخرجه البخاري (١٤٦٨)، ومسلم (٩٨٣)

(٢) فتح الباري لابن حجر (٣/ ٣٣٣)

(٣) أخرجه البخاري (٤١٤١).

(٤) انظر: مكارم الأخلاق ومعاليها (٢٨/١).

(٥) انظر: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (١/ ٢٣١).

✽ قال الحكماء: لا يكون الذم من الرعية لراعيها إلا لإحدى ثلاث: كريم قصر به عن قدره فاحتمل لذلك ضغنًا، أو لئيم بلغ به إلى ما لا يستحق فأورثه ذلك بطرًا، أو رجل منع حظه من الإنصاف فشكا تفريطا. (١)

قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: بِالْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ تَكُونُ مُدَّةُ الْإِثْلَافِ. (٢)
وَقَالَ ابْنُ الرُّومِيِّ: هُمُ النَّاسُ وَالْدُّنْيَا وَلَا بُدَّ مِنْ قَدَى يُلِمُّ بِعَيْنٍ أَوْ يُكَدِّرُ مَشْرَبًا وَمِنْ قَلَّةِ الْإِنْصَافِ أَنَّكَ تَبْتَغِي الْمُهْدَبَ فِي الدُّنْيَا وَلَسْتَ الْمُهْدَبًا (٣)
قَالَ ابْنُ هُبَيْرَةَ الْحَنْبَلِيُّ الْوَزِيرُ: لِيَكُنْ غَايَةُ أَمَلِكَ مِنْ عَدُوِّكَ الْإِنْصَافَ فَمَتَى طَلَبْتَهُ مِنْهُ كَانَ سَائِرُ الْخَلْقِ عَوْنًا لَكَ، فَأَمَّا أَخُوكَ وَصَدِيقُكَ فَعَامِلُهُمَا بِالْفَضْلِ وَالْمُسَاحَاةِ لَا بِالْعَدْلِ. (٤)

ومن الآداب التي ينبغي أن تراعى لتحقيق الإنصاف :

١- يجب أن نبتعد عن الهوى عند الكلام على المخالفين:

وذلك بأن يكون المرء أمينًا فيما يقول، أو يكتب، وخصوصًا إذا كان من أهل العلم، فلا يغالي في أي شخص، ولا ينتقصه حقًا، بقصد حُب الظهور، أو الانتقام، أو الانتصار للنفس، أو للطائفة التي ينتمي إليها، بل لا بد أن يعرف قدر الشخص الذي يتحاور معه، وذلك عملاً بقول النبي - صلى الله عليه وسلم - : { إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَانِي عَنْهُ وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ } (٥).

٢- يجب أن تثبت قبل إصدار الأحكام:

وذلك امتثالاً لقول الله - سبحانه وتعالى - : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ } [سورة الحجرات: الآية ٦].

(١) انظر: العقد الفريد (١/١٢).

(٢) انظر: أدب الدنيا والدين (١/١٧٠).

(٣) انظر: أدب الدنيا والدين (١/٢١٦).

(٤) انظر: الآداب الشرعية (٢/٧٦).

(٥) أخرجه أبو داود (٤٨٤٣)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٩٨).

قال ابن كثير: يأمر - تعالى - بالتثبت في خبر الفاسق لِيُحْتَاطَ لَهُ، لئلا يحكم بقوله، فيكون في نفس الأمر كاذبًا، أو مخطئًا، فيكون الحاكم بقوله قد اقتفى وراءه، وقد نهى الله عن اتباع سبيل المفسدين. (١)

فالتروي والتأني قبل الحكم على الناس من الصفات التي يحبها الله - جل وعلا - كما قال النبي - صلى الله عليه وسلم - لأشج عبد القيس: إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة. (٢)

فمن الظلم المجازفة في إطلاق الأحكام على الناس بغير بينة، واتهامهم بالظن.

٣- يجب حمل الكلام على أحسن الوجوه، وإحسان الظن بالمسلمين:

فالواجب على المسلم أن يحسن الظن بكلام أخيه المسلم، وأن يحمل العبارة المحتملة محملاً حسناً، عملاً بقول النبي - صلى الله عليه وسلم -: **إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ**. (٣)

وكما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا تَظُنَّنَّ بكلمة خرجت من أخيك المسلم إلا خيراً، وأنت تجد لها في الخير محملاً.

فمن الإنصاف أن تلتمس لأخيك العذر، ولا تتبع ذلاته، ولا تحمل كلامه إلا على أحسن الوجوه، فهذا مما يساعد على تحقيق هذه الصفة.

٤- ألا ننشر أخطاء المخالفين مع غض الطرف عن صوابهم: (٤)

فهذا هو الإنصاف، فليس من العدل أن ترخي الحبل للسانك ليخوض في أخطاء من خالفك، مع ترك ما أصاب فيه وأجاد، بل عليك أن تذكر ما أصاب فيه، وكان الحق معه، فهذا يكون الإنصاف.

(١) تفسير ابن كثير ٧/ ٣٧٠.

(٢) أخرجه مسلم (١٧).

(٣) أخرجه البخاري (٤٨٤٩)، ومسلم (٢٥٦٣).

(٤) وهذا الكلام في حق أهل العدل الذين بدرت منهم كلمات محتملة، أما أصحاب الأهواء ودعاة الضلالة فيجب تحذير الناس منهم لئلا يغتر بهم.

٥- يجب أن يكون النقد للرأي، لا للشخص:

فالنقد الموضوعي الصحيح هو الذي يتجه إلى الموضوع ذاته، لا إلى صاحبه، وهذا كان منهج النبي صلى الله عليه وسلم في معالجة القضايا إذا حدث خطأ من أحد أصحابه، أو من بعضهم، فإنه صلى الله عليه وسلم لم يكن يُسمّيهم في الغالب، وإنما كان يقول: ما بال أقوام.

(١)

قال النووي: هو موافق للمعروف من حُطْبِهِ - صلى الله عليه وسلم - في مثل هذا أنه إذا كره شيئاً فخطب له، ذكر كراهيته، ولا يُعيّن فاعله، وهذا من عظيم حُلقه - صلى الله عليه وسلم - فإن المقصود من ذلك الشخص، وجميع الحاضرين، وغيرهم ممن يبلغه ذلك، ولا يحصل توبيخ صاحبه في الملا. (٢)

٦- الامتناع عن الجدل الذي يؤدي إلى النزاع:

فإذا تبين أن المناقشة ستؤدي إلى الجدل الذي لا جدوى منه، مما قد يوقع الطرفين في منازعة، فحينئذ يجب الكف عن المناقشة حفاظاً على أُخُوَّة الإسلام.

وحتى لا يصل النقاش إلى هذه الدرجة، يجب أن يكون المتحاور هيناً سهلاً سمحاً كريماً، لا يستعمل العبارات التي توغر الصدور، وتوقع العداوة والبغضاء بين المتحاورين، وذلك عملاً بقول النبي - صلى الله عليه وسلم -: **أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَحْرُمُ عَلَى النَّارِ أَوْ بِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّارُ، عَلَى كُلِّ قَرِيبٍ هَيْنٍ سَهْلٍ.** (٣)

وقد حذّر النبي - صلى الله عليه وسلم - من الجدل المفضي إلى الخصومة فقال: **أَبْغَضُ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ أَلَدُّ الْخِصَمِ.** (٤)

(١) أخرجه البخاري (٢٤٢١)، ومسلم (١٥٠٤).

(٢) شرح مسلم ١٧٦/٩.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٤٨٨)، وابن حبان (٤٧٠) وقال الترمذي: حسن غريب، وصححه الألباني في الصحيحة (٩٣٨).

(٤) أخرجه البخاري (٢٣٢٥)، ومسلم (٢٦٦٨).

قال النووي: لأنه كلما احتج عليه بحُجة أخذ في جانب آخر، وأما الخصم فهو الحاذق بالخصومة، والمذموم هو الخصومة بالباطل في رفع حق، أو إثبات باطل^(١).
وقال الأوزاعي: عليك بآثار من سلف، وإن رفضك الناس، وإياك وآراء الرجال، وإن زخرفوا لك القول، فليحذر كل مسئول ومناظر من الدخول فيما ينكره عليه غيره، وليجتهد في اتباع السنة، واجتناب المحدثات كما أمر.

٧- حمل كلام المخالف على ظاهره، مع عدم التعرض للنوايا:

فمما ابتلي به كثير من الناس في هذه الأيام التعرض لما في النوايا، والتعامل مع غيرهم على ما يعتقدونه في الضمائر، ويزداد الأمر سوءاً إذا كان هذا الشخص سيئ الظن بالناس، فهو لا يثق في أحد، ومن خطورة هذا الأمر أنه قد ينصرف إلى أهل العلم والفضل والخير، فإن هذا مما يُحزنهم، إذ كل امرئ صالح يكره أن يظن به الناس شراً.

يجب أن نعلم أن ما في النوايا والضمائر لا يعلمه إلا الله - جل وعلا - ومن خلال الواقع المشاهد وجدنا أن غالب هذه الظنون المبنية على اعتقاد معرفة ما في الضمائر تكون غير صحيحة، وهذا مما يؤدي إلى فساد كبير في العلاقات الإنسانية.

وهذا ما بينه النبي - صلى الله عليه وسلم - بقوله: **إِنِّي لَمْ أُؤْمَرْ أَنْ أَنْقُبَ عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ وَلَا أَشُقُّ بَطُونَهُمْ**^(٢).

(١) شرح مسلم ٢١٩/١٦.

(٢) أخرجه البخاري (٤٠٩٤). ومسلم (١٠٦٤).

أخلاقيات مذمومة لا تليق بالمتطوع

تمهيد

إن العمل التطوعي الخيري المؤسسي يقوم على ثلاثة ركائز: الممول، والمستفيد، والعامل في المجال التطوعي.

والعامل هو حلقة الوصل بين الممول والمستفيد وهذا يعكس لنا أهمية هذا الدور الذي يقوم به المتطوع فهو يقوم بجذب المتبرع وتحفيزه للبذل ثم يتولى توزيع هذه الأموال على مستحقيها بالعدل والميزان ، وأي خلل في شخصية المتطوع لا بد أن يؤثر بالسلب على العلاقة بينه وبين الممول والمستفيد ، فاتصافه بالقبح من الأخلاق والسيئ من الآداب سيزهد الممولين في الإنفاق بل يصرفهم عن العمل الخيري وأما المستفيد فمع شدة احتياجه للمال والمساعدة فإنه سيتضجر من التعاون مع أمثال هؤلاء ممن اتصفوا بسوء الخلق والكبر والتناول عليهم وجفائهم وجحدهم حقوقهم أو اختلاس الأموال لصالحهم ، ففساد أخلاق المتطوع تعني سقوط العمل وفشله حتى ولو كان الشعار عظيمًا والمال وفيرًا ، ولهذا فلا بد للمتطوع من اتصافه بجميل الأخلاق والبعد عن مساوئها ومما يعين على هذا :

أولاً: إيمانه بالرسالة التي يؤديها حتى يبذل لها غاية وسعه في نجاحها

وثانياً: أن يكون عنده الدافع الداخلي للعمل والحرص عليه ليراقب نفسه على الدوام لإصلاح ما يقع من زلات

وثالثاً: إحساسه أن فسادة في هذا الموقع يعني ضياع خير كبير ينفع المسلمين ولكن بسببه منعوا من هذا الخير المقدم لهم.

ولهذا سنضع أهم السبلات الأخلاقية التي يجب على المتطوع التزها عنها حتى يحقق العمل التطوعي أهدافه والله الموفق.

١- الإهمال

الإهمال لغة:

الإهمال: التَّركُ عَنْ عَمْدٍ أَوْ نِسْيَانٍ، وَيُقَالُ: أَهْمَلَهُ إِهْمَالًا إِذَا خَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ، أَوْ تَرَكَهُ وَلَمْ يَسْتَعْمَلْهُ. (١)

الإهمال اصطلاحًا:

الإهمال هو: ألا يراعى الإنسان ما تجب عليه رعايته على الوجه الأكمل بالتَّخْلِيَةِ أَوْ التَّركِ أَوْ التَّقْصِيرِ. (٢)

ذم الإهمال في نصوص القرآن والسنة النبوية:

١- قال تعالى: {أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى} [القيامة: ٣٦]

قال ابن كثير رحمه الله: قَالَ السُّدِّيُّ: يَعْنِي لَا يُبْعَثُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالشَّافِعِيُّ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: يَعْنِي لَا يُؤْمَرُ وَلَا يُنْهَى، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْآيَةَ تَعُمُّ الْحَالِينَ أَيْ لَيْسَ يُتْرَكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مُهْمَلًا لَا يُؤْمَرُ وَلَا يُنْهَى، وَلَا يُتْرَكَ فِي قَبْرِه سُدًى لَا يُبْعَثُ بَلْ هُوَ مَأْمُورٌ مِنْهُ فِي الدُّنْيَا مُحْشُورٌ إِلَى اللَّهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ. (٣)

٢- وقال تعالى: {وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا} [النساء: ٩]

لا يزال الكلام مع الأوصياء والأولياء الذين يقومون على اليتامى. والقول السديد منهم أن يكلموهم كما يكلمون أولادهم بالأدب الحسن والترحيب ويدعوهم بقولهم: يا بني، ويا ولدي ونحو ذلك، وقوله: تركوا، أي قاربوا أن يتركوا، وقوله: من خلفهم: أي من بعد موتهم، وقوله: خافوا عليهم، أي الإهمال والضياع. (٤)

(١) كتاب الكليات (١/ ٢١١)، الصحاح (٥/ ١٨٥٤ - ١٨٥٥)، لسان العرب (٨/ ٤٧٠١ - ٤٧٠٢)

النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (٥/ ٢٧٤)

(٢) مستفاد من مصادر اللغة والكليات للكفوي.

(٣) تفسير ابن كثير (٨/ ٢٩١).

(٤) تفسير المراغي (٤/ ١٩٣).

٣- وقال تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُخْسَ مَا يَشْتَرُونَ} [آل عمران: ١٨٧]

والنبذ: الطرح والإلقاء، وهو هنا مستعار لعدم العمل بالعهد تشبيهاً للعهد بالشيء المنبذ في عدم الانتفاع به.

وراء الظهور هنا تمثيل للإضاعة والإهمال؛ لأن شأن الشيء المهتم به المتنافس فيه أن يجعل نصب العين ويجرس ويشاهد. قال تعالى: {فإنك بأعيننا} [الطور: ٤٨]. وشأن الشيء المرغوب عنه أن يستدبر ولا يلتفت إليه، وفي هذا التمثيل ترشيح لاستعارة النبذ لإخلاف العهد). (١)

ومن السنة:

١- عن عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: عُدِّبَتْ امرأةٌ في هِرَّةٍ سَجَّتْهَا حَتَّى مَاتَتْ، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارُ، لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلَا سَقَتْهَا، إِذْ حَبَسَتْهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ. (٢)

وظاهر هذا الحديث أن المرأة عذبت بسبب قتل هذه الهرة بالحبس، قال عياض: يحتمل أن تكون المرأة كافرة فعذبت بالنار حقيقة، أو بالحساب؛ لأن من نوقش الحساب عذب. ثم يحتمل أن تكون المرأة كافرة فعذبت بكفرها وزيدت عذاباً بسبب ذلك، أو مسلمة وعذبت بسبب ذلك.

قال النووي: الذي يظهر أنها كانت مسلمة وإنما دخلت النار بهذه المعصية. (٣) وهذه العقوبة نظير إهمالها دابة لم تطعمها ولم تتركها تأكل من رزق الله في الفضاء الواسع

(١) التحرير والتنوير (٤/ ١٩٢).

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٦٥)، ومسلم (٢٢٤٢).

(٣) فتح الباري (٦/ ٣٥٨).

٢- عَنْ خَيْثَمَةَ، قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، إِذْ جَاءَهُ قَهْرَمَانٌ لَهُ فَدَخَلَ، فَقَالَ: أَعْطَيْتَ الرَّقِيقَ قُوَّتَهُمْ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَانْطَلِقْ فَأَعْطِهِمْ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يَحْسَبَ عَمَّنْ يَمْلِكُ قُوَّتَهُ. (١)

الحديث دليل على وجوب النفقة على الإنسان لمن يقوته، فإنه لا يكون آثماً إلا على تركه لما يجب عليه، وقد بولغ هنا في إثمه بأن جعل ذلك الإثم كافياً في هلاكه عن كل إثم سواه. والذين يقوتهم ويملك قوتهم: هم الذين يجب عليه الإنفاق عليهم وهم أهله وأولاده وعبيده على ما سلف تفصيله. ولفظ مسلم خاص بقوت المالك ولفظ النسائي عام. (٢)

٣- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُسَاوِرِ قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ يُخْبِرُ ابْنَ الزُّبَيْرِ يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: لَيْسَ الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَشْبَعُ وَجَارُهُ جَائِعٌ. (٣)

وفي الحديث دليل واضح على أنه يحرم على الجار الغني أن يدع جيرانه جائعين، فيجب عليه أن يقدم إليهم ما يدفعون به الجوع، وكذلك ما يكتسون به إن كانوا عراة، ونحو ذلك من الضروريات.

ففي الحديث إشارة إلى أن في المال حقاً سوى الزكاة، فلا يظن الأغنياء أنهم قد برئت ذمتهم بإخراجهم زكاة أموالهم سنوياً، بل عليهم حقوق أخرى لظروف وحالات طارئة، من الواجب عليهم القيام بها، وإلا دخلوا في وعيد قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤)} [التوبة: ٣٤، ٣٥] (٤)

٤- عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهِ طَلْقٍ. (٥)

(١) أخرجه مسلم (٩٩٦).

(٢) سبل السلام (٣٢٣/٢).

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١١٢)، والطبراني في الكبير (١٥٤/١٢)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٤٩).

(٤) السلسلة الصحيحة (١٤٩).

(٥) أخرجه مسلم (٢٦٢٦).

قال الطيبي: المعروف اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله تعالى والإحسان إلى الناس وهو من الصفات الغالبة، أي أمر معروف بين الناس إذا رأوه لم ينكروه. ومن المعروف النصفة وحسن الصحبة مع الأهل وغيرهم، وتلقي الناس بوجه طلق (وإن لم يجد) أي أحكم شيئاً من المعروف. قوله (فليلق أخاه بوجه طلق) ضد العبوس وهو الذي فيه البشاشة والسرور؛ فإنه يصل إلى قلبه سرور، ولا شك أن إيصال السرور إلى قلب مسلم حسنة. ^(١)

مضار الإهمال ووسائل التخلص منه:

للإهمال مضار عظيمة يجب معرفتها للتخلص من هذه المضار ومنها:

(١) الإهمال يؤدي إلى ضياع الثروة وإفقار الأمة.

(٢) دليل على انعدام الإحساس أو بلادته.

(٣) يؤدي إلى فتور العلاقات الاجتماعية، وفتورها يستتبع تمزقها.

(٤) يؤدي إلى شيوع الظلم وزيادة صولة المستبدين.

(٥) ينتهي بصاحبه إلى الطرد من رحمة الله. ^(٢)

(١) تحفة الأحوذى (٥/٤٥٨).

(٢) نضرة النعيم (٩/٤٠٢٨).

٢- التنصل من المسؤولية

التعريف:

التنصّل لغة:

مصدر قولهم: تنصّل من الشيء: تبرّأ منه وهو مأخوذ من مادّة (ن ص ل) الّتي تدلّ على بروز شيء من كنّ أوستر أو مركب أو نحو ذلك، يقال: نصل الحافر أي خرج من موضعه، وتنصّل من ذنبه: تبرّأ منه ^(١)

المسؤولية لغة:

لفظ المسؤولية من الألفاظ المحدثّة الّتي يراد بها التّبعة، يقال: أنا بريء من مسؤوليّة هذا العمل أي من تبعته، وقيل: المسؤولية ما يكون به الإنسان مسؤولاً ومطالباً عن أمور أو أفعال أتاها. والمسؤوليّة عند أرباب السّياسة: هي الأعمال الّتي يكون الإنسان مطالباً بها. ^(٢)

المسؤولية اصطلاحاً:

تعني المسؤولية كون الفرد مكلفاً بأن يقوم ببعض الأشياء وبأن يقدّم عنها حساباً إلى غيره وينتج عن هذا التّحديد أنّ فكرة المسؤولية تشتمل على علاقة مزدوجة من ناحية الفرد المسؤول بأعماله وعلاقته بمن يحكمون على هذه الأعمال، والمسؤوليّة قبل كلّ شيء هي استعداد فطريّ، إنّها هذه المقدرة على أن يلزم الإنسان نفسه أولاً، والقدرة على أن يفني بعد ذلك بالتزامه بوساطة جهوده الخاصّة ^(٣).

التنصل من المسؤولية اصطلاحاً:

التنصّل من المسؤولية والتّهرّب منها يعني التّبرّؤ من الالتزام بما سبق للإنسان تحمّله من مسؤوليّة والخروج من عهدة ذلك شيئاً فشيئاً.

(١) مقاييس اللغة (٥ / ٤٣٣).

(٢) انظر: المعجم الوسيط ١ / ٤١٣، ومحيط المحيط (٣٩٠).

(٣) دستور الأخلاق في القرآن (١٣٨).

ويمكن أن نقول أيضا: إنَّ ذلك يعني التَّخَلُّص التَّدْرِيجِيَّ ممَّا سبق للشَّخص أن تعهّد به والتماس عذر غير حقيقيٍّ للتبرُّؤ من تبعة التَّقْصِير في الأداء. (١)

أنواع المسؤولية:

١- المسؤولية الدِّينِيَّة: وهي التزام المرء بأوامر الله ونواهيه، وقبوله في حال المخالفة لعقوبتها، ومصدرها الدِّين.

٢- المسؤولية الاجتماعية: هي التزام المرء بقوانين المجتمع ونظمه وتقاليده. وقيل: هي المسؤولية الذاتِيَّة عن الجماعة، وتتكوّن من عناصر ثلاثة هي: الاهتمام والفهم والمشاركة (٢).

٣- المسؤولية الأخلاقِيَّة: هي حالة تمنح المرء القدرة على تحمّل تبعات أعماله وآثارها، ومصدرها الضمير (٣).

الأدلة من القرآن حول ذم التنصل من المسؤولية:

من القرآن

١- قال تعالى: { أَلَمْ تَر إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ هُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ } (البقرة: ٢٤٦)

أي: فلما فرض عليهم القتال بعد سؤال النبي ذلك وبعث الملك - أعرضوا وتخلّفوا عن الجهاد وضيعوا أمر الله بعد مشاهدة العدو وشوكته، إلا قليلا منهم عبروا النهر مع طالوت واقتصرُوا على الغرفة كما سيأتى بعد.

(١) نضرة النعيم (٩/ ٤٢٨١).

(٢) انظر تفصيل ذلك: المسؤولية الاجتماعية والشخصية المسلمة للدكتور أحمد سيد عثمان (٢٦٩).

(٣) انظر: دستور الأخلاق في القرآن (١٤٨ - ٢٢٢).

ذاك أن الأمم إذا قهرها العدو تن قوتها ويغلب عليها الجبن وتلبس ثوب الذل والمسكنة، فإذا أراد الله إحياءها بعد موتها نفخ روح الشجاعة والإقدام في خيارها وهم الأقلون، فيعملون ما لا يعمله الأكثرون. (١)

٢- وقال تعالى: { قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ } (٢٤) الهائدة

اعتذروا بأن في هذه البلدة -التي أمرتنا بدخولها وقتال أهلها- قوما جبارين، أي: ذوي خلق هائلة، وقوى شديدة، وإنا لا نقدر على مقاومتهم ولا مصاولتهم، ولا يمكننا الدخول إليها ما داموا فيها، فإن يخرجوا منها دخلناها وإلا فلا طاقة لنا بهم.

(فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) وهذا نكول منهم عن الجهاد، ومخالفة لرسولهم وتحلف عن مقاتلة الأعداء. (٢)

٣- وقال تعالى { وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ }

وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً فِيمَنْ عَنِ بِهِذِهِ الْآيَةُ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ:

أحدها: أنهم الذين كانوا يطوفون بالبيت عراة. والفاحشة: كشف العورة.

والثاني: أنهم الذين جعلوا السائبة والوصيلة والحام، وتلك الفاحشة.

والثالث: أنهم المشركون والفاحشة: الشرك.

قال الزجاج: فأعلمهم عز وجل أنه لا يأمر بالفحشاء، لأن حكمته تدل على أنه لا يفعل إلا المستحسن. والقسط: العدل. والعدل: ما استقر في النفوس أنه مستقيم لا ينكره مميّز، فكيف يأمر بالفحشاء، وهي ما عظم قبحه؟! (١)

(١) تفسير المراغي (٢/٢١٦).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/٧٥).

٤- وقال تعالى: {وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ} (التوبة ٤٦)

ولو أراد هؤلاء المستأذنونك، يا محمد، في ترك الخروج معك لجهاد عدوك، الخروج معك (لأعدوا له عدة)، يقول: لأعدوا للخروج عدة، ولتأهبوا للسفر والعدو أهبتها (ولكن كره الله انبعاثهم)، يعني: خروجهم لذلك فثبطهم، يقول: فثقل عليهم الخروج حتى استخفوا القعود في منازلهم خلافك، واستثقلوا السفر والخروج معك، فتركوا لذلك الخروج (وقيل اقعدوا مع القاعدين)، يعني: اقعدوا مع المرضى والضعفاء الذين لا يجدون ما ينفقون، ومع النساء والصبيان، واتركوا الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والمجاهدين في سبيل الله. (٢)

الأدلة من السنة حول التنصل من المسؤولية:

١- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْغَزْوِ تَخَلَّفُوا عَنْهُ، وَفَرَحُوا بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِذَا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اعْتَذَرُوا إِلَيْهِ، وَحَلَفُوا وَأَحْبُوا أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَتَرَكْتُ: {لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبْنَهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ}. (٣)

المعنى لا تظنن أيها الرسول الكريم أن هؤلاء المنافقين الذين يفرحون بما فعلوه من التخلف عن الغزو معك، ومخادعتك بالأعذار والأيمان الكاذبة، ويجنون الحصول على ثنائك عليهم، دون عمل صالح يستحقون عليه هذا الثناء، لا تظنن أنهم بمنجاة من عذاب الله، فإنهم سيلقون عذاباً شديداً بالنار وبئس القرار. (٤)

(١) زاد المسير (٢/١١١).

(٢) تفسير الطبري (١٤/٢٧٧).

(٣) أخرجه البخاري (٤٥٦٧)، ومسلم (٢٧٧٧).

(٤) منار القاري (٥/٤٣).

٢- عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: قال: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ أَصَابَ النَّاسَ فِيهِ شِدَّةٌ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي لَاصِحَابِهِ: لَا تُتَفَقُّوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْقَضُوا مِنْ حَوْلِهِ، وَقَالَ: لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرْتُهُ، فَأَرْسَلَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي فَسَأَلَهُ، فَاجْتَهَدَ يَمِينَهُ مَا فَعَلَ، قَالُوا: كَذَبَ زَيْدُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مِمَّا قَالُوا شِدَّةً، حَتَّى " أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ تَصْدِيقِي فِي: {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ} [المنافقون: ١] فَدَعَاهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيَسْتَغْفِرَ لَهُمْ، فَلَوْوْا رُءُوسَهُمْ "، وَقَوْلُهُ: {خُشِبُ مُسَدَّةٌ} [المنافقون: ٤] قَالَ: كَانُوا رِجَالًا أَجْمَلَ شَيْءٍ. (١)

من مضار التنصل من المسؤولية:

- (١) هي صفة من صفات التفاق وخصلة من خصال المنافقين.
- (٢) فشو المفسدين في مجتمع المسلمين.
- (٣) يحمل صاحبه على الكذب، والحلف الكاذب.
- (٤) المتنصل يستحق عذاب الله ومقته.
- (٥) المتنصل من المسؤولية مبغض عند الله وعند الناس.
- (٦) المتنصل من المسؤولية يستصغره الناس ويحتقرونه.
- (٧) التنصل من المسؤولية يخالف لصفات الرجولة ومخل بالمروءة.
- (٨) داء التنصل من المسؤولية من الأمراض الاجتماعية الخطيرة التي تفقد الناس الثقة فيما بينهم.

(٩) التنصل من المسؤولية والتهرّب منها ينجم عنه الفوضى والإخلال بالالتزامات الأدبية والمادية وضياع الحقوق.

(١٠) التنصل من المسؤولية يؤدي إلى تعطيل الأعمال وتأخير مواعيدها لأنّ البحث عن بديل للمتنصل لا يتيسر دائماً أو في الوقت المناسب.

(١) أخرجه البخاري (٤٩٠٣)، ومسلم (٢٧٧٢).

(١١) التَّهَرُّبُ مِنَ الْمَسْئُولِيَّةِ أَوْ التَّنَصُّلِ مِنْهَا يَتَنَافَى مَعَ حَمْلِ الْأَمَانَةِ الَّتِي شَرَّفَ اللَّهُ بِهَا الْإِنْسَانَ.
(١)

أسباب التنصل من المسؤولية وعلاجها:

١- التقصير في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٢- تفضيل واقع المجتمع على غيره.

إن المعيار الذي ينبغي أن نحتكم إليه هو المعيار الشرعي وليس الواقع، وقياسنا لتدين المجتمع يجب أن نعرفه من خلال الفارق بين الواقع وبين الصورة الشرعية المطلوبة من المجتمع.

٣- تضخيم الانحراف والفساد.

اعتناء الناس بالقدر الذي يطبقونه ويستطيعون أدائه، والنظرة البعيدة التي تتجاوز حدود الزمن القريب سوف يدفعهم للعمل والإصلاح رغم ما يرونه من ضخامة حجم الفساد، ومحدودية الطاقات والإمكانات التي يملكونها.

٤- الانشغال بالمصالح الخاصة.

حين تتعارض بعض المطالب الدعوية مع المصالح والمشاغل الشخصية للمرء فقد يعتذر بها، وينطلق في ذلك من منطلقات شرعية كالقيام بحق الأهل والأولاد، أو الصلة... إلخ. وحين نتأمل سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وحياته نرى أنه كان لا يتخلف عن غزوة في سبيل الله عز وجل إلا سعياً للرفق بالمسلمين، فقد قال صلى الله عليه وسلم: "لولا أن أشق على أمتي ما تخلفت خلاف سرية تغزو في سبيل الله". (٢)

كان يفعل ذلك صلى الله عليه وسلم وعنده تسع نسوة كل منهن تطالبه بحقها.

٥- الانشغال بالنقد عن العمل:

(١) نضرة النعيم (٩/٤٢٩٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٩٧)، ومسلم (١٨٧٦).

إننا لا نمانع من النقد الشرعي البناء، لكن النقد قد يكون في مصدره دفع المسؤولية عن النفس، فإن النفس تشعر بالتقصير حين ترى ما يقدمه الآخرون من جهد وعمل، فحين ينتقد الشخص عملهم وجهدهم يبقى في نظر نفسه سالمًا مما وقعوا فيه، لكنه ينسى أن سكوته وتقصيره قد يكون أشد من خطأ من عمل وأخطأ عن اجتهاد وحسن نية.

٦- الاعتذار بالتقصير والوقوع في المعاصي:

وهذا الاحتجاج ليس وليد عصرنا، فقد قال سعيد بن جبير رحمه الله: لو لم يأمر بالمعروف وينه عن المنكر إلا من ليس فيه شيء ما أمر أحد بمعروف ولا نهى أحد عن منكر، فقال مالك رحمه الله تعالى: صدق، من ذا الذي ليس فيه شيء؟.

وقال الحسن البصري رحمه الله لأحدهم: عظ أصحابك. قال: أخاف أن أقول ما لا أفعل. فقال له يرحمك الله، وأينا يفعل ما يقول؟. يود الشيطان لو أنه ظفر بهذا فلم يأمر أحد بمعروف ولم ينه أحد عن منكر.

فلا يمكن أن يسلم أحد من الذنوب، حتى العلماء والدعاة كثيرا ما نسمعهم يعترفون بتقصيرهم وعدم رضاهم عن حالهم مع كونهم من أقل الناس تقصيرا، ولم يشتم ذلك عن القيام بواجب الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٧- الفهم الخاطئ لبعض النصوص الشرعية:

ومن ذلك قول الله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ } [المائدة: ١٠٥]

وقد قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: إنكم تقرأون قول الله تعالى: " وذكر الآية السابقة " وتجعلونها في غير موضعها وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُتَكَبِّرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ، أَوْ شَكَّ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابِهِ ". (١)

٨- انتظار فتح المجال أو التكليف:

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٠٠٥)، والنسائي في الكبرى (١١٠٩٢)، وأحمد (١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٩٧٤).

إن طائفة يحرص على التنصل من أي مهمة، والاعتذار من أي تكليف وإحالة الأمر إلى غيره، معتقداً أن ذلك سيعفيه من المسؤولية ويلقي الأمانة على غيره من الناس. إن المسلم الغيور يشعر أن فتح الأبواب، والبحث عن المجالات المناسبة للعمل من مسؤوليته، وأنه حتى لو أوصدت الأبواب أمامه فإن من مسؤوليته أن يسعى لفتحها، والبحث عن البدائل، فضلاً عن أن ينتظر حتى تفتح له.

٩- الاعتذار بعدم وجود الثمرة:

ولهؤلاء وأمثالهم يقال:

أولاً: ليست جميع نتائج الدعوة مما يظهر لصاحبها، فكثير من الجهود الدعوية لا يدرك صاحبها أثرها، أو لا تؤتي أثرها إلا بعد حين.

ثانياً: أن مناط التكليف في الدعوة هو القيام بالواجب الدعوي، وليس استجابة الناس، فمتى قام الداعية بالواجب في دعوته فقد تحقق الأمر، وسقط عنه التكليف، واستحق الثواب، سواء استجاب الناس أم لم يستجيبوا.

ثالثاً: أن الواقع أننا نرى أن كثيراً من الأعمال الدعوية تظهر ثمرتها ويراهها أصحابها، بل إنها لا تقارن بالجهود المبذولة.

رابعاً: أن ضعف الثمرة في بعض الأعمال قد يكون مرده الخلل فيها، وليس بالضرورة صدود الناس وإدبارهم عن الحق. (١)

(١) التهرب من المسؤولية للدكتور محمد بن عبدالله الدويش.

٣- الجفاء

الجفاء لغة:

جفوت الرجل أجفوه جفاء فهو مجفوّ، ولا تقل جفيت، ويقول الفيومي: وجفوت الرجل أجفوه، أعرضت عنه، وهو مأخوذ من جفاء السيل وهو ما نفاه السيل، وقد يكون مع بغض.^(١)

الجفاء اصطلاحاً:

قال المناوي: الغلظ في العشرة والخرق في المعاملة وترك الرفق في الأمور^(٢).

الأدلة من القرآن على ذم الجفاء:

١- قال تعالى: {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقَقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} (البقرة: ٧٤)

قال الزجاج: تأويل قست في اللغة أي غلظت ويبست، فتأويل القسوة في القلب ذهاب اللين والرحمة والخشوع. وقوله: مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ، قد قيل: من بعد إحياء الميت، ويحتمل بعد الآيات التي ذكرت، نحو مسخ القردة والخنازير ورفع الجبل وتفجير الأنهار من الحجر وغير ذلك. وقال بعض الحكماء: معنى قوله: {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ، أي يبست. ويبس القلب أن يبس عن مابين أحدهما: ماء خشية الله والثاني: ماء شفقة الخلق.

ثم قال تعالى: {فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ}، وكل قلب لا يكون فيه خشية الله تعالى فهو كالحجارة. أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً، قال بعضهم: بل أشد قسوة مثل قوله تعالى: {إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ} [الصفات: ١٤٧] بمعنى بل يزيدون، وكقوله: {كَلِمَاحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ} [النحل: ٧٧]، أي: بل هو أدنى. وقال بعضهم: معناه وأشد قسوة الألف زائدة. وقال الزجاج: أو للتخيير

(١) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٦/ ٢٣٠٣)، وانظر: المصباح المنير (١/ ٣٠)، ولسان العرب

(١٤/ ١٤٧ - ١٤٩).

(٢) التوقيف (١٢٧)، شمس العلوم (١/ ١١٢٢).

يعني إن شتتم شبتهم قسوتها بالحجارة أو بها هو أشد قسوة فأنتم مصيبون كقوله تعالى:
{كَصِيبٍ مِنَ السَّمَاءِ} [البقرة: ١٩]. (١)

٢- وقال تعالى: {فِيهَا رَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} (آل عمران: ١٥٩)

يعني بـ"الفظ" الجافي، وبـ"الغليظ القلب"، القاسي القلب، غير ذي رحمة ولا رأفة. وكذلك كانت صفته صلى الله عليه وسلم، كما وصفه الله به: (بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) [سورة التوبة: ١٢٨]. فتأويل الكلام: فبرحمة الله، يا محمد، ورأفته بك وبمن آمن بك من أصحابك "لنت لهم"، لتابعك وأصحابك، فسهلت لهم خلافتك، وحسنت لهم أخلاقك، حتى احتملت أذى من نالك منهم أذاه، وعفوت عن ذي الجرم منهم جرمه، وأغضيت عن كثير ممن لو جفوت به وأغلظت عليه لتركك ففارقك ولم يتبعك ولا ما بُعثت به من الرحمة، ولكن الله رحمهم ورحمك معهم، فبرحمة من الله لنت لهم. (٢)

٣- وقال تعالى: {فِيهَا نَقَضُهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} (المائدة: ١٣)

أي: جافة غير لينّة لا تدخلها الرحمة، وتقرأ: "قسية" قيل: معناه: قاسية، فعيل بمعنى فاعل، وقيل: معناه: أن قلوبهم ليست بخالصة الإيمان؛ عاشوا بها بين الكفر والنفاق، ومنه "الدّراهم القسية" وهي المغشوشة. (٣)

(١) تفسير السمرقندي (١/٦٥).

(٢) تفسير الطبري (٧/٣٤١).

(٣) تفسير السمعاني (٢/٢١).

٤- وقال تعالى: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} (الحديد: ١٦)

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَالُوا إِلَى الدُّنْيَا وَأَعْرَضُوا عَنْ مَوَاعِظِ اللَّهِ، وَالْمَعْنَى: أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَنْهَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَكُونُوا فِي صُحْبَةِ الْقُرْآنِ كَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الَّذِينَ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ لَمَّا طَالَ عَلَيْهِمُ الدَّهْرُ^(١)

٥- قال تعالى: {وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْسِرْ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} (لقمان: ١٨)

الإعراض على جهة الكبر. يعني: لا تعرض بوجهك عن الناس متكبرًا. وقال مقاتل: لا تعرض وجهك عن فقراء المسلمين، وهكذا قال الكلبي. وقال العتبي: أصله الميل. ويقال: رجل أصعر إذا كان به داء، فيميل رأسه وعنقه من ذلك إلى أحد الجانبين. ويقال: معناه لا تكلم أحدًا وأنت معرض عنه، فإن ذلك من الجفاء والإيذاء.^(٢)

الأدلة من السنة على ذم الجفاء :

١- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " مَنْ بَدَأَ جَفَا، وَمَنْ تَبَعَ الصَّيْدَ غَفَلَ، وَمَنْ أَتَى أَبْوَابَ السُّلْطَانِ افْتِسِنَ، وَمَا ازْدَادَ عَبْدٌ مِنَ السُّلْطَانِ قُرْبًا، إِلَّا ازْدَادَ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بُعْدًا ".^(٣)

قال ابن كثير: لما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي، لم يبعث الله منهم رسولاً؛ وإنما كانت البعثة من أهل القرى، كما قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى} [يوسف: ١٠٩].^(٤)

(١) تفسير البغوي (٣٠/٥).

(٢) تفسير السمرقندي (٢٦/٣).

(٣) أخرجه أحمد (٤٤٠/٢)، وإسحاق بن راهويه (٣٩٤/١)، والقضاعي في مسند الشهاب (٣٣٩)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٢٧٢).

(٤) تفسير ابن كثير (٤ / ١٧٧).

٢- عن أبي بكرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة، والبذاء من الجفاء، والجفاء في النار. (١)

٣- قال عبد الرحمن بن شبل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: اقرءوا القرآن، ولا تغلوا فيه، ولا تحفوا عنه، ولا تأكلوا به، ولا تستكثروا به. (٢)

الطبي: يريد لا تحفوا عنه بأن تركوا قراءته وتشتغلوا بتأويله وتفسيره. ولا تغلوا فيه بأن تبذلوا جهدكم في قراءته وتجويده من غير تفكر كما قال في الحديث الآخر: لم يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث. (٣)

٤- عن أبي مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "الإيمان هاهنا الإيمان هاهنا، وإن القسوة وغلظ القلوب في الفدادين عند أصول أذناب الإبل حيث يطلع قرنا الشيطان في ربيعة ومصر". (٤)

قال ابن حجر رحمه الله: وقوله: والجفاء وغلظ القلوب. قال القرطبي: هما شيئان لمسمى واحد كقوله: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله. والبث هو الحزن ويحتمل أن يقال: المراد بالجفاء أن القلب لا يلين بالموعظة ولا يخشع لتذكرة، والمراد بالغلظ أنها لا تفهم المراد ولا تعقل المعنى وقد مضى في الرواية التي في بدء الخلق بلفظ القسوة بدل الجفاء. (٥)

٥- عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: "تُفتح أبواب الجنة يوم الإثنين، ويوم الخميس، فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً، إلا رجلاً كانت بينه وبين

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٣١٤)، وأحمد (٥٠١/٢)، والترمذي (٢٠٠٩) وصححه، وصححه الألباني في الصحيحة (٤٩٥).

(٢) أخرجه أحمد (٤٢٨/٣)، وابن أبي شيبة (١٦٨/٢)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٠٥٧).

(٣) فيض القدير (٦٤/٢).

(٤) أخرجه البخاري (٤٣٨٧).

(٥) فتح الباري (٥٣١/٦).

أَخِيهِ شَحْنَاءُ، فَيَقَالُ: أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا". (١)

(حَتَّى يَصْطَلِحَا) أَي: يَتَصَالَحَا، وَيَزُولَ عَنْهُمَا الشَّحْنَاءُ فَلَا يُفِيدُ التَّصَالُحَ لِلسُّمْعَةِ وَالرِّيَاءِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ مَغْفِرَةَ كُلِّ وَاحِدٍ مُتَوَقِّفَةٌ عَلَى صَفَائِهِ، وَزَوَالِ عِدَاوَتِهِ سَوَاءً صَفَا صَاحِبُهُ أَمْ لَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قَالَ الطَّبِيُّ: وَأَتَى بِاسْمِ الْإِشَارَةِ بَدَلَ الضَّمِيرِ لِمَزِيدِ التَّمْيِيزِ وَالتَّعْيِينِ. (٢)

٦- عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لَا تَهَجَّرُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا تَحَسَّسُوا، وَلَا يَبِيعَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا. (٣)

التَّدَابَرُ الْمُعَادَاةُ، وَقِيلَ: الْمُقَاتَلَةُ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ يُؤَلِّي صَاحِبَهُ دُبْرَهُ، وَالْحَسَدُ تَمَيُّ زَوَالِ النِّعْمَةِ وَهُوَ حَرَامٌ وَمَعْنَى كُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا: أَيِ تَعَامَلُوا وَتَعَاشَرُوا مُعَامَلَةَ الْإِخْوَةِ وَمُعَاشَرَتِهِمْ فِي الْمُوَدَّةِ وَالرَّفْقِ وَالشَّفَقَةِ وَالْمُلَاطَفَةِ وَالتَّعَاوُنِ فِي الْخَيْرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مَعَ صَفَاءِ الْقُلُوبِ وَالنَّصِيحَةِ بِكُلِّ حَالٍ.

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: وَفِي النَّهْيِ عَنِ التَّبَاغُضِ إِشَارَةٌ إِلَى النَّهْيِ عَنِ الْأَهْوَاءِ الْمُضِلَّةِ الْمُوجِبَةِ لِلتَّبَاغُضِ. (٤)

أقوال السلف حول ذم الجفاء:

١- بعث أبو موسى الأشعري إلى قراء أهل البصرة، فدخل عليه ثلاثمائة رجل قد قرءوا القرآن، فقال: أنتم خيار أهل البصرة وقراؤهم، فأتلوهم، ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم، كما قست قلوب من كان قبلكم، وإنا كنا نقرأ سورة، كنا نشبهها في الطول والشدة ببراءة، فأنسيتها، غير أنني قد حفظت منها: لو كان لابن آدم واديان من مال، لابتغى واديا

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٥).

(٢) مرقاة المفاتيح (٣١٤٩/٨).

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٦٤)، ومسلم (٢٥٥٨).

(٤) شرح النووي لصحيح مسلم (١١٦/١٦).

ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، وكنا نقرأ سورة، كنا نشبهها بإحدى المسبحات، فأنسيتهما، غير أنني حفظت منها: يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون، فتكتب شهادة في أعناقكم، فتسألون عنها يوم القيامة" (١)

٢- قَالَ طَاوُوسٌ: مِنَ السُّنَّةِ أَنَّ يُوقَّرَ أَرْبَعَةٌ: الْعَالِمُ، وَذُو الشَّيْبَةِ، وَالسُّلْطَانُ، وَالْوَالِدُ، قَالَ: وَيُقَالُ: إِنَّ مِنَ الْجَفَاءِ أَنْ يَدْعُو الرَّجُلُ وَالِدَهُ بِاسْمِهِ. (٢)

٣- قَالَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ: مَا قَلَّتِ الْأَثَارُ فِي قَوْمٍ إِلَّا ظَهَرَتْ فِيهِمُ الْأَهْوَاءُ، وَلَا قَلَّتِ الْعُلَمَاءُ إِلَّا ظَهَرَ فِي النَّاسِ الْجَفَاءُ. (٣)

(١) أخرجه مسلم (١٠٥٠).

(٢) الجامع لمعمر بن راشد (١٣٧/١١).

(٣) ذم الكلام (٧٩/٥).

٤- أكل الحرام

تعريف أكل الحرام:

هو تناول ما يثاب على تركه تقرّباً لله تعالى من الأطعمة ونحوها ممّا ثبت المنع عنه ^(١).

الفرق بين أكل الحرام واستحلال الحرام:

هناك فارق بين فعل الكبيرة واستحلالها ففعل الكبيرة كأكل الحرام صاحبها متوعد بالعقوبة سواء في الدنيا أو في الآخرة لكنه باق على الإسلام، بخلاف استحلال الحرام أي اعتقاد حله وأنه ليس بحرام فمثل هذا يخرج من دائرة الإسلام.

قال الطحاوي رحمه الله: ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله. ^(٢)

ذم أكل الحرام في القرآن:

١- قال تعالى: {وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} (البقرة: ١٨٨)
وَالْأَكْلُ بِالْبَاطِلِ نَوْعَانِ:

أحدهما: أن يكون بطريق الغضب والنهب والظلم.

والآخر: بطريق اللّهُو مثل القمار والرهان وأجرة المغني ونحو ذلك. ^(٣)

والمعنى ولا يأكل بعضكم مال بعض بالباطل. فجعل تعالى ذكره بذلك آكل مال أخيه بالباطل، كالآكل مال نفسه بالباطل.

والمعنى (وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ) أي بالظلم وشهادة الزور. وتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ، يقول تلجؤوا بالخصومة إلى الحكام. وقال الزجاج: تعملون بما يوجه ظاهر الحكم،

(١) الكليات (٤٠٠).

(٢) قال الألباني في تعليقه على متن الطحاوية (١/٦٠)، قلت: يعني استحلالاً قلبياً اعتقادياً وإلا فكل مذهب مستحل لذنبه عملياً أي مرتكب له ولذلك فلا بد من التفريق بين المستحل اعتقاداً فهو كافر إجماعاً وبين المستحل عملاً لا اعتقاداً فهو مذهب يستحق العذاب اللائق به إلا أن يغفر الله له ثم ينجي إيمانه خلافاً للخوارج والمعتزلة الذين يحكمون عليه بالخلود في النار.

(٣) تفسير السمعاني (١/١٩٠).

وتتركون ما علمتم أنه الحق. لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا، يعني طائفة مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ، أي باليمين الكاذبة وشهادة الزور. ويقال: بالإثم أي بالجور. وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أنه جور. ويقال: إنكم تعلمون أنكم تأخذون بالباطل. (١)

٢- قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا} (النساء: ٢٩)

(بالباطل) بما لم تبحه الشريعة من نحو السرقة والخيانة والغصب والقمار وعقود الربا {إلا أن تكون تجارة} إلا أن تقع تجارة تجارة كوفي أي إلا أن تكون التجارة تجارة {عن تراضٍ منكم} صفة لتجارة أي تجارة صادرة عن تراض بالعقد أو بالتعاطي والاستثناء منقطع معناه ولكن اقصدا كون تجارة عن تراضٍ أو ولكن كون تجارة عن تراضٍ غير منهي عنه وخص التجارة بالذكر لأن أسباب الرزق أكثرها متعلق بها (٢)

٣- قال تعالى: {وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٢) لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَنْبِيَاءُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} (المائدة: ٦٣)

كان من أكلهم أموال الناس بالباطل، ما كانوا يأخذون من أثمان الكتب التي كانوا يكتبونها بأيديهم، ثم يقولون: "هذا من عند الله"، وما أشبه ذلك من المآكل الخسيسة الخبيثة. فعاقبهم الله على جميع ذلك، بتحريمه ما حرّم عليهم من الطيبات التي كانت لهم حلالا قبل ذلك. وإنما وصفهم الله بأنهم أكلوا ما أكلوا من أموال الناس كذلك بالباطل، لأنهم أكلوه بغير استحقاق، وأخذوا أموالهم منهم بغير استيجاب. (٣)

(١) تفسير السمرقندي (١/١٢٦).

(٢) تفسير النسفي (١/٣٥١).

(٣) تفسير الطبري (٩/٣٩٢).

٤- قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ} (البقرة: ١٧٥)

{أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار} أي: إنما يأكلون ما يأكلونه في مقابلة كتمان الحق نارا تأجج في بطونهم يوم القيامة. (١)

٥- قال تعالى: {فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخَذَهُمُ الرَّبُّوا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} (النساء: ١٦١)

{وَأَخَذَهُمُ الرَّبُّ وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ} وقد نهوا عنه أي: أن الله قد نهاهم عن الربا فتناولوه وأخذوه، واحتالوا عليه بأنواع من الحيل وصنوف من الشبه، وأكلوا أموال الناس بالباطل. (٢)

{وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ} مِنَ الرِّشَاءِ فِي الْحُكْمِ، وَالْمَأْكُلِ الَّتِي يُصَيَّبُونَهَا مِنْ عَوَامِّهِمْ، عَاقِبَتُهُمْ بِأَنْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ، فَكَانُوا كُلَّمَا ارْتَكَبُوا كَبِيرَةً حُرِّمَ عَلَيْهِمْ شَيْءٌ مِنَ الطَّيِّبَاتِ الَّتِي كَانَتْ حَلَالًا لَهُمْ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: "ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ". (٣)

ذم أكل الحرام في السنة:

١- عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو بمكة عام الفتح: إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الْحَمْرِ، وَالْمَيْتَةِ وَالْخِنْزِيرِ وَالْأَصْنَامِ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ شُحُومَ الْمَيْتَةِ، فَإِنَّهَا يُطْلَى بِهَا الشُّفْنُ، وَيُدْهَنُ بِهَا الْجُلُودُ، وَيَسْتَصْبَحُ بِهَا النَّاسُ؟ فَقَالَ: لَا، هُوَ حَرَامٌ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ ذَلِكَ: قَاتَلَ اللَّهُ الْيَهُودَ إِنَّ اللَّهَ لَمَّا حَرَّمَ شُحُومَهَا جَمَلُوهَا، ثُمَّ بَاعُوهَا، فَأَكَلُوا ثَمَنَهَا. (٤)

(١) تفسير ابن كثير (١/٤٨٤).

(٢) المصدر السابق (٢/٤٦٧).

(٣) تفسير البغوي (٢/٣٠٩).

(٤) أخرجه البخاري (٢٢٣٦)، ومسلم (١٥٨١).

قولهم: أرأيت شحوم الميتة فإنه يطلى بها السفن ويدهن بها الجلود ويستصبح بها الناس أي فهل يحل بيعها لما ذكر من المنافع فإنها مقتضية لصحة البيع قوله فقال لا هو حرام أي البيع هكذا فسر بعض العلماء كالشافعي ومن اتبعه ومنهم من حمل قوله وهو حرام على الانتفاع فقال: يحرم الانتفاع بها وهو قول أكثر العلماء فلا ينتفع من الميتة أصلاً عندهم إلا ما خص بالدليل وهو الجلد المدبوغ. (١)

٢- عن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ، لَا يُبَالِي الْمَرْءُ بِمَا أَخَذَ الْمَالُ، أَمْنَ حَلَالٍ أَمْ مِنْ حَرَامٍ". (٢)

هذا يكون لضعف الدين وعموم الفتن، وقد أخبر عليه السلام أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً، وأُنذر كثرة الفساد، وظهور المنكر، وتغير الأحوال، وذلك من علامات نبوته عليه السلام. (٣)

" لا يبالي المرء ما أخذ منه "أي لا تهمه الوسيلة التي اكتسب بها المال، والطريق الذي أخذه منه " أمن الحلال " أي سواء كان من كسب حلال كالبيع المبرور وعمل اليد " أم من الحرام " كالاختلاس والربا والقمار والرشوة، لأن المصلحة المادية هي الهدف الوحيد، والغاية الرئيسية لكل معاملاته. (٤)

٣- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا، إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} [المؤمنون: ٥١] وَقَالَ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ} [البقرة: ١٧٢] ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلُ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ

(١) فتح الباري (٤/٢٥٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢٠٥٩).

(٣) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٢٠١/٦).

(٤) منار القاري (٣/٢٥٧).

إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعُمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟^(١)

هذا الكلام أشار فيه صلى الله عليه وسلم إلى آداب الدعاء، وإلى الأسباب التي تقتضي إجابته، وإلى ما يمنع من إجابته، فذكر من الأسباب التي تقتضي إجابة الدعاء أربعة: أحدها: إطالة السفر، والثاني: حصول التبذل في اللباس والهيئة بالشعث والاغبرار، الثالث: مد يديه إلى السماء، والرابع: الإلحاح على الله بتكرير ذكر ربوبيته، وأما ما يمنع إجابة الدعاء، فقد أشار صلى الله عليه وسلم إلى أنه التوسع في الحرام أكلاً وشرباً ولبساً وتغذية، فأكل الحلال وشربه ولبسه والتغذي به سبب موجب لإجابة الدعاء.^(٢)

٤- عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: اسْتَعْمَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا مِنَ الْأَسَدِ، يُقَالُ لَهُ: ابْنُ الثُّنَيْبِ عَلَى الصَّدَقَةِ، فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ: هَذَا لَكُمْ، وَهَذَا لِي، أَهْدِي لِي، قَالَ: فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَحَمِدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَقَالَ: مَا بَالُ عَامِلٍ أَبْعَثَهُ، فَيَقُولُ: هَذَا لَكُمْ، وَهَذَا أَهْدِي لِي، أَفَلَا قَعَدَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ، أَوْ فِي بَيْتِ أُمِّهِ، حَتَّى يَنْظُرَ أَيَهْدِي إِلَيْهِ أَمْ لَا؟ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَنَالُ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْهَا شَيْئًا إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى عُنُقِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ بَقَرَةٌ لَهَا خَوَارٌ، أَوْ شَاةٌ تَنْعُرُ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَيْنَا عُفْرَتِي إِنْطِيهِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ، هَلْ بَلَّغْتُ؟ مَرَّتَيْنِ.^(٣)

في هذا بيان أن هدايا العمال سحت وأنه ليس سبيلها سبيل سائر الهدايا المباحة وإنما يهدى إليه المحاباة وليخفف عن المهدي ويسوغ له بعض الواجب عليه وهو خيانة منه وبخس للحق الواجب عليه استيفاؤه لأهله.^(٤)

(١) أخرجه مسلم (١٠١٥).

(٢) جامع العلوم والحكم (٢٧٤/١) باختصار.

(٣) أخرجه البخاري (٢٥٩٧)، ومسلم (١٨٣٢) واللفظ له.

(٤) معالم السنن (٨/٣).

٦- عَنْ خَوْلَةَ الْأَنْصَارِيَّةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: إِنَّ رَجُلًا يَتَخَوَّضُونَ فِي مَالِ اللَّهِ بِغَيْرِ حَقٍّ، فَلَهُمْ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. (١)

(يتخوضون): قال الراغب: الخوض هو الشروع في الماء، والمرور فيه، ويستعار في الأمور، وأكثر ما ورد فيما يذم الشروع فيه نحو قوله تعالى: {ذرهم في خوضهم يلعبون} [الأنعام: ٩١] وفي التفعّل مبالغة، والمعنى يشروعون ويدخلون ويتصرفون. (في مال الله): أي ما في بيت المال من الزكاة والخراج والجزية والغنيمة وغيرها. (٢)

مال الله: مظهر أقيم مقام المضمّر إشعاراً بأنه لا ينبغي التخوض في مال الله ورسوله والتصرف فيه بمجرد الشهية. وقوله ليس له يوم القيامة إلا النار: حكم مرتب على الوصف المناسب وهو الخوض في مال الله فيه إشعار بالغلبة. (٣)

(بغير حق): أي بغير إذن من الإمام، فيأخذون منه أكثر من أجره عملهم وقدر استحقاقهم (فلهم النار يوم القيامة): خبر (إن). (٤)

٧- عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ الْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، وَأَقْضِي لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ. (٥)

لا يجوز للمقضي له بالشئ أخذَه إذا علم أنه لا يحل له فيما بينه وبين الله، ألا تراه يقول: فلا يأخذ منه شيئاً فإنما أقطع له قطعة من النار. وقد يدخل في هذا الأموال والدماء والفروج كان ذلك كله حق أخيه وقد حرم عليه أخذه. (٦)

أقوال السلف حول أكل الحرام:

(١) أخرجه البخاري (٣١١٨).

(٢) مرقاة المفاتيح (٢٤٣٣/٦).

(٣) فتح الباري (٢١٩/٦).

(٤) مرقاة المفاتيح (٢٤٣٣/٦).

(٥) أخرجه البخاري (٢٤٥٨)، ومسلم (١٧١٣).

(٦) معالم السنن (١٦٣/٤).

- ٢- قال ابنُ مهران: لا يَسْلَمُ للرجلِ الحلالِ حتى يجعلَ بينه وبين الحرامِ حاجزًا من الحلالِ.^(١)
- ٣- قال الزقاق: لي سبعون سنة أرب هذا الفقير. من لم يصحبه في فقره الورع أكل الحرام النض.^(٢)
- ٤- قال سهل التستري: "من أكل الحلال أطاع الله شاء أم أبى، ومن أكل الحرام عصى الله شاء أم أبى".^(٣)
- ٥- وقال سفيان الثوري رضي الله عنه: من أنفق من الحرام في طاعة الله كان كمن طهر الثوب النجس بالبول، والثوب النجس لا يطهره إلا الماء والذنب لا يكفره إلا الحلال.
- ٦- قال ابن رجب: أكل الحرام وشربه ولبسه والتَّغْذِي به سبب موجب لعدم إجابة الدَّعاء.^(٤)
- ٧- ومن غريب ما حكى عن الشيخ الصالح محمد بن منصور بن يحيى الشيخ أبي القاسم القباري الاسكندراني: أنه باع دابة له من رجل، فلما كان بعد أيام جاء الرجل الذي اشتراها، فقال: يا سيدي! إن الدابة التي اشتريتها منك لا تأكل عندي شيئاً! فنظر إليه الشيخ فقال له: ماذا تعاني من الأسباب؟ فقال: رقاص عند الوالي! فقال له: إن دابتنا لا تأكل الحرام، ودخل منزله فأعطاه دراهم، ومعها دراهم كثيرة قد اختلطت بها فلا تميز، فاشتري الناس من الرقاص كل درهم بثلاثة؛ لأجل البركة، وأخذ دابته. وَلَمَّا تَوَفَّى ترك من الأساس ما يساوي خمسين درهماً فبيع بِمَبْلَغِ عَشْرِينَ أَلْفًا.^(٥)

(١) حلية الأولياء (٤/٨٤).

(٢) تاريخ بغداد (٣/٦٢).

(٣) جامع العلوم والحكم (١/١٠١).

(٤) جامع العلوم والحكم (١/١٠١).

(٥) البداية والنهاية (١٣/٢٨٢).

٥- أكل مال اليتيم

معنى أكل مال اليتيم ولماذا عبر به هكذا؟

وأكل مال اليتيم يعني: التغذي به، وعبر بالأكل؛ لأنه أعم وجوه الانتفاع.

فأكل مال اليتيم ليس لازماً أن يأكله في بطنه، بل لو أخذه وانتفع به فبنى به بيتاً أو اشترى به أثاثاً أو اشترى به أي حاجة ينتفع بها فهو في حكم الأكل، فإذا انتفع به بأي وجه من وجوه الانتفاع فهو أكل له شرعاً، وإنما عبر بالأكل لأن هذا هو الغالب الذي يقصد به في الغالب.

قال الذهبي: الكبيرة الثامنة: أكل مال اليتيم ظلماً.

قَالَ الْعُلَمَاءُ فَكُلْ وَلِي لَيْتِيمٍ إِذَا كَانَ فَقِيرًا فَأَكُلْ مِنْ مَالِهِ بِالْمَعْرُوفِ بِقَدْرِ قِيَامِهِ عَلَيْهِ فِي مَصَالِحِهِ وَتَنْمِيَةِ مَالِهِ فَلَا بَأْسَ عَلَيْهِ وَمَا زَادَ عَلَى الْمَعْرُوفِ فَسَحَتْ حَرَامٌ. (١)

وَفِي الْأَكْلِ بِالْمَعْرُوفِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ الْأَخْذُ عَلَى وَجْهِ الْقَرْضِ.

وَالثَّانِي: الْأَكْلُ بِقَدْرِ الْحَاجَةِ مِنْ غَيْرِ إِسْرَافٍ.

الثَّالِثُ: أَنَّهُ أَخْذُ بِقَدْرِ إِذَا عَمِلَ لِلْيَتِيمِ عَمَلًا.

وَالرَّابِعُ: أَنَّهُ الْأَخْذُ عِنْدَ الضَّرُورَةِ فَإِنْ أَيْسَرَ قَضَاؤُهُ وَإِنْ لَمْ يَوْسُرْ فَهُوَ فِي حُلِّ (٢). وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ ذَكَرَهَا ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي تَفْسِيرِهِ. (٣)

تحریم أكل مال اليتيم في القرآن:

١- قال تعالى: {كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ} (١٧) الفجر

(لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ) فِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: هُوَ أَكَلَ مَا لَهُمْ أَيْ: الْيَتَامَى.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّهُ تَرَكَ الْإِحْسَانَ إِلَيْهِمْ. (٤)

(١) الكبائر الذهبي (١/١٥١).

(٢) الكبائر الذهبي (١/١٥١).

(٣) زاد المسير لابن الجوزي (١/٣٧٣).

(٤) تفسير السمعاني (٦/٢٢١).

وكذلك كانت عادة الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصبيان. ^(١)

والمعنى: بل إنما أهنت من أهنت من أجل أنه لا يكرم اليتيم، فأخرج الكلام على الخطاب، فقال: بل لستم تكرمون اليتيم، فلذلك أهنتكم. ^(٢)

٢- وقال تعالى: {وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا} (٢) النساء
(وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ) فيه أربعة تأويلات:
أحدها: الحرام بالحلال.

الثاني: هو أن يجعل الزائف بدل الجيد، والمهزول بدل السمين ويقول درهم بدرهم، وشاة بشاة، الثالث: هو استعجال أكل الحرام قبل إتيان الحلال.

الرابع: أن أهل الجاهلية كانوا لا يورثون الصغار والنساء ويأخذ الرجل الأكبر، فكان يستبدل الخبيث بالطيب لأن نصيبه من الميراث طيب، وأخذ الكلب خبيث.
{وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ} أي مع أموالكم، وهو أن يخلطوها بأموالهم لتصير في ذمتهم فيأكلوا ربحها. {إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا} والحُوب: الإثم ^(٣)

٣- وقال تعالى: {أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ} (٢) الماعون
والمعنى أي ارقب فيه هذه الخلال السيئة تجدها، ودع اليتيم: دفعه بعنف.
وذلك إما أن يكون المعنى عن إطعامه والإحسان إليه.
وإما أن يكون عن حقه وماله، فهذا أشد. ^(٤)

^(١) زاد المسير (٤/٤٤٣).

^(٢) تفسي الطبري (٢٤/٤١٤).

^(٣) تفسير الماوردي (١/٤٤٧).

^(٤) تفسير ابن عطية (٥/٥٢٧).

٤- وقال تعالى: {وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا } (١٢٧) النساء

معناه: النهي عما كانت العرب تفعله من ضم اليتيمة الجميلة الغنية بدون ما تستحقه من المهر، ومن عضل الدميمة الفقيرة أبداً، والدميمة الغنية حتى تموت فيريثها العاضل، ونحو هذا مما يقصد به الولي منفعة نفسه لا نفع اليتيمة، والذي كتب الله لهن هو توفية ما تستحقه من مهر، وإلحاقها بأقربائها، وذلك: أن العرب كانت لا تورث الصبية ولا الصبي الصغير، وكان الكبير ينفرد بالمال، وكانوا يقولون: إنما يرث المال من يحمي الحوزة، ويرد الغنيمة، ويقاقل عن الحريم، ففرض الله لكل أحد حقه.

والقسط العدل، وباقي الآية وعد على فعل الخير بالجزاء الجميل، بين. (١)

٥- وقال تعالى: { وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا } (الإسراء: ٣٤)

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ أَي: إلا على وجه التجارة لينمو مال اليتيم بالأرباح، أو ينمو على وجه المضاربة حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ يعني: حتى يَبْلُغَ ويتم خلقه. وقال القتيبي: أشد الرجل، غير أشد اليتيم، وإن كان لفظهما واحداً، لأن قوله تعالى: حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ [الأحقاف: ٢٥] إنما هو الاكتهال، وذلك ثلاثون سنة. وأشد الغلام أن يشتد خلقه، وذلك ثمان عشرة سنة. (٢)

٦- وقال تعالى: { إِنْ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا } (النساء: ١٠)

قال ابن زيد: نزلت في الكفار الذين كانوا لا يورثون النساء والصغار، ويأكلون أموالهم، وقال أكثر الناس: نزلت في الأوصياء الذين يأكلون ما لم ييح لهم من مال اليتيم، وهي تتناول

(١) تفسير ابن عطية (١١٨/٢).

(٢) تفسير السمرقندي (٣١١/٢).

كل أكل وإن لم يكن وصياً، وسمي أخذ المال على كل وجوهه أكلاً لما كان المقصود هو الأكل وبه أكثر الإلتاف للأشياء، وفي نصه على البطون من الفصاحة تبين نقصهم، والتشيع عليهم بضد مكارم الأخلاق، من التهافت بسبب البطن، وهو أنقص الأسباب وألمها حتى يدخلوا تحت الوعيد بالنار، وظلماً معناه: ما جاوز المعروف مع فقر الوصي، وقال بعض الناس: المعنى أنه لما يؤول أكلهم للأموال إلى دخولهم النار قيل: يَأْكُلُونَ النار، وقالت طائفة: بل هي حقيقة أنهم يطعمون النار. (١)

أكل مال اليتيم في السنة:

١- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسَّحَرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَאَكْلُ الرِّبَا، وَאَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَيُّ يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ (٢)

قوله: (وأكل مال اليتيم)، المقصود به أن يأخذ الإنسان مال اليتيم سواء اشترى به لباساً أو سيارة أو أي شيء، فصاحبه مرتكب كبيرة، ولكنه عبر بالأكل أيضاً لأنه أعم وجوه الانتفاع، وأكثر وجوه الانتفاع، وإلا فالحكم يعم جميع وجوه الانتفاع. (٣)

٢- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أُحْرِجُ حَقَّ الضَّعِيفَيْنِ: الْيَتِيمِ، وَالْمَرْأَةِ. (٤)

قوله: (إني أخرج) بالحاء المهملة من التحريج أو الإخراج، أي: أضيق على الناس في تضييع حقهما وأشدد عليهم في ذلك والمقصود إشهاده تعالى في تبليغ ذلك الحكم إليهم، وفي

(١) تفسير ابن عطية (٢/١٤).

(٢) البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩).

(٣) شرح سنن أبي داود للعباد (١٥/٣٥٣).

(٤) أخرجه النسائي في الكبرى (٨/٢٥٤)، وابن ماجه (٣٦٧٨)، والحاكم (١/١٣١) وقال: على شرط مسلم. وصححه الألباني في الصحيحة (١٠١٥).

الزوائد: المعنى أخرج عن هذا الإثم بمعنى أن يضيع حقها وأحذر من ذلك تحذيراً بليغاً وأزجر عنه زجراً أكيداً، قاله النووي. (١)

٣- عن عبد الله عمرو رضي الله عنهما: أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إِنِّي فَقِيرٌ لَيْسَ لِي شَيْءٌ وَلِي يَتِيمٌ. قَالَ: فَقَالَ: كُلْ مِنْ مَالِ يَتِيمِكَ غَيْرَ مُسْرِفٍ، وَلَا مُبَادِرٍ، وَلَا مُتَأَثِّلٍ. (٢)
قوله: غير متأثل أي غير متخذ منه أصل مال. واثلة الشيء أصله.

ووجه إباحته الأكل من مال اليتيم أن يكون ذلك على معنى ما يستحقه من العمل فيه والاستصلاح له وأن يأخذ منه بالمعروف على قدر مثل عمله.

وقد اختلف الناس في الأكل من مال اليتيم فروي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: يأكل منه الوصي إذا كان يقوم عليه، وإليه ذهب أحمد بن حنبل.

وقال الحسن والنخعي يأكل ولا يقضي، وقال عبدة السلماني وسعيد بن جبير ومجاهد يأكل ويؤديه إليه إذا كبر وهو قول الأوزاعي. (٣)

٤- عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أَحِبُّ لَكَ مَا أَحَبُّ لِنَفْسِي، لَا تَأْمُرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ، وَلَا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ. (٤)

٥- عن عروة بن الزبير رضي الله عنهما، أَنَّهُ سَأَلَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا} [النساء: ٣] إِلَى {وَرُبَاعَ} [النساء: ٣]، فَقَالَتْ: يَا ابْنَ أُخْتِي هِيَ الْيَتِيمَةُ تَكُونُ فِي حَجَرٍ وَلَيْهَا تُشَارِكُهُ فِي مَالِهِ، فَيُعْجِبُهُ مَالُهَا وَجَمَالُهَا، فَيُرِيدُ وَلَيْهَا أَنْ يَتَزَوَّجَهَا، بَعِيرٌ أَنْ يُقْسِطَ فِي صَدَاقِهَا، فَيُعْطِيهَا مِثْلَ مَا يُعْطِيهَا غَيْرُهُ، فَتُحِبُّ أَنْ يَنْكِحُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يُقْسِطُوا هُنَّ، وَيَبْلُغُوا بَيْنَ أَعْلَى سِتْنِهِنَّ مِنَ الصَّدَاقِ، وَأَمَرُوا أَنْ يَنْكِحُوا مَا طَابَ لَهُمْ مِنَ النِّسَاءِ سِوَاهُنَّ قَالَ عُرْوَةُ: قَالَتْ عَائِشَةُ: ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ اسْتَفْتَوْا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ،

(١) حاشية السندي على سنن ابن ماجه (٣٩٣/٢).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٨٧٤)، والنسائي (٣٦٦٨)، وابن ماجه (٢٧١٨)، وأحمد (٢/٢١٥)، وحسنه

الألباني في صحيح الجامع.

(٣) معالم السنن (٨٦/٤).

(٤) صحيح مسلم (١٨٢٦).

فَأَنْزَلَ اللَّهُ: " {وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ} [النساء: ١٢٧] إِلَى قَوْلِهِ {وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ} [النساء: ١٢٧] " وَالَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ أَنَّهُ يُثَلَّى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ الْآيَةُ الْأُولَى، الَّتِي قَالَ فِيهَا: {وَأِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى، فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ} [النساء: ٣]، قَالَتْ عَائِشَةُ: وَقَوْلُ اللَّهِ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: {وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ} [النساء: ١٢٧] يَعْنِي هِيَ رَغْبَةُ أَحَدِكُمْ لِيَتِمَّتِهِ الَّتِي تَكُونُ فِي حَجَرِهِ، حِينَ تَكُونُ قَلِيلَةَ الْمَالِ وَالْجَمَالَ، فَتُحِبُّ أَنْ يَنْكِحُوا مَا رَغَبُوا فِي مَالِهَا وَجَمَالِهَا مِنْ يَتَامَى النِّسَاءِ إِلَّا بِالْقِسْطِ، مِنْ أَجْلِ رَغْبَتِهِمْ عَنْهُنَّ^(١)

وتأويل الآية أن الله تعالى خاطب أولياء اليتامى فقال: وإن خفتهم من أنفسكم المشاحة في صدقاتهم وأن لا تعدلوا فتبلغوا بهن صدقات أمثالهن فلا تنكحوهن وأنكحوا غيرهن من الغرائب اللواتي أحل الله لكم خطبتن من واحدة إلى أربع، وإن خفتهم أن تجوروا إذا نكحتم من الغرائب أكثر من واحدة فانكحوا منهن واحدة أو ما ملكتم من الإماء.^(٢)

فإذا كان عند الواحد منكم امرأة هو وليها أو هو ابن عمها ولها مال وهي جميلة وأراد أن يتزوجها ولا يريد أن يتزوجها غيره فإنه إذا تزوجها وكان ذلك بموافقتها أن يعطيها المهر كاملاً ولا ينقصها، وكما أنها لو كانت غير ذات مال وغير ذات جمال يرغب عنها فكذا إذا رغب فيها ؛ عليه أن يعطيها ما تستحق، وإلا فاتركوهن وتزوجوا ما طاب لكم من النساء اثنتين، أو ثلاثاً، أو أربعاً.^(٣)

أقوال السلف حول أكل مال اليتيم:

- ١- عن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- قال: إِنِّي أَنْزَلْتُ نَفْسِي مِنْ مَالِ اللَّهِ بِمَنْزِلَةِ وَلِيِّ الْيَتِيمِ، إِنْ اسْتَغْنَيْتِ اسْتَعْفَفْتُ، وَإِنْ احْتَجَّتْ أَخَذْتُ مِنْهُ بِالْمَعْرُوفِ، فَإِذَا أَيْسَرْتُ قَضَيْتِ^(٤)
- ٢- جاء رجل إلى ابن عباس فقال: إِنَّ فِي حَجَرِي أَيْتَامًا، وَإِنَّ لَهُمْ إِبِلًا فَمَاذَا يَحِلُّ لِي مِنْ أَلْبَانِهَا؟

(١) أخرجه البخاري (٢٤٩٤)، ومسلم (٣٠١٨).

(٢) معالم السنن (١٩٠/٣).

(٣) شرح سنن أبي داود للعباد (٤٧٣/١٠).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (١٢ / ٣٢٤)، والطبري (٧ / ٥٨٢).

فقال: إن كنت تبغي ضالّتها، وتها جرباها، وتلوط حوضها، وتسعى عليها فاشرب غير مضرّ بنسل ولا ناهك في الحلب. ^(١)

٣- عن ابن عباس في قوله تعالى: { وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ . . . الآية } . قال: وليّ اليتيم إن كان غنيًّا فليستعفف، وإن كان فقيرًا أخذ من فضل اللبن وأخذ بالقوت لا يجاوزه، وما يستر عورته من الثياب، فإن أيسر قضاؤه، وإن أعسر فهو في حلّ. ^(٢)

٤- وعن سعيد بن جبير حول الآية السابقة قال: قرضا وإذا حضرته الوفاة ولم يجد ما يؤدي فليستحله من اليتيم، وإن كان صغيرًا فليستحله من وليه ^(٣)

٥- عن ابن عباس في قوله تعالى: { فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ } أي: يدفعه عن حقّه ^(٤)

^(١) صحيح أخرجه مالك في الموطأ (٥٢٣/٢)، وعبدالرزاق في التفسير (٤٣٥/١).

^(٢) تفسير مجاهد (٢٦٧/١).

^(٣) تفسير ابن أبي حاتم (٨٧٠/٣).

^(٤) تفسير ابن أبي حاتم (٣٤٦٨/١٠).

٦- الخيانة

الخيانة لغة:

مصدر قولهم: خان يخون، وهو مأخوذ من مادة (خ ون) التي تدلّ على التَنَقُّص، يقال: خانه يخونه خونا، وذلك نقصان الوفاء، وتحوّني فلان أي تنقصني، ونقيض الخيانة الأمانة، يقال خنت فلاناً، وخنت أمانة فلان. (١)

الخيانة اصطلاحاً:

قال الجاحظ: الخيانة هي الاستبداد بما يؤتمن الإنسان عليه من الأموال والأعراض والحرم، وتملك ما يستودع ومجاهدة مودعه، وفيها أيضاً: طيّ الأخبار إذا ندب لتأديتها، وتحريف الرسائل إذا تحمّلها فصرّفها عن وجوها. (٢)

وقال المناوي: الخيانة: هي التفریط في الأمانة، وقيل: هي مخالفة الحقّ بنقض العهد في السرّ (٣)

ذكر الخيانة في القرآن:

١- قال تعالى: {عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوا أَنْفُسَكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ} [البقرة: ١٨٧].

فإن قال لنا قائل: وما هذه الخيانة التي كان القوم يختانونها أنفسهم، التي تاب الله منها عليهم فعفا عنهم؟

قيل: كانت خيانتهم أنفسهم التي ذكرها الله في شيئين، أحدهما: جماع النساء، والآخر: المطعم والمشرب في الوقت الذي كان حراماً ذلك عليهم. (٤)

(١) مقاييس اللغة (٢/ ٢٣٠)، ولسان العرب (١٣/ ١٤٤)، والنهاية (٢/ ٨٩)، وجمهرة اللغة (٢/ ٢٤٤)، وبصائر ذوي التمييز (٢/ ٥٨٢).

(٢) تهذيب الأخلاق (٣١).

(٣) التوقيف (١٦٢).

(٤) تفسير الطبري (٣/ ٢٣٣).

٢- قال تعالى: {يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا} [النساء: ١٠٨].

يَعْنِي جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِقَوْلِهِ: {يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ} [النساء: ١٠٨] يَسْتَخْفِي هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ مَا أُوتُوا مِنَ الْخِيَانَةِ، وَرَكِبُوا مِنَ الْعَارِ وَالْمَعْصِيَةِ مِنَ النَّاسِ الَّذِي لَا يَقْدِرُونَ لَهُمْ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا ذَكَرَهُمْ بِقَبِيحِ مَا أُوتُوا مِنْ فِعْلِهِمْ وَشَنِيعِ مَا رَكِبُوا مِنْ جُرْمِهِمْ إِذَا أَطْلَعُوا عَلَيْهِ حَيَاءً مِنْهُمْ، وَحَذَرًا مِنْ قَبِيحِ الْأُخْذُوثَةِ.

{وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ} [النساء: ١٠٨] الَّذِي هُوَ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِمْ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَبِيَدِهِ الْعِقَابُ وَالنَّكَالُ وَتَعْجِيلُ الْعَذَابِ، وَهُوَ أَحَقُّ أَنْ يُسْتَحْيَا مِنْهُ مِنْ غَيْرِهِ، وَأَوَّلَى أَنْ يُعْظَمَ بِأَنْ لَا يَرَاهُمْ حَيْثُ يَكْرَهُونَ أَنْ يَرَاهُمْ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ {وَهُوَ مَعَهُمْ} [النساء: ١٠٨] يَعْنِي: وَاللَّهُ شَاهِدُهُمْ {إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ} [النساء: ١٠٨] يَقُولُ حِينَ يَسُوُونَ لَيْلًا مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ فَيُغَيِّرُونَهُ عَنْ وَجْهِهِ، وَيَكْذِبُونَ فِيهِ. (١)

٣- قال تعالى: {وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ} [الأنفال: ٥٨]

وَأَمَّا تَخَافَنَّ يَا مُحَمَّدٌ مِنْ عَدُوِّكَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَهْدٌ وَعَقْدٌ أَنْ يَنْكُثَ عَهْدَهُ وَيَنْقُضَ عَقْدَهُ وَيَغْدِرَ بِكَ، وَذَلِكَ هُوَ الْخِيَانَةُ وَالْعُدْرُ. {فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ} [الأنفال: ٥٨] يَقُولُ: فَتَاجِزْهُمْ بِالْحَرْبِ، وَأَعْلِمْهُمْ قَبْلَ حَرْبِكَ إِيَّاهُمْ أَنَّكَ قَدْ فَسَخْتَ الْعَهْدَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ بِمَا كَانَ مِنْهُمْ مِنْ ظُهُورِ آثَارِ الْعُدْرِ وَالْخِيَانَةِ مِنْهُمْ، حَتَّى تَصِيرَ أَنْتَ وَهُمْ عَلَى سَوَاءٍ فِي الْعِلْمِ بِأَنَّكَ لَهُمْ مُحَارِبٌ، فَيَأْخُذُوا لِلْحَرْبِ أَلْتَهَا، وَتَبْرَأَ مِنَ الْعُدْرِ.

{إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ} [الأنفال: ٥٨] الْعَادِرِينَ بِمَنْ كَانَ مِنْهُ فِي أَمَانٍ وَعَهْدٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ أَنْ يَغْدِرَ، فَيَحَارِبُهُ قَبْلَ إِعْلَامِهِ إِيَّاهُ أَنَّهُ لَهُ حَرْبٌ وَأَنَّهُ قَدْ فَاسَخَهُ الْعَقْدَ. (٢)

٤- قال تعالى: {وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ} [الأنفال: ٧١]

(١) تفسير الطبري (٧/٤٧٢).

(٢) تفسير الطبري (١١/٢٣٨).

يقول تعالى ذكره لنبيه: وإن يرد هؤلاء الأسارى الذين في أيديكم خيانتك: أي الغدر بك والمكر والخداع، بإظهارهم لك بالقول خلاف ما في نفوسهم {فقد خانوا الله من قبل} [الأنفال: ٧١] يقول: فقد خالفوا أمر الله ممن قبل وقعة بدر، وأمكن منهم ببدر المؤمنين. {والله عليم} [البقرة: ٩٥] بما يقولون بألسنتهم ويضمرونه في نفوسهم، {حكيم} [البقرة: ٢٠٩] في تدبيرهم وتدبير أمور خلقه سواهم. (١)

٥- قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ} (الحج: ٣٨) إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ لِلْأَمَانَةِ كَفُورٍ كُفُورٍ لربه ولنعمه. وقال أهل اللغة: الخوان الفاعل من الخيانة، وهو المبالغة في الخيانة، فمن ذكر اسماً غير اسم الله تعالى وتقرّب إلى الأصنام بذبيحته، فهو خوان كفور. (٢)

٧- قال تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً} (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا {النساء: ١٠٦} {وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً} [النساء: ١٠٥] يَقُولُ: وَلَا تَكُنْ لِمَنْ خَانَ مُسْلِمًا أَوْ مُعَاهِدًا فِي نَفْسِهِ أَوْ مَالِهِ، خَصِيماً تُخَاصِمُ عَنْهُ، وَتَدْفَعُ عَنْهُ مِنْ طَالِبِهِ بِحَقِّهِ الَّذِي خَانَهُ فِيهِ. (٣)

ذم الخيانة في السنة:

١- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: أَدُّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ ائْتَمَنَكَ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ (٤)

قَالَ الْقَاضِي: أَيُّ: لَا تُعَامِلِ الْخَائِنَ بِمُعَامَلَتِهِ، وَلَا تُقَابِلْ خِيَانَتَهُ بِالْخِيَانَةِ، فَتَكُونَ مِثْلَهُ، وَلَا يَدْخُلُ فِيهِ أَنْ يَأْخُذَ الرَّجُلُ مِثْلَ حَقِّهِ مِنْ مَالِ الْجَاهِدِ، فَإِنَّهُ اسْتِيفَاءٌ وَلَيْسَ بِعُدْوَانٍ وَالْخِيَانَةُ عُدْوَانٌ، قَالَ الطَّبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: الْأَوَّلَى أَنْ يُنْزَلَ الْحَدِيثُ عَلَى مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلَا تَسْتَوِي

(١) تفسير الطبري (١١/٢٨٧).

(٢) تفسير السمرقندي (٢/٤٦١).

(٣) تفسير الطبري (٧/٤٥٧).

(٤) أخرجه أبو داود (٣٥٣٥)، والترمذي (١٢٦٤)، وقال: حديث حسن، وقال الألباني: صحيح لغيره.

انظر: الصحيحة (٤٢٣)

الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [فصلت: ٣٤] يَعْنِي إِذَا خَانَكَ صَاحِبُكَ فَلَا تُقَابِلْهُ بِجَزَاءِ خِيَانَتِهِ، وَإِنْ كَانَ ذَاكَ حَسَنًا، بَلْ قَابِلْهُ بِالْأَحْسَنِ الَّذِي هُوَ عَدَمُ الْمُكَافَأَةِ، وَالْإِحْسَانُ إِلَيْهِ أَيُّ: أَحْسَنَ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ. (١)

٢- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُوعِ، فَإِنَّهُ يَبْسُ الضَّجِيعُ وَمِنَ الْخِيَانَةِ فَإِنَّهَا يَبْسُ الْبَطَانَةُ (٢)

(ومن الخيانة) مخالفة الحق بنقض العهد في السر (فإنها يبتس البطانة) بالكسر أي ببس الشيء الذي يستبطنه من أمره ويجعله بطانة. قال في المغرب: بطانة الرجل أهله وخاصته مستعار من بطانة الثوب. وقال الراغب: تستعار البطانة لمن تخصصه بالاطلاع عليه باطن أمره. وقال القاضي: البطانة أصلها في الثوب فاستعيرت لما يستبطن الرجل من أمره ويجعله بطانة حاله، والخيانة تكون في المال والنفس والعداد والكيل والوزن والزرع وغير ذلك (٣)

٣- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبًا، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ ". (٤)

٤- عَنْ عِيَاذِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: : أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أَعْلَمَكُم مَّا جَهِلْتُمْ، مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا. . . . قال: وَأَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ: الضَّعِيفُ الَّذِي لَا زَبَرَ لَهُ، الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعًا لَا يَتَّبِعُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا، وَالْخَائِنُ الَّذِي لَا يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ، وَإِنْ دَقَّ إِلَّا خَانَهُ، وَرَجُلٌ لَا يُصْبِحُ وَلَا يُمَسِي إِلَّا وَهُوَ يُجَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ. (٥)

(١) مرقاة المفاتيح (٥/١٩٦٧).

(٢) أخرجه النسائي (٥٤٦٩)، وأبو داود (١٥٤٧)، وابن ماجه (٣٣٥٤)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (١٣٨٣).

(٣) فيض القدير (٢/١٢٣).

(٤) أخرجه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨).

(٥) مسلم (٢٨٦٥).

قال القاضي: أي: لا يخفى عليه شيء مما يمكن أن يطمع فيه (وإن دق) بحيث لا يكاد أن يدرك (إلا خانه) أي: إلا وهو يسعى في التفحص عنه، والتطلع عليه حتى يجده فيخونه، وهذا هو الإغراق في الوصف بالخيانة. قلت: (النووي): بل هو إغراق في وصف الطمع، والخيانة تابعة له، والمعنى أنه لا يتعدى عن الطمع، ولو احتاج إلى الخيانة، ولهذا قال الحسن البصري: الطمع فساد الدين والورع صلاحه. (١)

٥- عن عمران بن حصين - رضي الله عنهما - قال قال: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ - قَالَ عِمْرَانُ: لَا أَذْرِي أَذْكَرَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ قَرْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ - قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَنْذِرُونَ وَلَا يُقُونَ، وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السَّمَنُ. (٢)

(ويخونون ولا يتمنون) هكذا في أكثر النسخ يتمنون بتشديد النون وفي بعضها يؤتمنون ومعناه يخونون خيانة ظاهرة بحيث لا يبقى معها أمانة بخلاف من خان بحقير مرة واحدة فإنه يصدق عليه أنه خان ولا يخرج به عن الأمانة في بعض المواطن. (٣)

٧- عن عبد الله بن عمرو بن العاص أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لَا تَجُوزُ شَهَادَةُ خَائِنٍ وَلَا خَائِنَةٍ. (٤)

(شهادة خائن، ولا خائنة): أي: المشهور بالخيانة في أمانات الناس دون ما ائتمن الله عليه عباده من أحكام الدين، كذا قاله بعض علمائنا من الشراح.

قال القاضي: ويحتمل أن يكون المراد به الأعم منه، وهو الذي يخون فيما ائتمن عليه سواء ما ائتمنه الله عليه من أحكام الدين، أو الناس من الأموال. (٥)

(١) مرقاة المفاتيح (٣١٠٨/٧).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٥١)، ومسلم (٢٥٣٥).

(٣) شرح النووي لصحيح مسلم (٨٨/١٦).

(٤) أخرجه أبو داود (٣٦٠١)، وابن ماجه (٢٣٦٦)، وحسنه الألباني في الإرواء (٢٦٦٩).

(٥) مرقاة المفاتيح (٢٤٥٠/٦).

٩- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: قَالَ اللَّهُ: ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصَمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ. (١)

(رجل أعطى بي) أي أعطى الأمان باسمي أو بذكري أو بما شرعته من الدين كأن يقول: عليك عهد الله أو ذمته (ثم غدر) أي نقض العهد الذي عاهد عليه؛ لأنه جعل الله كفيلاً له فيما لزمه من وفاء ما أعطى، والكفيل خصم المكفول به للمكفول له. (٢)

١١- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَمَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ، جَاءَهُ أَعْرَابِي فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ فَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَدِّثُ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: سَمِعَ مَا قَالَ فَكَّرَهُ مَا قَالَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ لَمْ يَسْمَعْ، حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ قَالَ: أَيْنَ - أَرَاهُ - السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَإِذَا ضَيَّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ، قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟ قَالَ: إِذَا وَسَدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ. (٣)

قال ابن بطال: معنى أسند الأمر إلى غير أهله أن الأئمة قد ائتمنهم الله على عبادته وفرض عليهم النصيحة لهم فينبغي لهم تولية أهل الدين فإذا قلدوا غير أهل الدين فقد ضيعوا الأمانة التي قلدهم الله تعالى إياها. (٤)

أقوال السلف حول الخيانة:

١- عن عدي بن حاتم قال: أتينا عمر في وفد، فجعل يدعو رجلاً رجلاً ويسمّيهم. فقلت: أما تعرفني يا أمير المؤمنين؟ قال: بلى، أسلمت إذ كفروا، وأقبلت إذ أدبروا، ووفيت إذ غدروا، وعرفت إذ أنكروا. فقال عدي - رضي الله عنه -: فلا أبالي إذا. (٥)

(١) البخاري (٢٢٢٧).

(٢) فيض القدير (٣/٣١٥).

(٣) أخرجه البخاري (٥٩).

(٤) فتح الباري (١١/٣٣٤).

(٥) أخرجه البخاري (٤٣٩٤) ومسلم (٢٥٢٣).

٢- عن نافع، قال: لما خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية، جمع ابن عمر حشمه وولده، فقال: إني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة. وإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله، وإني لا أعلم غدرا أعظم من أن يبايع رجل على بيع الله ورسوله ثم ينصب له القتال، وإني لا أعلم أحداً منكم خلعه، ولا بايع في هذا الأمر، إلا كانت الفیصل بيني وبينه.^(١)

٣- كان شريح يقضي في المضارب بقضائين: كان ربّا قال للمضارب: بیّتك على مصیبة تعذر بها. وربّا قال لصاحب المال: بیّتك أن أأمينك خائن وإلا فيمينه بالله ما خانك.^(٢)

(١) أخرجه البخاري (٧١١١).

(٢) أخرجه النسائي (٣٩٣٥).

٧- الخداع

الخداع لغة

مصدر قولهم: خدع يخدع خدعًا وخداعًا، وهو مأخوذ من مادة (خ د ع) التي تدلّ على إخفاء الشيء، من ذلك: خدعت الرجل: خذلت، والخدعة: الرجل يخدع الناس، وخدعة يخدعه الناس، ودينار خادع أي ناقص الوزن وكأنّه أرى التّمام وأخفى النقصان حتّى أظهره الوزن.^(١)

الخداع اصطلاحًا:

قال الرّاغب: الخداع: إنزال الغير عمّا هو بصده بأمر يبدیه على خلاف ما يخفيه.^(٢) وقال المناويّ: إظهار خير يتوسّل به إلى إبطان شرّ يؤول إليه أمر ذلك الخير المظهر. وقيل: هو إظهار ما يخالف الإضمار.^(٣)

والخداع ورد في القرآن على أربعة أوجه:

الأوّل: خداع الكفار رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأنّ يعقدوا معه عهدًا في الظّاهر وينقضوه في الباطن {وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ} [الأنفال: ٦٢]
 الثّاني: خداع اليهود مع أهل الإيمان يصالحونهم في الظّاهر ويتهيّئون لحربهم في الباطن {يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ} [البقرة: ٩]
 الثّالث: خداع المنافقين مع المؤمنين بإظهار الإيمان وإبطان الكفر {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ} [النساء: ١٤٢]

الرّابع: خداع الله الكفّار والمنافقين بإسبال النّعمة عليهم في الدّنيا. وادّخار أنواع العقوبة لهم في العقبى {وَهُوَ خَادِعُهُمْ} وقيل في قوله تعالى: {يُخَادِعُونَ اللَّهَ} أى يخادعون رسول الله وأوليائه. ونُسب ذلك إلى الله من حيث إنّ معاملة الرّسول - صلّى الله عليه وسلّم -

(١) المفردات (١٤٣).

(٢) المصدر السابق (١٤٣).

(٣) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف لابن المناوي (١٥٣).

كمعاملته، ولذلك قال الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ} [الفتح: ١٠] وجعل ذلك خداعاً تفضيلاً لفعلهم، وتنبهها على عظم الرسول صلى الله عليه وسلم وعظم أوليائه.^(١)

ذم الخداع في القرآن:

١- قال تعالى: {يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} (البقرة: ٩)

خداع المنافق ربه والمؤمنين إظهاره بلسانه من القول والتصديق خلاف الذي في قلبه من الشك والتكذيب ليدراً عن نفسه بما أظهر بلسانه حكم الله عز وجل، اللازم من كان بمثل حاله من التكذيب لو لم يظهر بلسانه ما أظهر من التصديق والإقرار، من القتل والسب، فذلك خداعه ربه وأهل الإيمان بالله.^(٢)

والمعنى {يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ} يعني المنافقين يخادعون رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، بأن يظهرُوا من الإيمان خلاف ما يبتغون من الكفر، لأن أصل الخديعة الإخفاء، ومنه مخدع البيت، الذي يخفى فيه، وجعل الله خداعهم لرسوله خداعاً له، لأنه دعاهم برسالته.^(٣)

٢- وقال الله تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاؤُنَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا} [النساء: ١٤٢].

وَهُوَ خَادِعُهُمْ أي يجازيهم جزاء خداعهم، وذلك أنهم على الصراط يعطون نوراً كما يعطي المؤمنون، فإذا مضوا على الصراط يسلبهم ذلك النور ويبقى المؤمنون ينظرون بنورهم فينادون المؤمنون انظرونا نقتبس من نوركم، فيناديهم الملائكة على الصراط ارجعوا وراءكم فَالْتَمِسُوا نُورًا. وقد علموا أنهم لا يستطيعون الرجوع فيشفق المؤمنون حينئذ من نورهم أن يطفئ فيقولون: {رَبَّنَا أَلَمَّ لَنَا نُورُنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} وإذا قاموا يعني تهيأوا

(١) بصائر ذوي التمييز (٢/٥٢٩).

(٢) تفسير الطبري (١/٢٨٠).

(٣) تفسير الهاردي (١/٧٣).

إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُعْنِي مَثَاقِلِينَ، يُعْنِي لَا يُرِيدُونَ بِهَا وَجْهَ اللَّهِ فَإِنْ رَأَاهُمْ أَحَدٌ صَلَّى
وَلَا انصرفوا ولم يصلوا يُرَاؤُنَ النَّاسَ يُعْنِي الْمُؤْمِنِينَ بِالصَّلَاةِ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا. (١)
ذم الخداع في السنة:

١- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ، قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنِّي أُخْدَعُ فِي الْبُيُوعِ، فَقَالَ: "إِذَا بَايَعْتَ فَقُلْ: لَا خِلَابَةَ." (٢)
ومعنى لا خِلَابَةَ لا خديعة أي لا تحل لك خديعتي أو لا يلزمني خديعتك وهذا الرجل هو
حبان بفتح الحاء وبالباء الموحدة بن منقذ بن عمرو الأنصاري والد يحيى وواسع بن حبان
شهدا أحدا. (٣)

٢- عَنْ قَيْسِ بْنِ سَعْدٍ بْنِ عِبَادَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: لَوْلَا أَنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: الْمَكْرُ وَالْخَدِيعَةُ فِي النَّارِ لَكُنْتُ مِنْ أَمَكْرِ النَّاسِ. (٤)
قَوْلُهُ: الْخَدِيعَةُ فِي النَّارِ، أَيِ: صَاحِبِ الْخَدِيعَةِ فِي النَّارِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ فَعِيلًا بِمَعْنَى الْفَاعِلِ،
وَالْتَّاءُ لِلْمُبَالَغَةِ نَحْوُ: رَجُلٌ عَلَامَةٌ. (٥)

٤- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْمُؤْمِنُ غُرٌّ
كَرِيمٌ، وَالْفَاجِرُ خَبٌّ لَيْثِيمٌ. (٦)
معنى هذا الكلام أن المؤمن المحمود هو من كان طبعه وشيمته الغرارة وقلة الفطنة للشر
وترك البحث عنه، وإن ذلك ليس منه جهلاً لكنه كرم وحسن خلق، وإن الفاجر من كانت
عادته الخب والدهاء والوغول في معرفة الشر وليس ذلك منه عقلاً لكنه خب ولؤم. (٧)

(١) تفسير الثعلبي (٤٠٥/٣).

(٢) أخرجه البخاري (٢١١٧). ومسلم (١٥٣٣).

(٣) شرح النووي (١٦٧/١٠).

(٤) ذكره البخاري معلقاً ووصله البيهقي في الشعب (٣٢٤/٤)، انظر: الصحيحة (١٠٥٧).

(٥) عمدة القاري (٢٦٣/١١).

(٦) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٤١٨)، وأبو داود (٤٧٩٠)، والترمذي (١٩٦٤)، انظر: الصحيحة (٩٣٥).

(٧) معالم السنن (١٠٨/٤).

٦- عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ بَيْعِ الْخِصَاةِ، وَعَنْ بَيْعِ الْغُرَرِ. (١)

وَأَمَّا النَّهْيُ عَنْ بَيْعِ الْغُرَرِ فَهُوَ أَصْلٌ عَظِيمٌ مِنْ أَصُولِ كِتَابِ الْبَيْعِ؛ وَلِهَذَا قَدَّمَهُ مُسْلِمٌ وَيَدْخُلُ فِيهِ مَسَائِلُ كَثِيرَةٌ غَيْرُ مُنْحَصَرَةٍ كَبَيْعِ الْآبِقِ وَالْمُعْدُومِ وَالْمُجْهُولِ وَمَا لَا يُقَدَّرُ عَلَى تَسْلِيمِهِ وَمَا لَمْ يَتِمَّ مِلْكُ الْبَائِعِ عَلَيْهِ وَبَيْعِ السَّمَكِ فِي الْمَاءِ الْكَثِيرِ وَاللَّبَنِ فِي الضَّرْعِ وَبَيْعِ الْحَمَلِ فِي الْبُطْنِ وَبَيْعِ بَعْضِ الصُّبْرَةِ مُبَهَّمًا وَبَيْعِ ثَوْبٍ مِنْ أَثْوَابٍ وَشَاةٍ مِنْ شِيَاهٍ وَنَظَائِرَ ذَلِكَ وَكُلُّ هَذَا بَيْعُهُ بَاطِلٌ لِأَنَّهُ غَرَرٌ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ. (٢)

أقوال السلف حول الخداع:

١- عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: كان لأبي بكر غلام يخرج له الخراج- وكان أبو بكر يأكل من خراجه- فجاء يوماً بشيء فأكل منه أبو بكر، فقال له الغلام: أتدري ما هذا؟ فقال أبو بكر: وما هو؟ قال: كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية وما أحسن الكهانة، إلا أنني خدعته فأعطاني بذلك، فهذا الذي أكلت منه. فأدخل أبو بكر يده فقاء كل شيء في بطنه. (٣)

٢- قال ابن أبي أوفى: التَّاجَشُ أَكَلُ رِبَا خَائِنٍ. (٤)

(١) أخرجه مسلم (١٥١٣).

(٢) شرح النووي لصحيح مسلم (١٥٦/١٠).

(٣) أخرجه البخاري (٣٨٤٢).

(٤) أخرجه البخاري (٢٦٧٥).

٨- الرياء

الرياء لغة:

مصدر قولهم: راءه يرائيه رياء ومراءة، وهو مأخوذ من مادة (رأى) التي تدلّ - كما يقول ابن فارس - على نظر وإبصار بعين أو بصيرة، يقال من ذلك: راءى فلان، وفعل ذلك رءاء النَّاس (ورياء النَّاس)، وهو أن يفعل شيئاً ليراه النَّاس.^(١)

الرياء اصطلاحاً:

قال الجرجاني: الرِّياء: ترك الإخلاص في العمل بمراعاة غير الله فيه^(٢). وقال التَّهَانَوِيُّ: حدّ الرِّياء: فعل الخير لإراءة الغير، وقيل: هو فعل لا تدخل فيه النِّية الخالصة، ولا يحيط به الإخلاص^(٣).

وقال الغزالي: أصل الرِّياء: طلب المنزلة في قلوب النَّاس بإيرائهم خصال الخير، واسم الرِّياء مخصوص - بحكم العادة - بطلب المنزلة في القلوب بالعبادة وإظهارها، ومن ثمَّ يكون الرِّياء (المذموم شرعاً) إرادة العباد بطلاعة الله^(٤).

وقال ابن حجر العسقلاني: الرِّياء إظهار العبادة لقصد رؤية النَّاس لها فيحمدوا صاحبها^(٥).

أقسام الرياء:

ذكر الغزالي: أن الرِّياء بحسب ما يراعى به خمسة أقسام:

الأوّل: الرِّياء في الدِّين بالبدن، وذلك بإظهار النُّحول والصِّفار ليوهم بذلك شدّة الاجتهاد، وعظم الحزن على أمر الدِّين وغلبة خوف الآخرة. أمّا رياء أهل الدُّنيا فيكون بإظهار السَّمْن وصفاء اللَّون واعتدال القامة، وحسن الوجه ونظافة البدن وقوّة الأعضاء.

(١) الصحاح (٦/ ٢٣٤٨ - ٢٣٤٩)، ولسان العرب (١٤/ ٢٩٦)، والنهاية لابن الأثير (٣/ ١٧٨).

(٢) التعريفات (ص ١١٩).

(٣) كشاف اصطلاحات الفنون (٣/ ٦٠٧ - ٦٠٨).

(٤) إحياء علوم الدين (٣/ ٢٩٧).

(٥) فتح الباري (١١/ ٣٤٤).

الثاني: الرياء بالهيئة والزِّي، وذلك بتشعيث شعر الرأس، وإبقاء أثر السجود على الوجه، وغلظ الثياب وتقصير الأكماء وترك تنظيف الثوب وتركه مخرقاً، كل ذلك لإظهار أنه متبع للسنة.

أما مراعاة أهل الدنيا فبالثياب النفيسة، والمراكب الرفيعة وأنواع التوسع والتجمل في الملبس والمسكن.

الثالث: الرياء بالقول، ويكون من أهل الدين بالوعظ والتذكير والتطرق بالحكمة وحفظ الأخبار والآثار لإظهار غزارة العلم، ومن ذلك تحريك الشفتين بالذكر في محضر الناس، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمامهم.

وأما أهل الدنيا فيكون رياءهم بحفظ الأشعار والأمثال، والتفصيح بالعبارات، وحفظ الغريب من النحو واللغة للإغراب على أهل الفضل.

الرابع: الرياء بالعمل، وذلك كمراعاة المصلي بطول القيام والركوع والسجود ونحو ذلك. أما أهل الدنيا فمراءاتهم بالتبخر والاختيال وغيرهما مما يدل على الجاه والحشمة.

الخامس: المراعاة بالأصحاب والزائرين، كأن يطلب المرابي من عالم أن يزوره ليقال: إن فلانا قد زار فلانا، ومن ذلك كثرة ذكر الشيوخ. قال الغزالي: فهذه الخمسة هي مجامع ما يرابي. (١)

حكم الرياء:

ذكر الذهبي الرياء ضمن الكبائر، وذكر أدلة ذلك من الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح، وعده ابن حجر الكبيرة الثانية بعد الشرك بالله، وقال:

شهد بتحريمه الكتاب والسنة وانعقد عليه إجماع الأمة، وبعد أن أشبع القول في ذكر أدلة تحريمه قال: المعنى في تحريمه وكونه كبيرة وشركا مقتضيا للعن أن فيه استهزاء بالحق تعالى، ومن ثم كان الرياء من كبائر الكبائر المهلكة، وفي الرياء أيضا تلبيس على الخلق لإيهام المرابي لهم أنه مخلص مطيع لله تعالى وهو بخلاف ذلك (٢).

(١) إحياء علوم الدين (٣ / ٣١٠ - ٣١٤).

(٢) الزواجر (٢ / ٤٤).

الأدلة من القرآن على حرمة الرياء:

١- قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤)} البقرة

المشرك إذا تصدق، فأبطل الشرك صدقته، كما أبطل المن والأذى صدقة المؤمن، ثم ضرب لهما مثلاً جميعاً لصدقة المؤمن الذي يمن وبصدقة المشرك. فقال تعالى: فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ. قال القتيبي: الصفوان الحجر الذي لا ينبت عليه شيء، يعني كمثل حجر صلب عليه تراب. فَأَصَابَهُ وَابِلٌ يعني المطر الشديد فَتَرَكَهُ صَلْدًا يعني المطر ترك الصفا نقياً أجرد أملس ليس عليه شيء من تراب فكذلك نفقة صاحب الرياء، ونفقة المشرك لم يبق لهما ثواب. (١)

٢- وقال تعالى: {وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (٣٨) وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا (٣٩)} النساء: ٣٨-٣٩.

{كالذي ينفق ماله رثاء الناس} أي: لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى، كما تبطل صدقة من رأى بها الناس، فأظهر لهم أنه يريد وجه الله وإنما قصده مدح الناس له أو شهرته بالصفات الجميلة، ليشكر بين الناس، أو يقال: إنه كريم ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية، مع قطع نظره عن معاملة الله تعالى وابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه. (٢)

٣- وقال تعالى: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧)}

وهذا تقدّم من الله جل ثناؤه إلى المؤمنين به وبرسوله، أن لا يعملوا عملاً إلا لله خاصة، وطلب ما عنده، لا رثاء الناس، كما فعل القوم من المشركين في مسيرهم إلى بدر طلب رثاء

(١) تفسير السمرقندي (١/١٧٦).

(٢) تفسير ابن كثير (١/٦٩٤).

الناس. وذلك أنهم أخبروا بَقُوتِ العير رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وقيل لهم: "انصرفوا فقد سلمت العير التي جئتم لنصرتها!"، فأبوا وقالوا: "نأتي بدرًا فنشرب بها الخمر، وتعزف علينا القيان، وتتحدث بنا العرب فيها"، فسُقوا مكان الخمر كؤوس المنايا. (١)

٤- وقال تعالى: (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُنَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧) ٥

الذين هم لا يخلصون لله عملاً، ولا يطالبون أنفسهم بحقيقة الإخلاص، ولا يرد عليهم من ربهم وارد يشغلهم عن رؤية الخلق والتزين لهم، يعلمون أنهم في أعين الناس بمقدار ما وضع الله لهم في أعينهم من المقدار. (٢)

الأدلة من السنة على حرمة الرياء:

١- عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مَنْ سَمَعَ سَمَعَ اللَّهِ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللَّهُ بِهِ. (٣)

قال العلماء: معناه من راي بعمله وَسَمِعَهُ النَّاسُ لِيُكْرِمُوهُ وَيَعْظُمُوهُ وَيَعْتَقِدُوا خَيْرَهُ سَمَعَ اللَّهُ بِهِ يوم القيامة الناس وفضحه وقيل معناه: مَنْ سَمَعَ بعيوبه وأذاعها أَظْهَرَ اللَّهُ عيوبه وقيل أَسَمِعَهُ المكروه وقيل أراه الله ثواب ذلك من غير أن يعطيه إياه ليكون حَسْرَةً عليه وقيل معناه من أراد بعمله النَّاسُ أَسَمِعَهُ اللَّهُ النَّاسَ وكان ذلك حِطَّةً منه. (٤)

قال الخطابي: معناه من عمل عملاً على غير إخلاص وإنما يريد أن يراه الناس ويسمعه جوزي على ذلك بأن يشهره الله ويفضحه ويظهر ما كان يبطنه. وقيل من قصد بعمله الجاه والمنزلة عند الناس ولم يرد به وجه الله فإن الله يجعله حديثاً عند الناس الذين أراد نيل المنزلة عندهم ولا ثواب له في الآخرة ومعنى يرأى يطلعهم على أنه فعل ذلك لهم لا لوجهه. (٥)

(١) تفسير الطبري (٥٧٨/١٣).

(٢) تفسير السلمي (٤٢١/٢).

(٣) البخاري (٦٤٩٩)، ومسلم (٢٩٨٧).

(٤) شرح النووي لصحيح مسلم (١١٦/١٨).

(٥) فتح الباري (٣٣٦/١١).

٢- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: يَكْشِفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ، فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ، فَيَبْقَى كُلُّ مَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِيَاءً وَسُمْعَةً، فَيَذْهَبُ لِيَسْجُدَ، فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا^(١)

أي يستوي فقار ظهره فلا ينثني للسجود وفي لفظ لمسلم فلا يبقى من كان يسجد من تلقاء نفسه إلا أذن له في السجود أي سهل له وهون عليه ولا يبقى من كان يسجد اتقاء ورياء إلا جعل الله ظهره طبقاً واحداً كلما أراد أن يسجد خر لفقاه^(٢)

٣- عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلذَّكْرِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِرَى مَكَانِهِ، فَمَنْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ فِي الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ^(٣)

قال المهلب: من قاتل في سبيل الله ونوى بعد إعلاء كلمة الله ما شاء فهو في سبيل الله، والله أعلم بمواقع أجورهم، ولا يصلح لمسلم أن يقاتل إلا ونيته مبنية على الغضب لله، والرغبة في إعلاء كلمته، ويدل على ذلك أنه قد يقاتل من لا يرجو أن يسلبه من عريان، ولا شيء معه، فيغرر مهجته مستلذاً لذلك، ولو أعطى ملء الأرض على أن يغرر مهجته في غير سبيل الله ما غرر، ولكن سهل عليه ركوب ذلك استلذاً بإعلاء كلمة الله، ونكاية عدوه والغضب لدينه^(٤)

٤- عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أُمِرْنَا بِالصَّدَقَةِ، قَالَ: كُنَّا نُحَامِلُ، قَالَ فَتَصَدَّقَ أَبُو عَقِيلٍ بِنُصْفِ صَاعٍ، قَالَ: وَجَاءَ إِنْسَانٌ بِشَيْءٍ أَكْثَرَ مِنْهُ، فَقَالَ الْمُتَأَفِّقُونَ: إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَدَقَةِ هَذَا، وَمَا فَعَلَ هَذَا الْآخَرُ إِلَّا رِيَاءً، فَتَرَكْتُ: {الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ} [التوبة: ٧٩].^(٥)

(١) أخرجه البخاري (٤٩١٩).

(٢) فتح الباري (٤٥١/١١)

(٣) صحيح البخاري (٢٨١٠)، ومسلم (١٩٠٤).

(٤) شرح البخاري لابن بطال (٢٨٥/٥).

(٥) أخرجه البخاري (٤٦٦٨)، ومسلم (١٠١٨).

وهذه أيضا من صفات المنافقين: لا يسلم أحد من عيبيهم ولمزهم في جميع الأحوال، حتى ولا المتصدقون يسلمون منهم، إن جاء أحد منهم بهال جزيل قالوا: هذا مرء، وإن جاء بشيء يسير قالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا. (١)

٥- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءَ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمَلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشَرَكُهُ. (٢)

لا بد من هذين الشرطين، وهما مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمداً رسول الله، فإن الإخلاص لله هو مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله؛ لأن معنى لا إله إلا الله: لا معبود بحق إلا الله، فالعبادة يجب أن تكون خالصة لله، وإذا أشرك مع الله غيره فيها فإنه لا عبادة بها، ولا قيمة لها، وترد على صاحبها، فلا بد أن يكون العمل خالصاً لله حتى يكون معتبراً، ومقتضى شهادة أن محمداً رسول الله عليه الصلاة والسلام: ألا يعبد الله إلا طبقاً لما جاء به عليه الصلاة والسلام، فلا يعبد بالبدع والمحدثات والمنكرات التي ما أنزل الله بها من سلطان، والتي هي مخالفة لما كان عليه رسول الله عليه الصلاة والسلام وأصحابه الكرام (٣)

٦- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتَشْهَدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتُ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتَشْهَدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُجِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتُ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُجِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتُ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ١٨٤).

(٢) صحيح مسلم (٢٩٨٥).

(٣) شرح الأربعين النووية للعباد (٣/ ١٢).

نَحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَسُجِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ^(١).

أقوال السلف حول الرياء:

١- ضرب عمر - رضي الله عنه - رجلاً بالذرة، ثم قال له: اقتصص مني. فقال: لا، بل أَدْعِهَا لله ولك. فقال له عمر: ما صنعت شيئاً، إمّا أن تدعها لي فأعرف ذلك، أو تدعها لله وحده. فقال: ودعتها لله وحده. فقال: فنعمة إذا^(٢).

٢- أتى أبو أمامة الباهليّ - رضي الله عنه - على رجل في المسجد وهو ساجد يبكي ويدعو، فقال: أنت أنت! لو كان هذا في بيتك^(٣).

٣- عن العرباض بن سارية السلمي - رضي الله عنه -، أنّه قال: لولا أن يقال: فعل أبو نجیح، لألحقت مالي سبله، ثم لحقت وادياً من أودية لبنان عبدت الله حتّى أموت^(٤).

٤- عن عبدة بن أبي لبابة قال: لوددت أنّ حظّي من أهل الزّمان أنّهم لا يسألوني عن شيء، ولا أسألهم، إنّهم يتكاثرون بالمسائل كما يتكاثرون أهل الدّراهم بالدّراهم^(٥).

٥- قال الفضيل بن عياض: كانوا يراءون بما يعملون، وصاروا اليوم يراءون بما لا يعملون.
(٦)

٦- قال أبو سليمان الدّرانيّ - رضي الله عنه: إذا أخلص العبد انقطعت عنه كثرة الوسوس والرياء^(٧).

(١) أخرجه مسلم (١٩٠٥).

(٢) الإحياء (٣ / ١٩٦).

(٣) نزّهة الفضلاء (١ / ٢٨١)، وإحياء علوم الدين (٣ / ٢٩٦).

(٤) نزّهة الفضلاء (١ / ٢٩٣).

(٥) نزّهة الفضلاء (١ / ٤٨٥).

(٦) الإحياء (٣ / ٢٩٦، ٢٩٧).

(٧) مدارج السالكين (٢ / ٩٦).

٧- عن سهل بن عبد الله التستري قال: لا يعرف الرياء إلا مخلص، ولا التفاف إلا مؤمن، ولا الجهل إلا عالم، ولا المعصية إلا مطيع. ^(١)

(١) مختصر شعب الإيمان (٩).

٩- السرقة

السرقة لغة:

مصدر قولهم: سرق الشيء يسرقه سرقة أي أخذه خفية.

السَّرقَة: وهو مأخوذ من مادة (س ر ق) التي تدلّ على ذات المعنى، يقول ابن فارس: السَّين والراء والقاف أصل يدلّ على أخذ شيء في خفاء وستر. (١)

السرقة اصطلاحاً:

قال الرَّاغب: السَّرقَة في الشَّرع: تناول المرء الشيء (الذي ليس له خفية) من موضع مخصوص وقدّر مخصوص. (٢)

وقال الكفويّ: السَّرقَة: أخذ مال معتبر من حرز أجنبيّ لا شبهة فيه خفية وهو قاصد للحفظ، في نومه أو غفلته. (٣)

ذم السرقة في نصوص القرآن:

١- قال تعالى: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} (المائدة: ٣٩)

كان ابن مسعود يقرؤها: "والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما". وهذه قراءة شاذة، وإن كان الحكم عند جميع العلماء موافقاً لها، لا بها، بل هو مستفاد من دليل آخر. وقد كان القطع معمولاً به في الجاهلية، فقرر في الإسلام وزيدت شروط آخر. (٤)

فالسنة قيدت عموم هذه الآية من عدة أوجه:

(١) المقاييس (٣/ ١٥٤)، والصحاح (٤/ ١٤٩٦)، واللسان (٣/ ١٩٩٨)، والتاج (١٣/ ٢١٥)، والمفردات (٢٣١).

(٢) المفردات (٢٣١) بتصرف يسير، وعنه أخذ المناوي، انظر: التوقيف (١٩٣).

(٣) الكليات (٥١٤).

(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ١٠٧).

منها: الحرز، فإنه لا بد أن تكون السرقة من حرز، وحرز كل مال: ما يحفظ به عادة. فلو سرق من غير حرز فلا قطع عليه.

ومنها: أنه لا بد أن يكون المسروق نصاباً، وهو ربع دينار، أو ثلاثة دراهم، أو ما يساوي أحدهما، فلو سرق دون ذلك فلا قطع عليه. (١)

٢- وقال تعالى: {فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا نَقْدُ صَوَاعِ الْمَلِكِ وَلَكِنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ} (يوسف: ٧٢)

هذا من الكيد الذي يسهه الله ليوسف عليه السلام، وذلك أنه كان في دين يعقوب أن يستبعد السارق، وكان في دين مصر أن يضرب، ويضعف عليه الغرم، فعلم يوسف أن إخوته لثقتهم ببراءة ساحتهم سيدعون في السرقة إلى حكمهم، فتحيل لذلك، واستسهل الأمر على ما فيه من رمي أبرياء وإدخالهم على يعقوب وعليهم لما علم في ذلك من الصلاح في الآجل، وبوحي لا محالة، وإرادة من الله محتهم بذلك (٢)

٣- وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُسْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقَنَّ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} (المتحنة ١٢)

(ولا يسرقن) أي: أموال الناس الأجانب، فأما إذا كان الزوج مقصراً في نفقتها، فلها أن تأكل من ماله بالمعروف، ما جرت به عادة أمثالها، وإن كان بغير علمه، عملاً بحديث هند بنت عتبة أنها قالت: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بني، فهل علي جناح إن أخذت من ماله بغير علمه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خذي من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفي بنيك." (٣)

(١) تفسير السعدي (١/ ٢٣٠).

(٢) تفسير الثعالبي (٣/ ٣٣٩).

(٣) تفسير ابن كثير (٨/ ٩٩)، والحديث أخرجه البخاري (٧١٨٠)، ومسلم (١٧١٤).

ذم السرقة في السنة:

١- عن عبادة بن الصامت، قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مجلس، فقال: تَبَايَعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ، وَلَا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلَا تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَسَتَرَهُ اللَّهُ فَأَمَرُهُ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ عَاقِبُهُ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ، فَبَايَعَنَاهُ عَلَى ذَلِكَ. (١)

قال القاضي عياض: قال أكثر العلماء: الحدود كفارة استدلالاً بهذا الحديث. (٢)

٢- عَنْ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ، أَنَّ رَجُلًا سَرَقَ بُرْدَةً لَهُ، فَرَفَعَهُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَمَرَ بِقَطْعِهِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ تَجَاوَزْتُ عَنْهُ، فَقَالَ: أَبَا وَهْبٍ أَفَلَا كَانَ قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَنَا بِهِ، فَقَطَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. (٣)

(قبل أن تأتيني به) أي لم لا تركت حقك عليه وعفوت عنه قبل إتيانك به إلي، وأما الآن فقطعه واجب ولا حق لك فيه، بل هو من الحقوق الخالصة للشرع ولا سبيل فيها إلى الترك، وفيه أن العفو جائز قبل أن يرفع إلى الحاكم. (٤)

٣- عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمُخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ، فَقَالُوا: وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، حَبُّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ، ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا

(١) صحيح البخاري (١٨)، ومسلم (١٧٠٩).

(٢) شرح النووي لصحيح مسلم (٢٢٤/١١).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٣٩٦)، والنسائي (٤٨٧٩)، وابن ماجه (٢٥٩٥)، وأحمد (٤٠١/٣) وله شاهد من حديث ابن عباس أخرجه الدارقطني (٢٠٤/٣)، والحاكم (٤٢٢/٤)، وقال: صحيح الإسناد. قال الألباني في الإرواء (٢٣١٧): رجاله كلهم ثقات من رجال الشيخين.

(٤) مرقاة المفاتيح (٢٣٥٩/٦).

سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرْكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَإِنَّمَا اللَّهُ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا. (١)

وإنما خص صلى الله عليه وسلم فاطمة ابنته بالذكر لأنها أعز أهله عنده ولأنه لم يبق من بناته حينئذ غيرها فأراد المبالغة في إثبات إقامة الحد على كل مكلف وترك المحاباة في ذلك ولأن اسم السارقة وافق اسمها عليها السلام فناسب أن يضرب المثل بها (٢)

٤- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: إِنَّ فُلَانًا يُصَلِّي بِاللَّيْلِ، فَإِذَا أَصْبَحَ سَرَقَ قَالَ: " إِنَّهُ سَيَنْهَاهُ مَا تَقُولُ. (٣)

قال ابن حجر: فمثل هذه الصلاة لا محالة تنهاه فيتوب عن السرقة قريباً، فالسين على أصلها من التنفيس؛ إذ لا بد من مزاولة الصلاة زمناً حتى يجد منها حالة في قلبه تمنعه من الإثم. (٤)

٥- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرِبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرِبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَنْتَهَبُ نَهْبَةً، يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ. (٥)

٦- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: لَعَنَ اللَّهُ السَّارِقَ، يَسْرِقُ الْبَيْضَةَ فَتَقْطَعُ يَدُهُ، وَيَسْرِقُ الْحَبْلَ فَتَقْطَعُ يَدُهُ، قَالَ الْأَعْمَشُ: كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهُ بَيْنُضِ الْحَدِيدِ، وَالْحَبْلِ كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْهَا مَا يَسْوَى دَرَاهِمٍ. (٦)

قال ابن الأثير: مراد الحديث أن السارق يعرض قطع يده بما لا غنى له به لأن البيضة من السلاح لا يستغني بها أحد وحاصله أن المراد بالخبر أن السارق يسرق الجليل فتقطع يده

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٥)، ومسلم (١٦٨٨).

(٢) فتح الباري (٩٥/١٢).

(٣) أخرجه أحمد (٤٤٧/٢)، والبخاري (١٣٠/١٦)، انظر: الصحيحة (٣٤٨٢).

(٤) مرقاة المفاتيح (٩٣١/٣).

(٥) صحيح البخاري (٢٤٧٥) ومسلم (٥٧).

(٦) هذه الزيادة تفرد بها البخاري في حديثه دون مسلم.

ويسرق الحقير فتقطع يده فكأنه تعجيز له وتضعيف لاختياره لكونه باع يده بقليل الثمن وكثيره.^(١)

أقوال السلف في ذم السرقة.

١- أن عبد الله بن عمرو بن الحضرمي، جاء بغلام له إلى عمر بن الخطاب، فقال له: اقطع يد غلامي هذا، فإنه سرق، فقال له عمر: ماذا سرق؟ فقال: سرق امرأة لامرأتي ثمنها ستون درهماً، فقال عمر: أرسله، فليس عليه قطع، خادمكم سرق متاعكم^(٢)

٢- عن عكرمة بن خالد، قال: كان علي لا يقطع سارقاً حتى يأتي بالشهداء، فيوقفهم عليه، ويسجنه، فإن شهدوا عليه، قطعه، وإن نكلوا تركه، قال: فأتي مرة بسارق، فسجنه، حتى إذا كان الغد، دعا به، وبالشاهدين، ف قيل: تغيب الشهيدين فخلى سبيل السارق، ولم يقطعه.^(٣)

٣- عن أبي الهياج قال: رأيت شيخاً يطوف بالبيت وهو يقول: " رب قني شح نفسي، رب قني شح نفسي "، لا يزيد عليه، فسألت عنه، ف قيل: عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، فأتيته فذكرت ذلك له، فقال: " إني إذا وقيت شح نفسي وقيت السرقة والخيانة، وغير ذلك.^(٤)

٤- عن أبي مسلم الخولاني، قال: " أربع لا يقبلن في أربع: مال اليتيم، والغلول، والخيانة، والسرقة، لا يقبلن في حج، ولا عمرة ولا جهاد، وذكر حرفاً آخر^(٥)

٥- عن الحسن قال: إذا دخلت سوق المدينة فاشتر ما وجدت، ما لم تعلم أنه خيانة أو سرقة.^(٦)

٦- قال أحمد: إذا اشترى الرجل من رجل شيئاً وهو يعلم أنه سرقة فقد شاركه.^(١)

(١) فتح الباري (٨٣/١٢).

(٢) أخرجه مالك (٢٤٣٣) وعنه الشافعي في المسند (٢٦٨).

(٣) أخرجه عبد الرزاق (١٩٠/١٠).

(٤) أخرجه الفاكهي في أخبار مكة (٢٢٨/١).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٠٦/٧).

(٦) مصنف ابن أبي شيبة (٤٥٣/٤).

٧- قال ابن كثير: كان قطع يد السارق معمولاً به في الجاهلية، فقرّر في الإسلام وزيدت شروط آخر. وقيل: إنّ أوّل من قطع الأيدي في الجاهلية قريش، فقطعوا رجلاً كان سرق كنز الكعبة: (٢)

(١) مسائل الإمام أحمد، رواية البغوي (٦٨١).

(٢) تفسير ابن كثير (٥٥ / ٢).

١٠- سوء الظن

سوء الظن لغة:

الظَّنُّ لغة: مصدر قولهم ظَنَّ يَظُنُّ ظَنًّا وهو مأخوذ من مادّة (ظ ن ن) الّتي تدلّ على معنيين: أحدهما: اليقين والآخر الشكّ.

فأمّا اليقين فقول القائل: ظننت ظنًّا أي أيقنت قال تعالى: (قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ) أراد- والله أعلم -: يوقنون

والأصل الآخر: الشكّ: يقال: ظننت الشّيء، إذا لم تتيقّنه، وقال الرّاعب: الظَّنُّ: اسم لما يحصل عن أمانة ومتى قويت أدّت إلى العلم ومتى ضعفت جدًّا لم تتجاوز حدّ التّوهم^(١).

سوء الظَّنِّ اصطلاحًا:

قال الكفوي: الظَّنُّ: أخذ طرفي الشكّ بصفة الرّجحان وقال أيضًا: والرّاجح إن قاربه إمكان المرجوح يسمّى ظنًّا، أو هو التّردّد الرّاجح بين طرفي الاعتقاد غير الجازم^(٢) وقال ابن العربي: الظَّنُّ تجويز أمرين في النّفس لأحدهما ترجيح على الآخر^(٣). وعلى هذا فسوء الظَّنِّ هو: اعتقاد جانب الشّرّ وترجيحه على جانب الخير فيما يحتمل الأمرين معًا. (٤)

أقسام سوء الظن:

وقد قسّم سوء الظَّنِّ إلى قسمين كلاهما من الكبائر وهما:

١- سوء الظَّنِّ بالله، قال: وهو أبلغ في الذّنب من اليأس والقنوط (وكلاهما كبيرة) وذلك لأنّه يأس وقنوط وزيادة، لتجويزه على الله تعالى أشياء لا تليق بكرمه وجوده^(٥).

(١) مقاييس اللغة (٣/ ٤٦١)، انظر: الصحاح للجوهري (٦/ ٢٢٦٠)، والتعريفات للجرجاني (١٤٤).

لسان العرب لابن منظور (١٣/ ٢٧٢)

(٢) كليات أبي البقاء الكفوي (١/ ٨٩، ٩٠، ٣/ ٦٢، ١٧٤).

(٣) أحكام القرآن لابن العربي (٤/ ١٧١٢).

(٤) نضرة النعيم (١٠/ ٤٦٥٢)

(٥) الزواجر (١١٤).

٢- سوء الظنّ بالمسلمين: هو أيضا من الكبائر وذلك أنّ من حكم بشرّ على غيره بمجرد الظنّ حمله الشيطان على احتقاره وعدم القيام بحقوقه والتّواني في إكرامه وإطالة اللسان في عرضه، وكلّ هذه مهلكات. . وكلّ من رأته سيّء الظنّ بالناس طالبًا لإظهار معايهم فاعلم أنّ ذلك لخبث باطنه وسوء طويّته؛ فإنّ المؤمن يطلب المعاذير لسلامة باطنه، والمنافق يطلب العيوب لخبث باطنه^(١).

قال ابن قدامة المقدسيّ - رحمه الله -: فليس لك أن تظنّ بالمسلم شرًا، إلّا إذا انكشف أمر لا يحتمل التّأويل، فإنّ أخبرك بذلك عدل. فمال قلبك إلى تصديقه، كنت معذورًا، لأنّك لو كذّبتَه كنت قد أسأت الظنّ بالمخبر، فلا ينبغي أن تحسن الظنّ بواحد وتسيئه بآخر، بل ينبغي أن تبحث هل بينهما عداوة وحسد؟ فتتطرّق التّهمة حينئذ بسبب ذلك. ومتى خطر لك خاطر سوء على مسلم، فينبغي أن تزيد في مراعاته وتدعو له بالخير، فإنّ ذلك يغيظ الشيطان ويدفعه عنك، فلا يلقي إليك خاطر السوء خيفة من اشتغالك بالدّعاء والمراعاة. وإذا تحققت هفوة مسلم، فانصحه في السرّ. واعلم أنّ من ثمرات سوء الظنّ التّجسس، فإنّ القلب لا يقنع بالظنّ، بل يطلب التحقيق فيشتغل بالتّجسس، وذلك منهّي عنه، لأنّه يوصل إلى هتك ستر المسلم، ولو لم ينكشف لك، كان قلبك أسلم للمسلم^(٢).

الأدلة من القرآن على سوء الظن:

١- قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ} (الحجرات ١٢)

اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ يعني: لا تحقّقوا الظنّ إنّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ يعني: معصية أي: إنّ ظنّ السوء بالمسلم معصية.

وقال سفيان الثوري: الظن ظنان. ظن فيه إثم، وظن لا إثم فيه.

(١) الزواجر (١٠٩).

(٢) مختصر منهاج القاصدين (١٧٢).

فالظن الذي فيه إثم، أن يظن ويتكلم به، وأما الظن الذي لا إثم فيه، فهو أن يظن، ولا يتكلم به، لأنه قال: **إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَمْ يَقُلْ: جَمِيعُ الظَّنِّ إِثْمٌ.** ^(١)

٢- وقال تعالى: **{وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا}** (النساء: ١٥٧)

قال القاضي - رحمه الله: الذي صح فيه نقل الكافة عن حواسها هو أن شخصا صلب، وأما هل هو عيسى أم لا؟

فليس من علم الحواس، فلذلك لم ينفع في ذلك نقل كافة اليهود والنصارى، ونفى الله عنهم أن يكون لهم في أمره علم على ما هو به، ثم استثنى اتباع الظن وهو استثناء متصل، إذ الظن والعلم يضمهما جنس واحد أنهما من معتقدات النفس، وقد يقول الظان على طريق التجوز: علمي في هذا الأمر أنه كذا، وهو يعني ظنه ^(٢)

٣- وقال تعالى: **{فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَاكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ}** (هود: ٢٧)

قوله تعالى: وما نرى لكم علينا من فضل والمعنى: لا نرى لكم علينا من فضل لا في العقل ولا في رعاية المصالح العاجلة ولا في قوة الجدل فإذا لم نشاهد فضلك علينا في شيء من هذه الأحوال الظاهرة فكيف نعتز بفضلك علينا في أشرف الدرجات وأعلى المقامات بل نظنكم كاذبين، فيه وجهان:

الأول: أن يكون هذا خطابا مع نوح ومع قومه، والمراد منه تكذيب نوح في دعوى الرسالة.

والثاني: أن يكون هذا خطابا مع الأراذل فنسبواهم إلى أنهم كذبوا في أن آمنوا به واتبعوه. ^(٣)

(١) تفسير السمرقندي (٣/٣٢٨).

(٢) تفسير ابن عطية (٢/١٣٤).

(٣) تفسير الرازي (١٧/٣٣٧).

٤- وقال تعالى {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسْتَلَّ بِنِيِّ إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا} (الإسراء ١٠١)

إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا) يقول: فقال لموسى فرعون: إني لأظنك يا موسى تتعاطى علم السحر، فهذه العجائب التي تفعلها من سحر، وقد يجوز أن يكون مراداً به إني لأظنك يا موسى ساحراً، فوضع مفعول موضع فاعل، كما قيل: إنك مشئوم علينا وميمون، وإنما هو شائم ويامن^(١)

٥- وقال تعالى: { وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ } (الأنعام ١١٦)

وأَيُّ شيء يتبع من يدعو من دون الله يعني: غير الله وسواه شركاء.

ومعنى الكلام: أَيُّ شيء يتبع من يقول لله شركاء في سلطانه وملكه كاذباً، والله المنفرد بملك كل شيء في سماء كان أو أرض؟ (إن يتبعون إلا الظن)، يقول: ما يتبعون في قلوبهم ذلك ودعواهم إلا الظن، يقول: إلا الشك لا اليقين (وإن هم إلا يخرصون)، يقول: وإن هم إلا يتقولون الباطل تظنيًا وتخرفاً للإفك، عن غير علم منهم بما يقولون.^(٢)

الأدلة من السنة على ذم سوء الظن:

١- عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلَا تَجَسَّسُوا، وَلَا تَحَسَّسُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَكُونُوا إِخْوَانًا.^(٣)

قال الخطابي: هو تحقيق الظن وتصديقه دون ما يهجنس في النفس فإن ذلك لا يملك. ومراد الخطابي أن المحرم من الظن ما يستمر صاحبه عليه ويستقر في قلبه دون ما يعرض في القلب ولا يستقر فإن هذا لا يكلف به كما سبق في حديث تجاوز الله تعالى عما تحدثت به الأمة مالم

(١) تفسير الطبري (١٧/٥٦٨).

(٢) تفسير الطبري (١٥/١٤٣).

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٦٤)، ومسلم (٢٥٦٣) واللفظ له.

تتكلم أو تعمد وسبق تأويله على الخواطر التي لا تستقر ونقل القاضي عن سفيان أنه قال: الظن الذي يَأْتِمُّ به هو ما ظنه وتكلم به فإن لم يتكلم لم يَأْتِمُّ. ^(١)

٢- عن أبي أمامة - رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إِنَّ الْأَمِيرَ إِذَا ابْتَغَى الرِّيَّةَ فِي النَّاسِ أَفْسَدَهُمْ. ^(٢)

(إذا ابتغى الريبة) بكسر أوله ؛ أي التهمة (في الناس)، بأن طلب عيوبهم وتجسس ذنوبهم واتهمهم في تفحص أحوالهم، (أفسدهم) : أي أفسد عليهم أمور معاشهم، ونظام معادهم ، لأن الإنسان قلما يخلو عن ذم، فلو أدبهم لكل قول وفعل بهم لشق الحال عليهم، بل ينبغي له ما أمكنه أن يستر عليهم، ألا ترى ما تقدم في الحدود من تلقين المعترف بالذنب دفعا لدرء الحد عنه. ^(٣)

٣- عَنْ عَلِيٍّ بْنِ حُسَيْنٍ، أَنَّ صَفِيَّةَ - زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَخْبَرَتْهُ: أَنَّهَا جَاءَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَزُورُهُ، وَهُوَ مُعْتَكِفٌ فِي الْمَسْجِدِ، فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ، ثُمَّ قَامَتْ تَنْقَلِبُ، فَقَامَ مَعَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ قَرِيبًا مِنْ بَابِ الْمَسْجِدِ، عِنْدَ بَابِ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَرَّ بِهِمَا رَجُلَانِ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَسَلَّمَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ نَفَذَا، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عَلَى رِسْلِكُمَا، قَالَا: سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَبَّرَ عَلَيْهِمَا ذَلِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ الشَّيْطَانَ يَبْلُغُ مِنَ الْإِنْسَانِ مَبْلَغَ الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا. ^(٤)

إن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينسبهما إلى أنهما يظنان به سوءاً لما تقرر عنده من صدق إيمانهما ولكن خشي عليهما أن يوسوس لهما الشيطان ذلك لأنهما غير معصومين فقد يفضي بهما ذلك إلى الهلاك فبادر إلى إعلامهما حسماً للمادة وتعليماً لمن بعدهما إذا وقع له مثل ذلك كما قاله

^(١) شرح النووي لصحيح مسلم (١١٩/١٦).

^(٢) أخرجه أبوداود (٢٤٨)، وأحمد (٤/٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٥٨٥).

^(٣) مرقاة المفاتيح (٣٤١٣/٦).

^(٤) صحيح البخاري (٢٠٣٥)، ومسلم (٢١٧٥).

الشافعي رحمه الله تعالى، فقد روى الحاكم أن الشافعي كان في مجلس ابن عيينة فسأله عن هذا الحديث فقال الشافعي: إنما قال لها ذلك لأنه خاف عليها الكفر إن ظنا به التهمة فبادر إلى إعلامها نصيحة لها قبل أن يقذف الشيطان في نفوسها شيئاً يهلكان به. (١)

٤- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُمَرَ عَلَى الصَّدَقَةِ، فَقِيلَ: مَنْعَ ابْنُ جُمَيْلٍ، وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، وَالْعَبَّاسُ عَمَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا يَنْقُمُ ابْنُ جُمَيْلٍ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ فَقِيرًا فَأَغْنَاهُ اللَّهُ، وَأَمَّا خَالِدٌ فَإِنَّكُمْ تَظْلُمُونَ خَالِدًا، قَدْ احْتَبَسَ أَذْرَاعَهُ وَأَعْتَادَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَأَمَّا الْعَبَّاسُ فَهِيَ عَلِيٌّ، وَمِثْلُهَا مَعَهَا، ثُمَّ قَالَ: يَا عُمَرُ، أَمَا شَعَرْتَ أَنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صَنُوْا أَبِيهِ. (٢).

(تَظْلُمُونَ خَالِدًا) فِيهِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهُ اعْتَذَرَ لَخَالِدٍ، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ: مَنْ تَبَرَّعَ بِهَا لَا يَجِبُ مِنَ الْوَقْفِ كَيْفَ يَبْخُلُ بِالْوَاجِبِ عَلَيْهِ. وَالثَّانِي: أَنَّهُ يَكُونُ خَالِدٌ طَوْلِبَ بِالزَّكَاةِ عَنْ أَثْمَانِ الدَّرُوعِ وَالْأَعْبَدِ لَكُونِهَا مِنْ مَالِ التَّجَارَةِ فَأَخْبَرَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ لَا زَكَاةَ عَلَيْهِ، لِأَنَّ الْمَزْكَى قَدْ خَرَجَ عَنْ يَدِهِ. وَالثَّالِثُ: أَنَّهُ يَكُونُ خَالِدٌ قَدْ تَصَدَّقَ بِتِلْكَ الدَّرُوعِ وَالْأَعْبَدِ عَلَى الْمُجَاهِدِينَ عَلَى وَجْهِ الْقِيَمَةِ فِي الزَّكَاةِ فَحَسِبَهَا لَهُ. وَالرَّابِعُ: أَنَّهُ لَفْظُ هَذَا الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ: أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِصَدَقَةٍ، وَظَاهَر هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا تَطَوُّعٌ فَلِذَلِكَ عَذَرَهُ. (٣)

أقوال السلف حول سوء الظن:

١- عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ - رضي الله عنه - قَالَ: إِنِّي لِأَوَّلِ الْعَرَبِ رَمَى بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَكُنَّا نَغْزُو مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا لَنَا طَعَامَ إِلَّا وَرَقَ الشَّجَرِ، حَتَّى إِنْ أَحَدُنَا لِيَضَعَ كَمَا يَضَعُ الْبَعِيرُ أَوْ الشَّاةُ، مَا لَهُ خَلْطٌ، ثُمَّ أَصْبَحَتْ بَنُو أَسَدٍ تَعْزُرُنِي عَلَى الْإِسْلَامِ، لَقَدْ خَبْتُ إِذَا وَضِلَّ عَمَلِي، وَكَانُوا وَشَوْا بِهِ إِلَى عَمْرِ قَالُوا: لَا يَحْسَنُ يَصْلِي (٤)

(١) فتح الباري (٤/ ٢٨٠).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٦٨)، ومسلم (٩٨٣) واللفظ له.

(٣) كشف المشكل من الحديث ابن الجوزي (٣/ ٥١٧).

(٤) أخرجه البخاري (٣٨٢٧)، ومسلم (٢٩٦٦).

٢- عن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: اجتمع عند البيت قرشيّان وثقفيّ أو ثقفيان وقرشيّ كثيرة شحم بطونهم قليلة فقه قلوبهم. فقال أحدهم: أترون أنّ الله يسمع ما نقول؟ قال الآخر: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا. وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا فإنّه يسمع إذا أخفينا.

فأنزل الله- عزّ وجلّ -: {وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ} (فصلت / ٢٢). (١)

٣- عن عائذ بن عمرو- رضي الله عنه- وكان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على عبيد الله ابن زياد. فقال: أي بني، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إنّ شرّ الرّعاء الحطمة. فإياك أن تكون منهم، فقال له: اجلس. فإني أنت من نخالة أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم. فقال: وهل كانت لهم نخالة؟ إنّما كانت النّخالة بعدهم، وفي غيرهم. (٢)

٤- عن سعد بن عبيدة؛ قال: " جاء رجل إلى ابن عمر فسأله عن عثمان، فذكر عن محاسن عمله، قال: لعلّ ذلك يسوؤك؟ قال: نعم. قال: فأرغم الله بأنفك ثمّ سأله عن عليّ، فذكر محاسن عمله قال: هو ذاك. بيته أوسط بيوت النّبيّ صلى الله عليه وسلم. ثمّ قال: لعلّ ذاك يسوؤك؟ قال: أجل. قال فأرغم الله بأنفك، انطلق فاجهد على جهدك. (٣)

٦- عن عمر بن الخطاب، قال: من عرض نفسه للتهمة فلا يلومن من أساء به الظن. (٤)

٧- عن ابن عمر قال: كنا إذا فقدنا الرجل في صلاة العشاء وصلاة الفجر أسأنا به الظن. (٥)

٨- قال الحسن البصري: نظرت في السخاء فما وجدت له أصلاً ولا فرعاً إلا حسن الظن بالله عز و جل وأصل البخل وفرعه سوء الظن بالله عز و جل. (١)

(١) أخرجه البخاري (٤٨١٧)، ومسلم (٢٧٧٥).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٣٠).

(٣) أخرجه البخاري (٣٧٠٤).

(٤) أخرجه أبو طاهر المخلص في المخلصيات (٨٣/٤).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٩٢/١).

٩- عن عبد الله بن المبارك قال: جئت إلى سفيان عشيّة عرفة وهو جاث على ركبتيه وعينه تهملان، فبكيت، فالتفت إليّ فقال: ما شأنك؟ فقلت: من أسوأ هذا الجمع حالاً؟ قال: الذي يظنّ أنّ الله - عزّ وجلّ - لا يغفر لهم. (٢)

١٠- كان بكر بن عبد الله إذا رأى شيخاً قال: هذا خير مني عبد الله قبلي، وإذا رأى شاباً قال: هذا خير مني ارتكبت من الذنوب أكثر مما ارتكبت، وكان يقول: عليكم بأمر إن أصبتم أجرتم وإن أخطأتم لم تأثموا، وإياكم وكل أمر إن أصبتم لم تؤجروا وإن أخطأتم أثمتم، قيل: ما هو؟ قال: سوء الظن بالناس فإنكم لو أصبتم لم تؤجروا وإن أخطأتم أثمتم. (٣)

١١- قال ابن قدامة المقدسي: من حكم على مسلم بسوء ظنه، احتقره وأطلق فيه لسانه، ورأى نفسه خيراً منه، وإنما يترشح سوء الظن بخبث الظان، لأن المؤمن يطلب المعاذير للمؤمن، والمنافق يبحث عن عيوبه. (٤)

علاج سوء الظن:

١- استحضار ما فيه من النهي، فإن المؤمن إذا تذكر ما في المسألة من نهي ووعيد فإنه لا يجرؤ على الاسترسال فيها.

٢- عدم التحقيق، فلا يبحث عن الأدلة على ما يظنه.

٣- أَنْ لَا تَحْمِلَ فِعْلُهُ عَلَى وَجْهِ فَاسِدٍ مَا أَمْكَنَ أَنْ يُحْمَلَ عَلَى وَجْهِ خَيْرٍ.

٤- مَا انْكَشَفَ بَيِّنٌ وَمُشَاهَدَةٌ فَاحْمِلْهُ عَلَى سَهْوٍ وَنَسْيَانٍ إِنْ أَمْكَنَ، فَسَرُّ الْعُيُوبِ وَالتَّجَاهُلُ وَالتَّعَافُلُ عَنْهَا شِيمَةُ أَهْلِ الدِّينِ.

٥- لَا يَتِمُّ إِيْمَانُ الْمَرْءِ مَا لَمْ يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ، وَأَقْلُ دَرَجَاتِ الْأُخُوَّةِ أَنْ يُعَامَلَ أَخَاهُ بِمَا يُحِبُّ أَنْ يُعَامَلَ بِهِ، وَمَنْشَأُ التَّقْصِيرِ فِي سَرِّ الْعَوْرَةِ أَوْ السَّعْيِ فِي كَشْفِهَا الدَّاءَ الدَّفِينُ وَهُوَ الْحَقْدُ

(١) شعب الايمان (٧/ ٤٤٠).

(٢) حسن الظن بالله ابن أبي الدنيا (٧٢/١).

(٣) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢/ ٢٢٥).

(٤) مختصر منهاج القاصدين (٣/ ٥).

وَالْحَسَدُ، وَمَنْ فِي قَلْبِهِ سَخِيمَةٌ عَلَى مُسْلِمٍ فَإِيْمَانُهُ ضَعِيفٌ، وَأَمْرٌ مُحْطَرٌّ، وَقَلْبُهُ خَبِيثٌ لَا يَصْلُحُ لِلِقَاءِ اللَّهِ.

٦- أَنْ يَسْكُتَ عَنْ إِفْشَاءِ سِرِّهِ الَّذِي اسْتَوْدَعَهُ، وَلَهُ أَنْ يُنْكِرَهُ وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا فَلَيْسَ الصَّدُوقُ وَاجِبًا فِي كُلِّ مَقَامٍ، فَإِنَّهُ كَمَا يَجُوزُ لِلرَّجُلِ أَنْ يُخْفِيَ عُيُوبَ نَفْسِهِ وَأَسْرَارَهُ وَإِنْ احتَاجَ إِلَى الْكَذِبِ فَلَهُ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ فِي حَقِّ أَخِيهِ.

٧- السُّكُوتُ عَلَى الْمُمَارَاةِ وَالْمُدَافَعَةِ فِي كُلِّ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ أَحَدُكُمْ، وَأَشَدُّ الْأَسْبَابِ لِإِثَارَةِ نَارِ الْحَقْدِ بَيْنَ الْإِخْوَانِ الْمُمَارَاةِ وَالْمُنَاقَشَةِ فَإِنَّهَا عَيْنُ التَّدَابُرِ وَالتَّقَاطُعِ، فَإِنَّ التَّقَاطُعَ يَقَعُ أَوَّلًا بِالْأَرَاءِ ثُمَّ بِالْأَقْوَالِ ثُمَّ بِالْأَبْدَانِ. (١)

٨- لا مؤاخذه بحديث النفس: فمهما عرض للإنسان من شكوك في الناس من ريب بالنسبة لبعض الأفراد فانه لا يدخل في دائرة التحذير من سوء الظن ما لم تستقر هذه الشكوك في النفس، وتقوى وتشتد حتى تصل إلى حد الجزم والاعتقاد. لأن ما يعرض للنفس دون استقرار لا يقدر الإنسان على دفعه ولا يكلف به ولا يؤاخذ عليه. (٢)

٩- حسن الظن بالمسلمين: وهو منهج شرعي أخل به كثير من المسلمين اليوم، بل نرى بعضهم يتشبه بهدي الخوارج الذين يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان.

١٠- التماس الأعذار، وعدم الفرح بالعثرات:

فإذا سمعت عن أخيك عثرة، أو هفوة، أو زلة، فلا تفرح بها هذا أقل ما يمكن أن يطلب منك، إذا عجزت عن نصرته والذب عنه.

(١) موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين (١/١٣٢).

(٢) سوء الظن (١/٢٩).

١١- الطمع

الطمع لغة:

مصدر قولهم: طمع فلان يطمع، وهو مأخوذ من مادة (ط م ع) التي تدلّ على رجاء قويّ في القلب للشيء، ولما كان أكثر الطّمع من الهوى قيل: الطّمع طبع، والطّمع يدّس الإهاب، يقال: طمع فلان في كذا وبكذا يطمع طمعاً وطماعة وطماعية أي حرص عليه ورجاه فهو طمع وطماع من قوم طمعين وطماعى وأطماع وطمعاء.^(١)

الطمع اصطلاحاً:

قال الراغب: نزوع النفس إلى الشيء شهوة له.^(٢) وقال المناوي: الطّمع تعلّق البال بالشيء من غير تقدّم سبب له، وأكثر ما يستعمل فيما يقرب حصوله، وقد يستعمل بمعنى الأمل. وقال بعضهم: الطّمع ذلّ ينشأ من الحرص والبطالة والجهل بحكمة الباري.^(٣)

الطمع بين المدح والذم:

إنّ الطّمع بمعنى الرّجاء في رحمة الله وتوقّع الخير، أمر محمود، وهذا ما فعله نبيّ الله إبراهيم - عليه السّلام - عندما قال الله على لسانه: { وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ } (الشعراء: ٨٢).

وامتدح الله - عزّ وجلّ - من يدعونه خوفاً وطمعاً، ووعدهم بما تقرّ به أعينهم. قال تعالى: { تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } (السجدة: ١٦، ١٧).

(١) مقاييس اللغة (٣/ ٤٢٥)، المفردات للراغب (٣٠٧)، تهذيب اللغة للأزهري (٢/ ١٩٢)، الصحاح

(٣/ ١٢٥٥)، اللسان (طمع) (٤/ ٢٧٠).

(٢) المفردات (٢٠٧).

(٣) التوقيف (٣٠٧).

أمّا إذا كان الطّمع في حطام الدّنيا من مال عارض أو منصب زائل، أو جاه حائل، فإنّ ذلك كلّهُ مذموم خاصّة إذا صدر ممّن له حقّ فيه، وهذا دأب المنافقين الذين كانوا يطمعون في الصّدقات {فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ} (التوبة / ٥٨)

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: وهكذا كان حال من كان متعلّقاً برئاسة أو ثروة ونحو ذلك من أهواء نفسه، إن حصل له رضي وإن لم يحصل سخط، فهذا عبد ما يهواه من ذلك، وهو رقيق له إذا لم يحصل. والعبوديّة في الحقيقة هي رقّ القلب وعبوديّته، فما استرقّ القلب واستعبده فهو عبد لهذا. يقال:

العبد حرّ ما قنع... والحرّ عبد ما طمع

وقال قائل:

أطعت مطامعي فاستعبدتني... ولو أنّي قنعت لكنت حرّاً.^(١)

الطمع في القرآن:

١- قال تعالى: {أَيُّطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ} (٣٨) كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ

المعارج

أيطمع كلّ امرئ من هؤلاء الذين كفروا قبلك مهطعين أن يدخله الله جنة نعيم: أي بساتين نعيم ينعم فيها.

وقوله: {كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ} يقول عزّ وجلّ: ليس الأمر كما يطمع فيه هؤلاء الكفار من أن يدخل كل امرئ منهم جنة نعيم.

وقوله: {إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ} يقول جلّ وعزّ: أنا خلقناهم من مني قدر، وإنما يستوجب دخول الجنة من يستوجهه منهم بالطاعة، لا بأنه مخلوق، فكيف يطمعون في دخول الجنة وهم عصاة كفرة.^(٢)

(١) مكارم الأخلاق لابن تيمية (٢٦٠، ٢٦١).

(٢) تفسير الطبري (٢٣/٢٦١).

٢- وقال تعالى { يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنَّ أَثْقَيْنَ فَلَاحُضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا } (الأحزاب: ٣٢)

{ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ } فيه قولان:

أحدهما: أنه شهوة الزنى والفجور. الثاني: أنه النفاق.

وكان أكثر من تصيبه الحدود في زمان النبي صلى الله عليه وسلم المنافقون.

{ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا } فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: صحيحاً. الثاني: عفيفاً. الثالث: جميلاً. (١)

الطمع في السنة:

١- عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ: لَا أَقُولُ لَكُمْ إِلَّا كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: كَانَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ، وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ، وَالْبُخْلِ، وَالْهَرَمِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكَّاهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا. (٢)

والنفس التي لا تشبع: استعارة من الحرص والطمع والشره، وتعلق النفس بالآمال البعيدة (٣)

قال ابن الملك أي: حريصة على جمع المال وتحصيل المناصب، وقيل على حقيقته فهو إما لشدة حرصه على الدنيا لا يقدر أن يأكل قدر ما يشبع جوعته، وإما الاستيلاء الجوع البقري عليه وهو جوع الأعضاء مع شبع المعدة عكس الشهوة الكلية (٤)

٢- عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعْطِينِي الْعَطَاءَ، فَأَقُولُ أَعْطِهِ أَفْقَرُ إِلَيْهِ مِنِّي، حَتَّى أَعْطَانِي مَرَّةً مَالًا، فَقُلْتُ:

(١) تفسير الهاوردي (٤/٣٩٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٢٢).

(٣) شرح أبي داود للعيني (٥/٤٥٨).

(٤) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح المباركفوري (٨/٢٢١).

أَعْطِهِ مَنْ هُوَ أَفْقَرُ إِلَيْهِ مِنِّي، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: خُذْهُ، فتمولّه، وَتَصَدَّقْ بِهِ، فَمَا جَاءَكَ مِنْ هَذَا الْمَالِ وَأَنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ وَلَا سَائِلٍ فَخُذْهُ، وَمَالًا فَلَا تُتْبِعُهُ نَفْسَكَ (١)

المشرف إلى الشيء هو المتطلع إليه الحريص عليه ومالا فلا تتبعه نفسك معناه ما لم يوجد فيه هذا الشرط لا تعلق النفس به واختلف العلماء فيمن جاءه مال هل يجب قبوله أم يندب على ثلاثة مذاهب والصحيح المشهور الذي عليه الجمهور أنه يستحب وأما عطية السلطان فالصحيح أنه إن غلب الحرام فيما في يد السلطان حرمت وكذا إن أعطى من لا يستحق وإن لم يغلب الحرام فمباح إن لم يكن في القابض مانع يمنعه من استحقاق الأخذ (٢)

٣- عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لَا يَبْتَغِي ثَالِثًا، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ. (٣)

المراد بالحديث حرص القلب ورغبة النفس، لا الأكل وشهوة البطن؛ لأنه لم يجز للمطعوم هناك ذكر، إنما جرى ذكر المال والذهب. (٤)

فأخبر عن حرص العباد على الزيادة في المال، وأنه لا غاية له يقنع بها ويقتصر عليها. (٥) وأشار بهذا المثل إلى ذم الحرص على الدنيا والشره على الازدياد منها؛ ولذلك أثر أكثر السلف التقلل من الدنيا والقناعة والكفاف فرارًا من التعرض لما لا يعلم كيف النجاة من شرفته (٦)

٤- عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لَا يَزَالُ قَلْبُ الْكَبِيرِ شَابًّا فِي اثْنَتَيْنِ: فِي حُبِّ الدُّنْيَا وَطُولِ الْأَمَلِ (٧)

(١) أخرجه البخاري (١٤٧٣)، ومسلم (١٠٤٥).

(٢) شرح النووي لصحيح مسلم (١٣٥/٧).

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٣٦) ومسلم (١٠٤٩).

(٤) إكمال المعلم (٣/٣٠٥).

(٥) شرح ابن بطلان للبخاري (١٠/١٦٠).

(٦) شرح ابن بطلان للبخاري (١٠/١٦٠).

(٧) أخرجه البخاري (٦٤٢٠).

قال القرطبي: في هذا الحديث كراهة الحرص على طول العمر وكثرة المال وأن ذلك ليس بمحمود، وقال غيره: الحكمة في التخصيص بهذين الأمرين أن أحب الأشياء إلى ابن آدم نفسه فهو راغب في بقائها فأحب لذلك طول العمر وأحب المال لأنه من أعظم الأسباب في دوام الصحة التي ينشأ عنها غالبًا طول العمر فكلما أحس بقرب نفاد ذلك اشتد حبه له ورغبته في دوامه^(١)

٥- عن ابن كعب بن مالك الأنصاري عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مَا ذُبَّانٌ جَائِعَانِ أَرْسَلَا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ هَآءِ مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ. ^(٢)

أما المال فإفساده أنه نوع من القدرة يحرك داعية الشهوات ويجر إلى التمتع في المباحات فيصير التمتع مألوفًا وربما يشتد أنسه بالمال ويعجز عن كسب الحلال فيقتحم في الشبهات مع أنها ملهية عن ذكر الله تعالى وهذه لا ينفك عنها أحد

وأما الجاه فيكفي به إفسادًا أن المال يبذل للجاه ولا يبذل الجاه للمال وهو الشرك الخفي فيخوض في المראה والمداينة والنفاق وسائر الأخلاق الذميمة فهو أفسد وأفسد^(٣)

٦- عَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ قَالَ لِي يَا حَكِيمُ، إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِطِيبِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى. ^(٤)

قال العلماء إشراف النفس تطلعها إليه وتعرضها له وطمعها فيه

وأما طيب النفس فذكر القاضي فيه احتمالين:

أظهرهما: أنه عائد على الآخذ ومعناه من أخذه بغير سؤال ولا إشراف وتطلع بورك له فيه

(١) فتح الباري (١١/ ٢٤١).

(٢) أخرجه أحمد (٣ / ٤٥٦)، والترمذي (٢٣٧٦)، وقال: حسن صحيح.

(٣) تحفة الأحوذني (٧/ ٣٩).

(٤) أخرجه البخاري (١٤٧٢)، ومسلم (١٠٣٥).

والثاني: أنه عائد إلى الدافع ومعناه من أخذه ممن يدفع منشراً بدفعه إليه طيب النفس لا بسؤال اضطره إليه أو نحوه مما لا تطيب معه نفس الدافع وأما قوله صلى الله عليه وسلم كالذي يأكل ولا يشبع فقليل هو الذي به داء لا يشبع بسببه وقيل يحتمل أن المراد التشبيه بالبهيمة الراعية^(١)

أقوال السلف حول الطمع:

- ١- قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: تعلّم أنّ الطّمع فقر، وأنّ اليأس غنى. ^(٢)
- ٢- قال حكيم: أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع. ^(٣)
- ٣- عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أنه قال: لا ينبغي للرجل أن يكون قاضياً حتى يكون فيه خمس خصال فإن أخطأته واحدة كانت فيه وصمة وإن أخطأته اثنتان كانت فيه وصمتان حتى يكون: عالمًا بما كان قبله، مستشيرًا لذى الرأي، ذا نزاهة عن الطمع، حليماً عن الخصم، محتملاً لللائمة. ^(٤)
- ٤- قال ذو النون: ثلاثة من أعلام الخير في العالم التقى: قمع الطمع عن القلب في الخلق، و تقريب الفقير، و الرفق به في التعليم والجواب، و التباعد من السلطان. ^(٥)
- ٥- عن جيلان أبي الجلد قال: لا يذهب الليل والنهار حتى يَخْلَقَ هذا القرآن في قلوب الرجال كمثل الثوب البالي الذي يتهافت لا يجدون حلاوة له ولا لذادة، إن ترك أحدهم بعض ما أمر به قال: إن الله غفور رحيم، وإن ركب بعض ما نهى عنه قال: إنه سيغفر لي إني لا أشرك. كل أمرهم إلى الطمع ليس معهم من الخوف شيء خيرهم في أنفسهم المداهن. ^(٦)

(١) شرح النووي لصحيح مسلم (١٢٦/٧).

(٢) الزهد لأحمد (٢٢٦/١).

(٣) فيض القدير (١٣٢/٣).

(٤) السنن للبيهقي (١١٧/١٠).

(٥) شعب الإيمان (٣١٦/٢).

(٦) الكنى والأسماء الدولاى (٤٣٣/١).

- ٦- قال ابن الأعرابي: كان يقال: لا يوجد العجل محمودًا، ولا الغضوب مسرورًا، ولا الملول ذا إخوان، ولا الحرّ حريصًا، ولا الشرّ غنيًا. ^(١)
- ٧- قال الراغب الأصفهاني: الطّمع طبع، وهو يدّس الإهاب، وذلك لأنّ أكثر الطّمع من أجل الهوى. ^(٢)
- ٨- قال ابن القيم - رحمه الله تعالى -: في الطّمع شره، والحمية أوفق. ^(٣)

^(١) مجمع الأمثال للميداني النيسابوري (٢ / ٢٤٣).

^(٢) المفردات (٣٠٧).

^(٣) الفوائد (٦٨).

١٢- الغلول

الغلول لغة:

مصدر قولهم: غُلَّ يغُلُّ إذا خان في الفيء أو الغنيمة أو غيرهما، وهو مأخوذ من مادّة (غ ل ل) التي تدلّ على تخلّل شيء وثباته.^(١)

وقال الرّاعب: والغلول وهو تدرّع الخيانة، والغُلّ: العداوة.^(٢)

الغلول اصطلاحاً:

قال الكفويّ: الغلول الخيانة في بيت مال أو زكاة أو غنيمة وقيدّه أبو عبيدة بالغنيمة فقط^(٣). وقال ابن حجر: الغلول (في الغنيمة) هو اختصاص أحد الغزاة، سواء الأمير أو غيره بشيء من مال الغنيمة قبل القسمة من غير أن يحضره إلى أمير الجيوش ليخمسّه، وإن قلّ المأخوذ.^(٤)

أنواع الغلول:

للغلول أنواع عديدة منها:

- ١- الغلول في الفيء أو الغنائم، وهذا هو المشهور الذي ينصرف إليه اللفظ عند الإطلاق.
- ٢- الغلول في الزكاة.
- ٣- ومن الغلول أيضاً ما ذكره القرطبيّ من هدايا العمّال (الموظّفين) قال: وحكمه في الفضيحة في الآخرة حكم الغالّ^(٥).
- ٤- ومن الغلول: حبس الكتب عن أصحابها، ويدخل غيرها في معناها، قال الزّهرّي: إياك وغلول الكتب، فقليل له: وما غلول الكتب؟ قال: حبسها عن أصحابها.^(٦)

(١) مقاييس اللغة (٤/ ٣٧٦).

(٢) المفردات للراغب ص ٣٦٣.

(٣) الكليات (٦٧١).

(٤) الزواجر لابن حجر (٢/ ٢٩٣ - ٢٩٤).

(٥) تفسير القرطبي (٤/ ١٦٨).

(٦) تفسير القرطبي (٤/ ١٦٨).

٥- الاختلاس من الأموال العامة.

٦- ومن الغلول أيضًا اغتصاب الأرض أو العقار أو ما أشبه ذلك، بل إن ذلك من أعظم الغلول.

حكم الغالّ في الدنيا:

قال القرطبي: إذا غلّ الرجل في المغنم ووجد ما غلّه أخذ منه وأدّب وعوقب بالتعزير، واختلف الفقهاء في حرق متاعه فذهب مالك والشافعي وأبو حنيفة والليث إلى أن متاعه لا يحرق. وقال الأوزاعي: يحرق متاع الغالّ كلّهُ إلاّ سلاحه وثيابه التي عليه وسرجه ولا يحرق الشيء الذي غلّه^(١)، وهذا قول أحمد وإسحاق، وقاله الحسن أيضًا.

ذم الغلول في القرآن :

١- قال تعالى: {وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غُلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} (آل عمران: ١٦١)

{وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغْلَّ} أي ما كان من شأن أيّ نبي ولا من سيرته أن يغلّ، لأن الله عصم أنبياءه منه، فهو لا يليق بمقامهم ولا يقع منهم، لأن النبوة أعلى المناصب الإنسانية، فصاحبها لا يرغب فيما فيه دناءة وخسة.

{وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غُلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} أي: وكل من يقع منه غلول يأتي بما غل به يوم القيامة حاملاً له، ليفتضح أمره ويزيد به في عذابه. (٢)

الغلول في السنة :

١- عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّهُ أَخْبَرَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتَعْمَلَ عَامِلًا، فَجَاءَهُ الْعَامِلُ حِينَ فَرَّغَ مِنْ عَمَلِهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أَهْلِي لِي. فَقَالَ لَهُ: أَفَلَا قَعَدْتَ فِي بَيْتِ أَبِيكَ وَأُمِّكَ، فَنَظَرْتَ أَهْدَى لَكَ أَمْ لَا؟ ثُمَّ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشِيَّةَ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَتَشَهَّدَ وَأَثْنَى عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: " أَمَّا بَعْدُ، فَمَا بَالُ

(١) انظر: القرطبي (٤/ ١٦٧).

(٢) تفسير المراغي (٤/ ١١٩).

الْعَامِلِ نَسْتَعْمِلُهُ، فَيَأْتِينَا فَيَقُولُ: هَذَا مِنْ عَمَلِكُمْ، وَهَذَا أُهْدِيَ لِي، أَفَلَا قَعَدَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ فَظَنَرُ: هَلْ يَهْدَى لَهُ أَمْ لَا، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَغْلُ أَحَدُكُمْ مِنْهَا شَيْئًا إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى عُنُقِهِ، إِنْ كَانَ بَعِيرًا جَاءَ بِهِ لَهُ رُغَاءٌ، وَإِنْ كَانَتْ بَقَرَةً جَاءَ بِهَا لَهَا خُورٌ، وَإِنْ كَانَتْ شَاةً جَاءَ بِهَا تَيْعُرٌ، فَقَدْ بَلَغْتُ. (١)

وفي هذا الحديث بيان أن هدايا العمال حرام وغلول لأنه خان في ولايته وأمانته، ولهذا ذكر في الحديث في عقوبته وحمله ما أهدى إليه يوم القيامة كما ذكر مثله في الغال، وقد بين صلى الله عليه وسلم في نفس الحديث السبب في تحريم الهدية عليه وأنها بسبب الولاية بخلاف الهدية لغير العامل فإنها مستحبة. (٢)

٢- عَنْ عَدِيِّ بْنِ عَمِيرَةَ الْكِنْدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: مَنْ اسْتَعْمَلَنَاهُ مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ، فَكَتَمْنَا خِيَطًا، فَمَا فَوْقَهُ كَانَ غُلُولًا يَأْتِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. (٣)
(على عمل فكتمنا) أي أخفى علينا (خيطًا) بكسر الميم وسكون الخاء أي إبرة (فما فوقه) أي فشيئًا يكون فوقه في الصغر أو الكبر.

(كان) أي ذلك الكتان (غلولا) بضم المعجمة أي خيانة في الغنيمة (يأتي به) أي بما غل (يوم القيامة) تفضيحا له (٤)

٣- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ، فَذَكَرَ الْغُلُولَ، فَعَظَّمَهُ وَعَظَّمَ أَمْرَهُ، ثُمَّ قَالَ: " لَا أُلْفِينَ أَحَدُكُمْ يَحْيِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِينَ أَحَدُكُمْ يَحْيِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمَحَمَةٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِينَ أَحَدُكُمْ يَحْيِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ شَاةٌ لَهَا نَعَاءٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ

(١) أخرجه البخاري (٦٦٣٦)، ومسلم (١٨٣٢).

(٢) شرح النووي لصحيح مسلم (٢١٩/١٢).

(٣) أخرجه مسلم (١٨٣٣).

(٤) مرقاة المفاتيح (٤/١٢٧١).

الله، أَغْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أَلْفَيْنَ أَحَدَكُمْ يَحْيَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ نَفْسٌ هَذَا صِيَاخٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أَلْفَيْنَ أَحَدَكُمْ يَحْيَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفُقُ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أَلْفَيْنَ أَحَدَكُمْ يَحْيَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ. ^(١)

في هذا بيان أن هدايا العمال سحت وأنه ليس سبيلها سبيل سائر الهدايا المباحة وإنما يهdy إليه المحابة وليخفف عن المهدي ويسوغ له بعض الواجب عليه وهو خيانة منه وبخس للحق الواجب عليه استيفاؤه لأهله.

وفي قوله: ألا جلس في بيت أمه أو أبيه فينظر أيهدى إليه أم لا دليل على أن كل أمر يتذرع به إلى محذور فهو محذور ويدخل في ذلك القرض يجر المنفعة، والدار المرهونه يسكنها المرتهن بلا كراء، والدابة المرهونه يركبها ويرتفق بها من غير عوض. ^(٢)

٤- عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: غَزَا نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، فَقَالَ لِقَوْمِهِ: لَا يَتَّبِعُنِي رَجُلٌ قَدْ مَلَكَ بُضْعَ امْرَأَةٍ، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَنْبِيَ بِهَا، وَلَكَمَا يَنْبِي، وَلَا آخَرُ قَدْ بَنَى بُنْيَانًا، وَلَكَمَا يَرْفَعُ سُقْفَهَا، وَلَا آخَرُ قَدْ اشْتَرَى غَنَمًا - أَوْ خِلْفَاتٍ - وَهُوَ مُتَظَرٌّ وَلَا دَهَا، "، قَالَ: " غَزَا فَأَدْنَى لِلْقَرْيَةِ حِينَ صَلَاةِ الْعَصْرِ، أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ لِلشَّمْسِ: أَنْتِ مَأْمُورَةٌ، وَأَنَا مَأْمُورٌ، اللَّهُمَّ، احْسِنْهَا عَلَيَّ شَيْئًا، فَحُبِسَتْ عَلَيْهِ حَتَّى فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ "، قَالَ: " فَجَمَعُوا مَا غَنِمُوا، فَأَقْبَلَتِ النَّارُ لِتَأْكُلَهُ، فَأَبَتْ أَنْ تَطْعَمَهُ، فَقَالَ: فِيكُمْ غُلُولٌ، فَلْيُبَايِعْنِي مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ رَجُلٌ، فَبَايَعُوهُ، فَلَصِقَتْ يَدُ رَجُلٍ بِيَدِهِ، فَقَالَ: فِيكُمْ الْغُلُولُ، فَلْتُبَايِعْنِي قَبِيلَتَكَ، فَبَايَعْتَهُ "، قَالَ: " فَلَصِقَتْ بِيَدِ رَجُلَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ، فَقَالَ: فِيكُمْ الْغُلُولُ، أَنْتُمْ غَلَلْتُمْ "، قَالَ: " فَأَخْرَجُوا لَهُ مِثْلَ رَأْسِ

(١) أخرجه البخاري (١٤٠٢)، ومسلم (١٨٣١).

(٢) معالم السنن (٨/٣).

بَقْرَةً مِنْ ذَهَبٍ، قَالَ: فَوَضَعُوهُ فِي الْمَالِ وَهُوَ بِالصَّعِيدِ، فَأَقْبَلَتِ النَّارُ فَأَكَلَتْهُ، فَلَمْ تَحِلَّ الْغَنَائِمُ لِأَحَدٍ مِنْ قَبْلِنَا، ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَأَى ضَعْفَنَا وَعَجْزَنَا، فَطَيَّبَهَا لَنَا. (١)

قوله: (فيكم غلول) هذه كانت عادة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم في الغنائم أن يجمعوها فتجيء نار من السماء فتأكلها فيكون ذلك علامة لقبولها وعدم الغلول، فلما جاءت في هذه المرة فأبت أن تأكلها علم أن فيهم غلواً فلما ردوه جاءت فأكلتها، وكذلك كان أمر قربانهم إذا تقبل جاءت نار من السماء فأكلته. (٢)

٥- عن أبي هريرة - رضي الله عنه - إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: وَلَا يَغُلُّ أَحَدُكُمْ حِينَ يَغُلُّ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، فَإِيَّاكُمْ إِيَّاكُمْ. (٣)

قوله (فإياكم إياكم) فهكذا هو في الروايات إياكم إياكم مرتين ومعناه احذروا احذروا يقال: إياك وفلان أي احذره ويقال إياك أي احذر من غير ذكر فلان كما وقع هنا. (٤)

٦- عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - قال: لَمَّا كَانَ يَوْمُ حَيْبَرٍ، أَقْبَلَ نَفَرٌ مِنْ صَحَابَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: فُلَانٌ شَهِيدٌ، فُلَانٌ شَهِيدٌ، حَتَّى مَرُّوا عَلَى رَجُلٍ، فَقَالُوا: فُلَانٌ شَهِيدٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كَلَّا، إِنِّي رَأَيْتُهُ فِي النَّارِ فِي بُرْدَةٍ غَلَّهَا - أَوْ عَبَاءَةٍ - ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، اذْهَبْ فَنَادِ فِي النَّاسِ، أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ، قَالَ: فَخَرَجْتُ فَنَادَيْتُ: أَلَا إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ. (٥)

قال الطيبي: فإن قلت: الكلام في الشهادة لا في الإيمان فما معنى هذا القول؟

قلت: هو تغليظ وارد على سبيل المبالغة يعني جزمتم أنه من الشهداء، وأنه من أهل الجنة، وقد رأيته في النار فدعوا هذا الكلام؛ لأن الكلام في إيمانه زجراً وردعاً عن الغلول. (٦)

(١) أخرجه البخاري (٧٤٧٧)، ومسلم (١٧٤٧).

(٢) شرح النووي لصحيح مسلم (٥٣/١٢).

(٣) أخرجه مسلم (٥٧).

(٤) شرح النووي لصحيح مسلم (٤٥/٢).

(٥) أخرجه مسلم (١١٤).

(٦) مرقاة المفاتيح (٦/٢٦٠٤).

- ٧- عن ثوبان- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مَنْ مَاتَ وَهُوَ بَرِيءٌ مِنْ ثَلَاثٍ: الْكِبْرِ، وَالْغُلُولِ، وَالذَّيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ. ^(١)
- ٨- عَنْ مُضْعَبِ بْنِ سَعْدٍ، قَالَ: دَخَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ عَلَى ابْنِ عَامِرٍ يَعُوذُهُ وَهُوَ مَرِيضٌ فَقَالَ: أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لِي يَا ابْنَ عُمَرَ؟ قَالَ: إِيَّيْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: لَا تُقْبَلُ أقوال السلف حول الغلول:

- ١- عن عبد الله بن عمرو- رضي الله عنهما- قال: لو كنت مستحلاً من الغلول القليل لاستحللت منه الكثير، ما من أحد يغلل غلولاً إلا كلف أن يأتي به من أسفل درك جهنم. ^(٢)
- ٢- عن عمرو بن سالم قال: كان أصحابنا يقولون: عقوبة صاحب الغلول أن يحرق فسطاطه ومتاعه ^(٣)

- ٣- قال الضحاك: السبب في نزول الآية الكريمة السابقة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث طلائع في بعض غزواته، ثم غنم قبل مجيئهم، فقسم للناس ولم يقسم للطلائع، فأنزل الله عليه عتاباً وما كان لِنَبِيِّ أَنْ يَغْلَّ أَيُّ يَاقَوْمٍ لِبَعْضٍ وَيَتْرَكَ بَعْضًا. ^(٤)

١٣- الكبر

الكبر لغة:

- اسم كالكبرياء بمعنى العظمة، وهو مأخوذ من مادة (ك ب ر) التي تدل على خلاف الصغر. قال ابن فارس: ومن الباب الكبر وهو الهرم، والكبر: العظمة، وكذلك الكبرياء. والتكبر والاستكبار: التعظم،

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٨/٨٦)، والترمذي (١٥٧٢)، وقال: وحديث سعيد أصح، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٧٨٥).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٨٠٥/٣).

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (٥٢٦/٦).

(٤) تفسير القرطبي (٤/١٦٤).

قال: ومعنى يتكبرون: أي أنهم يرون أنهم أفضل الخلق، وأنّ لهم من الحقّ ما ليس لغيرهم. وهذه الصّفة لا تكون إلّا لله خاصّة، لأنّ الله سبحانه وتعالى هو الذي له القدرة والفضل الذي ليس لأحد مثله. (١)

و الكبر اصطلاحاً:

الكبر: هو بطر الحقّ وغمط النَّاس.

وقال الغزالي: هو استعظام النَّفس، ورؤية قدرها فوق قدر الغير.

وقال أيضاً: الكبر حالة يتخصّص بها الإنسان من إعجابه بنفسه وأن يرى نفسه أكبر من غيره. (٢)

وقال التّهانويّ في بيان الكبر: جهل الإنسان بنفسه وإنزالها فوق منزلتها. أمّا المكابرة، فهي المنازعة لا لإظهار الصّواب ولا لإلزام الخصم. (٣)

وقال الكفويّ: التّكبر: هو أن يرى المرء نفسه أكبر من غيره، والاستكبار طلب ذلك التّشبع وهو التّزيّن بأكثر ممّا عنده. (٤)

التكبر صفة لا تكون إلّا لله:

قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى المتكبر والكبير، أي العظيم ذو الكبرياء، وقيل: المتعالي عن صفات الخلق، وقيل: المتكبر على عتاة خلقه.

وقال الغزاليّ: المتكبر: هو الذي يرى الكلّ حقيراً بالإضافة إلى ذاته، ولا يرى العظمة والكبرياء إلّا لنفسه، فينظر إلى غيره نظر الملوك إلى العبيد، فإن كانت هذه الرّؤية صادقة كان التّكبر حقّاً، وكان صاحبها متكبراً حقّاً، ولا يتصوّر ذلك على الإطلاق إلّا لله تعالى. (٥)

(١) مقاييس اللغة (٥ / ١٥٤)، والصّحاح (٢ / ٨٠١)، ولسان العرب لابن منظور (٥ / ١٢٩، ١٣٠).

(٢) إحياء علوم الدين (٣ / ٣٤٥).

(٣) كشاف اصطلاحات الفنون (٣ / ١٢٤٧).

(٤) الكليات للكفوي (٢٨).

(٥) المقصد الأسنى ص ٧٥.

وإن كان ذلك التَّكَبُّر والاستعظام باطلاً، ولم يكن ما يراه من التَّفَرُّد بالعظمة كما يراه، كان التَّكَبُّر باطلاً ومذموماً، وكلٌّ من رأى العظمة والكبرياء لنفسه على الخصوص دون غيره، كانت رؤيته كاذبة، ونظره باطلاً. (١)

الكبر مفتاح الشقاء:

قال الغزاليّ- رحمه الله- مفتاح السَّعادة التَّيَقُّظ والفطنة، ومنبع الشَّقاوة الكبر والغفلة، فلا نعمة لله على عباده أعظم من الإيمان والمعرفة، ولا وسيلة إليه سوى انشراح الصِّدر بنور البصيرة، ولا نقمة أعظم من الكفر والمعصية ولا داعي إليهما سوى عمى القلب بظلمة الجهالة، فالأكياس هم الذين أراد الله أن يهديهم فشرح صدورهم للإسلام والهدى، والمتكبرون هم الذين أراد الله أن يضلِّهم فجعل صدرهم ضيقاً حرجاً كأنَّها يصعَّد في السَّماء. فالتَّكَبُّر هو الذي لم تفتح بصيرته ليكون بهداية نفسه كفيلاً، وبقي في العمى فاتَّخَذ الهوى قائداً والشَّيطان دليلاً.

فالكبر آفة عظيمة هائلة، وفيه يهلك الخواص من الخلق، وقلَّما ينفك عنه العباد والزَّهاد والعلماء فضلاً عن عوام الخلق، وكيف لا تعظم آفته وقد قال صلَّى الله عليه وسلَّم: لا يدخل الجنَّة من في قلبه مثقال ذرَّة من كبر وإنَّما صار حجاباً دون الجنَّة لأنَّه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلَّها، وتلك الأخلاق هي أبواب الجنَّة، والكبر يغلق تلك الأبواب كلَّها، لأنَّه لا يقدر على أن يحبَّ للمؤمنين ما يحبُّ لنفسه وفيه شيء من الكبر. فما من خلق ذميم إلَّا وصاحب الكبر مضطَّر إليه ليحفظ كبره، وما من خلق محمود إلَّا وهو عاجز عنه خوفاً من أن يفوته عزَّه. فمن هذا لم يدخل الجنَّة من في قلبه مثقال حبة منه. والأخلاق الذميمة متلازمة، والبعض منها داع إلى البعض لا محالة. وشرُّ أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم وقبول الحقِّ والانقياد له. (٢)

أسباب الكبر ثلاثة:

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٣/ ٣٤٥).

(٢) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٤٥).

سبب في المتكبر، وسبب في المتكبر عليه، وسبب فيما يتعلّق بغيرهما
 أمّا السبب الذي في المتكبر: فهو العجب، والذي يتعلّق بالمتكبر عليه هو الحقد، والحسد،
 والذي يتعلّق بغيرهما هو الرياء، فتصير الأسباب بهذا الاعتبار أربعة.
 العجب، والحقد، والحسد، والرياء:

أمّا العجب: فإنّه يورث الكبر الباطن، والكبر يثمر التكبر الظاهر في الأعمال والأقوال والأحوال.

وأمّا الحقد: فإنّه يحمل على التكبر من غير عجب، كالذي يتكبر على من يرى أنّه مثله أو فوقه،
 ولكن قد غضب عليه بسبب سبق منه فأورثه الغضب حقدا ورسخ في قلبه بغضه، فهو لذلك
 لا تطاوعه نفسه أن يتواضع له وإن كان عنده مستحقا للتواضع.

وأمّا الحسد: فإنّه أيضا يوجب البغض للمحسود وإن لم يكن من جهته إيذاء وسبب يقتضي
 الغضب والحقد، ويدعو الحسد أيضا إلى جحد الحقّ حتّى يمنع من قبول النصيحة وتعلّم
 العلم، فكم من جاهل يشاق إلى العلم وقد بقي في رذيلة الجهل لاستنكافه أن يستفيد من
 واحد من أهل بلده أو أقاربه حسداً وبغياً عليه. فهو يعرض عنه ويتكبر عليه مع معرفته بأنّه
 يستحقّ التواضع بفضل علمه، ولكنّ الحسد يبعثه على أن يعامله بأخلاق المتكبرين، وإن كان
 في باطنه ليس يرى نفسه فوقه.

وأمّا الرياء: فهو أيضا يدعو إلى أخلاق المتكبرين، حتّى إنّ الرّجل لينظر من يعلم أنّه أفضل
 منه وليس بينه وبينه معرفة ولا محاسدة ولا حقد، ولكن يمتنع من قبول الحقّ منه ولا يتواضع
 له في الاستفادة خيفة من أن يقول الناس إنّّه أفضل منه فيكون باعته على التكبر عليه الرياء
 المجرد، ولو خلا معه بنفسه لكان لا يتكبر عليه^(١).

الأدلة من القرآن حول الكبر.

١- قال تعالى: { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ
 الْكَافِرِينَ } (البقرة: ٣٤).

(١) الإحياء (٣/ ٣٥٣، ٣٥٤).

"واستكبر"، يعني بذلك أنه تعظم وتكبر عن طاعة الله في السجود لآدم.

وهذا وإن كان من الله جل ثناؤه خبراً عن إبليس، فإنه تقريعٌ لضربائه من خلق الله الذين يتكبرون عن الخضوع لأمر الله، والانقياد لطاعته فيما أمرهم به وفيما نهاهم عنه، والتسليم له فيما أوجب لبعضهم على بعض من الحق.

وكان ممن تكبر عن الخضوع لأمر الله، والتذلل لطاعته، والتسليم لقضائه فيما ألزمهم من حقوق غيرهم مع علمهم بذلك -اليهود- عن الإقرار بنبوته، والإذعان لطاعته، بغياً منهم له وحسداً. فقرّعهم الله بخبره عن إبليس. (١)

٢- وقال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ} (البقرة: ٨٧)

ينعت تبارك وتعالى بني إسرائيل بالعتو والعناد والمخالفة، والاستكبار على الأنبياء، وأنهم إنما يتبعون أهواءهم، فذكر تعالى أنه أتى موسى الكتاب -وهو التوراة- فحرفوها وبدلوها، وخالفوا أوامرها وأولوها. وأرسل الرسل والنبیین من بعده الذين يحكمون بشريعته، كما قال تعالى: {إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبیین الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء} الآية [المائدة: ٤٤]، ولهذا قال: {وقفينا من بعده بالرسول}. (٢)

٣- وقال تعالى: {قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِمَنْ أَمَنَ مِنْهُمْ اتَّعْلَمُونَ أَنَّنَا صَالِحًا مُرْسِلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَتُّمْ بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ اتِّبْنَا بِمَا نَعِدُّنَا إِنَّ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ} (الأعراف: ٧٧)

(١) تفسير الطبري (٥١٠/١).

(٢) تفسير ابن كثير (٣٢١/١).

٤- وقال تعالى: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ} (الأعراف ١٤٦)

يعني: أصرف قلوب الذين يتكبرون عن الإيمان حتى لا يؤمنوا. فأخذهم بكفرهم ولا أوقفهم بتكذيبهم الأنبياء مجازاة لهم. ويقال: أمنع قلوبهم من التفكير في أمر الدين وفي خلق السموات والأرض.

الذين يتكبرون في الأرض بِغَيْرِ الْحَقِّ يعني: يتعظمون عن الإيمان لكي لا يتفكروا في السماء، ولا يعقلون فيها، ولا يذكرونها.

ويقال: سأصرف عن النعماء التي أعطيتها المؤمنين يوم القيامة أصرف عنهم تلك النعمة. (١)

٥- وقال تعالى: {إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ} (النحل: ٢٢)

معبودكم الذي يستحق عليكم العبادة، وإفراد الطاعة له دون سائر الأشياء: معبود واحد، لأنه لا تصلح العبادة إلا له، فأفردوا له الطاعة وأخلصوا له العبادة، ولا تجعلوا معه شريكاً سواه (فالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ) يقول تعالى ذكره: فالذين لا يصدقون بوعده الله ووعيده، ولا يقرّون بالمعاد إليه بعد الممات قلوبهم منكراً، يقول تعالى ذكره: مستنكرة لما نقص عليهم من قدرة الله وعظمته، وجميل نعمه عليهم، وأن العبادة لا تصلح إلا له، والألوهية ليست لشيء غيره يقول: وهم مستكبرون عن إفراد الله بالألوهة، والإقرار له بالوحدانية، اتباعاً منهم لما مضى عليه من الشرك بالله أسلافهم. (٢)

الأدلة من السنة حول الكبر:

١- عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اخْتَجَّتِ النَّارُ، وَالْجَنَّةُ، فَقَالَتْ: هَذِهِ يَدْخُلُنِي الْجَبَّارُونَ، وَالْمُسْتَكْبِرُونَ، وَقَالَتْ: هَذِهِ يَدْخُلُنِي الضُّعَفَاءُ،

(١) تفسير السمرقندي (١/٥١١).

(٢) تفسير الطبري (١٧/١٨٩).

وَالْمُسَاكِينُ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُدِهِ: أَنْتَ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ - وَرَبِّمَا قَالَ: أُصِيبُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ - وَقَالَ لَهُدِهِ: أَنْتَ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مَلُؤُهَا. ^(١)

المراد بتحتاج الجنة والنار تخاصمهما في الأفضل منهما وإقامة كل منهما الحجة على أفضليتها، فاحتجت النار بقهرها للمتكبرين والمتجبرين، واحتجت الجنة بكونها مأوى الضعفاء في الدنيا عوضهم الله تعالى عن ضعفهم الجنة فقطع سبحانه وتعالى التخاصم بينهما، وبين أن الجنة رحمته أي نعمته على الخلق إن جعلت الرحمة صفة فعل أو أثر إرادة الخير بمن يشاء إن جعلتها صفة ذات، وأن النار عذابه الناشئ عن غضبه وإرادة انتقامه جل وعلا.

وفيه ذم التكبر والتبخر، وأن فاعل ذلك من أهل النار فإن وصل الكبر بالإنسان إلى الكفر لتكبره عن الإيمان بالله ورسوله فهو مخلد في النار، وإن لم يصل إلى ذلك فلا بد له من الخلوص منها، ولا يقطع له بدخولها أيضا بل هو تحت المشيئة فقد يعفى عنه ولا يدخلها. ^(٢)

٢- عَنْ حَارِثَةَ بَنِي وَهَبٍ الْخُزَاعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَاعِفٍ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ. أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عَتَلٍ جَوَاطٍ مُسْتَكْبِرٍ. ^(٣)

متضعف معناه يستضعفه الناس ويحتقرونه ويتجبرون عليه لضعف حاله في الدنيا. قال القاضي: وقد يكون الضعف هنا رقة القلوب ولينها وإخباتها للإيمان والمراد أن أغلب أهل الجنة هؤلاء كما أن معظم أهل النار القسم الآخر.

(لو أقسم على الله لأبره) معناه لو حلف يمينًا طمعًا في كرم الله تعالى بإبراره لأبره وقيل: لو دعاه لأجابه.

قوله صلى الله عليه وسلم في أهل النار (كل عتل جواظ مستكبر) فهو الجافي الشديد الخصومة بالباطل. وقيل الجافي الفظ الغليظ، وأما الجواظ فهو الجموع المتنوع، وقيل كثير

^(١) أخرجه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦) واللفظ له.

^(٢) طرح الشريب (١٧٨/٨).

^(٣) أخرجه البخاري (٤٩١٨)، ومسلم (٢٨٥٣).

اللحم المختال في مشيته وقيل القصير البطين، وأما المتكبر والمستكبر فهو صاحب الكبر وهو بطر الحق وغمط الناس.^(١)

٣- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٌ: شَيْخٌ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ".^(٢)

تحصيله صلى الله عليه وسلم الشيخ الزاني والملك الكذاب والعائل المستكبر بالوعيد المذكور

فقال القاضي عياض سببه أن كل واحد منهم التزم المعصية المذكورة مع بعدها منه وعدم ضرورته إليها وضعف دواعيها عنده وإن كان لا يعذر أحد بذنب لكن لما لم يكن إلى هذه المعاصي ضرورة مزعجة ولا دواعي معتادة أشبه إقدامهم عليها المعاندة والاستخفاف بحق الله تعالى وقصد معصيته لا حاجة غيرها. . . .

وكذلك العائل الفقير قد عدم المال وإنما سبب الفخر والخيلاء والتكبر والارتفاع على القرناء الثروة في الدنيا لكونه ظاهراً فيها وحاجات أهلها إليه فإذا لم يكن عنده أسبابها فلماذا يستكبر ويحتقر غيره فلم يبق فعله وفعل الشيخ الزاني والإمام الكاذب إلا لضرب من الاستخفاف بحق الله تعالى والله أعلم.^(٣)

٤- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ - رضي الله عنه -، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ، قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمَطُ النَّاسِ.^(٤)

^(١) شرح النووي لصحيح مسلم (١٨٧/١٧).

^(٢) أخرجه مسلم (١٠٧).

^(٣) شرح النووي لصحيح مسلم (١١٧/٢).

^(٤) صحيح مسلم (٩١).

غمط الناس: هو بالطاء المهملة وذكره أبو عيسى الترمذي وغيره غمص بالصاد وهما بمعنى واحد ومعناه احتقارهم.

أما بطر الحق: فهو دفعه وإنكاره ترفعا وتجبرا، وقوله صلى الله عليه وسلم من كبرياء: هي غير مصروفة. (١)

٦- عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِي حُلَّةٍ، تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ، مُرَجِّلٌ جَمَّتُهُ، إِذْ خَسَفَ اللَّهُ بِهِ، فَهُوَ يَتَجَلَجَلُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ (٢)
قال القرطبي: إعجاب المرء بنفسه هو ملاحظته لها بعين الكمال مع نسيان نعمة الله فإن احتقر غيره مع ذلك فهو الكبر المذموم.

والتجلجل: بجيمين التحرك وقيل الجلجلة الحركة مع صوت وقال ابن دريد: كل شيء خلطت بعضه ببعض فقد جلجلته وقال ابن فارس: التجلجل أن يسوخ في الأرض مع اضطراب شديد ويندفع من شق إلى شق فالمعنى يتجلجل في الأرض أي ينزل فيها مضطربا متدافعا. (٣)

٧- عن عبد الله بن عمرو- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كُلُّوْا، وَتَصَدَّقُوا، وَالْبُسُوْا فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ، وَلَا مَخِيْلَةٍ. (٤)
الإسراف: مجاوزة الحد في كل فعل أو قول وهو في الإنفاق أشهر.
والمخيلة: بوزن عظيمة وهي بمعنى الخيلاء وهو التكبر.

قال الراغب: الخيلاء التكبر ينشأ عن فضيلة يترأها الإنسان من نفسه، والتخيل تصوير خيال الشيء في النفس ووجه الحصر في الإسراف والمخيلة أن الممنوع من تناوله أكلاً ولبساً

(١) شرح النووي لصحيح مسلم (٢/٩٠).

(٢) صحيح البخاري (٥٧٨٩)، ومسلم (٢٠٨٨).

(٣) فتح الباري (١٠/٢٦١).

(٤) حسن: أخرجه البخاري معلقا (٧/١٤٠)، ووصله النسائي (٢٥٥٩)، وأحمد (٢/١٨١)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٥٠٥).

وغيرهما إما لمعنى فيه وهو مجاوزة الحد وهو الإسراف وإما للتعبد كالحرير إن لم تثبت علة النهي عنه وهو الراجح.

ومجاوزة الحد تتناول مخالفة ما ورد به الشرع فيدخل الحرام وقد يستلزم الإسراف الكبر وهو المخيلة. ^(١)

أقوال السلف حول الكبر:

١- قال عمر بن الخطّاب- رضي الله عنه-: إنّ الرّجل إذا تواضع رفع الله حكمته وقال: انتعش نعشك الله فهو في نفسه صغير وفي أعين النّاس كبير وإذا تكبّر وعدا طوره، رهصه الله في الأرض وقال: اخسأ خسأك الله. فهو في نفسه كبير وفي أعين النّاس حقير حتّى إنّّه لأحقّر عندهم من الخنزير. ^(٢)

٢- عن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: من تواضع لله تخشعاً رفعه الله يوم القيامة. ومن تطاول تعظّم وضعه الله يوم القيامة. ^(٣)

٣- قال النّعمان بن بشير- رضي الله عنهما- على المنبر: إنّ للشّيطان مصالي وفخوخاً، وفخوخه البطر بأنعم الله، والفخر بإعطاء الله والكبر على عباد الله، وآتباع الهوى في غير ذات الله. ^(٤)

٤- عن عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما- أنّه رأى رجلاً يَحْتَال في مشيته ويجرّ إزاره فقال: إنّ للشّيطان إخواناً. ^(٥)

٥- قال أحد العلماء: التّواضع في الخلق كلّهم حسن وفي الأغنياء أحسن. والتّكبر في الخلق كلّهم قبيح وفي الفقراء أقبح. ^(٦)

^(١) فتح الباري (١٠/٢٥٣).

^(٢) الإحياء للغزالي (٣/٣٦١)، وشرح السنة للبغوي (١٣/١٧١).

^(٣) وكيع في الزهد (٢/٤٦٧).

^(٤) إحياء علوم الدين (٣/٣٥٨).

^(٥) المصدر السابق (٣/٣٥٩).

^(٦) إحياء علوم الدين (٣/٣٦٢).

- ٦- قال الأحنف بن قيس: عجباً لابن آدم يتكبر وقد خرج من مجرى البول مرّتين. (١)
- ٧- قال محمد بن الحسين بن عليّ: ما دخل قلب امرئ شيء من الكبر قطّ إلا نقص من عقله بقدر ما دخل من ذلك، قلّ أو كثر. (٢)
- ٨- مرّ بالحسن البصريّ شابّ عليه بزة له حسنة فدعاه فقال له: ابن آدم معجب بشبابه محبّ لشأئله. كأنّ القبر قد وارى بدنك وكأنّك قد لاقيت عملك. ويحك، داو قلبك فإنّ مراد الله من العباد صلاح قلوبهم. (٣)
- ٩- قال الحسن - رحمه الله -: السجود يذهب بالكبر، والتّوحيد يذهب بالرّياء. (٤)
- ١٠ - عن مطرّف بن عبد الله بن الشّخير رضي الله عنه - أنّه رأى المهلب - وهو يتبختر في جبة خزّ فقال: يا عبد الله، هذه مشية ييغضها الله ورسوله فقال له المهلب: أما تعرفني؟ فقال بلي. أعرفك، أولئك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قدرة، وأنت بين ذلك تحمل العذرة. فمضى المهلب وترك مشيته تلك. (٥)
- ١١ - رأى محمد بن واسع ولده يختال فدعاه وقال: أتدري من أنت؟ أمّا أمّك فاشتريتها بهائتي درهم، وأمّا أبوك فلا أكثر الله في المسلمين مثله. (٦)
- ١٢ - قال أبو عليّ الجوزجانيّ: النّفس معجونة بالكبر والحرص والحسد. فمن أراد الله تعالى هلاكه منع منه التّواضع والنّصيحة والقناعة. وإذا أراد الله تعالى به خيراً لطف به في ذلك، فإذا هاجت في نفسه نار الكبر أدركها التّواضع من نصرة الله تعالى. وإذا هاجت نار الحسد في نفسه أدركتها النّصيحة مع توفيق الله - عزّ وجلّ - وإذا هاجت في نفسه نار الحرص أدركتها القناعة مع عون الله عزّ وجلّ (١)

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٣/ ٣٥٨).

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي (٣/ ٣٥٩).

(٣) إحياء علوم الدين للغزالي (٣/ ٣٥٩).

(٤) التواضع لابن أبي الدنيا (٢٠).

(٥) إحياء علوم الدين للغزالي (٣/ ٣٥٩).

(٦) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٥٩).

١٤- الكسل

الكسل لغة:

الكسل مأخوذ من مادة ك س ل التي تدلّ على التثاقل عن الشّيء، والقعود عن إتمامه^(٢).

يقول الجوهري: الكسل: التثاقل عن الأمر، وقد كسل بالكسر فهو كسلان^(٣)

وأيضاً هو: التثاقل عمّا لا ينبغي أن يتثاقل عنه، والفعل كسل يكسل كسلاً^(٤).

الكسل اصطلاحاً:

وقال الرّاعب: الكسل: التثاقل عمّا لا ينبغي التثاقل عنه^(٥).

أقسام الكسل:

الكسل قسماً:

الأوّل: كسل العقل بعدم إعماله في التّفكّر والتّدبّر والنّظر في آلاء الله من ناحية وفي تركه النّظر إلى ما يصلح شأن الإنسان، ومن حوله في الدّنيا التي فيها معاشه. وليس تأخّر الأمم ناتجاً إلّا عن كسل أصحاب العقول فيها وقلة اكتراثهم بالقوّة الإبداعية المفكّرة التي أودعها الله فيهم.

الثّاني: كسل البدن بما يشتمل عليه من الجوارح، وينجم عن هذا الكسل تأخّر الأفراد، بله الأمم في مجالات النّشاط المختلفة من زراعة وصناعة وغيرهما^(٦).

الكسل في القرآن:

(١) إحياء علوم الدين (٣ / ٣٦٢).

(٢) المقاييس (٥ / ١٧٨).

(٣) الصحاح (٥ / ١٨١٠).

(٤) تهذيب اللغة (١٠ / ٦٠، ٦١).

(٥) المفردات (٤٣١).

(٦) راجع كلام الراغب في الذريعة تحت عنوان مدح السعي وذم الكسل (٢٨٣).

١- قال تعالى: { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَآؤُنَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٤٢) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا } (النساء: ١٤٣)

قوله تعالى: وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى أي: متثاقلين. وكُسَالَى: جمع كسلان، والكسل: التثاقل عن الأمر.

وإنما كانوا هكذا، لأنهم يصلّون حذرًا على دمائهم، لا يرجون بفعلها ثوابًا، ولا يخافون بتركها عقابًا. قوله تعالى: يُرَآؤُنَ النَّاسَ أي: يصلّون ليراهم الناس. ^(١)

٢- وقال تعالى: { وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرُسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ (٥٤) فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ } (التوبة: ٥٥)

يقول: لا يأتونها إلا متثاقلين بها. لأنهم لا يرجون بأدائها ثوابًا، ولا يخافون بتركها عقابًا، وإنما يقيمونها خافةً على أنفسهم بتركها من المؤمنين، فإذا آمنوهم لم يقيموها.

(ولا ينفقون) يقول: ولا ينفقون من أموالهم شيئًا (إلا وهم كارهون)، أن ينفقونه في الوجه الذي ينفقونه فيه، مما فيه تقوية للإسلام وأهله. ^(٢)

٣- وقال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتِلُمُ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } (التوبة: ٣٩)

أي: أتأكلتم مائلين إلى الدنيا وشهواتها الفانية عما قليل وكرهتم مشاق الجهاد ومتاعه المستتبع للراحة الخالدة والحياة الباقية أو إلى الإقامة بأرضكم ودياركم، والأول أبلغ في الإنكار والتوبيخ ورجح الثاني بأنه أبعد عن توهم شائبة التكرار في الآية ^(١).

^(١) زاد المسير (١/٤٨٩).

^(٢) تفسير الطبري (١٤/٢٩٥).

٤- وقال تعالى: { فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ } (التوبة: ٨١)

يقول تعالى ذاما للمنافقين المتخلفين عن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، وفرحوا بمقعدهم بعد خروجه، {وكرهوا أن يجاهدوا} معه {بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا} أي: بعضهم لبعض: {لا تنفروا في الحر}؛ وذلك أن الخروج في غزوة تبوك كان في شدة الحر، عند طيب الظلال والثمار، فلهذا قالوا {لا تنفروا في الحر} قال الله تعالى لرسوله: {قل} لهم: {نار جهنم} التي تصيرون إليها بسبب مخالفتكم {أشد حرا} مما فرتم منه من الحر، بل أشد حرا من النار^(٢)

٥- وقال تعالى: {فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ} (الماعون ٥)

{عن صلاتهم ساهون} يعني المنافقين، الذين يصلون في العلانية ولا يصلون في السر. ولهذا قال: {للمصلين} أي: الذين هم من أهل الصلاة وقد التزموا بها، ثم هم عنها ساهون، إما عن فعلها بالكلية. وإما عن فعلها في الوقت المقدر لها شرعا، فيخرجها عن وقتها بالكلية. وإما عن وقتها الأول فيؤخرونها إلى آخره دائما أو غالبا. وإما عن أدائها بأركانها وشروطها على الوجه المأمور به. وإما عن الخشوع فيها والتدبر لمعانيها، فاللفظ يشمل هذا كله ولكل من اتصف بشيء من ذلك قسط من هذه الآية. ومن اتصف بجميع ذلك، فقد تم نصيبه منها، وكمل له النفاق العملي.^(٣)

الكسل في السنة:

١- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلَاثَ عُقَدٍ يَضْرِبُ كُلَّ عُقْدَةٍ عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ، فَارْقُدْ فَإِنْ

(١) روح المعاني (١٠ / ٩٥).

(٢) تفسير ابن كثير (٤ / ١٨٩).

(٣) تفسير ابن كثير (٨ / ٤٩٣).

اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللَّهَ، انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ وَإِلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلَانًا^(١)

ومقتضى قوله وإلا أصبح أنه إن لم يجمع الأمور الثلاثة دخل تحت من يصبح خبيثاً كسلان وإن أتى ببعضها، لكن يختلف ذلك بالقوة والخفة، فمن ذكر الله مثلاً كان في ذلك أخف ممن لم يذكر أصلاً. وهذا الذم مختص بمن لم يقيم إلى الصلاة وضيعها، أما من كانت له عادة فغلبته عينه، فقد ثبت أن الله يكتب له أجر صلاته ونومه عليه صدقة، ذكره ابن عبد البر.^(٢)

٢- عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ وَالْهَرَمِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ.^(٣)

أهل الفقه يقولون: العجز هو ما يستطيع أن يعمل إذا أراد؛ لأنهم يقولون: إن الحج ليس على الفور ولو كان على المهلة عند أهل الكلام لم يصح معناه؛ لأن الاستطاعة لا تكون إلا مع الفعل، والذين يقولون بالمهلة يجعلون الاستطاعة قبل الفعل، وأما الكسل فهم مجمعون على أنه ضعف النية وإثارة الراحة للبدن على التعب، وإنما استعيد منه؛ لأنه يبعد عن الأفعال الصالحة للدنيا والآخرة.^(٤)

٣- عن مالك بن نضلة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الْإِيْدِي ثَلَاثَةٌ، فَيَدُ اللَّهِ الْعُلْيَا، وَيَدُ الْمُعْطَى الَّتِي تَلِيهَا، وَيَدُ السَّائِلِ السُّفْلَى، فَأَعْطِ الْفَضْلَ، وَلَا تَعْجِزْ عَنْ نَفْسِكَ.^(٥)

(١) صحيح البخاري (١١٤٢)، ومسلم (٧٧٦).

(٢) مرقاة المفاتيح (٢١٢/٤).

(٣) أخرجه البخاري (٢٨٢٣)، ومسلم (٢٧٠٦).

(٤) شرح ابن بطال للبخاري (٣٦/٥).

(٥) أخرجه أحمد (٤٧٣/٣)، أبوداود (١٦٤٩)، والحاكم (٥٦٦/١)، وصححه. وانظر: صحيح أبي داود (٣٤٨/٥).

أَيَّ لَا تَعْجَزُ بَعْدَ عَطِيَّتِكَ عَنْ مُؤْنَةِ نَفْسِكَ وَمَنْ عَلَيْكَ مُؤْنَتُهُ بِأَنْ تُعْطِيَ مَالَكَ كُلَّهُ ثُمَّ تَعُولُ عَلَى السُّؤَالِ. (١)

٤- عن طاوس أنه قال: أدركت ناسا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون: كل شيء بقدر، قال: وسمعت عبد الله بن عمر يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ، حَتَّى الْعَجْزُ وَالْكَيْسُ، أَوِ الْكَيْسُ وَالْعَجْزُ. (٢)

يَحْتَمِلُ أَنْ الْعَجْزَ هُنَا عَلَى ظَاهِرِهِ وَهُوَ عَدَمُ الْقُدْرَةِ، وَقِيلَ هُوَ تَرْكُ مَا يَجِبُ فَعْلُهُ وَالتَّسْوِيفُ بِهِ وَتَأْخِيرُهُ عَنْ وَقْتِهِ. قَالَ وَيَحْتَمِلُ الْعَجْزُ عَنِ الطَّاعَاتِ وَيَحْتَمِلُ الْعُمُومُ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَالْكَيْسُ ضِدُّ الْعَجْزِ وَهُوَ النِّشَاطُ وَالْحَذَقُ بِالْأُمُورِ، وَمَعْنَاهُ أَنْ الْعَاجِزَ قَدْ قَدَّرَ عَجْزَهُ وَالْكَيْسَ قَدْ قَدَّرَ كَيْسَهُ. (٣)

وَمَعْنَاهُ أَنْ كُلَّ شَيْءٍ لَا يَقَعُ فِي الْوُجُودِ إِلَّا وَقَدْ سَبَقَ بِهِ عِلْمُ اللَّهِ وَمَشِئَتُهُ وَإِنَّمَا جَعَلَهَا فِي الْحَدِيثِ غَايَةً لِذَلِكَ لِلإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ أَفْعَالَنَا وَإِنْ كَانَتْ مَعْلُومَةً لَنَا وَمُرَادَةٌ مِنَّا فَلَا تَقَعُ مَعَ ذَلِكَ مِنَّا إِلَّا بِمَشِئَةِ اللَّهِ. (٤)

٥- عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ أَحْبَلًا، يَأْخُذَ حُرْمَةً مِنْ حَطَبٍ، فَيَبِيعَ، فَيَكْفُفَ اللَّهُ بِهِ وَجْهَهُ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ، أُعْطِيَ أَمْ مُنِعَ. (٥)

(فَيَبِيعُ فَيَكْفُفُ اللَّهُ بِهِ) أَيُّ فَيَمْنَعُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مَا يَبِيعُهُ (وَجْهَهُ) مَنْ أَنْ يَرِيقَ مَاءَهُ بِالسُّؤَالِ مِنَ النَّاسِ

(١) التيسير بشرح الجامع الصغير (٤٢٧/١).

(٢) صحيح مسلم (٢٦٥٥).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (٢٠٥/١٦).

(٤) فتح الباري (٤٧٨/١١).

(٥) أخرجه البخاري (٢٣٧٣).

(خير) خبر مبتدأ محذوف أي هو خير له (من أن يسأل الناس) أي إن لم يجد أحدكم إلا الاحتطاب من الحرف فهو مع ما فيه من امتهان المرء نفسه ومن المشقة خير له من سؤال الناس. (١)

٦- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: لَأَنْ يَغْدُوَ أَحَدُكُمْ، فَيَخْطِبَ عَلَى ظَهْرِهِ، فَيَتَصَدَّقَ بِهِ وَيَسْتَغْنِيَ بِهِ مِنَ النَّاسِ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ رَجُلًا، أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْيَدَ الْعُلْيَا أَفْضَلُ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، وَأَبْدَأُ بِمَنْ تَعُولُ (٢)
فيه الحث على الصدقة والأكل من عمل يده والاكتساب بالمباحات كالخطب والحشيش النابتين في موات. (٣)

أقوال السلف حول الكسل.

١- قال عبد الله بن مسعود: إِنِّي لَأَمُقْتُ الرَّجُلَ أَنْ أَرَاهُ فَارِعًا لَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْ عَمَلِ الدُّنْيَا، وَلَا عَمَلِ الْآخِرَةِ. (٤)

٢- قال الأحنف: إياك والكسل والضجر فإنك إن كسلت لم تؤد حقا وإن ضجرت لم تصبر على حق. (٥)

٣- قال الإمام الراغب: من تعطلّ وتبطلّ انسلخ من الإنسانيّة، بل من الحيوانيّة وصار من جنس الموتى. ومن تعود الكسل ومال إلى الراحة فقد الرّاحة. (٦)

(١) شرح القسطلاني لصحيح البخاري (٢٠٨/٤).

(٢) أخرجه مسلم (١٠٤٢).

(٣) شرح النووي لمسلم (١٣١/٧).

(٤) مصنف ابن أبي شيبة (٣٥٧٠٤).

(٥) الذريعة إلى مكارم الشريعة ٢٦٩/١.

(٦) الذريعة إلى مكارم الشريعة ٢٦٩/١.

١٥- المن

المن لغة:

المنّ مصدر منّ عليه منّا وهو مأخوذ من مادّة (م ن ن) الّتي تدلّ على أصلين: أحدهما القطع والانقطاع، والآخر على اصطناع خير، فمن الأوّل: مننت الحبل: قطعتة، قال تعالى: {فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ} (التين: ٦) ومنه: منّ بيد أسداها، إذا قرّع بها. وهذا يدلّ على أنّه قطع الإحسان. ومن الثّاني: منّ يمنّ منّا، إذا صنع صنعا جميلا^(١).

المن اصطلاحاً:

للمنّ ثلاثة معانٍ:

الأوّل: المنّ في الحرب وقد عرّفه الجرجانيّ فقال: المنّ: هو أن يترك الأمير الأسير الكافر من غير أن يأخذ منه شيئاً^(٢). أي إطلاقه بلا عوض كما يقول الراغب^(٣).

الثّاني: المنّ الفعليّ وهو أن يثقل الإنسان بالنعمة، وذلك على الحقيقة لا يكون إلّا لله تعالى، ومن ذلك قوله تعالى {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} (آل عمران: ١٦٤) وقوله سبحانه: {كَذَلِكَ كُتِبَتْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ} (النساء: ٩٤).

قال النووي: المن هو الاعتداد بالصنيعة فهو أذى مبطل للثواب لأن المنّة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم في قبول ذلك.

الثّالث: أن يكون ذلك بالقول؛ بأن يذكر الإنسان ما يظنّ أنّه أنعم به على أخيه، وذلك مستقبح فيما بين النّاس، إلّا عند كفران النّعمة، ولقبح ذلك قيل: المنّة تهدم الصّنيعة، ولحسن ذكرها عند الكفران قيل: إذا كفرت النّعمة حسنت المنّة^(٤).

(١) المقاييس (٥/ ٢٦٧) بتصرف.

(٢) التعريفات (٢٥٤).

(٣) المفردات (٤٧٤).

(٤) انظر المفردات للراغب (٤٧٤) بتصرف وإضافة.

قال أبو حامد الغزالي: المن وهو التحدث به وإظهاره وطلب المكافأة منه بالشكر والدعاء والخدمة والتوقير والتعظيم والقيام بالحقوق والتقديم في المجالس والمتابعة في الأمور فهذه كلها ثمرات المنّة. (١)

ذم المن والنهي عنه في القرآن الكريم:

١- قال الله تبارك وتعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } [البقرة: ٢٦٤].

ينهى عباده تعالى لطفًا بهم ورحمة عن إبطال صدقاتهم بالمن والأذى، ففيه: أن المن والأذى يبطل الصدقة، ويستدل بهذا على أن الأعمال السيئة تبطل الأعمال الحسنة. (٢)

٢- وقال الله تعالى: { الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبَعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى هُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } [البقرة: ٢٦٢].

وإنما شرط ذلك في المنفق في سبيل الله، وأوجب الأجر لمن كان غير مانٍّ ولا مؤذٍ من أنفق عليه في سبيل الله، لأن النفقة التي هي في سبيل الله: ما ابتغي به وجه الله وطلب به ما عنده. فإذا كان معنى النفقة في سبيل الله هو ما وصفنا، فلا وجه لمن المنفق على من أنفق عليه، لأنه لا يد له قبله ولا صنعة يستحق بها عليه - إن لم يكافئه - عليها المن والأذى، إذ كانت نفقته ما أنفق عليه احتسابًا وابتغاءً ثواب الله وطلب مرضاته، وعلى الله مثوبته، دون من أنفق ذلك عليه. (٣)

٣- وقال تعالى: { يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَذَا كُمُ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [الحجرات: ١٧].

(١) إحياء علوم الدين (١/٢١٦)

(٢) تفسير السعدي (١١٣).

(٣) تفسير الطبري (٥/٥١٧).

وذكر أن هؤلاء الأعراب من بني أسد، امتنوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: أمنا من غير قتال، ولم نقاتلك كما قاتلك غيرنا، فأنزل الله فيهم هذه الآيات. (١)

٤- وقال تعالى: {وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ} [المدثر: ٦]

يحتمل قوله: تمنن أن يكون العطاء أو بمعنى المنّ وهو ذكر العطاء وشبهه، أو بمعنى الضعف فإن كان بمعنى العطاء ففيه وجهان، أحدهما: أن معناه لا تعط شيئاً لتأخذ أكثر منه، قال بعضهم: هذا خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم ومباح لأئمة، والآخر: لا تعط الناس عطاء وتستكثره، لأن الكريم يستقل ما يعطي وإن كثيراً، وإن كان من المنّ بالشيء ففيه وجهان: الأول: لا تمنن على الناس بنبتك تستكثر بأجر أو مكسب تطلبه.

الثاني: لا تمنن على الله بعملك تستكثر أعمالك وتقع لك بها إعجال، وإن كان من الضعف فمعناه لا تضعف عن تبليغ الرسالة وتستكثر ما حملناك من ذلك. (٢)

ذم المن والنهي عنه من السنة النبوية:

١- عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، قَالَ: فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، قَالَ أَبُو ذَرٍّ: حَابُّوا وَخَسِرُوا، مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الْمُسْبِلُ، وَالْمَنَّانُ، وَالْمُنْفِقُ سِلْعَتُهُ بِالْحَلْفِ الْكَاذِبِ. (٣)

إنما نهى عن الإسبال لما فيه من النخوة والكبر.

والمنان يتأول على وجهين: أحدهما من المنّة وهي إن وقعت في الصدقة أبطلت الأجر، وإن كانت في المعروف كدرت الصنعة وأفسدتها.

(١) تفسير الطبري (٢٢/٣٢٠).

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (٢٥٠٣).

(٣) صحيح مسلم (١٠٦).

والوجه الآخر: أن يراد بالمن النقص يريد بالنقص من الحق والخيانة في الوزن والكيل ونحوهما، ومن هذا قول الله سبحانه {وإن لك لأجرًا غير ممنون} [القلم: ٣] أي غير منقوص.

قالوا ومن ذلك سمي الموت منوناً لأنه ينقص الأعداد ويقطع الأعمار. (١)

٢- عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْعَاقُ لِوَالِدَيْهِ، وَالْمَرْأَةُ الْمُتَرَجِّلَةُ، وَالِدَيْوُثٌ، وَثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ: الْعَاقُ لِوَالِدَيْهِ، وَالْمُدْمِنُ عَلَى الْخَمْرِ، وَالْمُنَانُ بِمَا أُعْطِيَ. (٢)

أقوال السلف والعلماء في ذم المن:

١- عن ابن عباس قال: لا يدخل الجنة مدمن خمر ولا عاق، ولا منان.

قال ابن عباس: فشق ذلك علي لأن المسلمين يصيبون ذنوباً حتى وجدت في كتاب الله في المنان لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى. (٣)

٢- عن الضحاك في الآية قال: من أنفق نفقة ثم من بها أو آذى الذي أعطاه النفقة حبط أجره، فضرب الله مثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فلم يدع من التراب شيئاً، فكذلك يمحق الله أجر الذي يعطي صدقته ثم يمن بها كما يمحق المطر ذلك التراب. (٤)

٣- قال الضحاك في قوله تعالى { ولا تمنن تستكثر } : إنما هذه للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة وأما سائر المسلمين فليس به بأس (٥).

(١) معالم السنن (٤/١٩٥).

(٢) أخرجه النسائي (٢٥٦٢)، وأحمد (١٣٤/٢)، وابن حبان (٧٣٤٠)، وصححه الحاكم (١/١٣٤)، وصححه الألباني في الصحيحة (٦٧٤).

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (٥١٧/٢).

(٤) الدر المنثور (٤٤/٢).

(٥) الدر المنثور (٤٤/٢).

٤- عن السدي في الآية قال الله للمؤمنين: لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى فتبطل كما بطلت صدقة الرياء، وكذلك هذا الذي ينفق ماله رياء الناس ذهب الرياء بنفخته كما ذهب هذا المطر بتراب هذا الصفا. (١)

٥- عن عبدالله بن أبي زكريا قال: بلغني أن الرجل إذا رأى بشيء من عمله أحبط ما كان قبل ذلك. (٢)

٦- قال ابن قدامة: ويحتاج المريد إلى الصبر على طاعته في ثلاثة أحوال: حال قبل العبادة، وهي تصحيح النية، والإخلاص والصبر على شوائب الرياء، وحال في نفس العبادة، وهي أن لا يغفل عن الله تعالى في أثناء العبادة، ولا يتكاسل عن تحقيق الآداب والسنن، فيلازم الصبر عن دواعي الفتور إلى الفراغ من العمل.

الحالة الثالثة بعد الفراغ من العمل: وهي الصبر عن إفشائه، والتظاهر به لأجل الرياء والسمعة، وعن كل ما يبطل عمله، فمن لم يصبر بعد الصدقة عن المن والأذى أبطلها. (٣)

أحكام المن:

اعلم أن الأصل في المن هو التحريم لما فيه من العجب بالنفس حيث يرى ذلك الممتن لنفسه فضلاً أو وجاهة لما فعله بل يرى لنفسه فضلاً على غيره لأجل ذلك، ولذا جاء التحذير القرآني في قوله تعالى: {قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى }

لكن أخرج العلماء من الحكم العام للمن صورتين:

أحدهما: أن يكون الممتن هو الله عز وجل لأنه سبحانه المتفضل على عباده بالخير والفضل الذي يحيمونه ويتقبلون فيه - وهو تذكير المخلوق بخالقه الذي أنعم عليه وتنبهه ليشكره (٤) -

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٢/٥١٧).

(٢) الآداب الشرعية (١/٣٩٤).

(٣) مختصر منهاج القاصدين (٤/٢٥).

(٤) موسوعة الفقه الكويتية (٣٩/١٣٢).

ثانيهما: أن يكون الامتنان في معرض الدفاع عن النفس والتذكير بالفضل الذي قد ينسى كما في قصة تقسيم الغنائم واتهامه صلوات الله وسلامه عليه بعدم العدل في قسمته فقال صلى الله عليه وسلم: (يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي وعالة فأغناكم الله بي ومتفرقين فجمعكم الله بي)^(١)

من صور المن:

- ١- المن بالمال كالصدقة والإنفاق على الفقراء والمساكين والمحتاجين وفي هذا وردت غير ما آية في التحذير من ذلك ويعظم ذلك إن كان الانفاق على ذوي الأرحام كالوالد والوالدة عند كبرهما أو على الأخ الشقيق عند صغره أو على الفقراء من الأقارب.
- ٢- من الزوجة على زوجها كأن تكون امرأة تمون زوجها فتمتن على زوجها: إني أنفق عليك أو أكسوك.^(٢)
- ٣- المن بالعلم على غيره ممن تعلم منه ولو كان شيئاً يسيراً، وكأنه قد نسي أو تناسى أن كل ما جمعه من علم هو من تعليم غيره له فنسي فضلهم عليه ثم امتن على غيره.
- ٤- المن على الله عز وجل بطاعته وعبادته له مع أن الله عز وجل هو المتفضل عليه بالطاعة ثم تفضل عليه بإعانتة عليها. ثم أنه سبحانه لا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضره معصية العاصين، فالطاعة لا تنفع إلا صاحبها فحسب.

(١) انظر: شفاء العليل (٥٨/١).

(٢) انظر مسائل أحمد وإسحاق بن راهويه (٢٤٦١/٥).

المحتويات

٢	أخلاقيات المتطوع.....
٣	أهمية الأخلاق في حياة المتطوع.....
٦	١- لإخلاص.....
١٧	٢- المهمة.....
٣٣	٣- الأمانة.....
٤٧	٤- التقوى.....
٥٧	٤- اللين.....
٦٢	٦- الرحمة.....
٧٣	٧- بشاشة الوجه.....
٧٨	٨- الحلم.....
٨٨	٩- العلم.....
٩٩	١٠- حب الخير للناس.....
١٠٨	١١- الورع.....
١١٧	١٢- العفة.....
١٢٧	١٣- التواضع.....
١٣٨	١٤- استشعار المسؤولية.....
١٤٨	١٥- البذل والعطاء.....

- ١٦- غرض البصر ١٥٨
- ١٧- الإيثار ١٦٥
- ١٨- حسن الظن ١٧٢
- ١٩- الحكمة ١٨١
- ٢٠- الحياء ١٩٢
- ٢١- الصفح والعفو ٢٠٥
- ٢٢- الرفق ٢١٣
- ٢٣- السماحة ٢٢٢
- ٢٤- الصبر ٢٣٢
- ٢٥- كظم الغيظ ٢٤٢
- ٢٦- حسن السمات ٢٤٨
- ٢٧- الوقار ٢٥٨
- ٢٨- كتمان السر ٢٦٥
- ٢٩- الكرم ٢٧٤
- ٣٠- الكلمة الطيبة ٢٨٢
- ٣١- المواساة ٢٨٩
- ٣٢- الصدق ٣٠٠
- ٣٣- نصرة المظلوم ٣١٠
- ٣٤- الإنصاف ٣٢١

- أخلاقيات مذمومة لا تليق بالتطوع..... ٣٢٩
- تمهيد..... ٣٣٠
- ١- الإهمال..... ٣٣١
- ٢- التنصل من المسؤولية..... ٣٣٥
- ٣- الجفاء..... ٣٤٣
- ٤- أكل الحرام..... ٣٤٩
- ٥- أكل مال اليتيم..... ٣٥٦
- ٦- الخيانة..... ٣٦٣
- ٧- الخداع..... ٣٧٠
- ٨- الرياء..... ٣٧٤
- ٩- السرقة..... ٣٨٢
- ١٠- سوء الظن..... ٣٨٨
- ١١- الطمع..... ٣٩٧
- ١٢- الغلول..... ٤٠٤
- ١٣- الكبر..... ٤٠٩
- ١٤- الكسل..... ٤٢١
- ١٥- المن..... ٤٢٧

